فُتُوحُ الشَّامِ

تأليف

أبي عبد الله محمد بن عُمر بن واقد الواقدي
المتوفى سنة ٢٠٧ هـ

ضبطه وصححه

عبد اللطيف عبد الرحمن

الجزء الثاني

منشورات
محمد علي بيضون
دار الكتب العلمية
بيروت - لبنان

بسم الله الرحمٰن الرحيم

إنّا فتحنا لك فتحًا مبينًا.

ذكر غزوة مرج القبائل داخل الدروب

فقال أبو عبيدة: معاشر المسلمين هذا الشام قد ملكتموه وملّككم الله إيّاه وأخرج عدوّكم منه بالذلّ والهوان، وأورثكم أرضهم وديارهم. كما قال الله تعالى في كتابه العزيز، فما تشيرون به عليّ؟ أندخل في هذه الدروب وراء أعدائنا؟ فلم يجبه أحد فأعاد الكلام. ثم قال: ما هذا السكوت أفشل بكم بعد الشجاعة، أم كسل بعد النشاط، أم قد انتقيتم من الحسنات ولم يبق عليكم من الذنوب، وإن الحسنات لكم كثيرة، ولم يبق عليكم خطيئة فالرغبة إلى الله أن يُعينكم على الجهاد، فهو خير لكم من الدنيا وما فيها؟ قال: فكان أول مَن تكلم ميسرة بن مسروق العبسي، فقال: أيها الأمير إنّا لم نسكت لجزع لحقنا ولا لفزع رهقنا، وإنما بعضنا ينتظر بعضًا إجلالاً وأدبًا، واعلم أيها الأمير أنه ما لنا تجارة ولا عمل غير الجهاد في أعداء الله، وها نحن لك وبين يديك ومنك الأمر ومنّا الطاعة لله ولرسوله ولك، وأما أنا فلا أملك إلا نفسي فوجّهني حيث شئت تجدني طائعًا، فقال أبو عبيدة: معاشر المسلمين مَن له رأي وحضرته مشورة فليقلها ويُظهِر ما عنده، فقال خالد: أيها الأمير إن إقامتنا عن طلب القوم وهن وعجز منّا في ديننا وطلبهم هو الغنيمة، والنصر من عند الله، والذي أُشير به أيها الأمير أن تبعث الجيوش في كل درب من هذه الدروب. فإن ذلك يوهن العدو وتقرّ به أعين المسلمين. قال: فجزاه أبو عبيدة خيرًا، وقال يا أبا سلمان: إني قد رأيت أن أعقد لميسرة عقدًا وأُسيِّر معه رجالاً لأنه هو أول مَن سارع إلى هذا الأمر وأشار به، فيفتح الله لهم الدروب ويغير على ما قرب من البلاد ويرجع فيخبرنا عن خبر البلاد فنعمل على حسب ما نرى.

فقال خالد: هذا الصواب. فعقد لميسرة وانتخب له من القبائل ثلاثة آلاف فارس من الشجعان وألف عبد من السودان، وجعل من كل قبيلة نقيبًا، وجعل على العبيد دامسًا أبا الهول، قال: فلبسوا أكمل السلاح وكلٌّ منهم يقول إنه يلقى الكتيبة وحده، وجعل

أمير القوم ميسرة، وقال أبو عبيدة: يا أبا الهول كن أنت بجماعتك في أوائل العسكر ولا تخالف ميسرة فيما أشار به. فإنه مبارك الطلعة. فقال: سمعًا وطاعة. قال: وجهز القوم. ثم إن خالدًا قال: أيها الأمير أرسل معهم أدِلاَّء يعرّفونهم الطريق ويكونون لهم عيونًا على أعدائهم، فطلب لهم من أهل حلب من المعاهدين مَن يكون ناصحًا لهم، فاختاروا لهم أربعة وأعطاهم أبو عبيدة وأحسن إليهم وطرح عنهم الجزية، وقال لهم: في أي درب يكون دخول المسلمين في طلب العدو؟ فاجتمع رأيهم على أن يدخلوا في الدرب الأعظم من بلد قورص.

ثم إنهم قالوا: أيها الأمير إن هذه الدروب ليست كمثل البلاد التي فتحتموها بل هي بلاد شديدة البرد كثيرة الشجر والمدر والحجر وفيها مضايق وشِعاب وأودية وكهوف وعقبات، فقال أهل اليمن: سيروا أنتم أمامنا فإنكم ترون منّا عجبًا، فسار أبو الهول والمعاهدون أمامه، وسار ميسرة في أعقابهم بعدما ودّعوا الناس ومضوا وهم بالتهليل والتكبير وقراءة القرآن والمسلمون يدعون لهم بالنصر والسلامة. قال عطاء بن جعيدة: وسرنا والدليل أمامنا حتى أتينا عقبة حنداس فقطعناها، وعبرنا نحو الساجور وأتينا قورص فنزلنا فيها وبتنا، فلما أصبحنا ودخلنا الدروب وجدنا بها أرضًا وعرة وأشجارًا ومياهًا جارية ومضايق ليس للفرس فيها مجال، فهالَنا وحشة ذلك المكان إذ ليس للعرب فيه مجال ولا فسحة، فقلت في خاطري: إن طالت علينا هذه الأودية خشيت على المسلمين أن يظفر بهم عدوّهم والأدلاء أمام المسلمين، وقد تعلقوا في جبال شامخة صعبة الصعود فلم يبق أحد إلا وترجّل عن فرسه، قال: ومشينا حتى تقطعت نِعالنا وسال الدم من أرجلنا فلم نزل على ذلك ثلاثة أيام والأدلاّء يقولون لنا: كونوا على يقظة، فإن أخذ عليكم المجاز هلكتم، فلما كان في اليوم الرابع خرجنا إلى أرض واسعة، وكان دخولنا إلى بلاد الروم في أول الصيف ونحن مخففون من الثياب ولما دخلنا إلى تلك الأرض وجدنا بردًا كثيرًا ونظرنا إلى الثلج، وهو على الجبال عن يميننا وشمالنا. قال: وكان دامس أبو الهول لم يأخذ معه ثيابًا تدفئه فحصل له من البرد فقال: يا أبا الهول ما لي أراك ترتعد؟ فقال: أخذني البرد وليس معي ما يدفئني. فدفع إليه فروة فلبسها فدفىء. فقال: كساك الله من ثياب الجنة.

قال الواقدي: وساروا إلى أن وصلوا إلى أرض طيبة كثيرة المياه قليلة الشجر فنزلوا فيها ثم إنهم ساروا فلم يروا أحدًا لأن الروم كانوا قد نزحوا عن البلاد لحذرهم من المسلمين. فلما كان في اليوم الخامس ونحن سائرون إذ لاحت لنا قرية فقصدها المسلمون. . . وإذا هي خالية بل سمعوا أصوات الديوك والغنم فدخلوها فلم يجدوا عندها مانعًا ولا دافعًا فعرفنا أنهم تواروا عنّا فصاح ميسرة، وقال: خذوا حذركم. فإن

القوم قد انهزموا. فدخل الناس إلى القرية فأخذوا ما كان فيها من طعام وأثاث ومتاع. قال سعيد بن عامر: فرأيت أبا الهول، وهو يحمل على عاتقه ثلاثة أكسية وقطعتين. قال: فقلت له: يا أبا الهول ما هذا؟ فقال: أستعد به لبرد هذه البلاد الخبيثة فما أنساها أبدًا. قال: وأخذوا ما كان في القرية من طعام وعلوفة وساروا إلى أن وصلوا إلى مرج يقال له مرج القبائل، وهو مرج واسع، فانبعث الخيل فيه يمينًا وشمالاً ونزل الجيش هناك، وميسرة يراود نفسه في الرجوع إلى حلب، وذلك أن أبا عبيدة كان قد أمره أن لا يبطىء عنه، وأن يكون حذرًا، فبينما هو كذلك والخيل منبثّة والناس آمنون من عدو يدهمه، إذ أقبل بعض الخيّالة ومعه علج يقوده، فلما وصل إلى ميسرة، قال له: ما شأن هذا ومن أين أخذته؟ فقال: اعلم أيها الأمير أني سبقت أصحابي فرأيت شخصًا يلوح مرة ويختفي مرة فأسرعت إليه. فإذا هو هذا فأتيته وسقته إليك. قال: فتقدم إليه رجل من المعاهدين فسأله فحدّثه فأطال معه الكلام والناس سكوت، فلما أطال، قال ميسرة: ويلك ما الذي يقول هذا العلج؟

فقال: أيها الأمير إنه يقول: إن الملك هرقل لما ركب البحر وخرج من أنطاكية ووصل إلى قسطنطينية قصدته الروح من كل مكان من المنهزمين وغيرهم، وبلغه أن أنطاكية قد فتحت صلحًا وأنه قتل مَن كان فيها من المقاتلة فصعب عليه وبكى ثم قال: «السلام عليك يا أرض سوريا إلى يوم اللقاء»، وقد تجمع عنده من البطارقة والحجّاب وغيرهم خلق كثير، فقال لهم: إني أخاف من العرب أن ترسل في طلبنا. ثم إنه جهّز ثلاثين ألفًا مع ثلاثة بطارقة وأمرهم أن يحفظوا له الدروب. فقال له ميسرة: قل له كم بيننا وبينهم؟ قال: يقول لكم: فرسخان. قال: فلما سمع ذلك ميسرة أطرق إلى الأرض لا يرد جوابًا ولا يُبدي خطابًا. فقال له رجل من آل سهم يقال له عبد الله بن حذافة السهمي، وكان من أبطال الموحدين وشجعانهم، وكان له عمود من حديد، وكان يقاتل به لا يقله في الحرب سواه وكان ذميم الخلقة، فقال لميسرة بن مسروق: ما لي أراك أيها الأمير مطرقًا إلى الأرض إطراق الحصان لصلصلة اللجام والرجل منّا يقابل ألفًا من الروم.

فقال: والله يا عبد الله ما أطرقت خوفًا ولا جزعًا، ولكن خوفًا على المسلمين أن يصابوا تحت رايتي وهي أول راية دخلت الدروب فيلومني عمر بن الخطاب، وكل راعٍ مسؤول عن رعيته. فقال المسلمون: والله ما نبالي بالموت ولا نفكر في الفوت لأننا قد بعنا أنفسنا بجنة ربنا ومَن يعلم أنه ينقل من دار الفناء إلى دار البقاء فلا يبالي بما وصل إليه من الكفار، ثم إنه قال: أيها الناس أترون أن نلقاهم في موضعنا هذا أو نسير إليهم؟ فسألوا المعاهد، وقالوا: إن كان موضعهم أفسح من هذا رحنا إليهم. فقال: ليس من

هذه البلاد بعد عمورية أفسح من هذا المكان، فإن عوّلتم على لقائهم فاثبتوا مكانكم، وإن عدتم إلى ورائكم كان خيرًا لكم من قبل أن يشرف عليكم عدوّكم. قال: فعرض ميسرة على العلج الإسلام فأبى، فضرب عنقه فبينما هم على ذلك إذ أشرفت عليهم الروم فنزلوا بإزائهم وكانوا كالجراد المنتشر. وكان قد مضى النهار فأضرمت النيران. فلما أصبح الصبح صلّى ميسرة بالناس صلاة الفجر، فلما فرغ قام في الناس خطيبًا، فقال: أيها الناس هذا يوم له ما بعده، وإن رايتكم هذه أول راية دخلت الدروب. واعلموا أن إخوانكم مطاولون لفعلكم، واعلموا أن الدنيا دار ممر والآخرة دار مقر واسمعوا ما قال نبينا ﷺ: «الجنة تحت ظلال السيوف» ولا تنظروا إلى قلتكم وكثرة أعدائكم، فقد قال تعالى: **﴿كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله والله مع الصابرين﴾** [البقرة: ٢٤٩]. فقال المسلمون: اركب بنا يا ميسرة على بركة الله والقهم بنا، وإنّا لنرجو من الله النصر عليهم. قال: فاستبشر بقولهم وركبوا وانفصلت العبيد من العرب ووقفوا تحت راية أبي الهول وأخذوا على أنفسهم قتال عدوّهم واستنصروا بربّهم، وهو يوصيهم، وجعل على الميمنة عبد الله بن حذافة السهمي وعلى الميسرة سعد بن أبي سعيد الحنفي وقَدِمَ العبيد مع أبي الهول فلم ينطق بكلمة وركب جيش الروم ومدّوا صفوفهم ثلاثة صفوف كل صف عشرة آلاف وأمامهم الصلبان وهم في عددهم وعديدهم، فلما استوت الصفوف خرج رجل من الروم من المتنصرة وقرب من المسلمين، وقال: إن الباغي بغيه يرديه، أما كفاكم ما ملكتموه من الشام العظيم حتى اقتحمتم هذه الجبال؟ وإنما ساقتكم الآجال وهنا ثلاثون ألف عنان، وقد حلفوا بالصلبان أن كلاً منهم لا ينهزم وإن وقع ميتًا، فإن أردتم أن نُبقي عليكم فاستسلموا للأسْر حتى يحكم الملك هرقل فيكم بما يريد. فخرج أبو الهول والراية بيده، وقال له: صدقت في قولك إن الباغي يرديه بغيه. وأما قولك: إنّا نُلقي إليكم بأيدينا لتبقوا علينا فأنت إذًا باغ بقولك هذا إذ نطقت بغير تجربة منكم وها أنا عبد من عبيد العرب لا قدر لِي ولا قيمة عند ذوي الرّتب فاقرب مني حتى أُجندلك صريعًا تخور في دمك، ثم إن دامسًا همز حصانه إليه وطعنه فأرداه عن فرسه قتيلاً. ثم جال على فلوه وهزّ رايته، وقال: الله أكبر فتح الله ونصر وجاءنا بالظفر. ونظرت الروم إلى أبي الهول، وقد قتل صاحبهم وكان من شجعانهم، فغضبوا لذلك فخرج إليه آخر فما تركه يقرب منه حتى طعنه في نحره فأخرج السنان من ظهره. ونظر الروم إلى ذلك، فقالوا: هذا عبد من عبيد العرب قد فعل ما ترون. قال: فلم يجسر أحد أن يخرج إليه فأغار عليهم وقتل من القلب واحدًا ورجع. قال: فحمل عليه صف من الصفوف وهم عشرة آلاف ودهموه بالخيل فحملت العبيد وحملت المسلمون والتقى

الجمعان. قال ميسرة: فللّه درّ العبيد لقد أبلوا بلاءً حسنًا واستنقذوا أبا الهول من عين الهلاك وهم يقولون: «نحن عبيد لعباد الله وضربنا مثل الحريق في سبيل الله ونقتل مَن كفر بالله»، قال: ولم يزل الحرب بينهم حتى قامت الشمس في قبّة الفلك وحمي عليهم الحرّ وافترق الجمعان. قال: وإن المسلمين موقنون بالظفر والنصر، والمشركون قد أيقنوا بالهلاك، وقد قتل منهم خلق كثير وأسر من الروم تسعمائة وقتل منهم زهاء من ألف. فلما انفصل الجمعان افتقد المسلمون أبا الهول فلم يجدوه، فقال ميسرة: «إن كان أبي الهول قد قتل أو أسر فقد أصبنا به وإلى الله تعالى أشكو ما أصبنا من فَقْد أبي الهول»، وأسر من المسلمين عشرة. ثم إن ميسرة قال: مَن فيكم يكشف لنا خبرهم؟ وإذا بالروم قد عادوا للقتال وحملوا بأجمعهم فقاتلوا قتالاً شديدًا فكان الرجل من المسلمين يجتمع عليه العشرة والعشرون والخمسون إلى أن يقتلوه أو يأسروه، وكانت العرب في أربعة آلاف والروم في ثلاثين ألفًا، فعظم بينهم الحرب وهاج الطعن والضرب، فللّه درّ ميسرة بن مسروق العبسي، لقد جاهد في الله حق جهاده وهو مع ذلك ينادي: أيها الناس اذكروا الدار الآخرة واعلموا أنها أقرب لأحدكم من رجوعه لأهله فاستقبلوها استقبال الوالدة لولدها ولا تولوا الأدبار عنها، فإن أصاب القوم منّا فإني أخشى أن ذلك وهن بنا. ثم إنه نادى: حطّموا أجفرة سيوفكم فذلك طريق النجاة.

قال زيد بن وهب: فلم يبق أحد من المسلمين حتى رمى بجفير سيفه، فلما رأت الروم ذلك فعلوا مثلنا ورمى كلٌّ منهم بجفير سيفه. وسُمِّيت تلك الواقعة باسمين: وقعة مرج القبائل ووقعة الحطمة، لأجل حطم أغمدة السيوف. قال: واقتتلوا حتى أن الرجل يقول إن سيفه ما بقي يقطع، والمسلمون يبتهلون إلى الله والكفّار تعجّ بكلمة كفرهم. قال: وإن المسلمين يطلبون الفرج من الله، والسودان تقاتل قتال الموت، وكان شعار العرب في ذلك اليوم النصر النصر، وشعار السودان يا محمد يا محمد. قال ابن ثابت: وكنت قد أخذني القلق على المسلمين، ونحن في ركب عظيم إذ سمعت في الروم ضجة هائلة وإذا بهم يقاتلون أُناسًا من ورائهم وهم في وسط عسكرهم والزعقات منهم قد علت وسمعت قائلاً يقول: لا إله إلا الله محمد رسول الله. فقلت: هذه أصوات الملائكة فاتبعت الصوت، فإذا هو صوت دامس أبي الهول، وهو بارك تحت حجفته ومعه العشرة المأسورين وهم يقاتلون معه ويحمون بعضهم إلى أن خلصوا من بينهم، وسمعته يقول هذه الأبيات:

يوثقني الأعداء في الحديد ... وناصري وسيدي المبيدِ
مهلك عاد وبني ثمود ... أغاثني بعونه الشديد

محمد الطاهر الرشيد فحلّ عني القيد والحديد
ذاك رسول الملك المجيد صلّى عليه الناصر الحميد

قال: فحملت المسلمون وكشفوا عنهم فخرجوا وكأنهم قد غرقوا في بحر دم، ووالله ما قتل من المسلمين أكثر من خمسين رجلاً بواحد أو باثنين، وقتل من المشركين نيّف عن ثلاثة آلاف غير ما قتله أبو الهول وأصحابه في وسط عسكر الكفر. فلما نظر ميسرة إلى دامس أراد أن يترجّل إليه فأقسم عليه أن لا يفعل وافترق الجيشان فضمّ ميسرة دامسًا إلى صدره وقبّله بين عينيه وقال له: كيف كان أمركم؟ قال: اعلم أيها الأمير أن الروم كانوا قد تكاثروا على فرسي فقتلوه ووقعت فأخذوني أسيرًا وجعلوني في الحديد وفعلوا بأصحابي مثلي وقد أيسنا من أنفسنا، فلما جنّ الليل رأيت رسول الله ﷺ وهو يقول: «لا بأس عليك يا دامس اعلم أن منزلتي عند الله عظيمة»، ثم إنه أمرّ يده الكريمة على الحديد فسقط مني وفعل ذلك مع أصحابي وقال لنا: «أبشروا بنصر الله فأنا نبيّكم محمد رسول الله». وقال لي: «أقرىء عني ميسرة السلام وقل له جزاك الله خيرًا»، ثم غاب عني فانتبهت فوجدت الموكلين بنا نيامًا مما لحقهم من التعب وقد رموا سلاحهم فأخذنا سيوفهم وطوارقهم وقتلناهم وحملنا فيهم ونصرنا الله عليهم ببركة رسول الله ﷺ فقتلنا منهم مَن قتلنا وخرجنا من بينهم سالمين وهذا حديثنا. قال: فضجّ المسلمون بالتهليل والتكبير والصلاة على البشير النذير.

النجـــدة

قال الواقدي: ثم إن بطريق الروم كان اسمه جارس، فلما رأى ما قد حلّ بأصحابه قال: وحق المسيح خاب ملك أنتم حُماته، فإن لم تقاتلوا بعزم وشدة وإلا قتلتكم، قال: فتحالفوا أن لا ينهزموا أو يقتلوا عن آخرهم، فلما وثق منهم أمر أن تضرم النيران على شواهق الجبال وأمر أن ينفذ النفير إلى البلاد بأسرها، قال: فأتت إليه الروم من كل جانب فأتى إليه عشرون ألفًا، ولكن المسلمين لم يكترثوا بذلك، فلما كان الغد صلّى ميسرة بالمسلمين صلاة الخوف وهو أول مَن صلاّها داخل الدروب وأول راية دخلت كانت رايته فلما فرغ من صلاته قام في الناس خطيبًا فحمد الله وأثنى عليه وصلّى على نبيّه وقال: أيها الناس اثبتوا لما نزل بكم فالصبر عند نزول المصائب، وهذه رحمة من الله لنا إذ نحن في صدور الأعداء وقد دارت بنا هذه الجيوش ونحن لا نقاتل إلا بنصر الله لنا وأن الأمير أبا عبيدة كان قد أمرني أن لا أبعد بكم عنهم ولنا منهم الآن سبعة أيام وما يظن أبو عبيدة أننا نلاقي جيشًا.

فقال له سعيد بن زيد: يا ميسرة ما الذي تريد بهذا الكلام؟ إن كنت تريد أنك تحرّضنا فنحن أشوق إلى لقاء الله من الظمآن إلى الماء البارد. فقال ميسرة: ما أردت بذلك إلا مشورتكم، وقد رأيت أن ننفذ إلى أمير المسلمين رجلاً نعلمه بما قد بلينا به وأن مدد القوم يزيد فلعله ينجدنا بإخواننا. فقال سعيد: نِعْمَ ما قد أشرت به. فدعا برجل من الأربعة المعاهدين ووعده بكل خير وأمره أن يأخذ معه آخر وأن يسير إلى أبي عبيدة ويعلمه أن نفير القوم قد لحقنا من الحصون والقرى وسائر البلاد، وقد نزلوا بإزائنا وأن يحدّثه بما قد رأى. قال: فسار المعاهد والرجل إلى حلب وأجهدا نفسيهما في السير في طرق يعرفانها إلى أن وصلا جيش المسلمين فسقطا كأنهما البغال الهرمة من شدة السير والتعب. فأمروا أن يرشّ عليهما الماء، فلما أفاقا قال لهما: ما وراءكما أهلكت الكتيبة؟ قالا: لا والله ولكن نفر عليهم العدو من كلِ مكان. . . وأخبراه بما كان من الحرب والقتال وكيف حطموا أجفرة سيوفهم وكيف أُسِرَ أبو الهول وكيف خلص وما هم فيه. فقلق أبو عبيدة عند ذلك وقام مسرعًا وأتى قبّة خالد بن الوليد فوجده يصلح درعه، فلما رآه قام إليه قائمًا وقال له: خيرًا أيها الأمير فأخذ بيده وسار به إلى أن أتى رَحْله وقال للرجلين: قُوما فحدّثا الأمير بما عاينتما فحدّثاه بما كان من أمر المسلمين. فقال خالد: إن الله سبحانه وتعالى منذ نصرنا ما خذلنا فله الحمد على ذلك وقد أمرنا بالصبر على الشدائد فقال عزّ مَن قال: ﴿**يا أيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا**﴾ [آل عمران: ٢٠٠]، وقال: ﴿**إن الله مع الصابرين**﴾ [البقرة: ١٥٣]. وأما خالد فقال: أحبس على الجهاد في سبيل الله ولا أبخل على الله ورسوله فلعلّ الله أن ينجيني من النار ويرزقني الشهادة.

ثم أسرع إلى خيمته ولبس لامته وقلنسوته المباركة وركب جواده فوقع النفير في الناس. قال: فأقبلوا من كل جانب فلولا أن منعهم أبو عبيدة كانوا ساروا بأجمعهم. فانتخب منهم ثلاثة آلاف فارس وأردفهم بألفين آخرين. أخبرنا أحمد بن هشام عن عياض عمّن حدّثه قال: لمّا سار خالد بالجيش لمعونة ميسرة بن مسروق ومَن معه، رفع خالد يديه إلى السماء وقال: اللّهمّ اجعل لنا إليهم سبيلاً واطوِ لنا بالبعيد ويسّر لنا كل صعب شديد. وسار نحو الدروب. قال: وأما ميسرة ومَن معه فإنهم دارت بهم الروم من كل جانب وهم يقاتلون في كل يوم أشدّ القتال إلى أن يقبل الظلام فيفترقون، وفي كل يوم يزيد عددهم ومددهم وقد لحق المسلمون من التعب والجراح ما لحقهم ولكن من غير فشل، وكأنهم قوم قد حجب عنهم الموت بإذن الله تعالى.

قال الواقدي: حدّثنا عمر بن راشد عن الزبيدي قال: لما سار خالد ليلحق ميسرة وينجده إلى داخل الدروب سجد أبو عبيدة سجدة أطال فيها، وقال: اللّهمّ إني أسألك

بمَن جعلت اسمه مع اسمك وعرفت فضله لأنبيائك ورسلك إلا طويت لهم البعيد وسهّلت لهم كل صعب شديد وألحقتهم بأصحابهم يا قريب يا مجيب. قال: وميسرة ومَن معه منتظرون من الله فرجًا يأتيهم ونصرًا ينزل عليهم. قال عبد الله بن الوليد الأنصاري: حدّثني ثابت بن عجلان عن سليمان بن عامر الأنصاري قال: كنت مع ميسرة في وقعة مرج القبائل ويوم حطمنا أغمدة السيوف والروم تقبل من كل جانب ومكان إلى المسلمين ونحن نباكر القتال ونروح رواحًا. قال سليمان بن عامر: فخرج يومًا من الأيام بطريق من الروم قد لبس درعين وعليه سواعد من الحديد وعلى رأسه بيضة تلمع فوقها صليب من الجوهر وبيده عمود من الحديد كأنه ذراع بعير فجالَ بين الصفوف وطلب البراز وكان أحد الثلاثة المقدمين على الثلاثين ألفًا. قال: فجعل يدعو إلى البراز ويطمطم، فقال ميسرة للترجمان: ما يقول هذا الأغلف؟

قال: إنه يذكر أنه فارس شديد ويطلب شجعانكم وأبطالكم. فقال ميسرة: مَن يبرز إليه؟ فأسرع إليه رجل من المسلمين من قبيلة النخع وعليه درع من دروع الروم وثياب من ثيابهم. فقلنا: إنه من المتنصرة وقد عاد إلى الإسلام. فجعل العلج يتكلم وهو يظن أنه يفهم كلامه، فلما رآه لا يبرز إليه حمل عليه وضربه بعموده فزاغ النخعي عنها وعطّلها عليه فوقع العمود على رأس جواده فصرع الجواد براكبه، وسار النخعي على قدميه فناداه ميسرة: يا أخا النخع ارجع، فرجع القهقرى والعلج يطلبه والنخعي راجل والعلج فارس، فسار إليه عبد الله بن حذافة السهمي وصاح بالعلج فأدهشه، فالتفت إليه وسار النخعي إلى أن وصل عسكر المسلمين وحمل عبد الله بن حذافة على العلج وحمل العلج عليه وصعب بينهما المجال وصار عبد الله كلما ضرب العلج لا يقطع فيه شيئًا والعلج كلما ضرب عبد الله يأخذها بحجفته فتوهن ساعده من ثقل العمود وطال بينهما القتال والتقيا بضربتين فبادره عبد الله بالضربة تحت لحيته فطلب بها نحره فلحق رأس سيفه رقبة العلج فطار رأسه عن بدنه وأراد الفرس أن يرجع إلى عسكر الروم فأخذه عبد الله ونزل إليه وأخذ سلبه ورجع إلى المسلمين فعظم ذلك على الروم وكان عندهم معظمًا وعند الملك، قال: فبرز بطريق آخر وقال: هذا صاحب الملك قد قتل ولا بدّ لي من أخذ ثأره من الذي قتله إما بقتله أو أسره وأبعث به إلى الملك يصنع به ما يريد. ثم أنه أتى البطريق المقتول ورأسه طائح عن بدنه فبكى عليه وقال بلسان فصيح: معاشر العرب لا شك أن الله سيهلككم ببغيكم علينا وفِعالكم بنا فليبرز إليَّ قاتل هذا البطريق حتى آخذ منه بثأره.

فلما سمع عبد الله بن حذافة همَّ بالخروج فمنعه ميسرة شفقة عليه لأجل راحته. فإنه قد تعب وأراد ميسرة أن يلقاه بنفسه. فقال عبد الله: يدعوني أيها الأمير باسمي وأتخلف، إنني إذًا لعاجز. فقال له ميسرة: إنني أشفق عليك. فقال عبد الله: أتشفق عليَّ

من تعب الدنيا ولا تشفق عليّ من حرّ النار وعيش عاش فيه رسول الله ﷺ لا يبرز إليه غيري. ثم برز إليه وتحته فرس المقتول وما غير من لامته شيئًا وبيده سيفه وحجفته، فلما التقيا ورأى البطريق فرس صاحبه علم أنه قاتله فما أمهله حتى نفر إليه وحمل عليه عبد الله كأنه جبل قد انهدّ من علو وتشبث به وجذبه فأخذه أسيرًا وذهب به إلى قومه وقال: أوثقوه بالحديد واحملوه على خيل البريد واذهبوا به إلى الملك في هذه الساعة. قال: ففعلوا ذلك وساروا به ورجع البطريق إلى الميدان وهو يفتخر بما صنع فأراده ثلاثة من المسلمين كلٌّ منهم يريد أن يخرج إليه، فقال ميسرة: ما يخرج لهذا اللعين غيري واستدعى سعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل وسلم الراية إليه، وقال له: كن للراية حافظًا حتى أخرج إلى هذا اللعين. فإن عدت أخذتها. وإن قتلني فأجري على الله. فأخذ سعيد الراية وخرج ميسرة إلى البطريق، وهو يقول:

قد علم المهيمن الجبار   بأن قلبي قد كُوِيَ بالنار
على الفتى القائم بالاسحار   سيعلم العلج أخو الأشرار
أني منه آخذ بالثأر

قال: وحمل عليه وتجاولا طويلاً وعظم الأمر بينهما وتدانيا وتقاربا وتباعدا وغابا عن الأبصار تحت الغبار وكل فرقة تنظر إلى صاحبها وتدعو له، ثم انكشفا وهما للتفرّق أقرب منهما للتقارب فقال العلج لميسرة: بحق دينك ما هذه الراية التي طلعت من وراء عسكركم فلم يلتفت إلى كلامه بل قال له: ﴿**وما ذلك على الله بعزيز**﴾ [إبراهيم: ٢٠]. فقال: وحق ديني ما قلت لك إلا حقًا. قال: وهو يحلف كاذبًا. فالتفت ميسرة لحرصه أن يأتي الله بالفرج وينظر تحقيق ما قاله اللعين فحمل البطريق عليه ومكّن يده منه ليأخذه أسيرًا، وإذا قد طلعت راية خالد بن الوليد وهي مشرقة بالنور وهي في يد خالد بن الوليد. وكبّر المسلمون يدًا واحدة فمن عظم تكبيرهم ارتجّت يد العلج عن ميسرة والتفت البطريق ليرى ما الخبر، فقبض عليه ميسرة وهمَّ أن يقلعه فلم يقدر لأنه كان مرفلاً في السرج، فجعل يجذبه فلم يقدر وقرب خالد منهم فرفع سيفه يريد أن يضرب به ميسرة ليطلقه من يده فحاد السيف عن ميسرة ووقع على يد العلج الشمال فقطعها وانتخع ميسرة وانثنى البطريق إلى أصحابه ويده مقطوعة وهو يئنّ فالتقى به غلمانه فأخذوه وكووه. وأما خالد فإنه التقى بميسرة وتسالما وحدّثه بما وقع له من الروم وكيف أسروا عبد الله بن حذافة السهمي فتأسف خالد واسترجع، وقال: يؤسر مثل عبد الله بن حذافة والله لا يفارقهم خالد أو يخلصه إن شاء الله تعالى. وأقام خالد بقية ذلك اليوم، فلما كان من الغد أتاهم من جيش الروم شيخ وعليه مسوح السواد حتى وقف بإزائهم وأومأ بالسجود فمنعه خالد، وقال: ما الذي تريد؟

قال: إن كبير هؤلاء القوم يريد صلحكم ويطلق أسيركم ويدفع ما تريدون وترجعون. فقال خالد: ما نرجع إلا على انفصال، وأما الأسير فإذا لم تطلقوه طوعًا أطلقتموه كرهًا. قال: أنت أمير هؤلاء؟ قال: نعم. قال: وإن رأيت أن تؤخر القتال بقية يومنا هذا وليلتنا فافعل لنذبر ما بيننا وبينكم ويبرد وجع هذا البطريق ونجيبكم إلى ما تريدون. قال له: أجبناكم إلى ذلك. فرجع الشيخ إلى قومه، وقال البطريق: قد أجابوا ووضعت الحرب أوزارها ونزل خالد والمسلمون بإزائهم في أماكنهم وأضرم الروم النيران وزادوا فيها وحملوا أثقالهم وساروا من أول الليل، فلما كان الغد ركب المسلمون فلم يجدوا للروم أثرًا فعلموا أنهم قد ولّوا الأدبار. فتأسّف خالد على ما فاته فأراد أن يتبعهم فمنعه ميسرة، وقال له: إنها بلادهم وهي وعرة وإن الصواب رجوعنا إلى عسكر المسلمين. قال: فأخذوا ما تركه الروم ورجعوا منصورين ولكنهم حزينون على أسْر عبد الله بن حذافة السهمي وساروا حتى أتوا حلب فلقيهم أبو عبيدة وفرح بسلامتهم وأقبل ميسرة يحدّثه بما جرى لهم وكيف أسر عبد الله بن حذافة، فتأسّف عليه، وقال: اللّهمَّ اجعل له من أمره فرجًا ومخرجًا. وكتب إلى عمر بن الخطاب يخبره بما وقع له من أمر السرية إلى الدروب وما كان من المسلمين وأخبره بأسْر عبد الله بن حذافة وبعث الكتاب.

كتـــاب عمر

فلما وصل الكتاب إلى عمر بن الخطاب فرح بسلامة المسلمين واغتمَّ على عبد الله بن حذافة وأسره لأنه كان يحبه حبًا شديدًا، فقال: وعيش رسول الله لأكتبنّ إلى هرقل بأن يرسل عبد الله بن حذافة، فإن لم يفعل وإلا سرت إليه بالجيوش والعساكر. ثم إنه كتب: بسم الله الرحمٰن الرحيم، الحمد لله الذي لم يتخذ صاحبة ولا ولدًا، وصلّى الله على نبيّه محمد المؤيد، من عبد الله عمر بن الخطاب أمير المؤمنين. أما بعد فإذا وصل إليك كتابي هذا فابعث إليّ بالأسير الذي عندك وهو عبد الله بن حذافة. فإن فعلت ذلك رجوت لك الهداية، وإن أبيت بعثت إليك رجالاً وأيّ رجال، رجال لا تُلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله، والسلام على مَن اتّبع الهدى وخشي عواقب الردى. ثم إنه طوى الكتاب وبعث به إلى أبي عبيدة وأمره أن ينفذه إلى هرقل. فلما وصل الكتاب إلى هرقل، قال له: من أين كتابك هذا؟ قال: من أمير المؤمنين أمير العرب. فقرأه، فإذا هو من عند عمر بن الخطاب. قال: فدعا بعبد الله بن حذافة إليه. قال عبد الله بن حذافة: فدخلت عليه والتاج على رأسه والبطارقة حوله، فلما وقفت بين يديه، قال لي: مَن أنت؟

قلت: رجل من المسلمين من قريش. قال: أنت من بيت نبيّك؟ قلت: لا أنا من بني عمّه. قال: هل لك أن تتبع ديننا وأُزوّجك ابنة بطريق من بطارقتي وأجعلك من

أخصّائي؟ فقلت: لا والله الذي لا إلٰه إلا هو، لا فارقت دين الإسلام أبدًا وما جاء به محمد عليه السلام. فقال: أجب إلى ديننا، وأنا أُعطيك المال كذا وكذا، ومن الغلمان كذا وكذا، ومن الجواري كذا وكذا. قال عبد الله: ثم دعا بسفط من الجوهر وقال: إذا دخلت في ديني أعطيتك إياه. فقلت: لا والله لو أعطيتني مُلكَكَ ومُلْكَ قومك ما فارقت دين الإسلام أبدًا ولو أعطيتني كل ما تملكه. فقال: إذا لم ترجع إلى ديني قتلتك شرّ قتلة. فقلت: لست أفعل ولو قطعتني قطعًا ولو أحرقتني بالنار لا رجعت عن ديني فاصنع ما أنت صانع. قال: فغضب من كلامي، وقال: اسجد لهذا الصليب سجدة وأُخلي سبيلك. فقلت: لست أفعل. قال: فكُلْ من لحم الخنزير وأنا أُطلِقك. قلت: حاشى لله ما كنت بالذي أفعل. قال: فاشرب من هذا الخمر شربة واحدة وأُطلقك. قلت: لا والله لا أشرب أبدًا. قال: وحق ديني لتأكلنّ وتشربنّ قهرًا. ثم أمر بي فجعلني في بيت، وجعل عندي من ذلك اللحم والخمر، وقال: إذا أضرّ به الجوع والظمأ أكل وشرب. وأغلقوا عليّ الأبواب.

قال: حدّثنا عامر بن سهل عن يوسف بن عمران عن سفيان بن خالد عمّن يثق به أن هرقل كان قد مات بعد هزيمته من أنطاكية بأيام قلائل مما دخل على قلبه من القهر ويقال إنه مات مسلمًا والذي فعل ذلك بعبد الله بن حذافة ولده نسطيوس وكانوا لقبوه باسم هرقل. قال: فلما كان في اليوم الرابع طلب عبد الله بن حذافة وقال للغلمان: ما فعل؟ قالوا: لم يأكل شيئًا ولم يشرب وهو على حاله. فقال له وزيره: أيها الملك اعلم أن هذا الرجل شريف في قومه لا يرى الذلّ فكلّ ما تفعله في هذا الرجل تفعله المسلمون إذا قبضوا على ملك منّا. قال: فاستدعاه، وقال له: ما فعلت باللحم؟ قال: هو على حاله. فقال: ما منعك أن تأكل؟ قال: فزعًا من الله ورسوله، وأيضًا أنه قد حلَّ لي بعد ثلاثة أيام، ولكن ما أردت أن تشمت بي الملحدون. وورد كتاب عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه فلما قرأه أعطى عبد الله مالاً كثيرًا وثيابًا وأعطاه لؤلؤًا كثيرًا هدية لعمر بن الخطاب وبعث معه خيلاً إلى أن أخرجوه من الدروب ووصل إلى حلب ولقي المسلمين ففرحوا به. ثم إنه سار إلى عمر بن الخطاب، فلما رآه سجد لله شكرًا وهنّأه بالسلامة وحدّثه بما كان من هرقل وأخرج له اللؤلؤ. فلما رآه عمر عرضه على التجار، فقالت التجار له: هذا ما يقوَّم ومَن جاءك به؟ فقالت له الصحابة: خذه إليك بارك الله لك فيه، فقال: لا إلٰه إلا الله محمد رسول الله، إذا كنتم قد جعلتموني منه في حِلٍّ فكيف أصنع بمَن غاب من المسلمين ومَن في بطون الأمهات وأصلاب الرجال من أولاد المهاجرين والأنصار والمجاهدين في سبيل الله، ولا طاقة لعمر بمطالبتهم يوم القيامة. ثم باعه وجعل ثمنه في بيت المال.

حدّثنا عمر بن سالم عن عبد الله بن غانم عن أبي بكر بن عمر عن عبد الله بن عبد الرحمٰن بن عبد الله، قالوا جميعًا: إنه لمّا فتح أبو عبيدة أنطاكية صلحًا، وكان من أمر سرية ميسرة بن مسروق ما ذكرناه أقام أبو عبيدة بحلب ينتظر ما يأتي إليه من عمرو بن العاص لما مضى إلى قيسارية في خمسة آلاف من المسلمين فيهم عبادة بن الصامت وعمرو بن ربيعة وبلال بن حمامة وربيعة بن عامر.

ذكر فتح قيسارية الشام بساحل البحر

قال سبيع بن ضمرة الحرّاني: كنت مع عمرو بن العاص حين سار إلى قيسارية فدخلنا قرية من قرى الشام، وكان البرد شديدًا ونظرنا إلى كرومها ونظرت إلى كرمة في دار من دور القرية وفيها عناقيد مدلاة أكبر ما يكون فأخذنا منها وأكلنا فبردنا ولحقنا البرد الشديد من شدة برد ذلك العنقود. فقلت: قبّح الله هؤلاء الملاعين بلدهم بارد وعنبهم بارد وماؤهم بارد وأنا أخاف الهلاك من شدة برد بلادهم. قال: فسمعني رجل من أهل البلد فأراد أن يقرب إليّ لأداعبه، فقال لي: يا أخا العرب إن كنت تجد البرد من العنب فاشرب من مائه. قال سبيع: ثم إنه دلّنا على دنٍّ كبير فيه خمر فشربت أنا وجماعة من عرب اليمن فسكرنا فجعلنا نتمايل سُكْرًا فأخبر بذلك عمرو بن العاص، فكتب إلى أبي عبيدة يعلمه بذلك فكتب إليه أبو عبيدة: أما بعد فمَن شربها فحدّه عليها وأقم حدود الله كما أمر، ولا تخشَ لومة لائم، فلما وصل الكتاب إلى عمرو دعا بسبيع بن ضمرة وأصحابه فجلدهم بالسِّياط. قال سبيع: فلما ضربني عمرو وأوجعني. قلت: والله لأقتلنّ العلج الذي دلّنا على الخمر حتى شربناها وأكلنا الحدَّ، فأخذت سيفي ودخلت القرية أطلب العلج فلما رأيته ووقعت عيني عليه أردت قتله فولّى هاربًا فتبعته وهو يقول: ما ذنبي عندك؟ فقلت: أنت دللتني على ما يغضب الله حتى أكلت الضرب، فقال: والله ما علمت أنه محرَّم عليكم. قال: فناداني عبادة بن الصامت وقال: يا سبيع إياك أن تقتله فإنه تحت الذمة. قال: فتركته ومضى العلج وأتى إليّ بتين وجوز وزبيب وقال: كُل هذا بذاك فإنه يُدفئك. قال: فأكلته فوجدته طيبًا فقلت: لحاك الله أين هذا كان قبل أن أُضرَب بالسِّياط؟

قال الواقدي: ثم إن عمرًا ارتحل فنزل بموضع يقال له محلٌّ وبلغ الخبر فلسطين بن هرقل، وكان قد أتاه المنهزمون من عسكر أبيه ولجؤوا إليه واكتمل جيشه في ثمانين ألفًا، ثم إنه دعا برجل من المتنصرة وقال له: امضِ واحزر لي عسكر العرب واكشف لي أخبارهم فوصل إليهم ولجأ إلى قوم من اليمن وهم يصطلون حول النار، فجلس بينهم يسمع حديثهم، فلما أراد القيام عثر في ذيله. فقال: باسم الصليب كلمة أجراها الله على لسانه، فلما سمعوا قوله علموا أنه متنصّر جاسوس للروم فوثبوا إليه

وقتلوه ووقع الصائح في العسكر فسمع عمرو الضجة. فقال: ما الخبر؟ قيل: إن قومًا من اليمن وقعوا بجاسوس؟ من الروم فقتلوه. قال: فغضب عمرو وطلبهم، وقال: ما حملكم على قتل الجاسوس؟ وهلاّ أتيتموني به لأستخبره؟ فكم من عين تكون علينا ثم إنها ترجع فتصير لنا، لأن القلوب بيد الله يقلبها كيف شاء. ثم إنه نادى في جيشه: مَن وقع بغريب أو جاسوس فليأتِ به إليّ. قال: وإن فلسطين استبطأ الجاسوس فعلم بقتله فأرسل غيره فأشرف على القوم من فوق شرف عالٍ وحزرهم وعاد إليه فأخبره أنهم في خمسة آلاف، إلا أنهم كالأُسود الضارية أو كالعقبان الكاسرة يرون الموت مغنمًا والحياة مغرمًا، فلما سمع ذلك قال: وحق المسيح والقربان لا بدَّ من قتالهم. فإما أن أبلغ المراد أو أموت صبرًا، ثم إنه جمع عسكره واختار منهم عشرة آلاف فارس شدادًا وولّى عليهم بطريقًا اسمه بكلاكون وهو صاحب جيشه وقال: سِرْ بهؤلاء فأنت طليعة جيشي فسار من ساعته، ثم إنه عقد صليبًا آخر وسلمه إلى دمستق العسكر واسمه جرجيس بن باكور وضمّ إليه عشرة آلاف وقال له: إلحق بصاحبك فسار في أثره، فلما كان في اليوم الثاني خرج فلسطين ببقية الجيش وترك ابن عمّه قسطاس في قيسارية يحفظها وترك عنده عشرة آلاف.
قال بشار بن عوف: فبينما نحن نازلون إذ أشرف علينا البطريق الأول في عشرة آلاف فارس، فلما قربوا منّا رأيناهم فحزرناهم فإذا هم عشرة آلاف. قال: ففرحنا وقلنا: نحن خمسة آلاف وعدوّنا في عشرة آلاف، فكل رجل منّا يقاتل اثنين، فبينما نحن كذلك إذ أشرف علينا البطريق الثاني في عشرة آلاف، فقال عمرو رضي الله عنه: اعلموا أن مَن أراد الله واليوم الآخر فلا يرتاع من كثرة العدوّ ولو تزايد المدد، فإن الجهاد أوفر متجرًا وأعزّ قدرًا، وأيّ فخر عند الله ممّن يقتل في سبيل الله وصفوف الكفّار ويكون حيًّا عند الله يرتع في مروج الجنة وينال من الله سابغ النعمة والمنّة، فقد قال الله تعالى: **﴿ولا تحسبنّ الذين قتلوا في سبيل الله أمواتًا بل أحياء عند ربهم يرزقون فرحين بما آتاهم﴾** [آل عمران: ١٦٩، ١٧٠] الآية، ولو أن الجاسوس الذي قتلتموه لم تعجلوا عليه، لأخبرنا بمسير هذا الجيش إلينا وكثرته، وكنا قد أخذنا حذرنا على أنفسنا واحتطْنا، ولٰكن أمر الله لا يُرَدّ. ثم إنه جمع أبطال الموحدين، وقال: قد رأيت أن ننفذ إلى أبي عبيدة نعلمه ليمدّنا بالخيل والرجال، فإن هذا جيش عظيم. ثم قال: أيها الناس مَن يركب ويسير إلى الأمير أبي عبيدة ويعلمه بما قد صرنا إليه؟ فلعله أن ينجدنا كما أنجد يزيد بن أبي سفيان. وهو محاصر قنسرين وأجره على الله.

المعارك في فلسطين

فقال له ربيعة بن عامر: يا عمرو ألقَ بنا العدو وتوكل على الله، فإن الذي نصرنا في مواطن كثيرة ونحن في قلة ينصرنا اليوم على بقية القوم الكافرين. قال: فقنع عمرو

بكلام عامر بن ربيعة، وقال: والله صدقت وأمر الناس بالتأهّب إلى لقاء العدو، فركب المسلمون ورفعوا أصواتهم بالتهليل والتكبير فأجابتهم الجبال والتلال والأوعار والأشجار والأحجار، ومَن في تلك الأرض من العمار، وقالوا: إلـٰهنا ومولانا إنّا نسمع أصواتًا موحدة غير مشركة ولا ملحدة في التوحيد، وقد أسمعتنا كلام التوحيد وأريتنا وجوه أهل التمجيد والتحميد، الـٰهنا ما أطيب سماع ذكرك ومَن لنا أن نوفي بشكرك. قال: وضجّت الوحوش والسِّباع إلى مولاها شاكرة لما أعطاها وأولاها، ونادت عالِم سرّها ونجواها: يا مَن جمع الوحوش راضية بما آتاها أخرج رزقها ومرعاها تغدو خماصًا وتروح بطانًا إلى باب سيدها ومولاها، يا مَن لو توارت دودة تحت الأرضين السبع لرآها، ولو كانت في غلس الظلمات تحت اليمّ المظلم حبة لرزق عبد لبلغه إيّاها، إلـٰهنا إنّا سمعنا أصوات توحيدك في هذه الأرض وما كنّا عهدناها، ونسمع آيات ما كنّا عرفناها ولا سمعناها، سبحانك يا مَن قدرته لا ننساها ويا مَن إحسانه وفضله لا يتناهى. قال: فهتف بهم هاتف من الجو، كم لله من مسبّح في الجبال وذراها تحت تخوم الأرض وثراها، وفي فلوات البراري المقفرات، وفي قعور البحار الزاخرات وماها. قال: فارتاع عسكر الكفّار لما سمعوا في الجوِّ هذه الأصوات، وكأنما الأرض وأقطارها وأهلها تجاوبهم، وكان فلسطين قد أتى وسمع ذلك ونظر إلى جيش العرب وقد زاد في عينيه أضعافًا. فقال: وحق ديني لمّا أشرفت على القوم ما كانوا في هذه الكثرة وما كانوا أكثر من خمسة آلاف، وقد زاد الآن عددهم وتزايد مددهم، ولا شك أن الله قد أمدّهم بالملائكة، ولقد كان أبي هرقل على بصيرة من أمر هؤلاء العرب؛ وليس جيشي هذا بأعظم من جيش ماهان الأرمني لما لقيهم باليرموك في ألف ألف، ولقد ندمت على خروجي إليهم، ولكن سوف أدبّر حيلة على هؤلاء العرب، ثم إنه دعا بقسٍّ عظيم القدر عند النصرانية، وهو قسُّ قيسارية وعالِمها وقال له: اركب إلى هؤلاء القوم وكلّمهم بالتي هي أحسن، وقل لهم: إن ابن الملك يسألكم أن تنفذوا إليه أفصحكم لسانًا وأجرأكم جنانًا فابعثوا به ولا يكون من طغام العرب.

قال: فركب القسّ وعليه ثوب من الديباج الأسود وعليه برنس من الشعر فركب بغلة شهباء وأخذ بيده صليبًا من الجوهر وسار حتى وصل إلى المسلمين فوقف بحيث يسمعون كلامه. فقال: يا معشر العرب إني رسول إليكم من الملك فلسطين بن هرقل يسألكم أن تنفذوا إليه أفصحكم لسانًا وأجرأكم جنانًا، وإنه والله يريد صلحكم ولا يبغي قتالكم، لأنه عالم بدينه بصير بأموره، وليس يحبّ سفك الدماء ولا فساد الصور، فلا تبغوا علينا فالباغي مقهور والمبغى عليه منصور، وقد قال لنا المسيح: لا تقاتلوا إلا مَن بغى عليكم، وإن الملك يريد أن تبعثوا إليه رجلاً من أفصحكم لسانًا وأجرأكم جنانًا، ثم سكت. قال: فلما سمع عمرو كلامه. قال: أيها الناس قد سمعتم ما قاله هذا

الأغلف، فمَن منكم يبادر إلى مرضاة الله تعالى ورسوله وينظر ما يتكلم به مع ملك الروم؟

فتقدم إليه بلال بن حمامة مؤذّن رسول الله ﷺ، وكان غلامًا أسود طويلاً من الرجال كأنه النخلة السحوق بصاص من السواد، عيناه جمرتان كأنهما العقيق جهوريَّ الصوت. فقال: يا عمرو أنا أسير إليه، فقال: يا بلال إنك قد حطّمك الحزن على رسول الله ﷺ، وأيضًا إنك من جنس الحبش ولست من العرب، لأن العرب لهم الكلام الجزل والخطب والفصاحة. فقال بلال: بحق رسول الله ﷺ إلا تركتني أمضي إليه. فقال عمرو: لقد أقسمت عليَّ بعظيم اذهب واستعن بالله ولا تهبه في الخطاب وأفصح في الجواب وعظّم شرائع الإسلام. فقال بلال: ستجدني إن شاء الله حيث تريد. قال: فخرج بلال نحوهم وهو كالنخلة السحوق عريض المنكبين كأنه من رجال شنوءة، وكان من عظم خلقته إذا نظر إليه أحد يهابه، وكان لابسًا يومئذ قميصًا من كرابيس الشام وعلى رأسه عمامة من صوف متقلدًا بسيف ومزوّدة على عاتقه وبيده عصًا. قال: فلما برز بلال من عسكر المسلمين ونظر إليه القسّ أنكره، وقال: إن القوم قد هنا عليهم فإنّا دعوناهم نخاطبهم فبعثوا إلينا بعبيدهم لصغر قدرنا عندهم. ثم قال: أيها العبد أبلغ مولاك وقل له إن الملك يريد أميرًا منكم حتى يخاطبه بما يريد، فقال بلال: أيها القسّ أنا بلال مولى رسول الله ﷺ ومؤذّنه ولست بعاجز عن جواب صاحبك، فقال له القس: قف مكانك حتى أُعلِم الملك بأمرك وعاد القسّ إلى الملك، وقال له: أيها الملك إنهم قد بعثوا بعبد من عبيدهم يخاطبك، وما ذاك إلا استصغارًا لأمرنا عندهم، وهو عبد أسود. قال: فأرسل له رجلاً يقول له: أيها العبد أبلغ مولاك وقل له إن الملك إنما يريد أميرًا منكم حتى يخاطبه. فقال له بلال: أيها الرجل أنا بلال بن حمامة مولى رسول الله ﷺ ولست بعاجز عن جواب صاحبكم. فقال فلسطين: ارجع إليهم وقل لهم بعث إليكم ملك النصرانية أيليق أن تبعثوا له بعبد من عبيدكم؟

فرجع الترجمان إلى بلال وقال له يا أسود: إن الملك يقول لك: لسنا ممّن نخاطب العبيد بل يأتينا صاحب جيشكم أو المؤمّر عليكم، فرجع بلال وهو منكسر وأخبر عمرًا بذلك. فقال لشرحبيل: أنا أمضي إليه. فقال شرحبيل: يا عبد الله إذا مضيت أنت فلمَن ندع المسلمين؟ فقال عمرو: الله لطيف بعباده وهو أرحم الراحمين بخلقه، ولكن خذ الراية واخلفني في قومي. فإن غدر الروم فالله الخليفة عليكم، فوقف شرحبيل في مقام عمرو وأخذ الراية وخرج عمرو نحو القوم وعليه درعه ومن فوقه جبّة صوف وعلى رأسه عمامة من صنع اليمن مصبوغة صفراء قد أدارها على رأسه كورًا وأرخى لها عذبة، وفي وسطه منطقة، وقد تقلّد سيفه واعتقل رمحه وسار عمرو حتى وقف بإزاء الترجمان

الذي أرسله فلسطين بن هرقل، فلما رآه الترجمان ضحك، فقال: مِمَّ تضحك يا أخا النصرانية؟ قال: من دناءة رؤيتك وحملك هذا السلاح، ما الذي تصنع به ولِمَ تحمله معك وما نريد حربًا؟ فقال عمرو: إن العرب حمل السلاح شعارهم ووطاؤهم ودثارهم، وإنما حملت السلاح معي استظهارًا، ولعلّي أن ألقى عدوًّا فيكون ذلك حصنًا من عدوّي وأحامي به عن نفسي. قال الترجمان: شيمتكم أيها العرب الغدر والمكر فكن مطمئن الجانب. ثم عطف الترجمان إلى فلسطين بن هرقل وأخبره بما سمع من مقالة عمرو بن العاص، وقال: أيها الملك إن أمير العرب قد قَدِمَ علينا وعليه من اللباس كذا وكذا فتبسم الملك من قول القسّ، وقال: قل له يتقدَّم إلينا. قال: فلما قَدِمَ أخذ الملك في التأهّب لقدوم عمرو عليه، وزيّن ملكه وأوقف القسوس عن يمينه وشماله والحجّاب بين يديه، وأقبل على الترجمان، وقال له: يا أخا العرب قد أذِنَ لك الملك، فسار عمرو على جواده وعسكر قيسارية تتعجب منه ومن زيّه إلى أن وقف على قبة الملك، ثم ترجل ومشت الحجّاب أمامه حتى وقعت عينه على عين فلسطين فأدناه ورحّب به وبشّ في وجهه، وقال: مرحبًا بأمير قومه، وأراد أن يُجلسه على السرير فامتنع عمرو من ذلك، وقال: بساط الله أطهر من بساطك، لأن الله تعالى جعل الأرض بساطًا وأباحنا إيّاها فنحن فيها سواء، وما أُريد أن أجلس إلا على ما أباحه الله. ثم جلس على الأرض باركًا وترك رمحه أمامه وسيفه على فخذه الأيسر، فقال له فلسطين: ما اسمك؟

قال: اسمي عمرو وأنا من العرب الكرام أرباب الحزم المعظّمين في القوم. قال فلسطين: إنك لفتى كريم من عرب كرام، يا عمرو إن كنت من العرب فنحن من الروم وبيننا قرابة وأرحام متصلة؛ ونحن وأنتم في النسب متصلون ومَن يكونون متصلين في النسب ما لهم يسفك بعضهم دم بعض؟ فقال عمرو: إن أنسابنا لاحقة من أبينا ونسبنا الأعلى هو دين الإسلام، وإذا كان أخوان قد اختلفا في الدين كان حلالاً أن يقتل أحدهما أخاه، وقد انقطع النسب بيننا، وقد ذكرت أن نسبك لاحق بنا فكيف يكون نسبك ونسبنا واحدًا ونحن قريش وأنتم بنو الروم؟. قال: يا عمرو أليس أبونا آدم ثم نوحًا ثم إبراهيم وعيصو بن إسحٰق وإسحٰق أخو إسماعيل وكلاهما ولد إبراهيم، ولا ينبغي للأخ أن يبغي على أخيه بل يجود عليه. فقال: إنك لصادق في قولك الذي قلت وإن عيصو ونحن بنو أب واحد وأبونا نحن إسماعيل صلوات الله عليه وإن كان نوح عليه السلام قسم الأرض شططًا حين غضب على ولده حام وعلم أن أولاد حام لن يرضوا بها فاقتتلوا عليها زمانًا، وهذه الأرض التي أنتم فيها ليست لكم وهي أرض العمالقة من قبلكم، لأن نوحًا عليه السلام قسم الأرض بين أولاده الثلاثة سام وحام ويافث وأعطى ولده سامًا الشام وما حوله إلى اليمن إلى حضرموت وإلى غسان، والعرب كلهم ولد سام، وهم قحطان وطسم وجديث وعملاق وهو أبو العمالقة. حيث كانوا من البلاد وهم الجبابرة الذين

كانوا بالشام فهٰذه العرب العاربة، لأن لسانهم الذي جبلوا عليه العربية، وأعطى حامًا الغرب والساحل وأعطى يافث ما بين المشرق والمغرب **﴿وإن الأرض لله يورثها مَن يشاء من عباده والعاقبة للمتقين﴾** [الأعراف: ١٢٨] ونريد أن نردَّ هذه القسمة فنأخذ ما في أيديكم من العمارة والأنهار عوضًا عمّا نحن فيه من الشوك والحجارة والبلد القفر، فلما سمع فلسطين كلام عمرو بن العاص علم أنه رجل ماكر. فقال له: صدقت في قولك إلا أن القسمة قد جرت، فإن نقضتموها كنتم من الباغين علينا، واعلم أنه ما حملكم على ذلك وأخرجكم من بلادكم إلا الجهد العظيم، فقال له عمرو: أيها الملك. أما زعمت أن الجهد أخرجنا من بلادنا، فنعم كنا نأكل خبز الشعير والذرة فإذا رأينا طعامكم واستحسنّاه فلن نبارحكم حتى نأخذ البلاد من أيديكم وتصيروا لنا عبيدًا ونستظلّ تحت أصول هذه الشجرة العالية والفروع المورقة والأغصان الطيبة الثمار، فإن منعتمونا مما ذقناه من بلادكم من لذيذ العيش، فما عندنا إلا رجالاً أشوق إلى حربكم من حبكم الحياة، لأنهم يحبون القتال كما تحبون أنتم الحياة. قال: وأفحم فلسطين عن جوابه، فرفع رأسه إلى قومه وقال: إن هذا العربي صادق في قوله وحقّ الكنائس والقربان والمسيح والصلبان ما لنا معهم ثبات. قال عمرو: فوجدت إلى وعظهم سبيلاً، وقلت: معاشر الروم إن الله عزّ وجل قد قرَّب عليكم ما كنتم تطلبون. إن كنتم تريدون بلدكم فادخلوا في ديننا وصدِّقوا قولنا، فإن الدين عند الله الإسلام.

قال فلسطين: يا عمرو إنّا لا نفارق ديننا وعليه مات آباؤنا وأجدادنا. قال عمرو: فإن كرهت الإسلام فأعطنا الجزية منك ومن قومك وأنتم صاغرون. قال فلسطين: لا أُجيبك إلى ذلك، لأن الروم لا تطاوعني إلى أداء الجزية ولقد قال لهم أبي ذلك من قبل فأرادوا قتله، فقال: هذا ما عندي من الأعذار، ولقد حذّرتكم ما استطعت ولم يبقَ بيننا حكم إلا السيف، والله يعلم أني دعوتكم إلى أمر فيه النجاة فعصيتموه كما عصى أبوكم عيصو عن أُمه فخرج من الرحم قبل أخيه يعقوب، وأنتم تزعمون أنكم أقرباؤنا في النسب، وإنّا لبراء إلى الله عزّ وجلّ منكم ومن قرابتكم إذ أنتم تكفرون بالرحيم، أنتم من والد عيصو بن إسحٰق، ونحن من ولد إسماعيل بن إبراهيم عليه السلام، وإن الله اختار لنبيّنا خير الأنساب من لدن آدم إلى أن أخرج من صلب أبيه عبد الله، فجعل خير الناس من ولد إسماعيل فتكلم بالعربية وتكلم إسحٰق على لسان أبيه فولد إسماعيل العرب، ثم جعل خير الناس كنانة، ثم جعل خير العرب قريشًا، وخير قريش بني هاشم، ثم جعلَ خير بني هاشم بني عبد المطلب، وخير بني عبد المطلب نبيّنا محمد ﷺ فبعثه رسولاً واتخذه نبيًا وأهبط عليه جبريل بالوحي، وقال له: طفت مشارق الأرض ومغاربها فلم أرَ أفضل منك. قال: فخضعت جوارح القوم حين ذكر رسول الله ﷺ ووجلت قلوبهم ودخلت الهيبة في قلب فلسطين حين سمع كلام عمرو. فقال: صدقت في قولك، كذلك

الأنبياء تبعث من خير بيوت قومها على لسان ربّها، ثم قال له: يا عمرو وهل في أصحابك رجل بيّن كلامه سريع الجواب إذا سُئِل؟ فقال له: اعلم أني والله أحب أن أمضي وآتيك بهم لتقف على صحة قولي، ثم وثب وسار إلى عسكره وركب وأتى جيشه فحمدوا الله المسلمون على سلامته وباتوا يتحادثون، فلما صلّى عمرو بالناس صلاة الفجر أمرهم بالركوب إلى قتال عدوّهم. قال: فأسرعوا إلى ذلك واستووا على متون خيولهم، واصطفّوا للحرب والقتال.

المعـــركة

قال الواقدي: حدّثنا عروة بن زيد عن موسى مولى الحضرميين عن موسى بن عمران وابن الصباح لمّا كان يوم الحرب صفّ فلسطين جيشه ثلاثة صفوف وقدّم المُشاة وعدّل الميمنة والميسرة ورفع الصليب أمامه وتقدم أمام الجيش فنظر عمرو إلى فلسطين وقد رتّب عساكره وعزم على الحرب، فهيّأ المسلمين، وصفّهم صفًّا واحدًا وجعل في الميمنة الحماة من أصحاب رسول الله ﷺ ومعهم شرحبيل بن حسنة كاتب الوحي وصابوب بن جباية الليثي عن شماله وكان أحد فرسان المسلمين، فبينما الناس كذلك إذ خرج فارس من الروم وعليه ديباج ودرع وجوشن، وفي عنقه صليب من الذهب فحمل حتى خطى برمحه من الميمنة إلى الميسرة ومن الميسرة إلى الميمنة، ثم إلى القلب ثم وقف بإزاء جيش المسلمين وركّز رمحه بإزائه وأخذ القوس بيده وفوق سهمها ورمى رجلاً من الميمنة فأثبت السهم فيه فجرحه ورمى آخر من الميسرة فقتله فنظر إليه عمرو وما قد صنع فصاح بالمسلمين: ألا ترون هذا العلج اللعين وما يصنع بقوسه؟ فمَن يكفينا أمره ويُزيل عن المسلمين شرّه، فخرج إليه رجل من ثقيف وعليه بُردة دنسة وبيده قوس عربية قد فوق سهمها، وخرج إلى العلج يريده فنظر إليه العلج وليس عليه شيء من الحديد يستره إلا فروة دنسة، وما معه من السلاح غير القوس فازدرى به وبلبسه وأطلق سهمًا من كبد قوسه فوقع سهمه في صدره فاشتبك في الفروة ووقع غير مصيب، وكان اللعين أرمى أهل زمانه. ما رمى قطّ شيئًا إلا نفذ فيه، فغضب لذلك وهمّ أن يرميه بسهم ثانٍ فامتعط الثقفي نبلة ورمى بها نحوه فلم يرها لصغرها وخفاء موقعها فاشتبكت النبلة في حلق العلج فخرجت من قفاه، فما تمالك العلج إلا أن وقع صريعًا فأسرع الثقفي إلى جواده فأخذه واستوى على متنه ونزع بيضة المشرك عن رأسه، وجعل يسحبه نحو جيش المسلمين فاستقبله ابن عمّ له وكلّمه فلم يجبه من فرحه بما صنع. ثم أقبل إلى عمرو فأعطاه إياه فنظرت الروم إلى فعل الثقفي فغاظهم ذلك، وجعلوا يشيرون إلى السماء فعلمنا أنهم يقولون إن الملائكة تنصرنا، قال: ونظر فلسطين إلى ذلك فعظم عليه وقال لبعض البطارقة: اخرج إلى هؤلاء العرب وحامِ عن دينك فخرج البطريق وعليه ديباجة

خضراء ودرع حصين ومن تحت الدرع جوشن منيع وفي عنقه صليب من الذهب الأحمر ومعه غلام من ورائه يجنب جنيبة وعليه سيفه ودرقته فخرج حتى وقف بين الصفّين فجعل يسأل القتال، فلما نظر المسلمون إليه أقبلوا إليه ينظرون ولا يخرج إليه أحد.

فقال عمرو: معاشر العرب مَن يخرج إليه ويهب نفسه لله عزّ وجلّ فخرج إليه رجل من العرب وهو يقول: أنا أكون ذلك، فقال عمرو: بارك الله فيما تريد وحمل صاحب المسلمين عندما خرج مصمّمًا واستقبله البطريق وجعلا يتجاولان ساعة وهما يتعانقان بالسيوف إلى أن خرجت لهما ضربتان فسبقه البطريق بالضربة فأخذها الرجل بالدرقة فقدّها نصفين وكانت جلد بعير بطانة واحدة فلم يصل إليه من الضربة شيء وجعل الرجل ضربة في أثرها فقطعت البيضة وسلكها فتقهقر البطريق إلى ورائه ولم يصل إليه أذى، فلما رجعت إليه روحه حمل على المسلم وضربه فجرحه جرحًا فاحشًا فألوى إلى أصحابه فصاح به رجل من العرب: مَن وهب نفسه لا يرجع من بين يدي عدوّه. فقال الرجل: أما كفاك هذه الضربة حتى توبخني إن الله ليلومني بأن ألقي بيدي إلى التهلكة ثم شدّ جراحه وعظم عليه ما قال ابن عمّه، فلما خرج قال له ابن عمه الذي خاطبه: ارجع فخذ هذه البيضة واجعلها على رأسك. فقال: ثقتي بالله أعظم من حديدك، ثم دلف نحو البطريق وهو يقول:

يقول لي عند الخروج للقا ... دونك هذا الترس فاجعله وقا
من علج سوء قد بغى وقد طغى ... أقسمت بالله يمينًا صادقًا
لأتركنّ البيض فوق المرتقى ... وأدخل الجنة دار الملتقى

قال: فدعا له المسلمون بالنصر وقالوا: اللَّهمَّ أعطه ما تمنى وحمل على البطريق وضربه ضربة هائلة فوقعت على عاتقه وخرجت من علائقه ثم حمل في جيش الروم فقتل رجلاً وجندل أبطالاً ولم يزل كذلك حتى قتل رحمه الله تعالى. فقال عمرو: هذا رجل اشترى الجنة من الله بنفسه: اللَّهمَّ أعطه ما تمنى.

البطـريق قيدمون

قال الواقدي: وكان هرقل حين بعث ولده فلسطين إلى قيسارية بعث معه بطريقًا من البطارقة وكان اسمه قيدمون وكان من أفرس الروم ويقال إنه خال فلسطين، وقد كان لقي عسكر الفرس وعسكر الترك وعسكر الجرامقة قال: وكان اللعين يحفظ سائر اللغات. فقال فلسطين: لا بدّ لي من قتال العرب. قال وخرج وعليه لامة وخرج مبارزًا، فلما رآه المسلمون قد خرج وكأنه جبل قد انهدّ من أعلاه إلى أسفله وهو يلمع من بريق الجوهر ضجّ المسلمون بقول لا إلٰه إلا الله، فلما وقف في الميدان أقبل يرطن بلغته ويطلب

البراز فأقبل العرب يهرعون إليه من كل جانب ومكان يريدون قتاله لأجل ما عليه، فقال عمرو: ثواب الله خير لكم مما عليه فلا يخرج أحد لطلب سلبه فيكون خروجه لأجل ذلك وإن قتل مات في سبيل ما خرج إليه، وقد سمعت رسول الله ﷺ يقول: «مَن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله، ومَن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو امرأة يتزوَّجها فهجرته إلى ما هاجر إليه» قال: فخرج غلام من اليمن ومعه أمه وأخته يريدون الشام، وأُخته تقول له: يا ابن أُمي جِدَّ بنا في السير لنصل إلى الشام فنأكل من خيره ونعمه.

فقال لها أخوها: إنما أذهب لأُقاتل لمرضاة الله عزَّ وجلّ. وقد سمعت معاذ بن جبل يقول: إن الشهداء عند ربهم يرزقون. فقالت له أُخته: كيف يُرزَقون وهم أموات؟ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الله تعالى يجعل أرواحهم في حواصل طيور الجنة فتأكل تلك الطيور من ثمار الجنة وتشرب من أنهارها فتغدو أرواحهم في حواصل تلك الطيور، فهو الرزق الذي جعله الله لهم» فلما كان قتال قيسارية خرج ذلك الغلام إلى القتال بعد أن ودّع أُمه وأُخته وداع الموت وقال لهم: نجتمع على حوض رسول الله ﷺ ثم خرج وبيده قناة وهي موصولة كثيرة العقد وتحته جواد هجين.

فلما خرج الغلام حمل على البطريق من ساعته وطعنه بسنانه. قال: فاشتبك السنان في درع البطريق فلم يقدر على انتزاعه فضرب البطريق قنا الغلام بسيفه فقطعها وحمل على الغلام وضربه على هامته فشطرها فوقع الغلام ميتًا رحمه الله وجال قيدمون على مصرعه، ثم طلب البراز، فخرج إليه ابن قثم فقتله البطريق، فلما نظر إلى ذلك شرحبيل بن حسنة رضي الله عنه أقبل يعاتب نفسه ويقول: تتفرجين على قتل المسلمين، ثم خرج والراية بيده التي عقدها له أبو بكر رضي الله عنه يوم خروجه إلى الشام، فلما رآه عمرو قد عوَّل على الخروج قال: يا عبد الله أركز الراية لئلا تشغلك. فركّزها شرحبيل فوقفت كالنخلة وغاصت في حجر كأنها منه فتفاءل بالنصر وخرج إلى لقاء قيدمون والمسلمون يدعون له بالنصر على عدوِّه فلما رآه البطريق ضحك من زيّه وكان للملعون صوت عالٍ وهو ضخم من الرجال وكان شرحبيل نحيف الجسم من كثرة الصيام والقيام بالليل والبطريق في ميدانه فحمل كل واحد منهما على صاحبه واختلفا بضربتين، وكان السابق شرحبيل فلم يعمل السيف في لامة البطريق شيئًا وثبت السيف في بيضته وحمل قيدمون على شرحبيل فشجّه ثم تجاولا على الجوادين. قال سعيد بن روح: وكان ذلك اليوم كثير البرد والسحاب فبينما هما في المعركة إذ نزل المطر كأفواه القرب قال: فنزلا عن الجوادين وجالا يتصارعان في وسط الطين وذلك أن قيدمون حمل على شرحبيل فضرب يده في مراق بطنه فاقتلعه من الأرض ورمى به على ظهره ثم استوى

على صدره وهمّ أن ينحره فنادى شرحبيل: يا غياث المستغيثين فما استتمّ كلامه حتى خرج إليه فارس من الروم وعليه لامة مذهّبة ومن تحته جواد من عتاق الخيل فقصد موضع البطريق وشرحبيل فظن قيدمون أنه إنما خرج ليعطيه جواده ويعينه، فلما قرب منهما ترجّل وأمالَ البطريق برجليه عن صدر شرحبيل وقال: يا عبد الله قد أتاك الغوث من غياث المستغيثين فوثب شرحبيل قائمًا ينظر إليه متعجبًا من قوله وفعله، وكان الفارس متلثمًا ثم جرّد سيفه وضرب البطريق ضربة قطع رأسه، وقال: يا عبد الله خذ سلبه. فقال شرحبيل: والله ما رأيت أعجب من أمرك وإني رأيتك جئت من عسكر الروم فقال: أنا الشقي المبعد أنا طلحة بن خويلد الذي ادّعى النبوّة بعد رسول الله ﷺ وكذب على الله وزعم أن الوحي كان ينزل عليه من السماء، فقلت له: يا أخي **﴿إن رحمت الله قريب من المحسنين﴾** [الأعراف: ٥٦] وقد وَسِعَت رحمته كل شيء ومَن تاب وأقلع وأناب قبل الله توبته وغفر له ما كان منه والنبي ﷺ يقول: «التوبة تمحو ما قبلها» أما علمت يا ابن خويلد أن الله سبحانه وتعالى لما أنزل على نبيّه **﴿ورحمتي وَسِعَت كل شيء﴾** [الأعراف: ١٥٦] طمع فيها كل شيء حتى إبليس فلما نزل قوله تعالى: **﴿فسأكتبها للذين يتّقون ويؤتون الزكاة﴾** [الأعراف: ١٥٦] قالت اليهود: نحن نؤتي الزكاة ونتصدّق، فلما نزل قوله تعالى: **﴿والذين هم بآياتنا يؤمنون﴾** [الأعراف: ١٥٦] قالت اليهود: نحن مؤمنون بما أنزل الله في الصحف والتوراة فأراد الله أن يعلمهم أنها خاصة بأمة محمد ﷺ بقوله: **﴿الذين يتبعون الرسول النبي الأميّ﴾** [الأعراف: ١٥٧]. فقال طلحة بن خويلد: ما لي وجه أرجع إلى الإسلام وهمّ أن يسير على وجهه فمنعه شرحبيل وقال له: يا طلحة لست أدعك تمضي، بل ترجع معي إلى العسكر قال: ما يمنعني من المسير معك إلا الفظّ الغليظ خالد بن الوليد، وإني أخاف أن يقتلني، فقلت: يا أخي إنه ليس معنا وهذا الجيش لعمرو بن العاص قال: فرجع معي، فلما قربنا من المسلمين تبادروا إلينا وقالوا: يا شرحبيل مَن هذا الرجل معك؟ فلقد صنع معك جميلاً، قال: ولم يعرفوه، لأنه كان متلثمًا بفضل عمامته. فقلت: هذا طلحة بن خويلد الذي ادّعى النبوّة فقالوا: أوَ تاب ورجع إلى الله؟ فقال: أنا تائب إلى الله سبحانه وتعالى. قال شرحبيل: فأتيت به إلى عمرو بن العاص فسلّم عليه وبشّ في وجهه ورحّب به.

قال: حدّثنا حسان بن عمر الربعي عن جدّه أن طلحة بن خويلد لمّا ادّعى النبوّة وجرى له ما جرى من الحرب مع خالد بن الوليد رضي الله عنه وسمع أن خالدًا قتل مسيلمة الكذاب وقتل الأسود العنسي أيضًا لأنه قال إنه نبي فخاف طلحة على نفسه من خالد فهرب بالليل ومعه زوجته للشام واستجار برجل من آل كلب فأجاره الكلبي وأنزله في داره، وكان الكلبي مؤمنًا وبقي عنده مدة أيام إلى أن استخبره عن حاله فحدّثه طلحة بجميع أحواله مع خالد بن الوليد ووقائعه معه وكيف ادّعى النبوّة فغضب الكلبي لكلامه

وطرده من جواره فأقام طلحة بالشام، وقد تاب من أمره، فلما بلغه أن أبا بكر الصديق رضي الله عنه قد قبض قال: ذهب مَن جرّدت السيف في وجهه فمَن وَلِيَ بعده؟ قالوا: عمر بن الخطاب، قال: الفظ الغليظ. . . وهاب أن يمضي إليه وفزع من خالد بن الوليد أن يراه بالشام فيقتله، فقصد قيسارية ليركب في المراكب ويطرح نفسه في بعض جزائر البحر، فلما نظر إلى جيش فلسطين قد خرج إلى قتال العرب قال: أسير مع هذا الجيش فلعلّي أنكب نكبة وأغسل بها شيئًا من أوزاري وتكون لي قربة إلى الله تعالى وإلى المسلمين، فلما نظر شرحبيل في عين الهلكة قال: لا صبر لي عنه فخرج واستنقذه كما ذكرناه، فلما وقف بين يدي عمرو بن العاص شكره وبشّره بقبول التوبة. فقال: يا عمرو إني أخاف من خالد بن الوليد أن يراني بالشام، فيقتلني. فقال عمرو: فإني أُشير إليك بشيء تصنعه وتأمن به على نفسك في الدنيا والآخرة. قال: وما هو؟

قال: أكتب معك كتابًا بما صنعت وشهادة المسلمين فيه وتنطلق به إلى عمر بن الخطاب وتدفعه إليه واظهر التوبة فإنه يقبلها وسيندبك إلى الفتوح وقتال الروم فتمحو عنك ما سلف من خطاياك فأجابه طلحة إلى ذلك فكتب له عمرو كتابًا إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه بما صنع وأخذه طلحة ومشى به إلى مدينة رسول الله ﷺ فلم يجد عمر في المدينة وقيل له هو بمكة فمضى حتى وردها فوجد عمر متعلقًا بأستار الكعبة فتعلق معه وقال: يا أمير المؤمنين إني تائب إلى الله عزّ وجل وحقّ ربّ هذا البيت مما كان مني. قال عمر: مَن أنت؟ قال: أنا طلحة بن خويلد. قال: فنفر عمر عنه وقال:

ـ يا ويلك إن أنا عفوت عنك فكيف الأمر غدًا بين يدي الله عزّ وجل بدم ابن محصن الأسدي. قال طلحة: يا أمير المؤمنين عكاشة رجل أسعده الله على يدي وشقيت أنا بسببه وأرجو أن يغفر الله لي بما عملته قال عمر: وما عملت؟ فأخرج له كتاب عمرو بن العاص، فلما قرأه عمر وفهم ما فيه فرح به وقال: أبشر فإن الله غفور رحيم وأمره عمر أن يقيم بمكة حتى يرجع إلى المدينة فأقام معه أيامًا، فلما رجع عمر إلى المدينة وجّه به إلى قتال أهل فارس.

قال الواقدي: رجعنا إلى الحديث. قال: لمّا قتل البطريق قيدمون على يد طلحة ونجا شرحبيل مما كان قد لحقه ورجع إلى عمرو وكان المطر شديدًا فقطع الناس القتال ولحق الناس الأذى لأن أكثرهم بلا أخبية ولا بيوت والتجؤوا إلى الجابية وتستروا بدُورها وكان من رحمة الله بالمسلمين أن وقع في قلب فلسطين الفزع والرعب لمّا قتل قيدمون البطريق وكان ركنه ودعامته فشاور أصحابه في الرجوع إلى قيسارية وقال: يا معاشر الروم أنتم تعلمون أن جيوش اليرموك ما ثبتت لهؤلاء العرب، وإن أبي قد ولّى إلى القسطنطينية من خوفهم وقد ملكوا الشام جميعه وما بقي غير هذا الساحل وإني أخاف أن ندهي من

قبلهم ويملكوا قيسارية والرحيل أوفق من المقام هٰهنا فأجابوه إلى ذلك، فلما كان الليل ارتحل القوم والمطر ينزل. قال سعيد بن جابر الأوسي: وكان ذلك كله رحمة للمسلمين من الله عزّ وجل. قال: فلما كان في اليوم الرابع ارتفع المطر وطلعت الشمس فخرجنا من الجابية نطلب قتال الروم فلم نرَ لهم أثرًا، فوالله لقد فرحنا بطلوع الشمس أكثر من فرحنا برحيل الروم فكتب عمرو بذلك إلى أبي عبيدة كتابًا يقول فيه: بسم الله الرحمٰن الرحيم من عمرو بن العاص السهمي إلى أمير جيوش المسلمين أبي عبيدة عامر بن الجراح، سلام عليك ورحمة الله وبركاته، أما بعد فيا صاحب رسول الله ﷺ، فإن فلسطين بن هرقل قد أخرج إلى لقائنا ثمانين ألفًا من الروم وكان لقاؤنا معهم على موضع يقال له نخل وأخذ شرحبيل بن حسنة وكان الذي ملك أسره قيدمون ابن خالة هرقل، ثم خلّصه الله على يد طلحة بن خويلد الأسدي وقتل قيدمون ابن خالة هرقل، ثم وجهته بكتاب إلى عمر بن الخطاب وقد انهزم عدو الله فلسطين، وأنا منتظر جوابك والسلام عليك وعلى مَن معك من المسلمين ورحمة الله وبركاته. وبعث الكتاب مع جابر بن سعيد الحضرمي، فلما قرأ أبو عبيدة الكتاب فرح بسلامة المسلمين وسير الجواب وقال: إذا قرأت كتابي فانزل على قيسارية وأنا في أثر الكتاب معوّل على السير إلى صور وعكاء وطرابلس والسلام. ثم سلّم الكتاب إلى جابر بن سعيد وأمره بالرجوع.

ذكر فتح صور وعكاء وطرابلس الشام وقيسارية

قال: وعوّل أبو عبيدة على النهوض إلى الساحل، فقام إليه عبد الله يوقنا وقال: أيها الأمير اعلم أن الله عزّ وجل قد أباد المشركين ورفع علم الموحدين وإني أُريد أن أسير قبلك إلى الساحل لعلّي أفوز من القوم بغزوة. فقال: يا عبد الله إن أنت عملت شيئًا يقرّبك إلى الله تجده بين يديك فافعل فوثب يوقنا قائمًا وأخذ أصحابه وكان قد انضاف إليه مَن كان يخدمه بحلب وكلهم رجعوا إلى الإسلام وكانوا أربعة آلاف، وفي عسكر العرب أيضًا ممّن أسلم من البطارقة ما يزيد عن ثلاثة آلاف فارس من البطارقة المعدة وعليهم والٍ يقال له جرفاس.

ولمّا انهزم فلسطين إلى قيسارية وتحصّن بها بعث إلى أهل طرابلس أن يبعثوا له بنجدة فبعثوا له بثلاثة آلاف فارس قال: وساروا يطلبون قيسارية، فلما كانوا بالقرب منها نزلوا في مرج ليعلقوا على خيولهم، فبينما هم كذلك إذ أشرف عليهم يوقنا وأصحابه وكان قد صحبهم فلنطانوس صاحب رومية وأصحابه وكانوا معوّلين على زيارة بيت المقدس والمقام بها، فلما أشرفوا على المرج وهم بزيّهم ما غيّروا منه شيئًا ورآهم جرفاس فركب بنفسه يختبر حالهم، فلما قرب منهم سلم عليهم ورحّب بهم وقال: مَن أنتم؟ قالوا: نحن الذين لجأنا إلى هؤلاء العرب واستكفينا شرّهم وظننا أنهم على شيء

فإذا هم طغاة لا دين لهم فهربنا بديننا ونحن أصحاب حلب وقنسرين وعزاز ودارم وأنطاكية ونحن قاصدون إلى الملك هرقل لنكون في جنابه، فلما سمع جرفاس من القوم ذلك فرح بهم وأنس لكلامهم وقال: انزلوا عندنا كي تستريحوا ساعة من التعب، فلا شك أنكم سرتم الليل والنهار وخافت أنفسكم من العرب، قال يوقنا: أين أنتم سائرون؟ قال: بعث إلينا فلسطين لنكون في طرابلس فقال يوقنا: تيقظوا لأنفسكم فإن أمير العرب أبا عبيدة تركناه على نيّة القدوم إلى الساحل. فقال جرفاس: وماذا ينفع حذرنا ودولتنا قد اضمحلت وأيامنا قد ولّت ولسنا نرى الصليب يُغني عن أهله شيئًا.

قال الواقدي: فنزلوا عندهم ساعة وقدّموا لهم من أزوادهم فأكلوا ثم ركبوا وهمَّ جرفاس أن يركب لركوبهم. فقال يوقنا: اشتغل بأصحابك وألبسهم أفخر ثيابهم، فإن ذلك مما يُظهِر الرعب في قلوب أعدائكم.

قال الواقدي: حدّثني سليم بن عامر عن نوفل بن عبد الله عن جرير بن البكاء وكان أعرف الناس بفتوح الشام، قال: ما دخل يوقنا إلى ساحل البحر حتى أتقن الحيلة وذلك أنه قد نزل فيه الحرث بن سليم من بني عمّه يرعون إبلهم وكانوا في مائتي بيت من العرب فأغار عليهم يوقنا وأخذهم وشدّهم كتافًا ودخل بهم إلى بلاد الساحل، فلما جنَّ الليل جمعهم إليه وقال: لا تظنوا أني رجعت عن الإسلام وإنما فعلت بكم هذا كي تسمع الروم بسواحلها أني غدرت بالعرب وأخذتهم. قال: فاطمأنت العرب إلى كلامه وقالوا له: إن كنت تريد إقامة دين الله فالله ينصرك وبالأعداء يظفرك قال: ووكّل يوقنا رجالاً تسوق الأموال وإنما اطمأن جرفاس وأصحابه إلى يوقنا لما رأى الأسرى من العرب والجِمال والأنعام، فلما ركب يوقنا وأصحابه ورأى أنهم طالبون لساحل البحر نكب عن طريق طرابلس وكمَن في الليل على طريق القوم. قال: وإن جرفاس فرّق خزائنه التي كانت عنده على أصحابه وقعد حتى جنَّ الليل وأكلت الخيل عليقها، ثم ركبوا واستقاموا على الطريق، فلما توسطوا أطبق عليهم يوقنا وأصحابه وداروا بهم ولم يمهلوهم بالقتل وأخذوهم أخذًا بالكفّ وانتشرت الخيل في تلك الأرض لئلا يكون قد انفلت من الروم أحد، فلما حصلوا على قبضتهم وتحت أسرهم أرادوا أن يطلقوا الحرث بن سليم وأصحابه، فقال الحرث: إني أرى من الرأي أن تتركونا على حالنا فإن ثواب الله قد حصل وصبحوا بنا بلاد العدوّ فإنكم ما تشرفون على بلد من بلاد الساحل إلا فتحه الله لكم. قال يوقنا: هذا رأي صحيح ثم أمر أصحابه أن يستوثقوا من الأسرى وكَمَن ألفين من أصحابه وأصحاب فلنطانوس مع الأسرى وهم ثلاثة آلاف فارس وقال: إذا جاءتكم رسلي فاقدموا، ثم ألبس أصحابه زيّ الروم مثل أصحاب قيسارية الذين أخذوهم وساروا نحو طرابلس فلما خرج كلّ مَن في البلد إلى لقائهم كان كتاب فلسطين قد وصل إليهم

أني قد بعثت إليكم بثلاثة آلاف فارس مع جرفاس بن صليبا ودخل يوقنا مع أصحابه حتى استقر قراره في دار الإمارة ودخل عليه شيوخ طرابلس والبطارقة وأهل الحشمة منهم، فلما حصلوا عنده أمر بهم وقبض عليهم وقال: يا أهل طرابلس إن الله سبحانه قد نصر الإسلام وأهله وقد كنّا في عيش مظلم نسجد للصلبان ونعظّم الصور والقربان ونجعل لله زوجة وولدًا حتى بعث لنا هؤلاء العرب فهدانا وألحقنا بهم ببركة نبيّهم ﷺ وهو النبي المبعوث الذي ذكره الله في التوراة وبشّر به عيسى المسيح وأن الإسلام حق وقوله الصدق يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وينطقون بالحق ويتبعون الصدق ويوحّدون الله وينزّهونه عن الصاحبة والولد ويجاهدون في سبيله وهو الذي أمر به أنبياءه ورسله فإما أن ترجعوا إلى دين الإسلام أو تؤدّوا الجزية وإلا بعثتكم عبيدًا للعرب، وهذا ما عندي والسلام.

قال: فلما سمعوا كلامه علموا أن يوقنا اجتاز عليهم وأخذ أصحاب الملك في الطريق. فقالوا: أيها السيد نحن نفعل ما أمرتنا به، فمنهم مَن أسلم ومنهم مَن رضي بالجزية وعدل يوقنا فيهم وبعث إلى أصحاب الكمين فحلّوا الأسرى فعرض عليهم الإسلام فأبوا فأمر بحبسهم وبعث إلى أبي عبيدة بالخبر وما جرى له وبعث الكتاب مع الحرث بن سليم من وادي بني الأحمر وقال: يا عبد الله كن للأمير مبشّرًا بهذا الفتح. قال: سأفعل ذلك إن شاء الله تعالى وسار بالكتاب حتى وصل إلى أبي عبيدة وسلّم عليه وناوله الكتاب، فلما قرأه وعلم معناه فرح وقال للحرث بن سليم: ألم تستأذنّي أن تسير أنت وبنو عمّك إلى وادي بني الأحمر فمَن أوصلك إلى طرابلس؟ قال: أوصلني القضاء والقدر، وذلك أن يوقنا أغار علينا وأخذنا أسرى. . . وحدّثه بحديثهم فعجب من ذلك أبو عبيدة وقال: اللَّهمَّ ثبّتهم وأيّدهم بنصرك.

قال: حدّثني عامر بن أوس قال: أخبرني ابن سالم قال: حدّثني موسى بن مالك قال: إن عمرو بن العاص لما ارتفع المطر رحل من الجابية ونزل على أبواب قيسارية، وأما ما كان من أمر يوقنا فإنه لما ملك طرابلس واحتوى عليها واستوثق من سورها وأبوابها ترك أصحابه على الأبواب وقال: لا تدعوا أحدًا يخرج من الأبواب وكان في المرسى مراكب كثيرة فرفع آلاتها وأخذها كل ذلك ولا يعلم أحد من أهل الساحل بما صنع. قال: وبعد أيام جاءت مراكب كثيرة زهاء من خمسين مركبًا، فتركهم يوقنا حتى نزل أكثرهم إلى المدينة فأمر بهم إليه فاستخبرهم عن حالهم وقال: من أين جئتم؟ قالوا: جئنا من جزيرة قبرص ومن جزيرة أقريطش وقالوا: معنا العدد والسلاح مضروبة لملك فلسطين فأراهم الفرح والسرور وسلّم عليهم وقال: إني أُريد أن أسير معكم، ثم أمر بهم إلى دار الضيافة وبعث إلى قوّاد المراكب فأنزلهم وقدّم لهم السّماط، فلما أكلوا قال: إني

أُريد أن أُسيِّر إليكم الزاد والعلوفة وعدّة السلاح إلى خدمة الملك ولكن تقيمون عندي ثلاثة أيام. فقالوا: أيها البطريق إنّا على عجل من أمرنا نخاف من لوم الملك ولسنا نقدر على ذلك ولم يزل بهم حتى أذعنوا له.

فقال: أُريد أن تنزلوا الشراعات والمقاذيف فتكونوا في المدينة ليطمئن قلبي بذلك ففعلوا وألصقوا المراكب بالسور ونزل كلّ مَن في المراكب وما بقي في المراكب إلا ثلاثة رجال، فلما دبّر هذا التدبير قبض على الجميع فلما كان الليل سلّم طرابلس لبني عمّه وللحرث بن سليم وفلنطانوس وعمر المراكب برجاله وهمَّ بالصعود إليها وإذا عند غروب الشمس قد أقبل خالد بن الوليد رضي الله تعالى عنه في ألف فارس من أصحابه، فلما رآهم يوقنا سجد لله شكرًا وسلّم على خالد بن الوليد وسلّم له المدينة وحدّثه بما جرى له وما قد عزم عليه فقال: نصرك الله وأيّدك، ثم إن يوقنا ركب من ليلته وسار وكان على سور دمشق جيش فلسطين وهو أرمويل بن نشطة ومعه أربعة آلاف فما أصبح يوقنا إلا وهو في مدينة صور فأمر بالبوقات فضربت والرايات فنشرت ووقف الدمستق يختبر خبرهم فعاد صاحب البحرالية. فقال: هؤلاء أهل قبرص وجزيرة أقريطش قد أقبلوا بالعلوفات والطعام والعدد يريدون قيسارية في خدمة الملك، ففرح أهل صور بذلك وأمروهم بالنزول فنزل يوقنا وأصحابه وكان جملة مَن نزل معه تسعمائة رجل وكان قد استخلصهم لنفسه فصنع لهم الدمستق طعامًا ومدَّ لهم سماطًا عظيمًا وأحضر لقوّادهم الخلع ويوقنا ينتظر الليل حتى يثور بأصحابه، وكان جملة مَن نزل معه تسعمائة رجل كما ذكرنا وترك الباقين في المراكب، وقال: إن لم يتمّ لنا ما نريد ولم نظفر بهم فلا تبرحوا من مراكبهم وأنفذ إلى خالد وأخبره بالقصة.

قال الواقدي: ما سمعت بأعجب من هذه القصة، ولقد حدّثني ابن مزاحم عن الأرقط بن عامر عن عمار بن ياسر الربعي. قال: لمّا حصل «يوقنا» والتسعمائة بمدينة صور وأكلوا سماط الملك وخلع على كبرائهم... أقبل عليهم في السرّ رجل من بني عمّ يوقنا ممّن استحكمت الضلالة قلبه واحتوى الكفر على أقانيم جسده فأقبل إلى الدمستق وحدّثه بأمر يوقنا وما قد عزم عليه وأنه مسلم وأنه يقاتلكم مع العرب وقد فتح طرابلس وأخذ البطريق جرمانس صاحب الملك، فلما سمع الدمستق بذلك لم يكذب خبرًا دون أن ركب بأصحابه وقبض على يوقنا وأصحابه ووقع الصياح وكثر الضجيج وسمع بذلك أصحاب يوقنا فعلموا أن ذلك بسبب أصحابهم وأنه قبض عليهم فاغتمّوا لذلك غمًّا شديدًا وأخذوا على أنفسهم من عدوّ يقبل عليهم قال: فلما استوثق عليهم الدمستق أرمويل بن نشطة وكّل بهم ألف رجل وقال: سيروا بهم إلى الملك يفعل فيهم ما يريد وأقبلوا يعنّفون يوقنا وأصحابه ويقولون لهم: ما الذي رأيتم في دين العرب حتى تبعتموهم وتركتم دينكم

ودين آبائكم قد طردكم المسيح عن بابه وأبعدكم عن جنابه، فلما همّوا أن يسيروا بهم وقع الصياح من الأبواب ونفر أهل القرى، ومَن كان بالقرب من صور فسألوهم عن أخبارهم. فقالوا: قَدِمَت العرب عليكم.

قال الواقدي: وكان عمرو بن العاص لما نزل على قيسارية وجّه يزيد بن أبي سفيان في ألفيّ فارس إلى صور، فلما سمع الدمستق أمر بالأبواب فأُغلقت وصعدت الرجالة على الأسوار وعمّروا الأبراج ونصبوا المجانيق وأدخل الدمستق يوقنا إلى قصر صور واستوثق منهم لئلا يتمّ عليه أمر منهم وبات القوم يحرسون وأضرموا نيرانهم على الأسوار فأقبلوا يرقصون ويشربون طول ليلتهم، فلما كان الغد أشرف عليهم يزيد بن أبي سفيان فنظر إليهم الدمستق، فلما رآهم قليلاً استحقرهم وطمع فيهم وقال: وحقّ المسيح لا بدّ لي من الخروج إليهم وهزم هذه الشرذمة اليسيرة. ثم لبس الدمستق اللباس وأمرهم بالخروج وترك على حفظ يوقنا وأصحابه ابن عمه باسيل. قال: وكان باسيل هذا ممّن قرأ الكتب السالفة والأخبار الماضية وكان قد رأى النبي ﷺ في دير بحيرا الراهب وكان باسيل قد مضى إلى زيارة بحيرا، فلما قَدِمَت عِير قريش وجِمال خديجة بنت خويلد وفيها رسول الله ﷺ نظر بحيرا إلى القافلة ورسول الله ﷺ في وسطها والسحابة على رأسه تظلّه من حرّ الشمس، فلما تبيّنه قال: والله هذه صفة النبي الذي يُبعَث من تهامة ثم انتظروا وإذا بالركب قد نزل ورسول الله ﷺ نزل وحده تحت شجرة يابسة واستلقى إليها فأورقت الشجرة بين يدي رسول الله ﷺ، فلما عاين بحيرا ذلك صنع طعامًا لقريش واستدعاهم فدخلوا الدير وبقي هو مع الإبل ليرعاها، فلما نظر بحيرا إليهم ولم يره في جملتهم قال: يا معشر قريش هل بقي منكم أحد؟ قالوا: نعم بقي فينا مَن تخلّف لحفظ القافلة ورعَي الإبل. قال: ما اسم مَن يرعى الإبل؟ قالوا: محمد بن عبد الله. قال: هل مات أبوه وأُمه؟ قالوا: نعم. قال: هل كفله جدّه وعمّه؟ قالوا: نعم، قال: يا قريش هو والله سيّدكم وبه يعظم في الدنيا مجدكم، قالوا: من أين علمت ذلك؟ قال: لمّا أشرفتم عليَّ من البرية لم يبق صخر ولا مدر إلا خرَّ له ساجدًا.

قال الواقدي: فبقي باسيل في حيرة من أمرهم وكتم سرّه وعلم أن بحيرا لا يتكلم إلا بالحق، فلما وقع يوقنا وأصحابه ووكّله الدمستق على حفظهم قال: إن الإسلام هو الحق وقد بشّر به بحيرا الراهب، ولعل الله يغفر لي إذا حَلَلْتُ هؤلاء القوم.

قال الواقدي: من حُسْن تدبير الله لعباده المؤمنين أنه لمّا خرج الدمستق إلى لقاء يزيد بن أبي سفيان لم يتأخر أحد من شباب المدينة لا صغير ولا كبير إلا وخرج معه وبقيت العوام ينتظرون على الأسوار ما يكون بينهم وبين العرب، فلما نظر باسيل إلى المدينة وخلوّها واشتغال أهلها بالحرب أخذ رأيه على خلاص يوقنا ومَن معه فأقبل إليهم

بالليل والتفت إلى يوقنا وأصحابه وقال: أيها البطريق كيف تركت دين آبائك وأجدادك من قبل وعوّلت على دين هؤلاء العرب وما الذي رأيت من الحق حتى تبعتهم وقد كانت الروم تتخذك عضدًا لها وعونًا؟ قال له يوقنا: يا باسيل ظهر لي من الحق ما ظهر لك من الحق فعرفته وقد هتف بي هاتف يقول لي: إن الذي هداك إلى دينه يخلّصك وبشّرني بالخلاص على يديك. قال: فلما سمع زاد إيقانه وتحقق إيمانه وقال ليوقنا: لقد أنطق الله لسانك بالحق وإن الله كشف حجاب الغفلة عن قلبي منذ رأيت نبي هؤلاء القوم بدير بحيرا الراهب وهو في قافلة لأهل مكة ورأيت من دلائله أنه لا يسير على الأرض إلا والشجر تسير إليه والسحابة على رأسه تظلّله ولقد استند إلى شجرة يابسة فأورقت في الحال وأنبأني بحيرا الراهب أنه وجد في العلم أن جماعة من الأنبياء استندوا إليها وجلسوا حولها فلم تورق، فلما استند بظهره إليها أورقت أغصانها وأينعت فعجبت من ذلك، وسمعت بحيرا يقول: هذا والله الذي بشّر به المسيح فطوبى لمَن تبعه وآمن به وصدقه، فلما عدت من زيارة بحيرا سافرت إلى القسطنطينية بتجارة وطفت في بلاد الروم وأقمت ما شاء الله، ثم عدت إلى قيسارية فرأيت الروم في هرج ومرج فسألت عن أحوالهم فقيل قد ظهر نبيٌّ في الحجاز اسمه محمد بن عبد الله وقد أخرجه قومه من مكة وقد أتى إلى المدينة التي بناها تبع وقد ظهر على قومه ونصر عليهم فما زلت أسأل عن أخباره وهي في كل يوم تنمو وتزيد حتى مات، ثم ولّى صاحبه أبو بكر الصديق رضي الله تعالى عنه وأنفذ جيوشه إلى الشام فلم يلبث إلاّ يسيرًا ثم مات وولّى هذا الرجل عمر بن الخطاب ففتح بلادنا وهزم جيوشنا وأنا مع ذلك أنتظر قدومهم إلى هذا الساحل حتى أتى الله بهم. فقال له يوقنا: وما الذي عزمت عليه؟ قال: عزمت والله أن أُفارق قومي وأتبعكم فإن الحق بيِّن ثم حلَّ يوقنا وأصحابه وسلّم إليهم العدد والسلاح وقال ليوقنا: اعلم أن مفاتيح أبواب المدينة عندي والعسكر خارج المدينة مشتغل بقتال العرب وليس في المدينة مَن يخاف جانبه فانهض على اسم الله. فقال يوقنا: جزاك الله خيرًا فلقد هداك الله إلى دينه وسلك بك طريق النجاة وختم لك بخير. ويجب الآن علينا أن نُظهِر أنفسنا ونبعث في المراكب حتى ينزلوا إلينا ونكون نحن يدًا واحدة.

فقال باسيل: سأفعل ذلك ثم إنه خرج في حال الخفاء وفتح باب البحر ومعه رجل من بني عمّ يوقنا وركبا زورقًا حتى وصلا إلى البحر والمراكب وحدّثاهم بما قد كان فأقبل كل مركب برجاله إليهما وساروا إلى أن نزل الجميع وحصلوا داخل المدينة أعني مدينة صور وأعمى الله أبصار الكفّار، فلما همّوا أن يثوروا قال يوقنا: ليس هذا من الرأي وأين مَن يهب نفسه لله عزّ وجل ويخفي أمره ويخرج من الباب ويدور إلى عسكر المسلمين ويتوصل إلى أميرهم ويعلمه بما كان منّا ويكون على أُهْبة وإذا سمع بنا أحد لا يهوله وليصدم جيش العدو؟ فقال رجل من القوم: أنا أكون ذلك الرجل، ثم خرج متنكرًا

وأغلق باسيل خلفه ووصل إلى يزيد بن أبي سفيان وحدَّثه بالأمر على حقيقته وبما كان من أمر يوقنا فسجد لله شكرًا وبعث من ساعته إلى المسلمين ليأخذوا على أنفسهم في الكبة على القوم ففعلوا ذلك.

وأما يوقنا رحمه الله، فلما علم أن الخبر وصل إلى المسلمين قال لأصحابه: ليصعد منكم خمسمائة رجل إلى السور ويقتلوا مَن عليه، قال باسيل: ليس هذا رأيًا فإن العوام لا اعتبار لهم ولعل الله أن يهديهم إلى الإسلام ولكن مُرْ أصحابك أن يلزموا مطالع السور حتى لا ينزل أحد منهم ويزعقوا بالأمان. قال: فاستصوب رأيه ووكّل الرجال بالمطالع ثم زعق يوقنا وأصحابه بصوت مزعج وقالوا: لا إلٰه إلا الله محمد رسول الله فسمع كلّ مَن في المدينة ومَن على السور ذلك فعلموا أن يوقنا وأصحابه تخلصوا من الأسْر ووثبوا في المدينة وطارت عقولهم وانزعجت أفئدتهم على أولادهم وأهاليهم فبقوا في حيرة فسمع يزيد بن أبي سفيان الضجة فعلم أن المسلمين قاموا في المدينة فكبّر وكبّرت المسلمون وهلّل الموحّدون فسمع الدمستق الضجة من المدينة فعلم أن يوقنا وأصحابه تخلصوا من الأسْر وهم الذين فعلوا ذلك فوقع الرعب في قلوبهم ونظروا إلى النيران قد اشتعلت في عسكر المسلمين وتأهبوا للحملة عليهم فلم يبقَ لهم صبر وقد انقطعت قلوبهم من أجل أموالهم وأولادهم الذين في داخل المدينة وقيسارية محاصرة وليس لهم مدد من ولد الملك فولّوا الأدبار واتّبع المسلمون آثارهم وملكوا خيامهم وما كان فيها، فلما أصبح الصباح فتح يوقنا باب المدينة ودخل يزيد بن أبي سفيان ومَن معه من المسلمين واحتووا على أموال الروم ونادى مَن كان على السور الغوث فأمنهم المسلمون ونزلوا بأجمعهم، فقال لهم يزيد: إن الله عزّ وجل قد فتح لنا مدينتكم عنوة وأنتم الآن لنا عبيد، فما شئنا حكمنا فيكم، ولكن نحن إذا عاهدنا وَفَينا، وإذا قلنا صدقنا، وقد أعطيناكم الأمان من أنفسنا ولكن عليكم الجزية على مَن لم يدخل في ديننا ومَن أسلم منكم فله ما لنا وعليه ما علينا، فأجاب القوم إلى ذلك وأسلم أكثر القوم وبلغ الخبر إلى فلسطين بأن صور قد فتحت، فعلم أنه لا بقاء له فأخذ الفرصة وانهزم وأخذ خزائنه وأمواله وذخائره وخدمه وأركبهم في المراكب بالليل وأقلع يريد اللحوق إلى قسطنطينية، فلما نظر أهل قيسارية إلى ذلك خرجوا إلى عمرو بن العاص وصالحوه على أن يسلموا له المدينة فصالحهم على مائة ألف درهم وما ترك الملك من خزائنه ورجاله فأجابوه إلى ذلك وكتب لهم كتاب الصلح فعندها دخل عمرو بن العاص إلى قيسارية وأخذ بقية ما ترك الملك وضرب الجزية عليهم من السنة الآتية كل رجل أربعة دنانير وبذلك أمرهم عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه وبعث عمرو جيشًا إلى صور مع ياسر بن عمار بن سلمة وكان شيخًا كبيرًا قد شهد مع رسول الله ﷺ حُنَينًا والنضير وقتل أخوه يوم حُنَين قتله مالك بن عون النضيري فبعثه عمرو إلى صور ومعه رجل من

أصحابه، وصالح عمرو بن العاص أهل قيسارية على مائة ألف درهم وما خلفه فلسطين من بقية ذخائره، قال: ودخلها يوم الأربعاء في العشر الأول من رجب الفرد سنة تسع عشرة من الهجرة ووصل الخبر إلى الرملة وعكاء وعسقلان ونابلس وطبرية فعقدوا كلهم صلحًا مع المسلمين وكذلك أهل بيروت وجبلة واللاذقية، ومَلّكَ الله الشام كله للمسلمين ببركة سيّد المرسلين ﷺ.

ذكر فتوح مصر

بسم الله الرحمٰن الرحيم وهو حسبي. قال زياد بن عامر: قال شام بن عبد الله العنبري: حدّثنا سالم مولى عروة بن النعيم اليشكري، قال: لما فتح عمرو بن العاص قيسارية صلحًا كان لعمر في الخلافة أربعة أعوام وستة أشهر وبلغ الخبر إلى أهل الرملة وعكاء وبلقاء وعسقلان وصيدا وغزة ونابلس وطبرية فأتى كبراؤهم إلى أبي عبيدة وأصلحوا أمرهم معه على مال لا يُحصى وكذلك أهل بيروت وجبلة واللاذقية وأنفذ أبو عبيدة لعمرو بن العاص أن يسير إلى مصر بأمر عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وملك المسلمون أقاصي البلاد ببركة نبيّنا محمد ﷺ وعظم كرم. قال: وسكنها العرب وتفرّقوا في البلاد والمدن ودانت لهم العباد وكل يوم يزدادون فلم يبقَ في الشام وأعمالها مركز من مراكز الروم إلا أخذه المسلمون وتوالدوا وتناسلوا وكثروا ببركة سيدنا محمد ﷺ.

قال محمد بن إسحٰق الأموي رحمه الله تعالى. قال: حدّثنا يونس بن عبد الأعلى قراءة عليه بالخضراء بمدينة عسقلان. قال: أخبرنا الليث بن سعد. قال: حدّثنا نوفل بن عامر، قال: أخبرني يحيىٰ بن ساكن المدني قراءة عليه يوم الجمعة، ونحن عند منبر يونس بن متّى. قال: لمّا فتح الله ساحل الشام على المسلمين في سنة تسع عشرة من هجرة رسول الله ﷺ كتبوا بذلك إلى أمير جيوش المسلمين أبي عبيدة عامر بن الجراح: بسم الله الرحمٰن الرحيم. من عمرو بن العاص إلى أمين الأمة. أما بعد: فإني أحمد الله الذي لا إلٰه إلا هو، وأُصلّي على نبيّه محمد ﷺ وأن الله جلّ وعلا قد فتح ما كان قد بقي من الساحل وأخذنا قيسارية صلحًا وهرب منها فلسطين بن هرقل بأمواله وعياله ونحن بها ننتظر أمرك والسلام. وكتب أيضًا يزيد بن أبي سفيان بما تمّ ليوقنا في صور وأن الله قد عضد الدين ووصل الكتابان إلى أبي عبيدة وقد رحل من حلب يريد طبرية فوصل إليه الخبر وهو نازل على الزراعة، فلما قرأ الكتابين تهلّل وجهه فرحًا وضجّ المسلمون بالتهليل والتكبير وكتب من وقته وساعته إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه يبشّره بما فتح الله على المسلمين وبما فعله يوقنا ووجّه الكتاب مع عرفجة بن مازن فركب ناقته وسار حتى وصل المدينة. قال عرفجة بن مازن: وعليَّ من ديباج الروم قباء

فاخر وعلى رأسي مطرف خزٍّ مذهّب. قال: فلما أتيت المدينة ودخلتها يوم الجمعة أول ليلة من شهر رمضان قبل مغيب الشمس، وعمر رضي الله عنه قد أتى يريد المسجد، فلما أبركت ناقتي وعقلتها وجئته لأُسلّم عليه نظر إليَّ شزرًا وقال: مَن الرجل؟ قلت: عرفجة بن مازن، فقال: يا ابن مازن أما كان لك برسول الله أُسوة حسنة وأن هذه ثياب الجبارين، ومَن جعل الله لهم الدنيا جنة وهذا الديباج حرام على الرجال منّا ولا يصلح إلا للنساء وهذا الذي عليك تصدَّق به على فقراء المدينة. أما والله لقد دخلت يومًا على رسول الله ﷺ وهو نائم على سرير مرمل بشريط، وليس بين جلده وبين الشريط شيء، وقد أثّر الشريط في نعومة جلد رسول الله ﷺ، فلما رأيت ذلك بكيت.

فقال لي: «يا عمر ما الذي أبكاك»؟ فقلت: يا رسول الله إن كسرى وقيصر يعيشان في ملك الدنيا وأنت رسول الله بهذه المثابة.

فقال: «يا عمر أما ترضى أن تكون لهم الدنيا ولنا الآخرة». قال عرفجة: فسلّمت إليه الكتاب، فلما قرأه تهلّلت أسارير وجهه. قال عرفجة: ثم نزلت على خالتي عفراء بنت أبي أيوب الأنصاري وبتُّ عندها ليلتي، فلما أصبحت لم أقدر أن أُقابل عمر بذلك الزيّ فأعطيت الثوب والعمامة لخالتي فباعتهما وتصدّقت بثمنهما على فقراء المدينة، قال: وسرت إلى عمر وعليّ وثوب من كرابيس الشام كان تحت ثيابي فلما رآني تبسّم في وجهي، وقال: يا ابن مازن ما فعلت بديباجتك؟ قلت: يا أمير المؤمنين باعتها خالتي وتصدَّقت بثمنها على المسلمين فقرأ عمر ﴿**وما تفعلوا من خير يعلمه الله**﴾ [البقرة: ١٩٧] ثم إنه كتب إلى أبي عبيدة يقول: بسم الله الرحمٰن الرحيم من عبد الله عمر بن الخطاب إلى أبي عبيدة عامر بن الجرَّاح أما بعد: فإني أحمد الله الذي لا إلٰه إلا هو، وأُصلّي على نبيّه محمد ﷺ وقد فرحت بما فتح الله على المسلمين وما وعدنا به رسول الله من كنوز قيصر وسيفتح علينا من كنوز كسرى، والحمد لله على ذلك كثيرًا وقد بلغني أن بادية الأعراب قد استلذّوا الدنيا وزينتها، وقد نصبت لهم شِباك محبتها، وقد تمسكوا بذيل غرورها ونسوا نعيم الجنة وقصورها ورفلوا في ثياب الديباج والخزّ وأكلوا الحلواء وخبز الحنطة ولهاهم ذلك عن الآخرة، وقد بلغني يا ابن الجراح أنهم قد تهاونوا بالصلاة ونسوا المفترضات فجرِّد عليهم عتاق الخيل ذوات الهِمَم وأغلظ عليهم ولا تكن لهم خاملاً فيطمعوا فيك، ومَن أخلَّ منهم بشيء مما فرض عليهم فأقم فيهم حدود الله، واعلم بأنك راع ومسؤول عن رعيته. قال الله عزّ وجل: ﴿**الذين إن مكّناهم في الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر**﴾ [الحج: ٤١] وقد قال فيك رسول الله ﷺ: «أبو عبيدة أمين هذ الأمة» فأعطِ الأمانة حقّها ومَن ترك صلاته فاضربه عليها، ولقد كان رسول الله ﷺ يحدّثنا ونحدّثه. فإذا حضرت الصلاة فكأنه لم

يعرفنا ولم نعرفه اشتغالاً بالصلاة وبعظمة الله، وعنه ﷺ أنه قال: «إن الله عزّ وجل يقول: إن بيوتي في الأرض المساجد وإن زُوّاري فيها عمّارها بالعبادة فطوبى لعبد تطهر في بيته، ثم زارني فحقٌّ على المزور أن يكرم زائره» وقال ﷺ: «جميع المفترضات افترضها الله عليَّ في الأرض إلا الصلاة فإن الله افترضها عليَّ في السماء» وإذ قرأت بكتابي هذا فأمر عمرو بن العاص أن يتوجه إلى مصر بعسكره ويقدمهم عامر بن ربيعة العامري ومشايخ من أصحاب رسول الله ﷺ يفضي بهم عند مشورته وأنفذ مَن قدرت عليه إلى أرض ربيعة وديار الجدّ بن صالح والله أسأل أن يكون لكم عونًا ومعينًا والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته. وسلّم الكتاب إلى عرفجة بن مازن وأمر له بنفقة من بيت المال.

قال عرفجة: فأخذت الكتاب وسرت به على طريق تيماء فلقيت عند بيت لحم ركبًا من أهل وادي القرى، فسألتهم عن أبي عبيدة فأخبروني أنه على غباغب وهو طالب طبرية. قال عرفجة: أطلب الغور والجولان وأقصد طبرية، قال: فالتقيت بأبي عبيدة على الأردن، فسلّمت عليه وناولته كتاب عمر رضي الله عنه فلما قرأه جمع المسلمين وقرأه عليهم، فلما فرغ قال: ما من رجل ترك الصلاة أو أخلَّ بشيء مما افترضه الله عليه إلا جلدته، ومن الغد أتى خالد بن الوليد من طرابلس فقرأ عليه الكتاب وأنفذه إلى عمرو بن العاص أرسل يحثّه على المسير إلى أرض مصر، فلما وصل الكتاب إلى عمرو أخذ على نفسه بالمسير وسار معه يزيد بن أبي سفيان وعامر بن ربيعة العامري وجماعة من الصحابة وسار معه يوقنا في أربعة آلاف من أصحابه وقد وهبوا أنفسهم لله ورسوله فسار عمرو على البيداء من وراء العريش قال: وكانت أرض مصر وريفها عامرة بالديور والصوامع وكان دير الزجاج في مملكة القبط، وكان ملكهم يومئذ المقوقس بن راعيل، وكان هذا الملك من أهل الرأي والتدبير والفضل والحكمة، وكان تلميذ الحكيم أعاشادمون وهو الذي لما غلبت الحيّات على أرض مصر وأخربتها صنع لها جلجلاً، وكان إن حرّكه سمع صوته من مقدار ميل. قال: فتخرج الحيّات من حجرتها فمَن هربت نَجَت ومَن وقعت هلكت، وكان المقوقس من أعلم أهل زمانه وكانت القبط معه في عيشة مرضية وكان يتوقع ظهور رسول الله ﷺ.

وكان حكيم ذلك الزمان بمصر يقال له عطماوس وهو الذي صنع دواليب الريح ورحى الهواء، وكان عمّر في الأجيال واطّلع على مكنون الحكم والأسرار وعرف عمل صنعة الإكسير وعمل الذهب والفضة والجوهر والحركات المتحركة من نفسها بهبوب الريح وأجناس الأهوية في أجسامها وكان يجد في عمله أن الله يبعث نبيًا من أرض تهامة ينشر دينه وتعلو كلمته وتملك أصحابه البلاد، فعمل في أيام راعيل أبي

المقوقس هيكلاً عظيمًا على أعمدة من نحاس بمكان يُعرف بعين شمس وجعل عليه أشخاصًا مجوَّفة وجعل وجهها إلى جهة مصر وكتب عليها بالقبطية إذا دارت هذه الأشخاص إلى جهة الحجاز فقد قرب ملك العرب قال: فبينما المقوقس راكب في بعض الأيام للصيد وقت هجرة رسول الله ﷺ، وقد انتهى سيره إلى عين شمس إذ هو سمع أصواتًا من الأشخاص قد علت ثم إنها حوَّلت وجهها نحو الحجاز فأيقن بتلف ملكه وزواله، فعاد من ركوبه وهو قلق ودخل قصر الشمع وجلس على سريره وجمع القسوس والرهبان وكبراء القبط، وقال لهم: يا أهل دين النصرانية اعلموا أن زمانكم قد مضى وهذا النبي المبعوث لا شك فيه وهو آخر الأنبياء ولا نبيَّ بعده وقد بعث بالرعب ولا بدَّ لرجل من أصحابه أن يملك ما تحت سريري هذا فانظروا إلى ملككم وأصلحوا ذات بينكم وارفقوا برعيّتكم ولا تجوروا في حكمكم وأمّنوا ضعفاءكم وإيّاكم واتّباع الظلم فإن الظلم وبيل ومرتعه وخيم وأعطوا الحق من أنفسكم ولا يستطل قويّكم على ضعيفكم وما دامت الدنيا لأحد من قبلكم حتى تدوم لكم وكما ملكتموها ممّن كان قبلكم كذلك يأخذها منكم مَن كان بعدكم فأصلحوا نيّاتكم فيما بينكم وبين خالقكم فإن فعلتم ذلك رجوت لكم النصر على أعدائكم ومَن يريدكم، وإن اتبعتم أهواءكم تبيّن هلاككم.

قال: حدّثنا ابن إسحٰق عن عبد الملك عن أبيه عن حسان بن كعب عن عبد الواحد بن عوف عن موسى بن عمران عن حميد الطويل عن أبي إسحٰق الراوي المغازي مع رسول الله ﷺ قال: لما جاء النبي ﷺ من مكة إلى المدينة وبايعه الأوس والخزرج كتب إلى ملوك الأرض، وفي الجملة كتابًا إلى المقوقس ملك مصر وكان الذي كتب الكتاب إليه أبو بكر الصديق رضي الله عنه، ونسخة الكتاب: بسم الله الرحمٰن الرحيم من عند رسول الله ﷺ إلى صاحب مصر. أما بعد: فإن الله أرسلني رسولاً وأنزل عليَّ كتابًا قرآنًا مُبينًا وأمرني بالإنذار والاعذار ومقاتلة الكفّار حتى يدينوا بديني ويدخل الناس فيه وقد دعوتك إلى الإقرار بوحدانية الله تعالى فإن أنت فعلت سعدت وإن أنت أبيت شقيت والسلام، ثم طوى الكتاب وختمه بخاتمه. قال أنس بن مالك: فاستخرجه رسول الله ﷺ من أصبعه وكان فصّه عليه ثلاثة أسطر: السطر الأول محمد، السطر الثاني رسول، السطر الثالث الله ولا نقش أحد على خاتمه كنقشه. قال سمرة بن عوف: قلت لحميد الطويل: أكان لخاتم رسول الله ﷺ فصّ أم لا؟ قال: لا أدري، قال: وسأل رجل جابر بن عبد الله الأنصاري فقال له: في أيّ يد كان يتختم رسول الله ﷺ؟ فقال: في يده اليمنى، ويقول: «اليمنى أحقّ بالزينة من الشمال» وفصّ الخاتم في يمينه، وقال عبد الله بن عباس: رأيت رسول الله ﷺ يتختم في يمينه ثم حوله إلى يساره.

حدّثنا أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ كان يتختم في يساره، وحدّثنا جعفر بن محمد عن أبيه قال: كان رسول الله ﷺ وأبو بكر وعمر وعثمان وعليّ والحسن والحسين رضي الله عنهم جميعًا يتختمون في اليسار.

قال الراوي: فلما طبع الكتاب بخاتمه قال: «أيها الناس أيّكم ينطلق بكتابي هذا إلى صاحب مصر وأجْره على الله»؟ قال: فوثب إليه حاطب بن أبي بلتعة القرشي وقال: أنا يا رسول الله. فقال له: «بارك الله فيك يا حاطب». قال: فأخذت الكتاب من يد رسول الله ﷺ وودّعته وأصحابه وسرت إلى منزلي وشددت راحلتي وودّعت أهلي واستقمت على الطريق إلى نحو مصر. فلما بعدت عن المدينة بثلاثة أيام أشرفت على ماء لبني بدر فأردت أن أُورِد ناقتي الماء وإذا على الماء رجلان ومعهما ناقتان ومعهما رجل آخر راكب على جواد أدهم، فلما رأيتهم وإذا بالفارس أتى إليَّ، وقال لي: من أين أقبلت، وأين تريد؟ فقلت: يا هذا لا تسأل عمّا لا يعينك فتقع فيما يحزنك ويخزيك أنا رجل عابر سبيل وسالك طريق. فقال: ما إياك أردنا ولا نحوك قصدنا نحن قوم لنا دم وثأر عند محمد بن عبد الله وقد جئت أنا وهذان الرجلان وتحالفنا على أن ندهمه على غفلة فلعلنا نجد منه غرّة فنقتله. قال حاطب: والله لقد أمكنني الله منهم فلأجعلنّ جهادي فيهم ولو بالخديعة، فقد سمعت رسول الله ﷺ يقول: «الحرب خدعة».

فبينما أنا أُخاطب الفارس وإذا بالراكبين قد وصلا إليَّ وقالا لي بغلظة وفظاظة: ويحك لعلك من أصحاب محمد؟ فقلت لهما: لقد كاد أن يتبدَّل لكما الطريق عن سبيل التحقيق وإني رجل مثلكما أطلب ما تطلبون وأنا قاصد يثرب، وقد عوَّلت عليّ صحبتكم لأكون معكم، ولكن سمعت في طريقي هذا ممّن أثق به أن محمدًا أنفذ رسولاً من أصحابه إلى مصر بكتاب فلعله في هذا الوادي فإن وقعنا به قتلناه. فقال صاحب الفرس: أنا أسير معك ثم إنه تقدم أمامي وتركنا صاحبيه واقفين ينتظران، قال حاطب: فلما بعدت به عن أصحابه وغبنا عنهما، قلت: ما اسمك؟ قال: اسمي سلاب بن عاصم الهمداني، قلت: يا سلاب اعلم أنه لا يقدر أن يدخل على يثرب إلا مَن كان له جنان وقلب وغدر ومكر لأن بها سادات الأرض وأبطالها مثل عمر وعليّ، ولكن كيف سيفك؟ قال: سيفي ماضٍ، قلت: أرِني إياه فاستلّه من غمده وسلّمه إليَّ فأخذت السيف من يده وهززته وقلت: سيف ماضٍ، ثم قلت:

سيوف حداد يا لؤيّ بن غالب — مواضٍ ولكن أين للسيف ضارب

فقال: ما معنى هذا الكلام؟ قلت: يا ابن عاصم إن سيفك هذا من ضرب قوم عاد من ولد شدَّاد، وما ملكت العرب سيفًا مثله ولا أمضى من هذا السيف، ولكن وجب عليَّ إكرامك وأُريد التقرّب إليك بحيلة أُعلمك إياها تقتل بها عدوَّك. فقال: بذمّة العرب

افعل ذلك. فقال حاطب: إذا كنت في مقام حرب وقتال وخصمك بين يديك وتريد قتله فهزّ هذا السيف حتى يهتز هكذا وتلتئم مضاربه واضرب عدوّك بحرفه فإنه أسرع للقتل والقطع، ومِلْتُ بالسيف على عنقه وإذا برأسه طائر عن بدنه، فنزلت إليه وأمسكت الجواد لئلا ينفلت فينذر أصحابه، وتركته مربوطًا إلى شجرة وأسرعت إلى صاحبيه وإذا هما ينتظراننا، فلما رأياني أقبل أحدهما إليّ فقال: ما وراءك وأين سلاب؟ فقلت: أبشر بأخذ الثأر وكشف العار واعلم بأننا وجدنا رجلين من أصحاب محمد وهما نائمان، وقد وجّهني سلاب بأن يمضي أحدكما حتى نتمكّن منهما ويقف أحدكما هٰهنا، فإن هذا الوادي ما خلا ساعة من أصحاب محمد. فقال: نِعْمَ الرأي الذي أشرت به وسار معي، فلما غيّبته عن صاحبه قلت: ما اسمك؟ قال: عبد اللات. قلت: كن رجلاً وإياك الخوف فإنك إن رأيتنا وقد هجمنا على الرجلين فاستيقظ. فقال: لا بدّ أن أفعل ذلك، فقلت له: إني أرى غبرة ولا شك أن تحتها قومًا ممّن صبأ إلى دين محمد، فجعل يتأمل كأنه الواله الحيران فعاجلته بضربة على غفلة فرميت رأسه عن بدنه وعدت إلى الثالث، فلما رآني وحدي تيقن بالشر فقارعني وقارعته وصدمني وصدمته، إلا أن الله أعانني عليه فقتلته، وأخذت الراحلتين والفرس وأسلابهما ووضعت الجميع عند رجلٍ من أصحابي، وكان رفيقًا لي من زمن الجاهلية وهو من عبد شمس، ثم توجهت أُريد مصر ولم أزل إلى أن أتيتها، فلما وصلت إلى باب الملك، قالوا: من أين جئت؟ قلت: أنا رسول إلى ملككم، فقالوا: من عند مَن؟ قلت: من عند رسول الله ﷺ، فلما سمعوا بذلك أحاطوا بي وأوصلوني إلى قصر الشمع بعد أن استأذنوا لي وأوقفوني على باب الملك فأمرهم بإحضاري بين يديه، فعقلت راحلتي وسرت معهم عند المقوقس وإذا هو في قبة كَثُرَ الجوهر في حافتها ولمع الياقوت من أركانها، والحجّاب بين يديه. فأومأت بتحية الإسلام، فقال حاجبه: يا أخا العرب أين رسالتك؟ قال: فأخرجت الكتاب فأخذه الملك من يدي بيده. قال: فباسه ووضعه على عينيه، وقال: مرحبًا بكتاب النبي العربي، ثم قرأه وزيره الباكلمين، فقال له: اقرأه جهرًا فإنه من عند رجل كريم، فقرأه الوزير إلى أن أتى إلى آخره. فقال الملك لخادمه الكبير: هات السفط الذي عندك فأتى به، ففتحه واستخرج نمطًا ففتح ذلك النمط وإذا فيه صفة آدم وجميع الأنبياء صلوات الله عليهم أجمعين وفي آخره صفة محمد ﷺ. فقال لي: صِفْ صاحبك حتى كأنني أراه. قال حاطب: ومَن يقدر أن يصف عضوًا من أعضاء رسول الله ﷺ؟ فقال: لا بدَّ من ذلك. قال: فوقفت بعدما كنت جالسًا وقلت: إن صاحبي وسيم قسيم معتدل القامة، بعيد الهامة بين كتفيه شامة وله علامة كالقمر إذا برز، صاحب خشوع وديانة وعفّة وصيانة، صادق اللهجة واضح البهجة أشمّ العرنين، واضح الجبين سهل الخدّين رقيق الشفتين برّاق الثنايا بعينيه دعج وبحاجبيه زجج،

وصدره يترجرج وبطنه كطيّ الثوب المدبج له لسان فصيح ونسب صحيح وخلق مليح، قال: والملك ينظر في النمط، فلما فرغت قال: صدقت يا عربي هكذا صفته، فبينما هو يخاطبني إذ نصبت الموائد وأحضروا الطعام، فأمرني أن أتقدم فامتنعت فتبسم وقال: وقد علمت ما أحلَّ لكم وحرَّم عليكم، ولم أُقدّم لك إلا لحم الطير. فقلت: إني لا آكل في هذه الصِّحاف الذهب والفضة فإن الله قد وعدنا بها في الجنة، قال: فبدّلوا طعامي في صِحاف فخار فأكلت. فقال: أيُّ طعام أحبّ إلى صاحبك؟ فقلت: الدبّاء يعني القرع فإذا كان عندنا شيء منه آثرناه على غيره. فقال: ففي أيِّ شيء يشرب الماء؟ فقلت: في قعب من خشب. قال: أيحبّ الهدية؟ قلت: نعم فإنه قال ﷺ: «لو دُعيت إلى كراع لأجبت، ولو أُهدِيَ إليَّ ذراع لقبلت». قال: أيأكل الصدقة؟ قلت: لا بل يقبل الهدية ويأبى الصدقة، وقد رأيته إذا أُتِيَ بهدية لا يأكل منها حتى يأكل صاحبها. فقال الملك: أيكتحل؟ قلت: نعم، في عينه اليمنى ثلاثًا وفي اليسرى اثنتين، وقال: «مَن شاء اكتحل أكثر من ذلك أو أقل» وكحله الإثمد وينظر في المرآة ويرجل شعره ويستاك. فقال المقوقس: إذا ركب ما الذي يحمل على رأسه؟ فقلت: راية سوداء ولواء أبيض وعلى اللواء مكتوب لا إله إلا الله محمد رسول الله. فقال: أله كرسي يجلس عليه أو قبّة؟ قلت: نعم له قبة حمراء تَسَع نحو الأربعين. قال: فما الذي يحبّ من الخيل؟ قلت: الأشقر الأرثم الأغرّ المحجل في الساق، وقد تركت عنده فرسًا يقال لها المرعد. قال: فلما سمع كلامي انتخب من خيله فرسًا من أفخر خيول مصر الموصوفة، وأمر به فأُسرِجَ وأُلجِمَ فأعدّه هدية لرسول الله ﷺ وهو فرسه المأمون وأرسل معه حمارًا يقال له عفير، وبغلة يقال لها دلدل، وجارية اسمها بريرة وكانت سوداء، وجارية بيضاء من أجمل بنات القبط اسمها مارية، وغلام اسمه محبوب، وطِيب وعود وندّ ومسك وعمائم وقباطي، وأمر وزيره أن يكتب إلى رسول الله ﷺ كتابًا يقول فيه: باسمك اللَّهمَّ من المقوقس إلى محمد. أما بعد: فقد وصل إليَّ كتابك وفهمته، وأنت تقول: إن الله أرسلك رسولاً وفضّلك تفضيلاً وأنزل عليك قرآنًا مُبينًا، فكشفنا يا محمد خبرك، فوجدناك أقرب داع إلى الله وأصدق مَن تكلم بالصدق، ولولا أنني ملكت مُلكًا عظيمًا لكنت أول مَن آمنَ بك لعلمي أنك خاتم النبيين وإمام المرسلين، والسلام عليك ورحمة الله وبركاته مني إلى يوم الدين. قال: وسلّم الكتاب والهدية إليَّ وقبّلني بين عيني وقال: بالله عليك قبّل بين عيني محمد عني هكذا، ثم بعث معي مَن يوصلني إلى بلاد العرب وإلى مأمني. قال: فوجدنا قافلة من بلاد الشام وهي تريد المدينة فصحبتها إلى أن وردت المدينة فأتيت المسجد وأنخت ناقتي ودخلت وسلّمت على رسول الله ﷺ وأنشأت أقول:

أنعم صباحًا يا وسيلة أحمد نرجو النجاة غدًا بيوم الموقفِ

إني مضيت إلى الذي أرسلتني ... أطوي المهامه كالمجدّ المعنف
حتى رأيت بمصر صاحب ملكهم ... فبَدَا إليَّ بمثل قول المنصف
فقرأ كتابك حين فكّ ختامه ... فأطلَّ يرعد كاهتزاز المرهف
قال البطارقة الذين تجمعوا ... ماذا يروعك من كتاب مشرف
قال اسكتوا يا ويلكم وتيقنوا ... هذا كتاب من نبيٍّ المصحف
قالوا وهمت فقال لست بواهم ... إني قرأت بيان لفظ الأحرف
وبكل سطر من كتاب محمد ... خط يلوح لناظر متوقف
هذا الكتاب كتابه لك جامعًا ... يا خير مأمول بحبك نكتفي

قال الراوي: ورجعنا إلى الفتوح، قال: حدَّثني أحمد بن عبيد عن عبد الله بن عمر السلمي عن محمد الزهري عن عبد الله بن زيد الهذلي عن أبي إسحٰق الأموي وهو المعتمد عليه في فتوح مصر وأرض ربيعة والفرس.

حدّثنا عمر بن حفص ولم ينفرد بهذه الرواية سواه، وكان أصحاب السِّيَر قد اشتغلوا بوقائع العراق وفتوحه، وما تجدد من سعد بن أبي وقاص وبني كسرى أنو شروان وتركوا فتوح الشام وأرض مصر فيما بعد، وكان قد ارتحل عنهم فتركوه لأجل الزيادة والنقصان فيه، وإنما انفرد ابن إسحٰق لأنه انفرد عن مشايخ ثقات قد وثق بهم من آل مخزوم اجتمع بهم في الرملة بعد الفتوح أحدهم نوفل بن ساجع المخزومي وكان عمّه خالد بن الوليد وكان من المعمّرين، شهد تبوك مع النبي ﷺ، وشهد بعدها الحديبية، وشهد يوم اليمامة ومسيلمة، وكان مع عمرو بن العاص بأرض مصر في جميع فتوحها، والثاني فهد بن عاصم بن عمرو بن سهل بن عمرو المخزومي وغيرهما من الثقات ممّن شهد فتوح أرض مصر والوقائع كلها قالوا جميعًا، ومنهم مَن قال: إن عمرو بن العاص لمّا انفصل من ساحل الشام وكتب الله سلامة المسلمين وسار متوجهًا يريد أرض مصر، فلما كان بمكان يقال له رفح قال له يوقنا: يا عمرو أنت تريد أن تدهم مصر على حين غفلة من أهلها، وأنا ممّن يمكنني ذلك لأن ثواب الله أجلّ غنيمة، فإن قلبي ملوّث بحبّ الدنيا وإني كنت ممّن أشرك بالله سواه، وأنا أجتهد في الخلاص وأُقاتل مَن كنت أنصره على الكفر وعبادة الصلبان والسجود للصور من دون الله، وقد أخذت الإسلام بنيّة وقبول لأنه الحق وأُريد أن أتقدَّم إلى أرض مصر فلعلّي أجد لكم بالحيلة سبيلاً. فقال عمرو: وفّقك الله وأعانك وحفظك وصانك. قال: فسار يوقنا ليلاً من رفح يطلب الفرماء ولم يقرب من العريش ولا القاربا وكلها حصون عامرة وقد سكنها أقوام من العرب المختلطة، وكانوا يؤدّون المال إلى الملك المقوقس بن راعيل، وسنذكر فتوحها فيما بعد إن شاء الله

تعالى. قال: وإن يوقنا أشرف على الفرماء، وكان بها والٍ من قبل المقوقس اسمه الرندبان، والفرماء على جانب بحيرة تنيس من الشرق، فرأى يوقنا خيامًا منصوبة وقبابًا مضروبة، فلما رأوا يوقنا وقع الصائح، فركب مَن كان هناك وكانت الأخبار ترد عليهم كل وقت بما صنع الصحابة، فلما بلغهم أن قيسارية فتحت اغتمّوا لذلك، لأنه كان فلسطين بن هرقل قد تزوَّج بابنة المقوقس أرمانوسة، وكان قد جهّزها أبوها وأرسلها مع غلمانها وأموالها إلى بلبيس، ثم إنها وجّهت حاجبها تميلاطوس إلى الفرماء في ألفي فارس لحفظ ذلك المكان.

الاستعداد

حدّثنا ابن إسحٰق أخبرنا موسى بن محمد بن إبراهيم بن الحرث التيمي عن أُسامة بن زيد بن أسلم. قال ابن إسحٰق: حدّثني رجل من القبط رأيته وقد دخل في دين الإسلام فقربت إليه وسألته فأخبرني أنه من قبط مصر من جند المقوقس فقلت له: كيف كان من أمركم لمّا سمعتم بقدوم المسلمين من الشام وكسر جيوش هرقل. قال: لمّا بلغنا ذلك بعث المقوقس رسله إلى جميع أطراف بلاده مما يلي الشام بأن لا يتركوا أحدًا من الروم ولا غيرهم يدخل أرض مصر، كل ذلك لئلا يتحدّثوا بما صنع المسلمون بجنود هرقل فيدخل الرعب في قلوب قومه فلأجل ذلك أنه لما دخل يوقنا أرض مصر لم يعلم به أحد فلما ركبوا إلى لقائه ورأوا حشمه وعسكره وكانوا بزيِّ الروم سألوه عن مكانه وكان قد أخبر في طريقه من حصن كيفا وأعلموه بابتعاد فلسطين عن زوجته أرمانوسة... وأن أباها قد جهّزها وهي على مدينة بلبيس. فقال يوقنا: ومتى تزوَّجها؟ قالوا: تزوّجها والمسلمون على حصن حلب.

فقال لهم: إنه قد ركب في البحر وترك قيسارية وقد أرسلني حتى آخذها في المراكب من دمياط، ومضى يوقنا يقول: أنا قد جئت رسولاً من الملك فلسطين إلى الملك المقوقس حتى يرسل معي ابنته إلى زوجها، فلما سمعوا كلامه قالوا: إن الملكة في بلبيس وقد أنفذها إليه وما منعها من السير إلا خوف العرب وهروب فلسطين من قيسارية فسار يوقنا حتى قرب من بلبيس فنزل هناك وسار حاجبها إليها وعرّفها بما قاله يوقنا. فقالت: عليَّ به، فأتى إليه الحاجب، وأمره بالمسير فركب وركب أصحابه وهم بأحسن زيّ وأتوا إلى عسكر أرمانوسة وإذا به عسكر كبير أكثر من عشرة آلاف. قال: فترجل يوقنا وترجل قومه ووقفوا على باب قصرها واستأذنوا عليها فأذِنَت لهم بالدخول، فلما وقفوا بين يديها خضعوا لها فأمرت لهم بكراسي فوُضِعَت لهم فأمرتهم بالجلوس فجلسوا ووقفت الحجّاب والمماليك والخدم فقالت الملكة أرمانوسة له من غير ترجمان: كم لكم عن الملك؟ فقال: شهر. فقالت: أكان رحل من المراكب أم قبل رحيله؟ فقال

يوقنا: بل قبل رحيله وحين ركب منهزمًا، ولما وصلت إلى غزة بلغني أنه سار وقد قال لي في السرِّ بيني وبينه: لا طاقة لنا بقتال هؤلاء العرب، فإن أبي هرقل ترك أنطاكية وذهب وقد قاتلتهم بجميع جنوده واستنصر عليهم بجميع دين النصرانية وأنفذ إليهم ما هان الأرمني إلى اليرموك في ألف ألف فهزموه وقتلوه وإني أُريد أن آخذ خزائني وأطلب القسطنطينية، ثم إنه وجّهني إليك أيتها الملكة لتركبي في المركب إليه.

قال: فلما سمعت ذلك أطرقت برأسها إلى الأرض ثم رفعت رأسها وقالت: إني لا أقدر أن أصنع شيئًا إلا بأمر الملك أبي وإني مُرسلة إليه. قال: فقام يوقنا وصقع لها ودعا ثم خرج من عندها فوجد غلمانه قد ضربوا خيامه فنزل بها وأرسلت إليه العلوفة والضيافة. قال ابن إسحٰق الأموي رضي الله عنه: ولقد بلغني أنه لمّا جنَّ الليل أتت إليها الجواسيس وأعلموها بفتح قيسارية ومدائن الساحل جميعها وبتوجّه عمرو بن العاص إلى مصر وبحديث يوقنا صاحب حلب وحذّروها منه وعرّفوها بجميع الأخبار مفصّلة وأنه هو الذي فتح طرابلس وصور وجبلة. قال: فلما سمعت ذلك دخل في قلبها الرعب وعلمت أنه محتال فطلبت حاجبها وقالت له: مُر العسكر بلبس السلاح وأن يكونوا مستيقظين فقد جرى من الأمر كذا وكذا ثم إنها أوقفت مماليكها وغلمانها وقالت لهم: إذا دخل هذا الرجل وخواصّه فاقبضوا عليهم فإذا نحن ملكناهم انخذل عسكر المسلمين، فلما رتبت هذا أرسلت تطلب يوقنا فذهب حاجبها إليه وقال له: أيها البطريق الكبير إن الملكة تطلبك لتوصيك بما تقوله لأبيها، فقال له: السمع والطاعة ها أنا راكب وأصحابي فذهب القاصد. فقال يوقنا لأصحابه: اعلموا أن الملكة شعرت بنا والقوم قد عوَّلوا على قتلنا فإن حصلنا في أيديهم قتلونا لا محالة وتضرب بنا الأمثال لمَن يأتي بعدنا فموتوا كرامًا ولا تلقوا بأيديكم إلى القتل بأيدي الكفّار وكونوا نصرة لدين الإسلام وما عسى نرجوا من هذه الدنيا الغدّارة التي ما صَفَت لأحد إلا وغيّرته بالكدر فاعمروا دار البقاء وجاهدوا في سبيل الله حقّ جهاده فلعلكم ترضونه بذلك. قال: فأخذ القوم على أنفسهم واشتدوا وركبوا وتوكلوا على الله في جميع أمورهم.

حدّثنا ابن إسحٰق قال: لقد بلغني أن الملكة أقامت تنتظر قدومهم لتقبض عليهم فاستبطأتهم فبعثت رسولاً ثانيًا تستحثّهم. فقال له يوقنا: ارجع إلى صاحبتك وقل لها ما جرت بذلك عادة الملوك يبعثون يطلبون الرسل إلا لأمر يحدث وقد كنت عندها فما الذي تريده نصف الليل مني؟ فعاد الرسول وأخبرها بما قاله فركبت من وقتها وتقدمت وتقدّمها حاجبها وأمرت الجيش كله أن يركب ودارت بيوقنا وأصحابه ولم تحدّث بشيء إلى الصباح فأقبل صاحب الملكة إليهم وقال: ما حملكم أن تركتم دين آبائكم وهجرتم دين المسيح وأُمه وقد جئتم تحتالون علينا ألا وإن المسيح قد غضب عليكم. فقال يوقنا:

إن المسيح عبد من عبيد الله لا يقدر على شيء لأنه مأمور مُكَلَّف وقد أنطقه الله بذلك وهو في المهد فقال: ﴿**إني عبد الله**﴾ [مريم: ٣٠] وقال: ﴿**أوصاني بالصلاة والزكاة ما دمت حيًا**﴾ [مريم: ٣١] ﴿**والسلام عليَّ يوم ولدت ويوم أموت ويوم أُبعَث حيًا**﴾ [مريم: ٣٣]، ومَن يؤمر بالصلاة والزكاة ويموت فليس بإلـٰه إنما هو عبد الله مُكَلَّف بالعبادة مثل واحد منّا وأن الله لا يتشبّه بأحد منّا وأن الله لا يشبهه شيء ولا يتشبّه بأحد، ولقد أضلّكم مَن صدّكم عن ذلك وزاغ بكم عن طريق الحق بقوله: على الله والمسيح، ولقد كنّا مثلكم نسجد للصلبان ونعظّم القربان ونسجد للصور ونجعل مع الله إلـٰهًا آخر إلى أن تبيّن لنا دين محمد ﷺ فشفانا بعد العمى وشرح صدورنا للهدى، ودين الإسلام هو الدين الواضح وكنّا نقول مثل قولكم إن المسيح ابن الله، وإن إبراهيم وإسحٰق كانا نصرانيين فكذبنا الله بقوله في كتابه: ﴿**ما كان إبراهيم يهوديًا ولا نصرانيًا ولكن كان حنيفًا مسلمًا وما كان من المشركين**﴾ [آل عمران: ٦٧]. وقال سبحانه: ﴿**ومَن يبتغِ غير الإسلام دينًا فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين**﴾ [آل عمران: ٨٥] وها نحن قد جئناكم لنجاهدكم، إما أن تقولوا: لا إلـٰه إلا الله محمد رسول الله وإما الجزية وإما القتال. قال: فلما سمع الحاجب كلامه قال لقومه: دونكم وهؤلاء فقد جاؤوا يريدون قتلكم وأخذ أموالكم وأولادكم وحريمكم. قال: فحملوا على يوقنا وأصحابه وعمل السيف بينهم بقية يومهم، فلما كان من الغد ركبوا وداروا بهم وتصايحت عليهم القبط ودارت بهم الخيل والرجال فبلى يوقنا ومَن معه بما لا طاقة لهم به وقتل منهم جماعة وقتلوا هم من القبط خلقًا كثيرًا ولكنهم صبروا لأمر الله وقالوا: والله لا نسلم أنفسنا أو نموت كلنا فقد حصل لنا ما كنا نطلب من رضا ربنا. قال ابن إسحٰق:

حدّثنا سيف بن شريح عن يونس بن زيد عن عبد الله بن عمر بن حفص عن عبد الله بن الحرث. قال: لمّا أخبرت الجواسيس أرمانوسة بقصة يوقنا أنفذت كتابًا إلى أبيها المقوقس تعلمه بذلك وأنها مغلوبة معهم وأن العرب متوجهون مع رجل يقال له عمرو بن العاص وأنا منتظرة جوابك. قال: فلما وصل الكتاب إليه دعا أرباب دولته وقال لهم: قد تمّ من الأمر عليّ كذا وكذا فما تشيرون به عليَّ؟ قالوا: أيها الملك نرى لك من الأمر أن تنفذ جيشًا إلى الملكة ينصرها على عدوُّها، وتنفذ إلى جلباب ملك البرية تستنصر به على هؤلاء العرب وتنفذ إلى مازع بن قيس ملك البجاوة ينفذ لك جيشًا وتنفذ إلى مَن بالإسكندرية يأتون وإلى مَن بالصعيد يأتون فإذا اجتمعت إليك هذه الأمم فالق بهم العرب ولا تأمن لهم فيطمعوا فيك. فقال: يا أهل دين النصرانية اعلموا أن الملك محتاج إلى سياسة، ومَن ملك عقله ملك رأيه ومَن ملك رأيه أمِنَ من حوادث دهره وليست الغلبة بالكثرة وإنما هي بحُسْن التدبير، والله لقد كان قيصر أكثر مني جهدًا وأوسع بلادًا وأعظم عدة وقد جمع من بلاد الروم إلى اليونانية ومن أقاليمه ومن القسطنطينية ومن

سائر البلاد وبلاد الأندلس واستنصر بنا وبغيرنا فما أغنى عنه جمعه شيئًا ولا قدر أن يردَّ القضاء والقدر عنه، واعلموا أن العقل أساس الآدمي المخاطب المكلف المفضل به على سائر ما خلق على الأرض، فمَن ملك عقله ملك أمره ومَن لم يجد منه حظًّا كان بجهله أرضيًا، ولن تنال الحكمة إلا بالعقل.

قال الحكيم ماسوسي: إن الحكمة مرقى جليل وطالبها نبيل وتاركها ذليل لأنها غذاء الأرواح وقوت القلوب، واعلموا أني لست أتكلم إلا بالصدق وأنتم تعلمون أن محمدًا في أيامه بعث إلينا يدعونا إلى دينه فاستدليت على صدق قوله بكتابه وما ظهر من معجزاته وقد سمعتم أنه لمّا بعث ما سمع أحد بذكره إلا وخاف منه، وقد سمعتم أن القمر انشق له والذراع المسموم كلّمه وقال: يا رسول الله إني مسموم فلا تأكلني وقد كلّمه الضبُّ والحجر والشجر والمدر وعرج به إلى السماء وركب أوج الماء وأول مَن تغلب عليه قومه وحاربه عشيرته حين أنكروا قوله وفعله فنصر عليهم وقهرهم وقد تبيّن لهم الحق فاتّبعوه ونصروه، وهم هؤلاء الذين فتحوا الشام وما أنكرت من أمرهم شيئًا فإنهم يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويقيمون حدود الله التي أمر بها وما في كتابهم شيء إلا وفي الإنجيل مثله وقد أضلّكم بولس وأغواكم حين غرَّ بكم وبدل شرعكم وسمّاكم باسم لا يليق بكم، وكيف وقد عاد بكم من الطريق الواضح وأحلَّ لكم جميع ما حرَّم عليكم من قبل، وهذا هو عين المُحال وداعية العمى أن تتعدّوا ما قال نبيّكم وكيف نبغي لروح الله عيسى ابن مريم أن يكلمكم بما لم يرسله الله إليكم. ثم إن بولص قال لكم: إنه أحلَّ لكم الخنزير وشرب الخمر وارتكاب المعاصي ما ظهر منها وما بطن فأطعتم أمره وصدَّقتم قوله وحاشا المسيح أن يفعل ذلك، وما كان أحد من الأنبياء إلا على ما جاء به محمد، وهؤلاء الحكماء الأوّلون ما منهم إلا مَن يتكلم بوحدانية الله تعالى، وهذا الحكيم دمونا الذي صنع في براري أخيم أرصادًا وجعلها مثلاً للأُمم الآتية، وذكر فيها مَن يأتي من الأمم والأجيال إلى آخر الزمان وصور الحكماء منفردة به والنسر يعقد رأس الحمل والنسر يقيم في كل برج ثلاثة آلاف سنة كما قدّر بالمقدار الحكيمي. وكان قد صوَّر صورة وكتب على رأسها بقلم اليونانية أربعة أسطر. الأول: مَن خاف الوعيد سلم مما يريد. الثاني: مَن خاف ما بين يديه صان دموعه بما في يديه. الثالث: إن كنت تريد الجزيل فلا تنمّ ولا تقيل. الرابع: بادر قبل نزول ما تحاذر، فمَن كان هذا كلامهم فكيف صنع سواهم، وهذه فريضة هؤلاء القوم المحمديين. قال: فأطرقوا برؤوسهم إلى الأرض غيظًا على الملك. قال: وما تكلم المقوقس بهذا الكلام حتى أوقف عنده من مماليكه ألف غلام فوق رأسه بالسيف، لأنه كان قد سمع ما جرى لقيصر وهرقل مع بطارقته لما جمعهم ونصحهم فوثبوا عليه وأرادوا قتله. أما المقوقس فإنه استوثق بمماليكه حتى لا يطمع فيه. قال: فلما تكلم بذلك قال له وزيره: أيها الملك رأيك

راجح وأنا أول مَن يؤمن بما تقول. فقال اللوزير: اكتب إلى ابنتي كتابًا تأمرها فيه أن تتلطف بالقوم وتعطيهم الأمان وتنفذهم إلينا حتى نخلع عليهم وتطيب قلوبهم ويكونوا معنا يقاتلون مَن يريد قتالنا، وما أراد بذلك إلا أن يسلم مثل يوقنا وأصحابه إذ هم على الحق. قال: فكتب الوزير إلى الملكة كتابًا بما قاله أبوها، فلما وصل الكتاب إليها وقرىء عليها أمرت أصحابها أن يرجعوا عن قتل يوقنا ومَن معه فرجعوا وأرسلت إلى يوقنا تعلمه بكتاب أبيها وأرسلت إليه الكتاب، فلما قرأه قال لرسولها: امضِ إليها حتى أستخبر الله تعالى في ذلك.

فقال يوقنا لأصحابه: إن الله قد كشف حجاب الغفلة عن قلب هذا الملك وقد ظهر له ما ظهر لنا من الحق فما الذي ترون من الرأي؟ قالوا: نحن نسمع من رأيك. فقال: دعوني هذه الليلة. قال: فلما جنَّ عليه الليل قام يصلّي وأمر أصحابه أن لا ينزلوا عن خيولهم مخافة من غدر القوم فبينما هو يصلّي وإذا بشخص قد دخل فارتاع منه ثم تأمله فإذا هو عمر بن أمية الضمري ساعي رسول الله ﷺ، فلما رآه يوقنا فرح وكان قد رآه مرارًا فقال له: مرحبًا يا عمرو من أين؟ فقال: إن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب بعثني إلى عمرو بن العاصِ لأحثّه على المسير إلى مصر فوجدته قد وصل وها هو منك قريب وقد أرسلني إليك لأعرّفه خبرك، فأخبره بما وقع له وقال له: امضِ يا عمرو ودعه يعجل بالمجيء يُعيننا على هؤلاء القوم وحدّثه بجميع ما جرى علينا. فرجع عمرو مسرعًا إلى عمرو بن العاص وأعلمه بقصة يوقنا. . . قال: فترك عمرو بن العاص الأثقال ومعها مَن يحفظها وركب وسار بجرائد الخيل وترك مع الأثقال عامر بن ربيعة العامري، فما كان قبل طلوع الفجر إلا وهو عند يوقنا فدار بالقوم فلما أحسّ بهم يوقنا كبّر هو ومَن معه ورفع الجيمع أصواتهم بالتهليل والتكبير ووضعوا السيف في القبط فما طلعت الشمس إلا وقد قتل من القبط أكثر من ألف وأسر منهم خلق كثير وولّى الباقي منهزمين، وأخذت أرمانوسة ابنة الملك وجميع ما معها من الأموال والرجال والجواري والغلمان.

فقال عمرو بن العاص لأصحاب رسول الله ﷺ مثل يزيد بن أبي سفيان وهاشم بن سعيد الطائي والقعقاع بن عمرو التميمي وخالد بن سعيد وعبد الله بن جعفر الطيار وصفوان وأمثالهم: إن الله سبحانه وتعالى قد قال: ﴿**هل جزاء الإحسان إلا الإحسان**﴾ [الرحمن: ٦٠] وهذا الملك قد علمتم أنه كاتب رسول الله ﷺ وبعث هدية ونحن أحق بمَن كافأ عن نبيّه ﷺ هديته وكان يقبل الهدية ويشكر عليها وقد رأيت أن ننفذ إلى المقوقس ابنته وما أخذنا معها ونحن نتبع سُنّة رسول الله ﷺ وقد سمعته يقول: «ارحموا عزيز قوم ذلَّ، وغنيّ قوم افتقر» فاستصوبوا رأيه فبعث بها مكرمة مع جميع ما معها مع قيس بن سعد رضي الله عنه.

ذكر فتح مدينة مصر

قال ابن إسحٰق الأموي رضي الله عنه: لمّا ورد المنهزمون على الملك وأخبروه بما تمَّ عليهم وعلى ابنته. . . ضاق صدره وبقي متفكّرًا فيما يصنع وليس له نيّة في القتال مع الصحابة، فبينما هو متفكّر إذ جاءه البشير بقدوم ابنته وما معها فخفّ عنه بعض ما كان يجده، فلما دخل عليه قيس رفع مجلسه فوق الملوك والحجّاب وأرباب دولته وكانوا قد اجتمعوا يهنئونه بابنته، فلما حضر قيس بن سعد سأله الملك عن أشياء لعلَّ أصحابه أن تلين قلوبهم إلى الإسلام. فقال: يا أخا العرب أخبرني عن صاحبكم ما الذي كان يركب من الخيل؟ قال: الأشقر الأرتم المحجل في الساق وكان اسمه المترجل. فقال: لقد بلغنا أنه كان لا يركب إلا الجِمال. فقال قيس: إن الله أكرم الإبل وشرّفها قال لها: كوني فكانت وأخرج ناقة من الصخر وخصّ بها العرب من دون غيرهم من بني آدم وكان يركبها لكونها قد جعلها الله مباركة تقنع بما تجد وتصبر على الحمل الثقيل والسير الشديد وتصبر على الماء أيامًا وقد ذكرها ربنا في قوله في كتابه العزيز، فقال: **﴿وعلى كل ضامر يأتين من كل فجٍّ عميق﴾** [الحج: ٢٧] وقال: **﴿والبدن جعلناها لكم من شعائر الله﴾** [الحج: ٣٦].

ولمّا غزا رسول الله ﷺ من غزواته غزوة بدر كان معه مائة ناضح من الإبل وكان معه فرسان يركب أحدهما المقداد بن الأسود الكندي ويركب الآخر مصعب بن عمير وإنّا لقينا قريشًا في عددها وعديدها فهربوا ببركة رسول الله ﷺ، وكان أصحابه يتعاقبون في الطريق، وكان عليه الصلاة والسلام وعلي بن أبي طالب ومرثد بن أبي مرثد حليف حمزة بن عبد المطلب وغيرهم يتعاقبون شامخًا، وكان أيها الملك يركب الحمار الذي أهديته إليه ويردف وراءه معاذ بن جبل، وعلى الحمار ركاب من ليف وخطامه ليف، واعلم يا ملك القبط أنه كان يخصف نعله ويرفع ثوبه ويقول: «مَن رغب عن سُنَّتي فليس مني»، وكان قميصه من القطن قصير الطول والكمّين ليس له أزرار ولقد أهدى إليه ذو يزن حلّة اشتراها له قومه بثلاثة وثلاثين بعيرًا فلبسها رسول الله ﷺ مرة واحدة وأهدى له جبّة من الشام فلبسها حتى تخرّقت وخُفّين فلبسهما حتى تخرَّقا، وكان له رداء طوله أربعة أذرع وعرضه ذراعات ونصف، وكان له ثوب خزّ يلبسه للوفد إذا قَدِموا عليه، وكان أفصح الناس إذا تكلم بكلمة يردّدها ثلاثًا، وكلما رأى قومًا سلّم عليهم ورأيته كلما تحدّث تبسم في حديثه، وكان إذا اجتمع إليه أصحابه وأراد أن ينهض. قال: سبحانك اللّٰهمّ وبحمدك أشهد أن لا إلٰه إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك، قلنا: يا رسول الله إن هذه الكلمات اتخذتهنّ عادة. قال: أمرني بهنّ جبريل وأخرجت لنا زوجته لما قبض كساءً وإزارًا غليظين، وقالت: قبض رسول الله ﷺ فوق هذين.

فقال المقوقس: هذه والله أخلاق الأنبياء فطوبى لمَن اتبعه، فإن أُمته هي الأمة الموصوفة في الإنجيل، فقال بعض مَن حضر: أيها الملك ما تكون أمة عند الله أفضل من هذه الأمة وهم نحن فغضب الملك من قوله، وقال: وبأيّ شيء أنتم أفضل عند الله أبأكلكم الحرام وارتكابكم الآثام وصنعكم المنكرات وتجنّبكم الحسنات وظلمكم في الرعية وميلكم إلى الدنيا أين أنتم من قوم عبر عليهم الإسكندر فرآهم ليس بينهم قاضٍ ولا حاكم ولا أمير قائم عليه ولا فيهم مَن يختصّ بالغنى دون أخيه، بل هم سواء في كل ما هم فيه، أكلهم وشربهم واحد غير متنافٍ، ولا متضاد وملبسهم غير متنافٍ ولا متباعد، فتعجب الإسكندر منهم وسأل الأكابر منهم عمّا رآه من أحوالهم. فقالوا: أيها الملك إنّا وجدنا جمجمة وعليها مكتوب: يا ابن آدم ما خلقت إلا من التراب، وقد خلوت بما قدّمت إما صالحًا فيسرّك، وإما طالحًا فيضرّك فتندم حيث لا ينفعك الندم ولم يكن لك إلى الدنيا مرجع، فطوبى للكيّس العاقل الذي ليس ببليد ولا غافل، يتزوّد إلى ما إليه يصير ولا يلقي الاتّكال على التقصير، فبادر إلى الخير قبل الموت واغتنم حياتك قبل الفوت، وكأنك بالحيّ وقد هلك وترك كل ما ملك، فلما قرأنا هذا اعتبرنا أيها الملك بهذه الموعظة البالغة ولبسنا أثوابها السابغة، فقال: ما بال مساجدكم شاسعة نائية وقبوركم دانية؟ فقالوا: أما مساجدنا فبعيدة ليكثر الأجْر بكثرة الخُطا وقبورنا قريبة لنذكر الموت فننتهي عن الخطأ، فقال: ما لي أرى أبوابكم بغير غلاق؟ قالوا: لأننا ما فينا خائن ولا سارق. فقال: ما لي لا أرى فيكم أميرًا ولا حاكمًا؟ فقالوا: لأننا ما فينا معتدٍ ولا ظالم...

فقال: ما لي لا أرى فيكم مُعْسِرًا ولا فقيرًا؟ قالوا: لأن رزق الله فينا الكبير والصغير، ثم إنهم أخرجوا له جمجمتين عظيمتين فقالوا: أيها الملك هذه جمجمة رجل عادل سالم وهذه جمجمة رجل ظالم وكِلاهما صار إلى هذا المصير ولم يغنِ عنهما الجمع والتدبير. أما العادل فمسرور ريّان، وأما الظالم فنادم حيران فاز المتقي وخسر الشقي، فاختر ما تراه قبل الحين أيها الملك لأنك قد ملكت النواصي ونفذ أمرك في الداني والقاصي واستخلفك الله في الأرض وأمرك بالقيام بالنفل والفرض، فتذكر مرجعك ورمسك واعمل لنفسك واعلم أنه لا ينفعك جدّك إذا قبضت روحك واشتمل عليك لحدَكَ، فاترك أوامر الشيطان ودواعيه وخذ بأوامر الرحمٰن ونواهيه ولا يغرّنّك النعيم فتبوء بالإثم العظيم، اذكر أيها الملك ما فعل الشيطان بأبيك حين نصب له مكيدته وأدار عليه حيلته فنصب له فخ العداوة وغرّه فيه بحبة البرّ. فقال قيس: أيها الملك أتدري مَن أولئك؟ قال: لا. قال: هم قوم مؤمنون قال الله عنهم في كتابه: ﴿**وممّن خلقنا أمة يهدون بالحق وبه يعدلون**﴾ [الأعراف: ١٨١] وقد رآهم نبيّنا ﷺ ليلة عرج به، فلما عاد أخبر أصحابه بهم، قالوا: يا رسول الله أهم قوم مؤمنون بما أنزل عليك؟ فأراد أن

يعلمهم أن أمة محمد أفضل منهم فأنزل الله **﴿وممّن خلقنا أمة يهدون بالحق وبه يعدلون﴾** [الأعراف: ١٨١] فقال المقوقس لقيس بن سعد: يا أخا العرب ارجع إلى أصحابك وأخبرهم بما سمعت وبما رأيت وانظر فيما يستقر عندكم وبينكم. فقال قيس: أيها الملك لا بدّ لنا منكم ولا ينجيكم منّا إلا الإسلام أو أداء الجزية أو القتال. فقال المقوقس: أنا أعرض ذلك عليهم واعلم أنهم لا يجيبون لأن قلوبهم قاسية من أكل الحرام.

حدّثنا ابن إسحٰق رضي الله عنه حدّثنا عبد الله بن سهل عن عديّ بن حاطب عن سليمان بن يحيىٰ قال: إن الملك المقوقس كان من عادته أنه في شهر رمضان لا يخرج إلى رعيّته، ولا يظهر لأحد من أرباب دولته، ولا أحد منهم يعلم ما كان يصنع، وكانت مخاطبته لقيس بن سعد في أواخر شعبان سنة عشرين من الهجرة، فخرج قيس من عنده ومضى إلى عمر بن العاص وحدّثه بما كان منه. قال ابن إسحٰق: وكان وليّ عهد الملك ولده أسطوليس وكان جبّارًا عنيدًا وأنه لمّا سمع ما تحدّث به أبوه رأى ميله إلى الإسلام وعلم أنه لا يقاتلهم وربما أسلم وسلّم إليهم ملكه صبر إلى أن دخل أبوه إلى خلوته التي اعتاد أن يدخلها ويختلي فيها كل سنة فجمع أرباب الدولة في الخفية لئلا يدري به أحد فيعلم أباه وقال لهم: اعلموا أنكم قد ملكتم هذا المُلْك وأن أبي يريد أن يسلّمه إلى العرب لأنني فهمت من كلامه ذلك. فقالوا: أيها الملك أنت تعلم أن هذا الأمر مرجعه إليك، وأنت وليّ عهده فاعمل أمرًا يعود صلاحه عليك وعلينا. قال: فطلب صاحب شراب أبيه وأعطاه ألف دينار ووعده بكل جميل وأعطاه سُمًّا وقال له: ضعه في شرابه. قال: ففعل الساقي ما أُمِرَ به وسقى الملك فمات فأتى الساقي إلى أرسطوليس وأعلمه أن أباه قد مات فذهب إليه ودفنه في الخفية وقتل الساقي وجلس على سرير الملك كأنه نائب عن أبيه إذا غاب كعادته في كل عام ولم يعلم أحد بموته، هذا ما كان منه وأما عمرو بن العاص فإنه ارتحل من بلبيس ونزل على قليوب وبعث إلى أهل البلاد والقرى وطيّب خواطرهم وقال لهم: لا يرحل أحد من بلده، ونحن نقنع بما توصلونه إلينا من الطعام والعلوفة فأجابوا إلى ذلك وارتحل من قليوب ونزل على بحر الحصى فارتجّت بنزولهم إليها ووقع التشويش فيهم وعلا الضجيج وأغلقوا الدروب والدكاكين ووقف أهل كل درب على دربهم بالسلاح ليحموا حريمهم. قال: أما عمرو بن العاص فإنه أمر أهل اليمن ومَن معه من العربان أن يحدقوا بالبلد، وأن أهل البلاد أقبلت إليهم بالعلوفة والطعام والخيرات وهم يردّون عليهم من كل فجَ.

ثم إن عمرًا أراد أن يرسل إلى صاحب مصر رسولاً، وكان عنده غلام له من أهل الرملة، وكان اسمه وردان، وكان يعرف سائر الألسن، فقال له عمرو: يا وردان إنني أريد أن أُرسلك إلى هؤلاء القبط فإنك تعرف بلسانهم ولا تُظهِر لهم أنك تعرفه، فقال: سمعًا

وطاعة، فقال: أُريد أن أكتب معك كتابًا، وهمَّ أن يكتب وإذا برسول أرسطوليس قد أقبل وقال: يا معاشر العرب إن وليّ عهد الملك يريد منكم أن تبعثوا له رجلاً منكم ليخاطبه بما في نفسه فلعل الله أن يُصلِح ذات بينكم. فقال عمرو ليزيد بن أبي سفيان ولهاشم الطائي ولعبد الله بن جعفر الطيار وللنعمان بن المنذر ولسعيد بن وائل: اعلموا أني قد ضربت على ملوك الروم ولست أرى مَن يتكلم مثلي وما يسير إلى هؤلاء إلا أنا فإني أُريد أن أرِدَ القوم وأنظر حالهم وما هم فيه من القوة وأن لا يخفى عليَّ شيءٌ من أمرهم، فقالوا: يا صاحب رسول الله ﷺ قوّى الله عزمك وما عندنا إلا النصيحة للدين والنظر في مصالح المسلمين فافعل ما أردت تُعان. فقال لشرحبيل: قد قلّدتك أمور المسلمين فكن مكاني حتى أمضي إلى القوم وآتيكم بما فيه. فقال له شرحبيل: الله يوفّقك ويسدّدك.

قال: فلبس عمرو ثوبًا من كرابيس الشام وتحته جبّة صوف وتقلّد بسيفه وركب جواده وسار ومعه غلامه وردان وسار الثلاثة إلى قصر الشمع، وإذا هم بالمواكب مصطفّة والعساكر واقفة وهم بالدروع والجواشن والعدد، وقد أظهروا ما أمكنهم من القوة، فلما وصلوا إلى قصر الملك أخبروا أرسطوليس أن رسولك أتى بواحد من العرب فأمرهم بإحضاره فدخل عمرو راكبًا وهو متقلّد بسيفه، فأراد الحجّاب أن ينزلوه عن جواده فأبى وأن يأخذوا سيفه فأبى، وقال: ما كنت بالذي أنزل عن حصاني ولا أُسلّم سيفي. فإن أذِنَ صاحبكم أن أدخل على حالتي وإلا رجعت من حيث أتيت فإننا قوم قد أعزّنا الله بالإيمان ونصرنا بالإسلام فما لنا أن ننزل لأهل الشِّرك والطغيان، وأنتم طلبتمونا ونحن لم نطلبكم فأعلموا الملك بما قاله. فقال أرسطوليس: دعوه يدخل كيف شاء، فخرجوا إليه وقالوا له: ادخل كيف أردت فدخل عمرو وهو راكب حتى وصل إلى قبة الملك ورأى السريرية والحجّاب وقوفًا والبطارقة وهم في زينة عظيمة، فلما رأى عمرو ذلك تبسم وقرأ **﴿فما أُوتيتم من شيء فمتاع الحياة الدنيا وما عند الله خير وأبقى للذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون﴾** [الشورى: ٣٦]. قال: وكان قصر الملك قد بناه الريان بن الوليد بن أرسلاووس وهو الذي استخلف يوسف على مصر بعد العزيز. ثم خرب وأقام خرابًا خمسمائة سنة وما بقي إلا أثره، فلما بعث عيسى وانتشرت دعوته ورفعه الله إليه وافترقت أمته فرقًا وادّعوا فيه ما ادّعوا من الإلـٰهية وتقوّل الكذب ولِيَ مصر رجاليس بن مقراطيس فبنى ذلك القصر الخراب، وهو في وسط قصر الشمع، وإنما سُمّي قصر الشمع لأنه لا يخلو من شمع الملوك، فلما بناه أحضر الحكماء الذين كانوا قد بنوا في برية أخميم، وكان المقدّم عليهم قربانس. فقال لهم: إني قرأت كثيرًا من الكتب التي أُنزلت على الأنبياء من الله وقرأت صحف موسى، ورأيت أن الله يبعث نبيًا قوله حق ودينه صدق، وأخلاقه طاهرة وشريعته ظاهرة، وقد بشّر به المسيح فما تقولون فيه؟ فقال قربانس الحكيم: إن الذي قرأته هو الصحيح. قال: فثَمَّ مَن يخالف ذلك؟

قالوا: نعم. قال الحكيم: أُريد أن أصنع تمثالاً من الحكمة ونجعله بيتًا للعبادة، ونجعل على هيكلها تماثيل يكون وجوهها مما يلي التمثال بأعلى قصرك. فإذا جاء وقت مبعث هذا النبي يحوِّل كل تمثال وجهه عن صاحبه. وأما الذي يجعل على الكنيسة. فإنه عند مبعث النبي العربي يقع على وجهه ويكون موضع عبادة القوم وإقامة شرعهم. قال: فأخذوا في عمل الحكمة وأقاموا التماثيل على ما ذكرنا، فلما بعث النبي ﷺ حوَّل كل شخص وجهه عن صاحبه وسقط الذي كان على سطح الكنيسة، وهو الجامع اليوم. وأما التمثال العالي فبقي على حاله بأعلى القصر، فلما دخل عمرو بجواده سمعوا من التمثال صوتًا عظيمًا. ثم إنه سقط على وجهه فارتاع له الملك وأرباب دولته وصكّوا وجوههم ودخل الرعب في قلوبهم، وقالوا بلسانهم: ما وقع هذا التمثال إلا عند دخول هذا العربي وما جرى هذا إلا لأمر عظيم، ولا شك أنه هو الذي يقلع دولتنا ويأخذ مُلكنا فأمروا عمرًا أن ينزل عن جواده فنزل وترجّل وجلس حيث انتهى به المجلس وأمسك عنان جواده بيده ويده اليسرى على مقبض سيفه ونظر إلى زينتهم وزخرفة قصرهم فقرأ **﴿ولولا أن يكون الناس أمة واحدة لجعلنا لمَن يكفر بالرحمـٰن لبيوتهم سقفًا من فضة ومعارج عليها يظهرون ولبيوتهم أبوابًا وسررًا عليها يتكئون وزخرفًا وأن كل ذلك لما متاع الحياة الدنيا والآخرة عند ربك للمتقين﴾** [الزخرف: ٣٣ ـ ٣٥]، ثم قال: اعلموا أن الدنيا دار زوال وفناء، والآخرة هي دار البقاء. أما سمعتم ما كان من نبيكم عيسى وزهده وورعه كان لباسه الشعر ووساده الحجر وسراجه القمر، وقد قال نبينا ﷺ: «إن الله أوحى إلى عيسى أن نحْ على نفسك في الفلوات، وعاتبها في الخلوات، وسارع إلى الصلوات، واستعمل الحسنات، وتجنّب السيئات، وابكِ على نفسك بكاء مَن ودَّع الأهل والأولاد، وأصبح وحيدًا في البلاد، وكن يقظان إذا نامت العيون خوفًا من الأمر الذي لا بدّ أن يكون» فإذا كان روح الله وكلمته خوف بهذا التخويف فكيف يكون المكلف الضعيف، وأول مَن تكلم في المهد. قال: إني عبد الله فإذا كان أقرّ لله بالعبودية فلم تنسبون إليه الربوبية، تعالى الله ما اتخذ صاحبة ولا ولدًا ولا أشرك في حكمه أحدًا، جلّ عن الصاحبة والأولاد، والشركاء والأضداد، لا صاحبة له ولا ولد، ولا شريك له ولا وزير، ليس لأوليّته ابتداء ولا لآخريته انتهاء، ولا يحويه مكان، ليس بجسم فيمسّ ولا بجوهر فيحسّ لا يوصف بالسكون والحركات، ولا بالحلول والكيفيات، ولا تحتوي عليه الكميات ولا المنافع ولا المضرّات. ثم إنه قرأ **﴿إن كل مَن في السمـٰوات والأرض إلا آتي الرحمـٰن عبدًا لقد أحصاهم وعدَّهم عدًّا وكلهم آتيه يوم القيامة فردًا﴾** [مريم: ٩٣ ـ ٩٥]. فقال له الوزير: أصحّ عندكم معاشر العرب أن المسيح تكلم في المهد؟ قال: نعم. قالوا له: فهذه فضيلة قد انفرد بها عن جميع الأنبياء، فقال عمرو: قد تكلم في المهد أطفال منهم صاحب يوسف وصاحب جريج وصاحب الأخدود وغيرهم،

فقالوا: يا عربي أتكلم نبيّكم بغير العربية؟ قال: لا، قال الله في كتابه: **﴿وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبين لهم فيضلّ الله مَن يشاء ويهدي مَن يشاء﴾** [إبراهيم: ٤] قالوا: أبعث الله منكم أنبياء غير نبيكم؟ قال: نعم. قالوا: مَن؟ قال: صالح وشعيب ولوط وهود. قال: فلما سمعوا كلام عمرو وفصاحته وجوابه الحاضر، قالوا بالقبطية للملك: إن هذا العربي فصيح اللسان جريء الجنان، ولا شك أنه المقدَّم على قومه وصاحب الجيش فلو قبضت عليه لانهزم أصحابه عنّا. قال: وغلام عمرو وردان يسمع ذلك، فقال الملك: إنه لا يجوز لنا أن نغدر برسول، لا سيما ونحن استدعيناه إلينا، فقال وردان بلسان آخر ما قالوه ففهم عمرو كلامه.

ثم إن الملك قال: يا أخا العرب ما الذي تريدون منّا؟ وما قصدنا أحد إلا ورجع بالخيبة وإنّا قد كاتبنا النوبة والبجاوة وكأنكم بهم قد وصلوا إلينا. فقال عمرو: إننا لا نخاف من كثرة الجيوش والأمم، وإن الله قد وعدنا النصر وأن يورثنا الأرض ونحن ندعوكم إلى خصلة من ثلاث: إما الإسلام. وإما الجزية. وإما القتال. فقالوا: إنّا لا نبرم أمرًا إلا بمشورة الملك المقوقس، وقد دخل خلوته، ولكن يا أخا العرب ما نظن أن في أصحابك مَن هو أقوى منك جنانًا ولا أفصح منك لسانًا. فقال عمرو: أنا ألكن لسانًا ممّن في أصحابي ومنهم مَن لو تكلم لعلمت أني أُقاسُ به. فقال الملك: هذا من المُحال أن يكون فيهم مثلك، فقال: إن أحبّ الملك أن آتيه بعشرة منهم مَن يسمع خطابهم. فقال الملك: أرسل فاطلبهم، فقال عمرو: لا يأتون برسالة، وإنما إن أراد الملك مضيت وأتيت بهم. فقال الملك لوزرائه: إذا حضروا قبضنا عليهم والأحد عشر أحسن من الواحد ووردان يفهم ذلك، ثم إن الملك قال لعمرو: امضِ ولا تبطىء عليَّ، فوثب عمرو قائمًا وركب جواده، فقال الملك بالقبطية: لأقتلنّهم أجمعين، فلما خرج من مصر، قال له وردان ما قاله الملك، فلما وصل إلى الجيش أقبلت الصحابة وسلّموا عليه وهم يقولون: والله يا عمرو لقد ساءت بك الظنون، فأقبل يحدّثهم بما وقع له معهم وبما قالوه وبما قاله وردان فحمدوا الله على سلامته وكان أقبل الليل، فلما أصبح صلّى عمرو بالناس صلاة الفجر وأمرهم بالتأهّب للقتال وإذا برسول الملك قد أقبل وقال له: إن الملك ينتظرك أنت والعشرة، فقال عمرو: إن الغدر يهلك أصحابه وأهله وإن على الباغي تدور الدوائر، يا ويلكم ينفذ صاحبكم يطلب منّا رسولاً، فلما أتيته أراد أن يقضي عليَّ، وقال كذا وكذا فأنت يا ويلك ما الذي يمنعني عنك إذا أردت قتلك ولسنا نحن ممّن يخون ويغدر ارجع إليه وقل له: إني فهمت ما قاله وما بقي بيننا وبينه إلا الحرب. قال ابن إسحٰق رحمه الله ورضي عنه: هكذا وقع له مع القبط، وكان عمرو إذا ذكر ذلك يقول: لا والذي نجّاني من القبط. قال: وعاد الرسول وأخبر الملك بما قاله عمرو، فعند ذلك قال: أُريد أن أُدبّر حيلة أدهمهم بها، فقال الوزير: اعلم أيها الملك أن القوم

متيقظون لأنفسهم لا يكاد أحد أن يصل إليهم بحيلة ولكن بلغني أن القوم لهم يوم في الجمعة يعظِّمونه كتعظيمنا يوم الأحد، وهو عندهم يوم عظيم وأرى لهم من الرأي أن تكمُن لهم كمينًا مما يلي الجبل المقطّم. فإذا دخلوا في صلاتهم يأتي إليهم الكمين ويضع فيهم السيف. قال: فأجابه الملك إلى ذلك وأقاموا ينتظرون ليلة الجمعة. قال: وأما عمرو فإنه أرسل يوقنا إلى القرى التي صالحوها ليأتيه منها بما يأكلونه ويعلفون به خيلهم، قال: فركب يوقنا إلى القرى التي صالحوها وسار في عسكره وبني عمّه إلى ما يأتي به ومضى نحو الجرف، وكان معهم جواسيس الملك في عسكرهم فأتوا إلى الملك وأخبروه بما جرى من المسلمين، فعندها دعا بابن عمه ماسيوس وهو المقدّم على جيوش مصر، وقال له: اختر من جيوشنا أربعة آلاف وامضِ بهم واكمن وراء عسكر المسلمين من جهة الجبل، وإياك أن يظهر عليكم أحد وليكن لكم ديدبان. فإذا دخل القوم في صلاتهم فاحملوا عليهم وضعوا فيهم السيف. قال: ففعل ماسيوس ما أمره به الملك ومضى في الليل من نحو مغارة السودان ولم يعلم بهم أحد، فلما كان وقت صلاة الجمعة أتاهم الديدبان وأعلمهم أنهم دخلوا في الصلاة وكانوا قد أخذوا بغالاً ودواب وحمّلوها برًّا وشعيرًا وكان قد قال لهم: إذا أردتم أن تحملوا عليهم فقدّموا الحمول أمامكم فإنهم يأمنون ويحسبون أنها هي التي مضى صاحبهم يأتي بها، قال: ففعلوا ذلك.

حدّثنا ابن إسحٰق حدّثنا عمارة بن وهب عن سعيد بن عامر عن سليمان بن ناقد عن عروة عن جابر عن محمد بن إسحٰق قال: هكذا دبّر عليهم القبط وكان بين القوم وبينهم نصف ميل، وليس عند المسلمين خبر ما صنع المُشرِكون، وكان سعيد بن نوفل العدوي يقول لعمرو: أيها الأمير ما الذي يمسكنا عن قتال هؤلاء القبط؟ فيقول: والله ما تأخري جزع وإنما قد علمتم قصد هذا الملك المقوقس وما عليه من الدين والعقل وهو مُقِرٌّ بنبوّة نبيّنا وقد دخل إلى خلوته التي سنّها لنفسه في هذا الشهر المعظَّم، وقد بقي منه خمسة أيام ويظهر ونبعث إليه رسولاً ونرى ما يكون جوابه. فإما الصلح، وإما القتال. قال: فبينما هم يتحادثون في ذلك إذ أتاهم رسول من عند أرسطوليس بن المقوقس، وقال لهم: معاشر العرب إن وليّ عهد الملك يسلّم عليكم ويقول لكم إني لا أقدر أن أُحدِث أمرًا حتى يخرج الملك من خلوته، وقد بقي له خمسة أيام وهو يدبر في رعيته بما يشاء. فقال له عمرو: قد علمنا ذلك ولولا الملك وما نعلم منه أنه يحبّ نبيّنا وأنه مؤمن به ما أمهلناكم طرفة عين، فمضى الرسول. قال ابن إسحٰق: وما بعث هذا اللعين هذا الرسول إلا ليطمئن المسلمون وليقضي الله أمرًا كان مفعولاً وإذا جاء القدر لا ينفع الحذر وإذا أراد الله أمرًا هيّأ أسبابه.

قال الراوي: فكان المسلمون قد اطمأنت قلوبهم بذلك الخبر وقَرُبَت الصلاة فقام عمرو وخطبهم خطبة بليغة حذّر فيها وأنذر، فلما فرغ أُقيمت الصلاة وأقاموا مواليهم يرقبون مخافة العدوّ أن يكبسهم في صلاتهم. قال صابر بن قيس ونحن لا نرى أحدًا من أهل مصر لا فارسًا ولا راجلاً قال: فاصطففنا خلف عمرو للصلاة، وليس يبين لنا عدوٌّ نخافه، فلما أحرمنا وقرأ عمرو ركعنا وأومأنا للسجود إذ أشرفت الدواب والبغال وعلى ظهورها الأحمال والعسكر من ورائها وهم أهل الكمين الذي أكمنه أعداء الله وهم على عدد أصحابنا الذين مع يوقنا فلما رآهم موالينا ظنّوا أنهم أصحابنا وقد أقبلوا بالعلوفة فرفعوا أصواتهم بالفرح وقالوا: جاء يوقنا وأصحابه ولم يكلمهم العدوّ حتى أتونا ونحن في الصلاة ووضعوا السيف فينا ونحن ساجدون السجدة الأخيرة ونحن بين يدي الله تعالى. قال: وإذا بالسيوف تقرقع في لحومهم وما أحد منهم قام من سجوده وكان القتل في آخر صف من المصلّين والصف الذي يليه وهم من اليمن ومن بجيلة ومن وادي القرى ومن الطائف ومن وادي نخلة، ثم قال ابن عتبة: وكنت قد شهدت وقائع الشام وحضرموت واليرموك فوالله ما قتل منّا في وقعة من الوقائع مثل ما قتل منّا يوم بحر الحصى في أرض مصر بالحيلة التي دبّرها عدوّ الله علينا، وقال: والله ما منّا مَن انحرف عن صلاته ولا حوّل وجهه عن ربّه وقد أيقنّا بالهلاك عن آخرنا حتى أشرف علينا يوقنا بأصحابه، فلما نظروا ما حلّ بالمسلمين صاحوا ورموا ما على رؤوسهم من العمائم وقال يوقنا لبني عمّه: والله مَن قصر منكم عن عدوّه فالله يطالبه به يوم القيامة وما أرى إلا أن الأعداء قد غدروا وكبسوا المسلمين فدوروا من حولهم وضعوا السيوف فيهم واحذروا أن ينفلت منهم أحد فحملوا وأطبقوا على القبط فدفعوهم عن أصحاب رسول الله ﷺ ولم يزل القتال بينهم حتى فرغ عمرو من الصلاة هو ومَن معه وثاروا ثوران الأسد وركب عمرو ومعاذ وسعيد بن زيد وجميع الصحابة وحملوا في العدو وطحنوهم طحنًا. قال جابر بن أوس: وحِلنا بينهم وبين الوصول إلى مصر فوالله ما نجا منهم أحد وبقوا كأنهم طيور وقعت عليهم شبكة صياد، فلما وضعت الحرب أوزارها هنأ المسلمون بعضهم بعضًا بالسلامة وشكروا الله على ما أولاهم من نصره وأثنوا على يوقنا خيرًا وافتقدوا قتلاهم فكانوا أربعمائة وستة وثلاثين قد ختم الله لهم بالشهادة. قال: واتصل الخبر إلى أرسطوليس بقتل ابن عمه، ومَن معه وأنهم لم ينجُ منهم أحد فصعب عليه ذلك وأيقن بهلاكه، فدعا ببطارقته وأرباب دولته وشاورهم في أمره فقالوا: أيها الملك أنت تعلم بأن الدنيا ما دامت لأحد ممّن كان قبلك حتى تدوم لك وما زالت الملوك تنكسر وتعود وما أنت بأكثر ممّن انهزم من ملوك الأرض، وقد سمعنا أن داونوس بن أردين بن هرمز بن كنعان بن يزحور الفارسي هزمه الإسكندر الرومي سبعين مرة فاخرج إلى لقاء القوم واضرب معهم مصاف ولا تيأس وهؤلاء القسوس والرهبان والشمامسة والمطران والبترك

يدعون لك بالنصر. قال: فعوَّل على لقاء المسلمين وفتح خزائن أبيه وأنفق على الجند وأعطاهم السلاح وطلب شباب مصر وأمرهم بالخروج وبعث يستنجد بملك النوبة وملك البجاوة وأقام مدة ينتظر قدومهم.

قال: حدّثنا محمد بن إسحٰق القرشي عن عقبة بن صفوان عن عبد الرحمٰن بن جبير عن أبيه قال: لمّا كان من أمر المسلمين ما ذكرنا مما قدّره الله عليهم من كبسة عدوّهم كتب بذلك عمرو بن العاص إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه: بسم الله الرحمٰن الرحيم. من عمرو بن العاص إلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، سلام عليك وإني أحمد الله إليك وأُصلي على نبيّه. أما بعد فقد وصلت إلى مصر سالمًا وجرى لنا على بلدة بلبيس مع ابنة المقوقس كذا وكذا ونصرنا الله عليهم ورحلنا إلى بحر الحصى وقد كنّا صالحنا قومًا من أهل قرى بلاد مصر ببلاد يقال لها الجرف حتى يعينونا بالعلوفة والميرة ويجلبوا إلينا الطعام وإني أرسلت عبد الله يوقنا ليشتري لنا منهم طعامًا ومضى في خيله وسرت بنفسي رسولاً إلى مخاطبة القوم فهمّوا بالقبض عليَّ ونجّاني الله منهم وأنهم أكمنوا لنا كمينًا من الليل وأشغلونا برسول والكمين كان من الليل، فلما استوت صفوفنا للصلاة كبسوا علينا ونحن في الصلاة فلم نشعر حتى بذلوا فينا السيف وقتلوا منّا أربعمائة وستة وثلاثين رجلاً والأعيان منهم ستون ختم الله لهم بالشهادة، ونحن الآن في بحر متلاطم أمواجه مَن كثرة القوم والعساكر فأنجدنا يا أمير المؤمنين وأدركنا بعسكر ليعيننا على عدوِّنا والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته. وختم الكتاب وأعطاه عبد الله بن قرط، فسار من ساعته وجدَّ في السير إلى أن وصل المدينة فقَدِمها في العشر الأوسط من شوَّال سنة اثنتين وعشرين من الهجرة فأناخ مطيّته بباب المسجد ودخل فرأى عمر بن الخطاب عند قبر رسول الله ﷺ. قال ابن قرط: فدفعت الكتاب إليه فنظر إليَّ، وقال: عبد الله؟ قلت: نعم. قال: من أين أتيت؟ قلت: من مصر من عند عمرو بن العاص. قال: مرحبًا بك يا ابن قرط ثم فكَّ الكتاب وقرأه وقال: لا حول ولا قوة إلا بالله العليّ العظيم، ثم قال: مَن ترك الحزم وراء ظهره تباعدت عنه فُسَيحات الخُطا، ووالله ما علمت عميرًا إلا حازم الرأي مليح التدبير، ضابط الأمر، حسن السياسة ولكن إذا نزل القضاء عَمِيَ البصر، ثم إنه كتب كتابًا إلى أبي عبيدة وذكر له ما جرى لعمرو بن العاص بمصر وأمره أن ينفذ إليه جيشًا عرمرمًا، وأنفذ الكتاب مع سالم مولى أبي عبيدة قال عبد الله بن قرط: فأقمت في المدينة يومين واستأذنته في المسير فزوّدني من بيت المال وكتب إلى عمرو يقول: بسم الله الرحمٰن الرحيم، من عمر بن الخطاب إلى عمرو بن العاص. أما بعد: فإني أحمد الله الذي لا إلٰه إلا هو وأُصلّي وأُسلّم على سيدنا محمد ﷺ، وقد بلغني ما جرى لكم بمصر من غدر عدوّكم كما سبق في أُم الكتاب، وكان يجب عليك يا ابن العاص أن لا تطمئن إلى عدوّك ولا تسمع منه حيلة، وما كنت أعرفك إلا حسن الرأي والتدبير

ولكن ليقضي الله أمرًا كان مفعولاً، فاستعمل النشاط في أمرك ولا تأمن لعدوك واستعمل الحذر فإن الإمام ما يكون إلا على حذر والله يعيننا وإياك على طاعته وقد أنفذت إلى أبي عبيدة أن يرسل إليكم جيشًا، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته. وختمه وسلّمه لعبد الله بن قرط. قال: فأخذته وسرت وأنا أجدّ السير حتى أتيت مصر ودفعت الكتاب لعمرو بن العاص فقرأه على المسلمين ففرحوا بذلك وأقاموا ينتظرون إخوانهم.

كبسة الجيش

حدّثني ابن إسحٰق حدَّثني سهل بن عبد ربه عن موسى عن عبد الرَّزَّاق. قال: لمّا كبس ابن المقوقس جيش المسلمين ورجعت دائرة السوء عليه وقتلوا عن آخرهم وبلغه الخبر بكى على ابن عمه وحلف بما يعتقده من دينه أنه لا بدّ له أن يأخذ بثأرهم، ثم إنه أمر أرباب دولته أن يجتمعوا بالكنيسة المعلقة في داخل قصر الشمع فاجتمعوا فجلس على سرير عند المذبح وقام فيهم خطيبًا. فقال: يا أهل دين النصرانية وبني ماء المعمودية اعلموا أن ملككم عقيم وبلدكم عظيم وهذه بلاد الفراعنة ممّن كان قبلكم وقد ملكها عدة ملوك ممّن احتوى على الأقاليم وملكها مثل الملك المعظّم من آل حمير ومثل مستفان والبستق والملحان وهو باني هذه الأهرام ونمروذ بن كنعان ولقمان بن عاد، وذي القرنين الملك العظيم وانقضى ملكهم منها ورجع إلى سبأ وأرضها وحضرموت وقصر عمان، ثم تولّى هذه الأرض القبط من آبائكم وأجدادكم أطسليس وبلينوس والريان بن الوليد وهو الذي استخلص يوسف لنفسه والوليد وهو المكنّى بفرعون، وبعدهم طبلهاوس ثم جدي راعيل، ثم أبي المقوقس وجميع ملوك الأرض تحسدنا على ملك مصر وهؤلاء العرب الطماعة، وليس في العرب أطمع منهم فإني أراكم قد كسلتم وفشلتم عن لقائهم فطمعوا فيكم وفي ملككم كما طمعوا في ملك الشام وانتزعوه من أيدي القياصرة فقاتلوا عن أموالكم وحريمكم وأولادكم، وأما أنا فواحد منكم، واعلموا أن الملك المقوقس قد أمرني بلقاء هؤلاء العرب وقال: إنه لا يظهر إليهم حتى أرى ما يظهر من قومي وأرباب دولتي فما تقولوَن وما الذي اجتمع عليه رأيكم؟ فقالوا: أيها الملك إنما نحن عبيد هذه الدولة وغلمانها فإنها قد استعبدت رقابنا بنعمتها وإحسانها، ونحن نقاتل لمحبتها فإما أن نرزق النصر من المسيح وإما أن نموت فنستريح. قال: فشكر قولهم وخلع على أكابرهم وقال لهم: اخرجوا واضربوا خيامكم ظاهر البلد مع القوم وطاولوهم بالمبادرة إلى أن يأتي إلينا نجدة من ملك النوبة والبجاوة فأجابوا إلى ذلك وأمروا غلمانهم بأن يضربوا الخيام خارج البلد فضربوها مما يلي النور والرصد.

قال ابن إسحٰق: وفي ليلتهم تلك جاءتهم الأخبار بأنه وقع بين ملك النوبة وملك البجاوة حرب وأنه ما يجيبكم منهم أحد وأخرجوا للملك أرسطوليس سرادقًا معظّمًا وسط

جيش القبط. قال: وأخذ المسلمون على أنفسهم وأقبلوا يحرِّضون بعضهم ويحرسون قومهم بالنوبة، فكان عمرو في أوَّل الليل يطوف حول العسكر ومعاذ إذا انتصف الليل ويزيد بن أبي سفيان في آخر الليل والنور على عسكرهم والإيمان لائح عليهم وأصواتهم مرتفعة بالقرآن وبذكر الله وبالصلاة على نبيّه ﷺ قال ابن إسحٰق: فلما وصل كتاب عمر بن الخطاب إلى أبي عبيدة وقرأه على المسلمين قال لخالد بن الوليد: يا أبا سليمان ما ترى من الرأي؟ فقال: إذا كان أمير المؤمنين أمرك أن تنجد عمرو بن العاص فأنجده. فقال أبو عبيدة: إن الطريق إلى مصر بعيد وإن أنا أرسلت جيشًا كبيرًا خفت عليه من بُعْد الطريق ومن المشقّة فقال خالد: كم جهدك أن ترسل؟ قال: أربعة آلاف فارس. فقال خالد: إن الله كفاك ذلك. قال: وكيف ذلك يا أبا سليمان؟ قال: إن عزمت على ما ذكرت فابعث أربعة من المسلمين فهم مقام أربعة آلاف فارس. فقال أبو عبيدة: مَن الأربعة؟ قال خالد: أنا أحد الأربعة والمقداد بن الأسود وعمار بن ياسر ومالك بن الحرث، فلما سمع أبو عبيدة ذلك تهلّل وجهه وقال: يا أبا سليمان افعل ما تراه، فدعاهم خالد وأعلمهم بما عزم عليه، فقالوا: سمعًا وطاعة. فقال: خذوا على أنفسكم فنحن نسير هذه الليلة. قال: فلما صلّى أبو عبيدة بالناس صلاة المغرب قَدِمَ الثلاثة إلى قبة خالد فركبوا وودّعوا أبا عبيدة والمسلمين وأخذوا معهم دليلاً يدلّهم على الطريق إلى وادي موسى والشوبك وأخذوا معهم ما يحتاجون إليه وساروا يريدون مصر فما زالوا يجدّون إلى أن قربوا من عقبة أيلة وإذا هم بخيل ومطايا تزيد على ألف فارس فأسرعوا إليهم فإذا هم من ثقيف وطي ومرداس قد وجّههم عمر بن الخطاب إلى مصر مع رفاعة بن قيس وبشار بن عون. قال: فلما رأوهم سلّموا عليهم ورحّبوا بهم واستبشروا بالنصر لمّا رأوا خالدًا وعمّارًا والمقداد ومالكًا وارتفعت أصواتهم بالتهليل والتكبير وساروا بأجمعهم.

قال: حدّثنا يوسف بن يحيىٰ عن دارم عن منصور بن ثابت قال: كنت في جملة الوفد الذي وجّهه عمر رضي الله عنه مع رفاعة وبشّار والتقينا بخالد بن الوليد وأصحابه عند عقبة أيلة وسرنا معهم حتى وصلنا أرض مصر وقربنا وبقي بيننا وبينها يومان، فبينما نحن نسير في بعض الليالي وكانت ليلة مظلمة لا يكاد الرجل أن يرى من شدة الظلام إذ سمعنا حسًّا بالبُعد منّا فوقفنا. فقال خالد: أيّكم يأتينا يا فتيان العرب بخبر هؤلاء الذين في هذا الجيش؟ قال نصر بن ثابت: وكنت راكبًا فقفزت من ظهر الراحلة وسعيت على قدمي وأخفيت حسّي إلى أن تبيّن لي جيش كبير فتحقّقت أمرهم فإذا هم جيش من العرب المتنصرة وهم يزيدون على ثلاثة آلاف وهم ركبان المطايا والخيل. فقلت: والله لا عدت إلى أصحابي إلا بالخبر اليقين. قال: فاتّبعت أثرهم لأسمع ما يقولون وما يتحدّثون فمشيت معهم قليلاً فأسمعهم يقولون: أذلَّ الصليب أعداءنا فإنّا قد أصابنا التعب ولحقنا

الجهد ومن وقت خروجنا من مدين لم نجد أحدًا ومصر قد قربنا منها فانزلوا لنأخذ راحة ونُريح مطايانا ونعلق على خيلنا وإذا بمقدّمهم يقول: وحق المسيح ما بغيتنا إلا في الخلع والأموال من ملك مصر ولكن إذا عوّلتم على الراحة فانزلوا. قال فنزل القوم على ماء يُعرَف بالغدير وأقبلوا يجمعون الشيح ويصنعون لهم الزاد وعلقوا على خيولهم وتركوا إبلهم ترعى. قال نصر بن ثابت: فعلمت أن القوم من متنصرة العرب فتركتهم وأتيت إلى أصحابي وحدّثتهم بذلك فحمدوا الله كثيرًا وأثنوا عليه وقالوا لخالد: ما الذي ترى؟ فقال: أرى أن تركبوا خيولكم الآن وتستعدّوا للحرب ونسير إليهم ونكبسهم فإنهم قد أتوا لنصرة صاحب مصر وما أتوه إلا بمكاتبة لهم يستنجد بهم على أصحابنا، قال فلبسوا سلاحهم وركبوا الخيل وتركوا مواليهم مع المطايا والرجال وساروا خيلاً ورجالاً إلى أن قربوا من نيران القوم فصبروا حتى خمدت وناموا فتسللوا عليهم كتسلل القطاة. فقال خالد: دوروا بالقوم ولا تدعوا أحدًا منهم ينفلت من أيديكم فيثير عليكم عدوّكم، قال فداروا بهم كدوران البياض بسواد الحدق وأعلنوا بالتهليل والتكبير ووضعوا فيهم السيف فما استيقظ أعداء الله إلا والسيف يعمل فيهم ووقعت الدهشة في القوم وهم في أثر النوم فقتل بعضهم بعضًا ووقف ابن قيس ومعه جماعة على البُعد منهم وبشّار ورفقته وكلّ مَن انهزم أخذوه، فلما أصبحنا رأينا القتلى منهم ألفًا وأسرنا منهم ألفًا فعرضوهم على خالد فقال: حدّثوني من أين جئتم وإلى أين مقصدكم؟

فقالوا: إنّا قوم من متنصرة العرب وكلنا كنا أصحاب الشام، فلما هزمتم الملك هرقل رحلنا من أرض الشام ونزلنا أرض مدين ونحن على خوف منكم وكاتبنا صاحب مصر وهو المقوقس لعله أن يأذن لنا أن نكون من أصحابه ونكون له عونًا عليكم، فلما أجابنا إلى ذلك بعثنا الخيل العربية إلى وليّ عهده وصاحب الأمر من بعده، فلما كان في هذه الأيام جاءتنا خلعة ورسالة بالدخول إلى مصر فرحلنا إليهم فوقعتم بنا، فلما سمع خالد منهم ذلك قال: «مَن حفر لمسلم قليبًا أوقعه الله فيه قريبًا» ثم عرض عليهم الإسلام فأبوا فأمر بقتلهم فقتلناهم عن آخرهم وقسمنا رِحالهم وما كان معهم ووجدنا معهم الخلع التي وجّهها إليهم ابن المقوقس ففرّقها خالد على المسلمين وفيها خلعة سَنِيّة وكانت لمقدّم القوم فأعطاها رفاعة وساروا حتى قربوا من الجبل المقطم فرأوا جيش القبط فأرسل خالد رجلاً من قبله وهو نصر بن ثابت وقال له: امضِ إلى هذا الملك وقل له: إن العرب أصحاب مدين قد أتوا لنصرتك. قال فمضى الرجل إلى أن وصل إلى عسكر القبط فأخذه الحرس وقالوا له: مَن أنت؟ قال: أنا مبشّر الملك بقدوم العرب المتنصرة إلى نصرته. قال ابن إسحٰق: فأخذوا نصر بن ثابت وأتوا به إلى سرادق الملك. قال فلما وقفت بين يديه ناداني الحجّاب أن أسجد للملك ففعلت وأنا أسجد لله تعالى حتى لا ينكروا عليَّ وكان قد صحّ عندهم أنه مَن امتنع من السجود فهو مسلم. قال فلما رفعت

رأسي قال لي الوزير: يا أخا العرب أوصل أصحابك إلى نصرة الملك، فقلت: نعم وهاهم في دير الجبل المقطم. قال فلما سمع الملك ذلك أمر من حجّابه أُناسًا أن يمضوا إلى لقائهم وسرت في جملتهم وأخذوا معهم الجنائب وأظهروا زيَّ الفراعنة وخلع على نصر بن ثابت عوض بشارته وساروا إلى لقاء المتنصرة.

قال: حدّثنا عسكر بن حسان عن رفاعة بن موسى عن موسى بن عون عن جدّه نعيم بن مرّة. قال كنت فيمن وجّه عمر بن الخطاب من أهل نخلة وكان خالد يحبني ويقرّبني لأن أبي كان يسافر له ببضاعة إلى سوق بصرى. قال: فلما رأى خالد أصحاب الملك قد أتوا قال لي خالد: يا ابن مرّة أُريد أن أُوصيك. فقلت: بماذا؟ قال: اعلم أن العدوَّ قد أرسل يلاقينا وهو يظن أننا من متنصرة العرب ولا شك أن عمرو بن العاص ومَن معه تجفل قلوبهم منّا وأُريد أن تنزل عن فرسك وتكمن خلف هذه الحجارة فإذا خلا لك الطريق فانسلَّ نحو عسكر المسلمين وحدّثهم بأمرنا وما قد عزمنا عليه من غدر القوم. فإن عمر لا يطمئن لغيرك وأقرئه سلامي وقل له يكن على أُهبة فإذا سمع تكبيرنا يأمر أصحابه أن يرفعوا أصواتهم بالتهليل والتكبير، فإن ذلك مما يزيد في رعب أعدائنا، فقال: نعم. قال وفعلت كما أمرني خالد ونزلت عن فرسي وأسلمتها لغلامي دارم ومضيت نحو الجبل وكمنت بين الأحجار.

قال الراوي: وإن خالد أمر أصحابه بلبس الخلع التي أرسلها لهم ابن المقوقس فلبسوها فوق دروعهم ولبس رفاعة بن قيس وبشار بن عون أحسنها وغيّر خالد زيّه والمقداد وعمّار ومالك الأشتر. قال فلما وصل مقدم جيش القبط. قال خالد لرفاعة وبشار: ترجّلوا له وأصقعوا بين يديه وصلّبوا على وجوهكم فليس عليكم في ذلك حرج واحلفوا بالمسيح والسيدة مريم وإياكم والغلط بأن تذكروا محمد ﷺ فيظن القوم بنا واجعلوا الجهاد نصب أعينكم وتوكّلوا على الله في جميع أموركم. قال ففعلوا ما قال لهم خالد وترجلوا عند رسول القبط وصقعوا.

قال: حدّثنا نصر بن عبد الله عن عامر بن هبار وقال: يا عم اعلم أن الله إذا أراد أمرًا هيّأ أسبابه، وذلك أننا لمّا أشرفنا على أول ديار مصر نزلنا على دير يقال له دير مرقص وكان ديرًا عامرًا بالرهبان، فلما نزلنا عليه أشرف عليه أهله وقالوا: مَن أنتم؟ قلنا: نحن من أصحاب الملك هرقل ملك الشام وقد جئنا لنصرة صاحبكم فإنه قد أرسل إلينا يستنفرنا لأجل هؤلاء العرب. قال ففرحوا بنا ودعوا لنا وكان كبيرهم والمقدّم عليهم في دينهم شيخًا كبيرًا وكان من قسوس الشام وكان من أعلم القوم بدينهم وأعرف الناس بآل غسان وكانت الضيحا قد أقطعها هرقل للملك جبلة بن الأيهم وكان قد جعل على جبايتها ولد هذا القسّ وكان اسمه نونلس، وأن المسلمين لمّا فتحوا بعلبك وحمص هرب هذا

القسّ بأمواله وأولاده إلى طرابلس وركب البحر في مركب وتوصل إلى مصر وبلغ خبره المقوقس فأحضره وسأله عن حاله فحدّثه بأمره فخلع عليه وجعله قيّمًا في الكنيسة المعلقة التي في قصر الشمع وصار من أصحاب سكناه في دير مرقص ولا يدخل مصر إلا في أمر مهمّ، فلما نزل عمرو بمَن معه عليهم وقتل ابن المقوقس أباه احتاج إلى رأي البترك فأرسل إليه وأنزله في الكنيسة وولّى البترك مكان هذا القسّ نونلس بن لوقا فكان في الدير فلما نزل خالد بن الوليد ومَن معه على الدير. قال عامر بن المبارك الثعلبي: فأشرف علينا وتأملنا وكان أعرف الناس بخالد بن الوليد لأنه رآه في مواطن كثيرة من الشام وكان صاحب حمص قد أرسله رسولاً إلى أبي عبيدة ليصالحوهم. قال فجعل يتفقدهم وينظر في وجوههم، ثم قال: وحق المسيح ما أنتم من آل غسان وما أنتم إلا من عرب الحجاز وقد جئتم لتحتالوا علينا فإني رأيت إمامكم الذي فتح الشام وقتل ملوكها وسوف أُكاتب الملك بقصتكم ليقبض عليكم، فقالوا: ما عندنا خبر من الذي تقوله وقد خيّل لك ذلك: أما علمت أن المسلمين ما خلوا لنا حالاً وقد نهبونا وأصبحنا بالذلّ بعد العز والفقر بعد الغنى وقد كتب إلينا ملك مصر بأن نجيء إليه فأرسل إلينا بالخلع وطيّب قلوبنا. قال عامر: فضحك اللعين من قولي وقال لي: إن آل غسان أكثرهم يعرف بكلام الروم وحق ديني ما أنتم منهم وقد صحّ قولي: إنكم مسلمون. فقلنا له: يا ويلك لو كنّا من الذين تقول عنهم ما كنّا نأتيكم بالنهار وكنا نكمن ونسير في الليل حتى نصل إلى أصحابنا وإنك استحقرت المسيح إذ جعلتنا من أصحاب محمد فقد وقعت في ذنب عظيم، ثم إننا بالقرب منهم. فقال أصحابه: يا أبانا ليس هؤلاء القوم ممّن ذكرت فلو كانوا مسلمين ما جسروا أن يدخلوا أرض مصر في ضوء النهار ولا يقربوا العمران. فقال: وحق ديني أنا أعرف الناس بهم وإنهم مسلمون بلا شك فامتنعوا منهم ولا تُخرِجوا لهم طعامًا ولا ماء وسأنفذ خبرًا للملك بذلك فيكون منهم على حذر. قال عامر بن هبار: وكان من لطف الله بنا أن الرهبان الذين بالدير لما سمعوا كلامه قال بعضهم لبعض: يجب علينا أن نأخذ لنا منهم صلحًا فنكون آمنين من غائلتهم ولا نبرح من ديرنا هذا. فقال أكبرهم: إن أنتم فعلتم ذلك فإننا لا نعلم مَن ينصر الفريقين أصحابنا أم العرب، فإن كان النصر لأصحابنا خفنا من هذا القسّ أن يعلم بنا الملك أننا صالحنا المسلمين بغير أمره فإنه يقتلنا، وإن هذا اللعين تعلمون أنه على غير مذهبنا وهو في كل يوم يكفرنا لأنه نسطوري ونحن يعقوبية، فإن أنتم أردتم صلح هؤلاء العرب فدونكم وهذا القسّ فاقبضوا عليه وسلّموه لهم وخذوا منهم أمانًا. قال: ففعلوا وقبضوا عليه وأشرفوا علينا وقالوا لنا: بحق ما تعتقدون من دينكم أنتم من أصحاب محمد أم لا؟ فإنّا قد قبضنا على هذا اللعين ونريد أن نسلمه لكم وأنكم تعطوننا أمانًا فإنّا قوم لا نعرف حربًا ولا قتالاً. فقال لهم مالك الأشتر: يا هؤلاء أما ما زعمتم من صلحنا فإنّا نصالحكم وما كان أمرنا بالذي يخفى ولا

نرضى بالكذب فإنه أشنع شيء عندنا، ولا سيما أن الإسلام يمنعنا من استعماله، ولو أن السيف على رأس أحدنا إذا سُئِل عن دينه أجاب به وتكلم بوحدانية الله تعالى، ونحن من أصحاب محمد ﷺ ولكم الأمان وهذا أمان الله ورسوله.

قال: فلما سمع الرهبان من مالك ذلك نزلوا وفتحوا الباب وسلّموا لنا القسّ. فقال له خالد: يا عدوّ الله أردت أمرًا وأراد الله خلافه، ثم إنه عرض عليه الإسلام فأبى وقال: أنا هربت منكم من الشام ثم أوقعني المسيح في أيديكم وما أظن إلا أن المسيح مسلم فافعل ما أردت فضربوا عنقه. قال عامر بن هبار: وخرج إلينا أهل الدير بأجمعهم ومعهم الطعام والعلوفة فأكلنا وأقمنا عندهم إلى الليل. فقال شيخهم الذي أشار عليهم بقبض القسّ الرومي لخالد: أيها السيد إني قد تفرّست فيك الشجاعة فبالله مَن أنت من أصحاب محمد؟ فقال: أنا خالد بن الوليد المخزومي. فقال: أنت وحق ديني الذي فتحت بلاد الشام وأذللت ملوكها وبطارقتها وإن صفتك عندي ثم إنه دخل الدير وأتى ومعه سفط ففتحه وإذا فيه بين أوراقه ورقة وفيها صفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه وزيّه وصورته وصورة أبي عبيدة وصورة خالد بن الوليد والسيف في يديه مشهور. قال: ما زلت أسمع أخبارك كلها فلِمَ عزلك عمر بن الخطاب وولّى غيرك؟ فقال خالد: اعلم أن عمر هو الإمام وهو الخليفة ومهما أمرنا فلا نخالفه فإن الله أمرنا بذلك في كتابه فقال تعالى: ﴿**أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأُولي الأمر منك**﴾ [النساء: ٥٩] فطاعته فرض علينا لأنه يحكم بالعدل ويأمر بالمعروف وينهى عن المنكر وإنّا قد وجّهنا إليه خمس الغنائم من الفتوح كلها من الأموال فما ازداد في الدنيا إلا زهدًا ولا آثر الدنيا على الآخرة بل مجلسه على التراب ولباسه المرقعة ويمشي في سوق المدينة متواضعًا راجلاً، فالتواضع لباسه والتقوى أساسه والذكر شعاره والعدل في الرعية دثاره وما زال يعطف على اليتيم ويرفق بالأرملة والمسكين ويرفد أبناء السبيل، فظٌّ في دين الله غليظ على أعداء الله قائم بشعائر الله لا يستحي من الحق ولا يداهن الخلق. فقال القس: أكانت له الهيبة على عهد نبيّكم؟ قال خالد: نعم سمعت سعد بن أبي وقاص يقول: استأذن عمر فأذِنَ له فدخل ورسول الله ﷺ يضحك. فقال عمر: أضحك الله سنّك يا رسول الله. قال: «عجبت من هؤلاء اللواتي كنّ عندي، فلما سمعن صوتك ابتدرن الحجاب». فقال عمر: أنت أحقّ أن يَهَبْنَكَ وقال لهنّ: يا عدوّات أنفسكنّ أتَهَبْنَني ولا تَهَبْنَ رسول الله ﷺ؟ فقلن: نعم أنت فظٌّ غليظ دون رسول الله ﷺ. فقال رسول الله ﷺ: «والذي نفسي بيده ما لقيك الشيطان سالكًا فجًا إلاّ سلك فجًا غيره». قال فلما سمع القسّ ذلك قال: بركة نبيكم عادت على إمامكم وعليكم. فقال خالد: وما يمنعك، من الدخول في ديننا؟ فقال: حتى يشاء صاحب هذه الخضراء، ثم قال لخالد: أريد أن أُعطيكم من صلبان هذا الدير حتى تكمل حيلتكم. قال وأخرج لهم

صلبانًا كثيرة فأخذها خالد ودفعها لرفاعة بن قيس وبشّار بن عون وتزيّوا بزيّ الذين قتلوهم من آل غسان وارتحل خالد بعدما وكّل بالدير عشرة من أهل وادي القرى لئلا يخرج أحد بأخبارهم ويقربوا للملك بذلك. قال وعدنا إلى سياق الحديث، فلما أشرف أصحاب ابن المقوقس عليهم رأوهم وقد لبسوا خلع الملك وعلقوا الصلبان وشدّوا الزنانير ورفعوا صليبًا من فضة كان قد أخرجه لهم القسّ فلما صقعوا للحجّاب ركبوا وساروا حتى وصلوا إلى سرادق الملك فترجّلوا وأخذوا لهم إذنًا فأذِنَ لهم فدخلوا ودخل أوّلهم رفاعة وبشّار ومَن معه وخدموا الملك وسجدوا له ولم يدخل خالد ومَن معه ووقفوا مع بقية العرب خارج السرادق، وإن الملك لمّا رآهم قال لهم: يا معاشر العرب أنتم تعلمون محبتنا لكم وتقريبنا لكم وقد طلبتم أن تكونوا لنا عونًا على هؤلاء العرب فإن نصحتم لنا في دولتنا شاركناكم في مملكتنا وقاسمناكم في مُلكنا ونعمتنا. فقال له فاعة: أبشر أيها الملك سوف ترى ما نبذله في محبتك يوم الحرب. قال فخلع عليه وخرج من عنده وأمر لهم بخيام ضُرِبَت في عسكرهم.

قال: حدّثنا عامر بن أوس عن جرير بن صاعد عن نوفل بن غانم عن سهل بن مسروق. قال لمّا قَدِمَ الجيش الذي وجّه عمر بن الخطاب مع رفاعة وبشّار وكان من أمرهم ما ذكرناه، ونظر إليهم عمرو بن العاص ومَن معه من أصحاب رسول الله ﷺ أقبلوا ينظرون إليهم وإلى زيّهم. فقال معاذ لعمرو: ما هؤلاء من المتنصرة وإن نفسي تأبى ذلك. فقال عمرو: والله يا أبا عبد الرحمٰن لقد نظرت بنور الله وإنني نظرت فيهم واحدًا واحدًا ورأيتهم بزيّ وادي القرى وزيّ الطائف. فقال شرحبيل بن حسنة: وأنا نظرت أعجب من ذلك إني رأيت خالد بن الوليد في جملتهم ولاحت لي عمامته وقلنسوته وثيابه التي كانت عليه يوم دخول طرابلس. فقال يزيد بن أبي سفيان: أنا والله رأيت مالكًا الأشتر النخعي وعرفته بطول قامته وركبته على فرسه، ثم قالوا: لا بدَّ أن ينكشف لنا خبرهم على جليّته فهم في الحديث إذ قد أتاهم نعيم بن مرّة، فلما رأوه تهلّلت وجوههم فرحًا وسرورًا، فلما وصل إليهم وسلّم عليهم وحدَّثهم بالحديث كله سجدوا لله شكرًا، وقال بعضهم لبعض: أيقظوا هِمَمَكم وكونوا على يقظة من أمركم، فإذ سمعتم التكبير في عسكر العدو فبادروا إليهم. قال ابن إسحٰق: ولله في خلقه تدبير، وذلك أنه لمّا جنّ الليل جمع أرسطوليس بن المقوقس أرباب دولته، وقال لهم: قد ضاق صدري من هؤلاء العرب، وقال لهم: قد غلا السعر عندنا، لأن أهل البلاد قد أجلت من خوفهم، وإن خيلهم تضرب إلى الريف من هذا الجانب وإلى الصعيد من هذا الجانب والنوبة والبجاوة ما يأتينا منهما أحد للفتنة التي هي بينهم والرأي عندي أن نحارب هؤلاء العرب صبيحة عيدهم. قالوا: أيها الملك هذا هو الرأي. فقال: أخرجوا السلاح وفرّقوه على مَن ليس معه سلاح... هذا ما جرى عنده، وليس عنده خبر بما جرى في قصره بعد.

نتـــائج المعركة

قال ابن إسحٰق: وكان من حسن تدبير الله تعالى لعباده المؤمنين أنه كان للمقوقس أخ شقيق واسمه أرجانوس وكانا متحابين وكان المقوقس لا يقطع أمرًا دونه وكانا إذا ركبا لا يفترقان وإذا جلسا يجلسان معًا على السرير وكان المقوقس قد دخل في خلوته التي ذكرنا وكان أخوه من محبته قد رتب هناك مَن يعرفه لما يخرج من خلوته، فلما كان في هذه النوبة استبطأه فأتى إلى ابن أخيه فرآه على السرير. فقال له: ما فعل الملك؟ فقال: إنه في خلوته إلى الآن وقد رأى أن طالعه ضعيف مع هؤلاء العرب وقد أمرني أن أكون مكانه حتى يرى ما يريد من قتالهم أوِ صلحهم، قال: فكتم أرجانوس الأمر في نفسه وعلم أن أخاه قد قتل وكان أرجانوس ممّن يعتقد نبوّة محمد ﷺ ويعلم أن دعوته تطوف المشرق والمغرب، وأن الملوك تضمحل في أيام أصحابه وسينزلون على البلاد فترك أرجانوس الأمر موقوفًا ولم يُبْدِ ما في نفسه لأحد، فلما خرج ابن أخيه مع العسكر جمع أرجانوس الذين تركهم ابن أخيه لحفظ البلد في قصر الشمع، وقال لهم: اعلموا أن العقل هو عمدة قوى ابن آدم، لأن الله قد خصّه به دون سائر المخلوقات وإن أخي قد قتله ولده لا محالة وقد كان محبًا لكم ومشفقًا عليكم، واعلموا أن هؤلاء العرب قد كان قدّامهم من ملكه أعظم من ملككم وما ثبت بين أيديهم، وليس بين دولتكم وبين أن تزول وتضمحل إلا أن يلتقي الجيشان، وإن ظفر بكم هؤلاء العرب قتلوكم ونهبوكم وسكنوا في مساكنكم وأيتموا أولادكم. فقالوا: أيها الملك فما يكون عندك من الرأي وما تفعل؟ قال: إني أرى من الرأي أن تستيقظوا لأنفسكم وتغلقوا أبواب هذا القصر ولا تدعوا أحدًا يدخل عليكم من جند الملك ولا هو نفسه فإنهم لا يقدرون أن يقاتلوكم، والعرب من ورائهم، وأنه يعدِّي الجانب الغربي ويمضي إلى إسكندرية ونعقد لنا صلحًا مع هؤلاء العرب على أنفسنا وأولادنا وحريمنا ونسلم لهم بعد ذلك. فمَن أراد يتبعهم ومَن أراد يعطيهم الجزية. قال: فاستصوبوا رأيه وعلموا أنه نطق بالحق، كان أرجانوس له في سرايته ألف مملوك. قال: فاحتوى على قصر الملك وأخذ الخزائن والأموال وغلق أبواب قصر الشمع وفعل ما فعل وليس عند ابن أخيه خبر إلى أن ذهب من الليل نصفه أو أكثر فجاء إليه بعض خدمه وأخبره بما فعل عمه فأيقن بتلفه وخروج ملك مصر منه. قال فبينما هو في حيرة في أمره إذ كبّر خالد بن الوليد ومَن معه في وسط عسكره فسمع عمرو وأصحابه التكبير فكبّروا ووقعت الخذلة على الكفّار وحملت فيهم المسلمون ووضعوا فيهم السيوف، فلما نظر أرسطوليس إلى ما نزل به والكبسة التي وقعت بعسكره لم يكن له دأب إلا أن ركب وأحدقت به مماليك أبيه وأرباب دولته وطلبوا بالهزيمة وقصدوا البحر وعدوا الجانب الغربي وطلبوا إسكندرية فجازوا على مدينة مريوط وفيها الموبذان الساقي ومعه ثلاث آلاف من عسكره، فلما أن صاح الصائح في مصر بأن الملك انهزم وما ثبت

أحد من عسكر القبط وولّوا والسيف يعمل فيهم وغرق منهم في البحر خلق كثير ونصر الله المسلمين وانهزموا.

قال ابن إسحٰق: حدّثني مَن أثق به أنه قتل في تلك الليلة من عسكر القبط خمسة آلاف وغنم المسلمون أثقالهم وما كان فيها من الأموال، فلما أقبل الصباح اجتمع خالد بالمسلمين وسلّم بعضهم على بعض وهنّوهم بالسلامة ودخلوا مصر وملكوا دُورها وأحاطوا بقصر الشمع فأشرف عليهم أرجانوس بن راعيل أخو المقوقس، وقال لهم: يا فتيان العرب اعلموا أن الله قد أمدّكم بالنصر وقد فعلت في حقّكم كذا وكذا ولولا حيلتي على ابن أخي لما انهزم منكم، وقد ظفرتم الآن ونحن نسلم إليكم على شرط أنكم لا تتعرضون لنا ولا تمدّون أيديكم لنا بسوء، ومَن أراد منّا أن يبقى على دينه يؤدّي الجزية ومَن أراد أن يتبعكم يتبعكم. فقال له معاذ بن جبل: قد نصرنا الله على الكفّار بصدق نيّاتنا وصلح أعمالنا واتّباعنا للحق، وإنّا ما قلنا قولاً إلا وفّيناه ولا استعملنا الغدر ولا المكر، وأنتم لكم الأمان على أنفسكم وأموالكم وحريمكم وأولادكم، ومَن بقي منكم على دينه فلن نكرهه، ومَن اتّبع ديننا فله ما لنا وعليه ما علينا، فلما سمع أرجانوس ذلك نزل إليهم بالمفاتيح فأمّنوه وأمّنوا مَن كان معه في القصر، وجمعوا أكابر مصر ومشايخها وقالوا لهم: إن الله قد نصرنا عليكم، وقد انهزم ملككم منّا وأنتم الآن في قبضتنا وقد صرتم مماليكنا ومَن أسلم منكم قبلناه ومَن أبى استعبدناه، فقالوا: أيها الملك ما هكذا بلغنا عنكم. قال: وما الذي بلغكم عنّا؟ قالوا: سمعنا عنكم أن الله قد أسكن الرحمة في قلوبكم وأنتم تعفون عمّن ظلمكم وتُحسِنون إلى مَن أساء إليكم وأنت تعلم أننا قوم محكوم علينا ولو كان الأمر إلينا لاتّبعناكم فارفقوا بنا وانظروا في أحوالنا، فقال عمرو لأصحابه وللأمراء: ما ترون من الرأي في أمر هؤلاء القوم؟

فقال شرحبيل بن حسنة: اصنع ما أمر الله به من العدل فيهم وأحسن إليهم وطيّب خواطرهم فإننا إذا قصدنا غير هذه المدينة وسمع أيها الأمير عنك أهل المدينة الأخرى ما فعلته مع أهل مصر يسلمون بغير منازعة ولا حرب، فقال معاذ بن جبل وخالد بن الوليد والمقداد وعمّار ومالك وربيعة ويزيد: القول الذي قاله كاتب وحي رسول الله ﷺ هو المعمول به، فقال عمرو لأهل مصر: قد أمّنّاكم على أنفسكم وأولادكم وحريمكم مِنّة منّا عليكم وقد وضعت عنكم جزية هذه السنة، وفي السنة الآتية نأخذ منكم الجزية من كل محتلم أربعة دنانير، ومَن أسلم منكم قبلناه، قال فلما سمع أرجانوس ابن راعيل كلام عمرو، قال: لقد أنصفت وإن الله بهذا نصركم وقد وقفت الآن على صحة دينكم وأنا أشهد أن الله وحده لا شريك له وأن محمدًا عبده ورسوله، واشهدوا على أن كل ما تركه أخي من الأموال والأصول والثياب والمتاع هو هبة مني إليكم بما فعلتم مع أهل بلدي.

قال فلما نظر أهل مصر إلى أرجانوس وقد أسلم دخل أكثرهم في الإسلام، وعمد عمرو إلى الكنيسة وعملها جامعًا وهو المعروف به إلى يومنا هذا، وجمع الأموال التي أخذها من وراء القبط المنهزمين ومن منازلهم وما كان في قصر الملك وأخرج الخمس وأعطى كل ذي حقٍّ حقّه، ثم كتب كتابًا إلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه وبعث الخمس والكتاب مع علم بن سارية، وسلّم المال والكتاب له وسيّر معه مائة فارس وأمره بالمسير إلى المدينة، فاستلم الخمس وسار حتى قَدِمَ المدينة وسلّم المال والكتاب لعمر بن الخطاب رضي الله عنه، فلما قرأه سجد لله شكرًا وأمر بالمال إلى بيت المال. فقال علم بن سارية: يا أمير المؤمنين إن عمرًا يسلّم عليك ويقول لك: إن القبط كانوا استسنّوا سُنّة في نِيلهم في كل سنة وذلك أنهم كانوا إذا أبطأ عليهم الوفاء في النيل يأخذون جارية من أحسن الجواري ويزيّنونها بأحسن زينة ويرمونها في البحر فيأتي الماء ويفي النيل وقد قَرُبَ ميقات ذلك، ولا يفعل عمرو شيئًا إلا بإذنك. قال فكتب عمر بن الخطاب: بسم الله الرحمٰن الرحيم من عبد الله عمر بن الخطاب أمير المؤمنين إلى نيل مصر، أما بعد: فإن كنت مخلوقًا لا تملك ضرًّا ولا نفعًا وأنت تجري من قبل نفسك وبأمرك فانقطع ولا حاجة لنا بك، وإن كنت تجري بحول الله وقوّته فاجْرِ كما كنت والسلام. وأمره أن يدفعه لعمرو بن العاص يرميه فيه وقت الحاجة إليه ثم إنه كتب: بسم الله الرحمٰن الرحيم، أما بعد: فالسلام عليك وإني أحمد الله إليك وأُصلّي على نبيّه، وإذا وصل إليك كتابي فاطلب أعداء الله حيث كانوا، وإياك أن تلين جانبك لهم وانظر في أحوال الرعية واعدل فيهم ما استطعت، واطلب العفو بالعفو عن الناس وأجْرِ الناس على عوائدهم وقوانينهم وقرّر لهم واجبًا في دواوينهم وأعل رسوم العافية بالعدل فإنما هي أيام تمضي ومدة تنقضي، فأما ذكر جميل وإما خزي طويل، ثم إنه سلّم الكتاب إلى علم بن سارية فسار هو ومَن معه إلى أن قَدِموا مصر وسلّم الكتاب إلى عمرو، فأما كتابه فقرأه على المسلمين، وأما كتاب النيل فإنهم قد كانوا عدّوا ليالي الوفاء وتوقف النيل عن الوفاء، وقد يئس الناس من الوفاء في تلك السنة، فمضى عمرو إلى النيل وخاطبه ورمى فيه كتاب عمر بن الخطاب رضي الله عنه. قال فلما رماه فيه هاج البحر وزاد فوق الحدّ ببركة عمر بن الخطاب، وانقطعت عن أهل مصر تلك السنة السيئة ببركة عمر رضي الله عنه.

حدّثنا محمد بن يحيىٰ بن سالم عن عدي بن يحيىٰ بن عوف قال: لمّا بلغنا أن عمرو افتتح مصر وأتى إلى الكنيسة المعظّمة عندهم وجد في مذبحها بيتًا مغلقًا وإذا فيه صورة من الفضة وأمام الصورة شخص آخر وفي يده أعلام وهي على صفة الصورة التي وجدها النبي ﷺ في الكعبة لما فتح مكة، فدعا عمرو بالقسوس، وقال لهم: ما هذه الصورة؟ قالوا له: هذه صورة إبراهيم وأبيه آزر، فتبسم عمرو وقال: **﴿ما كان إبراهيم**

يهوديًا ولا نصرانيًا ولكن كان حنيفًا مسلمًا وما كان من المشركين﴾ [آل عمران: ٦٧] فقال معاذ بن جبل: لما قَدِمت من اليمن سمعت أبا هريرة يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «يلقى إبراهيم أباه آزر يوم القيامة وعلى وجهه قترة، فيقول له إبراهيم: ألم أقل لك لا تعصني؟ فيقول آزر: اليوم لا أعصيك، فيقول إبراهيم: يا ربّ أنك وعدتني أن لا تخزني يوم يُبعَثون، فأيُّ خزي أخزى من هذا؟ فيقول الله: حرَّمت الجنة على الكافرين، ثم يقول له: يا إبراهيم انظر إلى ما تحت قدميك، فينظر إلى الريح وقد أخذت أباه فتلقيه في النار». قال ثم أمر عمر بالصورتين فكُسِرَتا، وعبر عسكر المسلمون إلى الجانب الغربي، وقد تقدَّم خالد فترجّل إلى نحو الإسكندرية وتقدّم على مقدَّمته عبد الله يوقنا وسار يومًا وليلة هو وبنو عمه وهم بزيّ الرُّوم.

ذكر فتوح مدينة مريوط

قال ابن إسحٰق: كان قد بلغ الموبذان الذي مع الثلاثة آلاف وهم في مدينة مريوط، وقد حصّنها ما حصل، فلما قَدِمَ عليه يوقنا، قال له الموبذان: ما الذي أقدمك علينا؟ فقال يوقنا: إن المسلمين وجّهوني إليك وهم يحرِّضونك على خلاص نفسك ويأمرونك بتسليم هذه المدينة إليهم ولك الأمان على نفسك وأهلك ومالك ومَن أردت، ولك الخيار في المقام تحت يد الإسلام أو الانفصال فإن اخترت المقام فلا مانع يمنعك وإن أردت المسير أوصلناك إلى أيّ موضع أردت، فلما سمع الموبذان ذلك قهقه ضاحكًا. وقال: وحقّ ديني إن الغدر شِعاركم والمَكْر دِثاركم، فلا فلح مَن آمن لكم، وأما أنا فلا أخون الملك في بلده وأنا وهو في أرض واحدة وسوف أبعث إليه بأن أقدم إليه وأُساعده عليكم جزاء بما عملتموه من الخديعة وستعلمون على مَن تدور الدائرة ومَن يكون المغبون في الآخرة وأنتم يا معشر الروم قد كفرتم بالمسيح وجحدتم السيدة أُمّ النور وخرجتم من ملّة الحواريين وأردتم هؤلاء العرب الجياع الأكباد العراة الأجساد ولن يغنوا عنكم شيئًا ووحقّ المسيح لأبعثنّ بكم إلى الملك فيقتلكم على كفركم، وكان يوقنا قد ترك جماعته ومضى في عشرين رجلاً منهم لعلّه يعلم عليه حيلة، فلما دخل عليه أنزله في دار الضيافة فوضعوا سلاحهم، فلما أكلوا الطعام وتحادثوا وكان قد فطن بهم وأمر غلمانه أن يكونوا على حذر وأن يهجموا عليهم فيقبضوهم يريد بذلك أن يرسلهم إلى الملك إلى الإسكندرية ورماهم في بيت مظلم في دار إمارته وأقام ينتظر غفلة من عسكره وكانوا قد أحاطوا بالبلد ووكّل بهم جارية اسمها زينا وهي أُخت مارية التي أرسلها المقوقس إلى رسول الله ﷺ.

وكانت أُختها شقيقتها وسلّم إليها المفاتيح لمعزَّتها عنده وقال لها: احفظي عليهم لأرى ما أنظر فيهم قال فلما جنَّ الليل واشتغل عدوّ الله الموبذان بالشراب قال فصبرت

رينا إلى أن غرق في سُكْره، هو ومَن معه وناموا وأمّنت على نفسها فأتت إلى الباب وفتحت على يوقنا وأصحابه وقالت لهم: أبشروا لا خوف عليكم فإن الله قد جعل رحمتكم في قلبي وأنا أُخت مارية التي أهداها المقوقس لنبيّكم وإني أُريد منكم أن توصلوني عند أُختي مارية. فقال لها يوقنا: أبشري بما يسرّك، ولكن أخاف عليك من عدوّ الله فما ترين؟ فقالت: والله ما جئتكم حتى سكر ونام. فقال يوقنا: فعرِّفينا الطريق التي نسلكها إلى قومنا. قالت: إن هذا المكان فيه سرب يخرج إلى ظاهر البلد وهو مبني من قديم الزمان وبابه الخارج مبنيٌّ عليه قبة على أعمدة وتحتها قبر بين المقابر فكلُّ مَن رآه يظن أنه قبر، وإن الذي بنى هذه المدينة امرأة يقال لها فمعمان بنت عاد وصنعت هذه المقابر التي وراء التل وهي كأنها قصور مشيدة، وكان فيها أُناس يسكنوها. فقال يوقنا: افعلي بنا ما يقرّبك إلى الله تعالى ورسوله ولعلك أن تُنزِلينا من هذا السرب حتى نذهب إلى أصحابنا ونأتي بهم من هذا ما دام الموبذان سكران وهو نائم، فقالت: سأفعل ذلك إن شاء الله تعالى غير أني أُريد أن أفتح لكم باب السرب قبله حتى لا تتعوّقوا.

قال الراوي: وقد مضت رينا أُخت مارية وأشرفت على الموبذان. فإذا هو ومَن معه صرعى من الخمر فتركتهم وعادت إلى باب السرب لتفتحه، وإذا هي تسمع وراءه حسًّا ففزعت ووقفت تسمع.

قال: حدّثني عبد الرَّزَّاق بن يحيىٰ عن سليمان بن عبد الحميد عن سفيان الأعمش عن أوس بن ماجد، وكان ممّن شهد فتوح مصر والإسكندرية. قال: لمّا نزل خالد بن الوليد على مريوط بجيشه تفقد يوقنا وقال لأصحابه: إنه من وقت أن بعثته برسالتي إلى مريوط للموبذان ما عاد قالوا: أيها الأمير إنه من وقت ما دخل إليه ما خرج ونحن في انتظاره، فعلم خالد أن يوقنا مقبوض عليه فبات مهمومًا من أجله، وكان خالد صاحب هِمّة وعزيمة لا ينام من خوفه على المسلمين وكان معه جواسيس قد أخذهم معه من كل أقليم وقد اصطفاهم لنفسه وهو يُحْسِن إليهم وأينما ذهب يكونوا معه ليأتوه بالأخبار فبينما هو في غمٍّ بسبب يوقنا، وإذا هو بواحد منهم قد دخل عليه وأعلمه أن ولد الموبذان قد أتى من إسكندرية من عند أرسطوليس ومعه خلع وهدايا لأبيه ومعه خمسمائة فارس، وقد بلغه أنكم محاصرون أباه فترك العسكر وما معه بالبعد وانفرد ومعه خادمان وأتى وما نعلم ما يريد. قال فلما سمع خالد ذلك قام وأخذ معه غلامه همّامًا وأربعة ممّن يعتدّ بهم وأبعد وقعد على سفح التل من نحو إسكندرية ونظروا إلى التل وإذا بولد الموبذان ومعه الخادمان قصدوا إلى وراء التل عند تلك المقابر التي وصفتها رينا ليوقنا وقصدوا القبة فمشى خالد وراءهم وفرّق جماعته من أربع جهات القبة وكبسهم وإذا هم قد فتحوا طبقًا

في وسط القبة فأخذهم خالد فلما رآهم الموبذان ارتعدت فرائصه وخاف فقال خالد: إن صدقتموني أمّنتكم وإن لم تصدقوني رميت رقابكم. فقال الغلام: أنا أصدقك أنا ولد الموبذان وكنت عند الملك في إسكندرية وقد أنفذ معي خمسمائة فارس عونًا لأبي وحفظًا لهذه المدينة فنحن في الطريق، وإذ قد جاءتني الجواسيس بأنكم نازلون على البلد فأوقفت العسكر وأتيت إلى هذه القبة، فقال له خالد: وما الذي تريد من هذه القبة ألكم فيها سلاح أم مطلب فيه مال؟ قال: لا. قال: فما تريد منها؟ قال الغلام: إن أمّنتني قلت لك الحق.

فقال له خالد: قد أمّنتك على نفسك فقبّل يده وقال: يا مولاي أُريد أمانًا لأبي، ومَن يلوذ به فأعطاه، فقال: اعلم أن هذه القبة على سرب والسرب ينتهي إلى دار الإمارة ودار الإمارة في وسط هذه المدينة، قال فلما سمع خالد ذلك تهلّل وجهه فرحًا وسرورًا وقبض على الغلام وعلى الخادمين وأمرهما مع واحد آخر ممّن معه أن يفتحوا السرب ففتحوه فأرسل همامًا إلى العسكر وأمره بأن يأتي بهم في السرب وأن يأتوا معهم بالنار والزيت والقناديل وأن يسرع بذلك وكان ذلك التلّ عاليًا والذين في المدينة لا ينظرون ما وراءه، فلما أقبل همام بما طلبه خالد أوقدوا المسارج ونزلوا في السرب وابن الموبذان أمامهم فوصلوا إلى الباب وإذا برينا عند الباب تريد فتحه ليوقنا ومَن معه، فلما سمعت حسّهم قالت: مَن أنتم؟ فقال خالد لابن الموبذان: كلّمها، فقال: أنا فلان بن الموبذان افتحي ولا تُعلِمي أبي. قال فلم يبقَ لها بُدٌّ أن تفتح الباب ففتحت فصعد خالد ومَن معه فقبضوا على رينا. فقالت لهم: يا قوم دعوني فإني أردت أن أُخلّص أصحابكم وجئت لأفتح لهم هذا الباب وأُنزلهم إليكم وتملكوا هذه المدينة من هٰهنا، وقد أتى بكم ربّ العالمين وأنا رينا أُخت مارية زوجة نبيّكم، فلما سمع خالد فرح وقال لها: وأين أصحابنا؟ فأتت بهم عندهم فحلّوا وثاقهم وأتوا إلى دار الإمارة فوجدوا الموبذان لا يشعر بنفسه من الخمر فوكّل به جماعة وأمر الباقي أن يملكوا السور وقبضوا على الحرس ونزلوا إلى الأبواب وكان لها بابان فكسروا أقفالها وفتحوهما وأرسل إلى بقية العسكر فدخلوا المدينة والكلّ في حالِك الليل، فلما أصبح الصباح استيقظ الموبذان ومَن معه وإذا بالمسلمين حولهم، وكلّ مَن في المدينة قد أُسِرَ. فقال له خالد: يا عبد الله لولا أني أعطيت ولدك الأمان كنت قتلتك شرّ قتلة، ولكن خذ أهلك وانصرف فإننا قوم إذا قلنا قولاً نعمل به، وفهم الموبذان أن ولده قد دلّهم على السرب، فلما خرج الموبذان بأهله قال ولده لخالد: يا مولاي إن أنا مضيت معه قتلني ولست أُريد بغيركم بدلاً، وأنا أقول: أشهد أن لا إلٰه إلا الله وأشهد أن محمدًا رسول الله، فقال له خالد: إن قصر أبيك وما فيه لك، وعرض خالد الإسلام على أهل مريوط فأسلم أكثرهم ثم إن خالدًا قال ليوقنا رحمه الله: أبشر من الله

بالرضوان والغفران والثواب فبصبرك على الشدائد فتح الله علينا هذه المدينة، فقال: والله ما فتحها إلا بفضله وببركة نبيّه ﷺ، فكتب إلى عمرو بن العاص يبشّره بفتح مريوط ونحن معوّلون على الدخول إلى إسكندرية وأرسل الكتاب إليه.

قال ابن إسحٰق: وأقام خالد بمريوط لأجل ذي الكلاع الحميري لأنه مرض معه، وكان مرضه شديدًا فجلسوا عنده شهرًا ولم يفارقه خالد فقدَّر الله له بالوفاة فحزنوا عليه حزنًا شديدًا عظيمًا، فكان ذو الكلاع ملك حمير، وكان قبل دخوله في الإسلام يركب له اثنا عشر ألف مملوك سود سوى غيرهم. قال أبو هريرة الدوسي رضي الله عنه: ولقد رأيته بعد تلك الحشمة يمشي في سوق المدينة وعلى كتفه جلد شاة لمّا قَدِمَ عليه من اليمن إلى الجهاد في أيام أبي بكر الصدِّيق رضي الله عنه، فلما مات رثاه ولده تنوخ بما رثى به حمير أباه سبأ بن يشجب في الزمن المتقدم وهو:

عجبت ليومك ماذا فعل ... وسلطان عزّك كيف انتقلْ
وسلّمت مُلكك ذا طائعًا ... وسلّمت للأمر لمّا نزل
فيومك يوم رفيع النزال ... ودورك في الدهر دور رحل
فلا يبعدنّك فكل امرىء ... سيدركه بالسنين الأجلِ
لئن صحبت نائبات الزمان ... وشت مع الدهر وجه الأمل
لقد كنت بالملك ذا قوة ... لك الدهر بالعزّ عان وجل
بلغت من الملك أقصى المدى ... نقلت وعزّك لم ينتقل
فطحطحت آفاقه والمدى ... وجئت من العرب حول الدول
حويت من الدهر إطلاقه ... ونلت من الملك ما لم ينل
وحمّلت عزمك ثقل الأمور ... فقام بها حازم واستقل
صحبت الدهور فهنأتها ... وما مرّ عيشك فيما فعل
بنيت القصور كمثل الجبال ... ذهبت فلم يبقَ إلا الطلل
نعمنا بأيامك الصالحات ... ومشربنا بك وبل وطل
تؤمل في الدهر أقصى المنى ... ولم تدرِ بالأمر حين نزل
فزالت لعزمك شمّ الجبال ... ولم يكُ حزمك فيها هبل

ذكر فتوح إسكندرية

قال: وعوّل خالد على المسير إلى إسكندرية.

حدّثنا زياد بن أوس الطائي عن معمر بن الرشيد، قال: لمّا نزل خالد بعد رحيله عن مريوط، قال له عيونه: إنه لمّا انهزم ابن المقوقس وأتى إلى إسكندرية وبلغه فتح مصر صعب عليه، قال: وكانت إسكندرية عامرة كان فيها الخلق كثيرًا والمراكب فأرسل مراكب وعمّرها بالرجال وأمرهم أن يكبسوا سواحل بلاد الشام على المسلمين، فقالوا: سمعًا وطاعة ومضوا إلى ساحل الرملة فوجدوا بالليل نيرانًا كثيرة فسألوا مَن كان خبيرًا بالبلاد، فقالوا: هذه نيران المسلمين النازلين هٰهنا، فقالوا: هذه حاجتنا التي جئنا في طلبها، فنزلوا وقصدوها وإذا بها حُلَل من حُلَل دوس بني عمّ أبي هريرة، وكان معهم طائفة من بجيلة وفي جملتهم ضرار بن الأزور وهو مريض وأُخته خولة معه تمرّضه وكان أبو عبيدة أمرهم بالنزول هناك لأجل كثرة المرعى وهم آمنون مطمئنون من الروم وغيرهم، لأن دولة الروم قد انصرمت وأيامهم قد ولّت، فما فطن القوم إلا وقد كبسهم القبط في حندس الليل ووضعوا فيهم السيف فقتلوا منهم رجالاً وأخذوا منهم أُسارى ومن جملتهم ضرار وأُخته وأخذوا ما قدروا على حمله وأتوا بهم المراكب، وكان جملة مَن أسروه من الرجال والنساء والأولاد والعبيد ألف ومائة فوضعوهم في المراكب وأقلعوا بهم من ليلتهم وساروا طالبين إسكندرية.

قال ابن إسحٰق: وكان أبو عبيدة قد استوطن طبرية لكونها في وسط البلاد وهي قريبة من الأردن والشام والسواحل، وإن أبا هريرة قد أتى ليزور قومه في تلك الأيام ويسأل عن حال ضرار وكانوا يحبّونه لشجاعته فأتى أبو هريرة ومعه حليف له من بني بجيلة فأصبحا تلك الليلة في الحيّ وإذا بهم قد أخذهم القبط وبيوتهم مطروحة والرجال مقتولة وآثارهم منبوذة ووجدوا من الذين انهزموا أُناسًا مجروحين فسألوهم فقالوا: ما عندنا خبر حتى كبسنا قوم نصارى وما نعلم من أيّ الطوائف هم ولم نفق حتى وقعوا فينا بالسيوف فقتلوا ما ترون وأسروا الباقين وأخذوهم في مراكبهم. فقال أبو هريرة: لا حول ولا قوة إلا بالله العظيم، وساروا إلى ساحل البحر فلم يروا لهم أثرًا، فلما عوّلوا على الرجوع إذا بلوح من ألواح المراكب تلعب به الأمواج، وعليه شخص فوقفوا له حتى أقبل وخرج الرجل وإذا به أمير دوس وحيّان ابن عمّ أبي هريرة، فلما رآه ترجّل له وعانقه وهنّأه بالسلامة وقال له: يا ابن عم ما وراءك؟ فقال: هجم العدو علينا ليلاً وأسرونا وساروا، فلما توسطنا البحر بعث الله بريح فغرقت مركبنا، وقد نجاني الله على هذا اللوح. فقال له: ومَن أعداؤكم؟ قال: من قبط مصر، وإني سمعتهم يذكرون إسكندرية كثيرًا. قال: فرجع أبو هريرة يطلب طبرية وأتى ابن عمّه إلى مكان الحلّة حتى يلمَّ شعث الناس ويداوي المجروحين فجمع ما تركوه وأتى بهم إلى الرملة. وأما أبو هريرة فأتى أبا عبيدة وأخبره بما جرى فاسترجع وبكى، وقال: أعوذ بالله من الساعات الرديئة، ثم قال: والله لئن وصلوا إلى إسكندرية ما يُبقيهم صاحبها طرفة عين ويموت ضرار ويمضي دمه

هدرًا وكتب إلى عمرو بن العاص يعلمه بذلك ويحذره من صاحب الإسكندرية وأنه أسر ألفًا ومائة من جملتهم ضرار وأُخته، وكانت تداويه وهي عنده فإذا وصل إليك كتابي هذا فاجتهد في خلاصهم وإن وقع في أيديكم أحد من القبط ففادوهم به ودفع الكتاب لزيد الخيل وأمره أن يسير إلى مصر، فلما قَدِمَ زيد الخيل إلى مصر دفع الكتاب لعمرو بن العاص، فلما قرأه صعب عليه، وكان يحبّ ضرارًا فأرسل الكتاب إلى خالد بن الوليد، وكتب إليه يحثّه بالمسير إلى الإسكندرية وأنه يفتقد حال الأسرى، فلما وصل الكتاب إلى خالد وقرأه صعب عليه أمر ضرار وأُخته خولة.

حدّثنا ابن إسحٰق قال: حدّثنا عاصم بن منصور عن أحمد المروزي عن سلمة عن عبد الله بن المبارك عن عبد العزيز عن أبيه. قال: لمّا أخذت النصارى حُلَل دوس وضرارًا وأُخته وعصفت عليهم الريح وغرق أحد المراكب ووصل الباقي إلى إسكندرية أوقفوهم أمام ابن المقوقس فأراد قتلهم فقال له أرباب دولته: أيها الملك لا تعجل عليهم واعلم أن العرب متوجهة إلي ولا بدّ لنا من قتالهم فإن أَسِرَ أحد منّا ممّن يعزّ عليك يكون عندنا مَن نفادي به ولعل أن نصالح العرب فاستصوب رأيهم وقال: ادفعوا هؤلاء الأسرى إلى دير الزجاج وأرسل معهم ألفي فارس يوصلونهم إلى الدير فجاءت عيون خالد وأخبروه بما وقع فقام وأخذ معه أصحابه وسار يطلب دير الزجاج فوصل خالد إلى الدير قبل وصول الأسارى ومَن معهم، فلما أحدقوا بالدير أشرف عليهم راهب كبير السن وكان اسمه مُباحًا وكان تلميذًا لبحيرا راهب بصري، وكان مؤمنًا بالله وبأنبيائه. فقال له خالد: يا راهب كيف ترى الدنيا؟ قال: تُنحِف البدن، وتجدّد الأمل، وتقرب المنيّة، وتقطع الأُمنية. قال: فما حال أهلها؟ قال: مَن نال منها شيئًا نفضته ومَن فاته منها شيء حسرته. قال: فما خير الأصحاب فيها؟ قال: العمل الصالح والتقي. قال: فما شرّ الأصحاب فيها؟ قال: اتّباع النفس والهوى. قال خالد: صدق رسول الله ﷺ إذ قال: «الحكمة ضالّة المؤمن يأخذها حيث وجدها». ثم قال: كيف طابت لك الوحدة؟ قال: ألفتها. قال: فهل نِلتَ منها فائدة. قال: نعم، الراحة من مُداراة الناس. قال: فما أحسن هذا الاعتقاد لو كان في دين الإسلام والتوحيد، قال فما أعرف غيره. قال: فما تقول في محمد بن عبد الله ﷺ؟

قال: سيد الرسل وخاتم الأنبياء وصفيّ الأصفياء وحجة الجبار على الورى. قال: فلِمَ لا تكون في بلاد الإسلام فهي أصلح لك من هٰهنا، قال: قلبي ملوّث بحب الدنيا. قال خالد: أعندك خبر بالعرب الأسرى الذين أرسلهم الملك هنا؟ قال: لا والله، ولكن مرَّ بي البارحة بطريق وأسقف واستقيا ماء من بئر هذا الدير فسألتهما من أين أتيتما؟ فقالا: من الإسكندرية وإننا رُسُل الملك كيماويل صاحب أرض برقة وأنه أرسلنا إلى ملك

القبط يسأله أن يرسل له أسرى من عرب المسلمين حتى يراهم ويسمع كلامهم فأجاب أنه يرسل منهم جماعة وإنّا ماضون نعلم صاحب برقة بذلك. فقال لخالد: لعلكم من المسلمين الذين فتحوا بلاد الشام؟ قال خالد: نحن هم. فقال الراهب: إن أخباركم عندي في كل وقت وأُعلمك أني رأيت نبيكم ﷺ وهو في قافلة قريش وأنا عند بحيرا، فلما مات بحيرا انتقلنا إلى هذا الدير، واعلموا أنه ما بقي من أرض الكنائس ولا بأرض العقبة ولا بأرض الرمادة أحد ولا ديار من راهب ولا قسّ إلا وقَدِمَ لزيارتي ويسألني عنكم وعن نبيّكم، ويقولون لي: أنت كنت على طريقهم ورأيت نبيّهم وشرحت لهم دينكم وأوصلتهم إلى ما ظهر من معجزات نبيّكم ﷺ، ولقد جرى بيني وبين راهب منهم بالقرب مناظرة، وقال لي: إن النبي الذي بشّر به عيسى المسيح ابن مريم ليس هذا، فقلت له: بلى هو والله النبي العربي. فقال لي: إننا سمعنا في العلم أن الرسول الذي يظهر من أرض الحجاز يعرج به إلى السماء، وما سمعنا أن هذا عرج به، فقلت: بلى والله أنا سمعت بأنه عرج به إلى السماء وخاطب العليَّ الأعلى، وأصبح فأعلم بذلك قريشًا، ثم قال لخالد: اعلم أن في وسط هذا الجبل ديرًا يقال له دير المسيح، وقد استوى عليه بطريق ومعه جماعة وهو يقطع الطريق على قوافل العرب، وأنه منذ زمان قطع الطريق على قافلة وفيها شخص من بلادكم وهو مسلم، فأخذ القافلة وعرّى أهلها وأطلقهم وقبض على ذلك المسلم وأخذ ماله، ووضعه عنده في العذاب الشديد، والرجل يستجير فلا يُجار، ويقول له: ما أطلقك حتى تكفر بالرحمٰن وتسجد للصلبان، ثم إنه يأتيه بصورة من نحاس وعلى رأسه عمامة سوداء، ويقول له هذه صفة نبيكم وينصبه قباله ويصبّ فضلة كأسه على رأس هذه الصورة، وذلك الرجل يستجير من فعاله. قال: فلما سمع خالد ذلك أخذ معه شرحبيل بن حسنة وعامر بن ربيعة ويزيد بن أبي سفيان وهاشم بن سعيد والقعقاع ورفاعة، وترك بقية العسكر محيطة بالدير ومضوا إلى وسط الجبل فوجدوا الدير فوصلوا إليه، وإذا بالبطريق قد أقبل ومعه وحش مذبوح، وقد قصد إلى شجرة بالقرب من الدير وتحتها عين، فنزل على العين وصاح بغلمانه فأتوا إليه وأضرموا النار وجعلوا يشوون له وهو يأكل ويشرب الخمر، وقال لهم: هاتوا المحمدي، فأتوه برجل قد ركبه الذل وغلبه القهر، فلما رآه قال له: أنت قد غلبتني بتجلّدك على العذاب، وحق ديني لا أرفع عنك العقوبة حتى ترجع عن دينك إلى ديني، فقال له: اصنع ما بَدَا لك فإني أعلم أن الكل بمشيئة الله وبإرادته، وإني صابر على مُرّ البلاء وما أرجع عن دين محمد المصطفى. قال فهمَّ أن يقوم إليه يضربه فصاح به خالد بن الوليد وحمل عليه وطعنه فأخرج السنان من ظهره وقتلوا غلمانه وخلصوا المسلم ونزلوا على العين، ولم يكن لأهل الدير شرب إلا من تلك العين، فأشرف عليهم الرهبان من أهل الدير، وقالوا: ما نحن أهل سيف حتى نقاتلكم، وقد نهاكم

نبيّكم عن قتل الرهبان، فقال خالد: سلّموا لنا مال هذا البطريق وعياله وأطفاله ونحن نترككم في ديركم، ففتحوا لهم وسلّموا لهم جميع موجوداته، وأخذوا الأسير وساروا وسأله خالد بن الوليد من أين أنت؟ فقال: أنا أُمية بن حاتم أخو عديّ، وقد أخذني هذا في أواخر أيام أبي بكر الصدِّيق رضي الله عنه فإني كنت طالب برقة مع قافلة ومعي بضاعة فأخذها وأخذني، وكان أمر الله قدرًا مقدورًا، قال: فرجعوا عند أصحابهم ولم يأتوا القبط فما لحقوا أن ينزلوا عن خيولهم إلا والراهب صاحٍ، وقال لهم: استعدّوا للقاء عدوِّكم فإنهم قربوا منكم، فتجهّزوا للقاء العدو وإذا بهم قد أقبلوا، وضجيج الأطفال وبكاء الناس وأنين الرجال وصراخ المأسورات، وصياح القبط عليهم يسوقونهم من ورائهم، وزئير الفرسان، وهفيف الصلبان والعربيات، تنادي بالويل والهوان، وخولة بنت الأزور على مقدّمة الأسارى وهي تقول:

جلَّ المصاب وزاد الويل والحرب ... وكل دمع من الأجفان ينسكبُ
ومادت الأرض مما قد بليت به ... حتى توهمت أن الأرض تنقلب
جالت يد القبط فينا عند غفلتنا ... واستحكم القبط لمّا زالت العرب
لهفي على بطل قد كان عدَّتنا ... فيه العفاف وفيه الدين والأدب
قد كان ناصرنا في وقت شدّتنا ... أعني ضرار الذي للحرب ينتدب
فيه الحمية والإحسان عادته ... فيه التعصب والإنصاف والحسب
لو كان يقدر أن يرقى مراكبه ... كان العدو فني والحرب تلتهب
أو كان خالد فينا حاضرًا وطنًا ... لزال عنّا الذي نشكو وننتحب
لو كان يسمع صوتي صاح بي عجلاً ... مهلاً فقد زال عنك البؤس والعطب

قال: فلما سمع خالد نداءها، قال: لبّيك يا بنت الأزور، قد جاءك الفرج وذهب عنك الحرج فأطبقوا على القبط، فما كان ببعيد حتى قتلوا منهم سبعمائة وأسروا ألفًا وثلثمائة، وخلّصوا الأسرى وسلّموا على ضرار، وهنّئوه بالسلامة وودّعوا الراهب، بعدما كتب له خالد كتابًا بأن له من طعام الإسكندرية صاعًا، ولكل مَن سكن الدير من أهله وقبيلته، ثم إنهم ساروا طالبين الإسكندرية وهم سائقون الأسرى من القبط بين أيديهم. قال وكان الملك أرسطوليس لما سمع بأن العرب قد أتوه أخرج عسكره، وضرب خيامه خارج باب السدرة. قال فلما قَدِمَ المسلمون وقع الصايح بقدومهم ووقع الخوف في قلب الملك وعسكره وقالوا له: أيها الملك ما الذي تدبر في أمر هؤلاء العرب؟ قال: وما عسى أن أدبر والخوف قد ملأ قلوبكم، وهم طمعوا فيكم ورأوا أنكم تنهزمون ولا تخافون العار، وإذا قاتلتموهم كانت قلوبكم متفرقة وأهواؤكم غير متفقة وقد أسروا رجالاً

ولم يرهبوا قتالكم ولا مانع يمنعهم، ولو أن أصحابهم الذين أرسلتهم إلى دير الزجاج عندي لكنت صالحتهم بإطلاقهم ودفعناهم عنّا، وقد فرّطنا أيضًا في الألفين الذين أرسلتهم معهم، فلو كانوا فينا لقاتلوا معنا. فقال له وزيره: أيها الملك هل لك أن ترسل إليهم وتتحدّث معهم في أمر الصلح، ونحن نسلم إليهم أصحابهم. فقال: إنهم لن يقبلوا منكم رسولاً منذ صبأنا عليهم ببحر الحصى، فبينما هم في ذلك وإذا بصاحب البحر، قد أتى إليه وهو الموكل بالنار، وأخبره أنه رأى مركبًا قد ظهر من قبل الغرب، ولا أعلم من أين أتى. فقال: لا شك أنه من صاحب برقة الملك كيماويل، وقد أنجدنا، فأقبل المركب ورمى مراسيه ونزل منه شيخ مهيب مليح الشيبة ظاهر الهيبة، وعليه ثياب من الصوف الأسود ونزل معه عشرون شخصًا من القسوس والرهبان، فلما نزلوا إلى البرّ جاءتهم الخيول بالمراكب المذهّبة والغلمان والحجّاب وعظّموا شأنهم وأركبوهم وساروا بين أيديهم إلى أن أوصلوهم إلى الملك وأدخلوهم عليه، فقام لهم وعظّم شأنهم وأجلس ذلك الشيخ معه على السرير.

قال الراوي: وكان أرسطوليس قد أرسل هدية إلى الملك صاحب برقة، وأرسل إليه يعلمه بما فعله العرب في مدَّة قيصر وأنهم قد أتونا، ومن جملة ما أرسل له يقول: أيها الملك اعلم أن الدنيا دار زوال وانتقال، فما وهبت إلا واستردَّت، ولا فرَّحت إلا وأحزنت، فالمغرور مَن تشبّث بذيلها واطمأن إليها، والسعيد مَن لبس ثياب الحذر منها وعمل لدار المقرّ، أما ترى أيها الملك إلى هرقل ملك الشام كيف هرب وزال مُلكه؟ وذلك عندما رمته الدنيا بمصائبها، وشتّتته بسهام نكائبها بعدما كانت في وجهه مشرقة ولا يخطر له همُّ الأعداء على بال، وما ضربت لك هذا المثال إلا لعلمي أن الدنيا لا تبقى على حال، وهؤلاء العرب قد استولوا على البلاد، وأذلّوا بسيوفهم العباد، وقد أقاموا لهم شرعًا بالسيوف الحداد، وقد ملكوا القياصرة وقد جاءت طائفة إلينا، وأخذوا مصر منّا وأخذوا ملكنا وحكموا على بلادنا بعدنا ولا بدّ لهم منك ولا غنى لهم عنك، والصواب أن تشمّر لهم عن الهِمَم وتنجدنا على مَن بغى وأجرم، فنحن جيرانك وكلنا جندك وأعوانك والسلام.

قال الواقدي: فلما وصلت الهدية والكتاب عرضه على أرباب دولته وقال لهم: ما ترون فيما كاتبكم به صاحب مصر والإسكندرية؟ فقالوا له: أيها الملك ما زالت الملوك يستنصر بعضها ببعض والذي أشار إليه هو الحق وأن العرب إذا ملكت ملك القبط فلا بدّ لهم منّا والعبور إلى بلادنا، فابعث إليه بنجدة ونكون نحن وهو يدًا واحدة، فالمسيح يعطي النصر لمَن يشاء فأجابه إلى ذلك وأمر ابن أخيه أسطفانوس أن يمضي في أربعة آلاف وأمره أن يسير لمعاونة صاحب إسكندرية، ثم إنه أرسل خادمه إلى عالم أرضهم

والمشار إليه في علم النصرانية وهو البترك واسمه سطيس، وكان عمره مائة وعشرين سنة، وكان تلميذ زيروسا، وزيروسا تلميذ مرقس، ومرقس تلميذ يوحنا، ويوحنا أحد حواريّ عيسى المسيح وكان هذا البترك سطيس مؤمنًا بالله وموحّدًا وسمع بأخبار رسول الله ﷺ ومعجزاته وهو مؤمن من قبل مبعثه وظهوره حتى بلغته أخباره ﷺ وأنه مات فبكى لموته ولزم زاوية الحزن ولم يظهر خبره لأحد مدة من الزمان، وقد بنى له صومعة وانفرد بها وجعلها على قارعة الطريق فما مرّت به قافلة إلا واستخبرها عنه ويسأل عمّن جلس بعده للمسلمين خليفة؟ فقالوا: أبو بكر الصديق وبلغه موته وولاية عمر، ثم بلغه فتوح الشام وقدوم الصحابة إلى مصر وفتحها، فلما أرسل صاحب مصر يستنجد صاحب برقة وأرسل أخاه أرسل هذا البترك في مركب يبشّره بقدوم أسطفانوس إلى نصرته، فلما وصل إليه وبشّره فرح بذلك وقال: يا أبانا أُريد من أنعامك أن تسير إلى هؤلاء العرب وتختبر دينهم ونبيّهم وتدعوهم إلى الصلح وتعلمهم أن في أيدينا جماعة منهم أخذناهم من ساحل الرملة وقد أنفذت بهم إلى دير الزجاج، فإن أرادوا أصحابهم أطلقناهم لهم ونعطيهم شيئًا من مالنا واعقد لنا ولهم الصلح بأنهم لا يرجعون إلينا ولا يتعرضون لنا.
فقال البترك: سأفعل ذلك وإني قد قرأت في الكتب السالفة فوجدت فيها أن الله يبعث نبيًّا من أرض تهامة تُعرَض عليه مفاتيح الأرض وكنوزها فلا يلتفت إليها ولا يعيرها نظره ولا يختار إلا الفقر على الغنى وأن أصحابه يتبعون سُنّته وأنا أستخبر حالهم قبل سيري إليهم.
فقال الملك: وكيف تستخبر حالهم يا أبانا؟ قال: أيها الملك أرسل بغلة من مراكبك وعليها مركب من ذهب وهو مرصّع بالمعادن وتأمر غلمانك أن يسيروا بها ويرسلوها نحو عسكر المسلمين، فإن أخذوها فنعلم أنهم يحبون الدنيا ولا يريدون الآخرة وإن ردّوها فنعلم أنهم يطلبون ما عند الله. قال ففعلوا ذلك وأرسلوها وكانوا في حندس الليل، وكان في الحرس شرحبيل بن حسنة، فلما رأى البغلة وما عليها من الزينة ضحك وقال: إن أعداء الله يريدون اختبارنا ومعرفة أحوالنا إن كنّا نطلب الدنيا أو الآخرة، فوالله ما منّا مَن يميل إلى ما يفنى وإنما بغيتنا فيما يبقى ثم قرأ ﴿**أنما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر في الأموال والأولاد كمثل غيث أعجب الكفّار نباته ثم يهيج فتراه مصفرًا ثم يكون حطامًا وفي الآخرة عذاب شديد ومغفرة من الله ورضوان وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور**﴾ [الحديد: ٢٠] ثم أمسك بعنان البغلة وأطلقها نحو عسكر القبط. قال فلما رأوها صلّبوا على وجوههم وقال الملك: والله بهذا نصروا وخذلنا الله إن أبي كان على بصيرة من أمرهم، ثم أمر البترك سطيس أن يتوجه إليهم فمضى، فلما قرب منهم رأى أقوامًا قد هجروا الدنيا، فمنهم القارىء، ومنهم الذاكر، لباسهم الصوف، صغيرهم يوقّر كبيرهم وكبيرهم يرحم صغيرهم وصوت أحدهم لا يعلو على الآخر، الذِّكر كلامهم والقرآن شعارهم والتقوى لباسهم والخوف من الله أنيسهم، فلما دخل على عسكرهم سأل

عن أميرهم وصاحبهم فدلّوه على موضع خالد فقصده، فلما وصل إليه وجده في ذكر الدين والقيامة فنزل عن بغلته ووقف أمامه وأومأ إليه بالسجود فمنعه خالد. فقال له: أنت أمير هؤلاء القوم، قال: كذا يزعمون أني أميرهم ما دمت على الحق واتّباع العدل والإنصاف والخوف من الله محسنًا للمحسنين منهم مشدادًا على المسيئين منهم فمتى حِدْتُ عن هذه الأشياء فلا إمارة لي عليهم. فقال البترك: أنتم والله القوم الذين بشّر بكم عيسى ابن البتول، وإن الحق معكم لا يفارقكم، قال: فأمره خالد بالجلوس فجلس وقال: يا معاشر العرب أخبروني عن نبيكم. فقال خالد: إن الله اختار من ولد آدم العرب واختار من العرب مضر واختار من مضر كنانة واختار من كنانة قريشًا واختار من قريش بني هاشم واختار من بني هاشم عبد المطلب واختار من عبد المطلب عبد الله محمدًا ﷺ وقال: «كنت نبيًا وآدم بين الماء والطين» وقال: لمّا خلق الله العرش كتب عليه لا إلٰه إلا الله محمد رسول الله، فلما وقع آدم في الزلّة رأى على ساق العرش لا إلٰه إلا الله محمد رسول الله. فقال: يا ربّ مَن هذا؟ قال: ولدك يا آدم الذي لولاه ما خلقتك. قال: يا رب فبرحمة هذا الولد ارحم هذا الوالد. فقال: يا آدم لو تشفعت إلينا بمحمد في أهل السمٰوات والأرضين لشفعناك، ثم إن الله جعل اسمه مقرونًا باسمه وذكره مع ذكره ووسمه بما وسَمَ به نفسه. فقال: ﴿**إن الله بالناس لرؤوف رحيم**﴾ [البقرة: ١٤٣]، وقال في حقه: ﴿**بالمؤمنين رؤوف رحيم**﴾ [التوبة: ١٢٨] وقال: ﴿**مَن يطع الرسول فقد أطاع الله**﴾ [النساء: ٨٠] وقال: ﴿**النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم**﴾ [الأحزاب: ٦] وقال: ﴿**يا أيها الرسول بلّغ ما أنزل إليك من ربك**﴾ [المائدة: ٦٧] وإن الله عزَّ وجل رفع ذكره وعظم فخره وأعزّ قدره فقال تعالى: ﴿**ورفعنا لك ذكرك**﴾ [الشرح: ٤] وهذا غاية الشرف والتعظيم والتبجيل والتكريم وقال: يا محمد لا أذكر حتى تذكر فمَن أحبّك فقد أحبني، ومَن سبّك فقد سبّني، ومَن جحدك فقد جحدني، ومَن أنكر نبوّتك فما عرفني وها أنا أشهد على نبوّتك. فقال عزّ من قائل: ﴿**ويقول الذين كفروا لست مرسلاً قل كفى بالله شهيدًا بيني وبينكم**﴾ [الرعد: ٤٣]، وقال في موضع آخر: ﴿**وكفى بالله شهيدًا**﴾ [النساء: ٧٩] محمد رسول الله، قال: فلما سمع البترك ذلك من خالد فرح وقال: لقد نجا مَن اتّبعه وخسر مَن فارقه ثم جدّد إسلامه على يد خالد وحدّثهم بأمره من أوّله إلى آخره، ثم حذرهم من أخي صاحب برقّة وأنه واصل ومعه أربعة آلاف فارس وإني قد سبقته في البحر، وهذا الملك القبطي يريد صلحكم ويقرر لكم على أنكم تصالحونه أن يعطيكم شيئًا من المال ويسلم إليكم قومًا من أصحابكم قد أخذوهم من ساحل الرملة. فقال خالد: إن أصحابنا قد فكّ الله أسرهم وجمع بنا شملهم وقد نصرنا الله على القبط الألفين الذين كانوا مع الأسارى فإننا أخذنا ألفًا وثلثمائة أسير وقتلنا سبعمائة، ثم إنه عرضهم عليه وعرض الإسلام عليهم فأبى أكثرهم وأسلم بعضهم فأمر خالد بضرب رقابهم بين

العسكرين ثم إن البترك عاد إلى صاحب إسكندرية وقال له: هؤلاء لا نملك غرّتهم لأنهم حذرون من أعدائهم وعرّفه بقصة أصحابه وأنهم هؤلاء الذين ضربوا رِقابهم قبالك فقال له: يا أبانا ومن أين هؤلاء؟ قال: قد وقعوا بهم وخلّصوا أصحابهم وأسروا من أصحابك ألفًا وثلثمائة وقتلوا سبعمائة. قال: فلما سمع ابن المقوقس ذلك سقط في يده وأيقن بإتلاف ملكه، وقال لأرباب دولته وعسكره: خذوا أُهبتكم للقتال وكأنكم بعسكر الملك كيماويل صاحب برقة، وقد أقبل عليكم ونقاتل هؤلاء العرب بقلوب قوية وأسرار نقية ويعطي الله النصر لمَن يشاء وباتوا وهم معوّلون على القتال.

قال ابن إسحٰق: ولقد بلغني أن الملك نام بقية ليلته فرأى في منامه كأن شخصًا أشقر عريض الصدر قد خرج من حمام ومعه شخص آخر مليح الوجه حسن الخلق وسيم قسيم في عينيه دعج وله نور يسطع كأنه قمر. فقال ابن المقوقس للأشقر: مَن أنت؟ قال: ابن العذراء البتول أنا المسيح ابن مريم، وهذا الذي بشّرت به من قبل مبعثه هذا محمد رسول الله العربي الأُمي مَن آمن به فقد اهتدى، ومَن جحد نبوّته فقد اعتدى، وقد جئنا لنصرة أصحابه ومقامنا على القبة.

قال ابن إسحٰق: ولقد بلغني أن برج القبّة مما يلي باب البحر وذلك أن الإسكندر لما بنى الإسكندرية وسمّاها باسمه كان الخضر وزيره، وهو الذي بنى الباب الأخضر وصنع تلك القبة باسمه ورسمه وكان يأوي إليها فصار ذلك الباب مشتهرًا به إلى يومنا هذا. قال: ثم إن عيسى عليه السلام قال للملك في نومه: إن كنت من أمتي فاتّبع شريعة هذا النبي وذهب عنه، فلما أصبح حدّث أرباب دولته بما رأى في نومه فقالوا: أيها الملك هذه أضغاث أحلام وما كان عيسى المسيح يُماشي العربي وهو عدوّه، وإنما الشيطان قد خيّل لك ذلك فلا تلتفت إليه قال: فأصغى الملك إلى كلامهم ثم إنه أمر عسكره بالقتال فركبوا وصافوا المسلمين. وأما الملك فإنه نظر إلى برج القبة وإذا بالقبة يسطع منها نور فدخل الوهم في قلبه مما رأى في منامه، وقال: الله ما هذا النور إلا نور المسيح ومحمد وإن هذا هو الحق لا شك فيه.

حدّثنا ابن إسحٰق حدّثنا عامر بن بشر عن الأحوص قال: كنت في خيل خالد بن الوليد يوم قتالنا على إسكندرية قال لما وقفنا في ميدان الحرب وقف يقاتلنا فارس وهو بطريق عظيم الخلقة وعليه لبس يلمع وتحته جواد عربي فنادانا بالعربية بلسان فصيح، وقال: يا عرب انصرفوا عنّا فإنّا لا نريد حربكم وقد ملكتم منّا مصر والصعيد وأكثر الريف وقد بقي في أيدينا هذه الجهة وما نحن منازعونكم فيما أخذتموه منّا، ونحن لا نقلّدكم في البغي ونصالحكم صلحًا نعود منه عن ظلم أنفسنا ونعدل في رعيتنا وإن أبيتم صلحنا لقيناكم بأسرار نقية وقلوب للجهاد قوية فنردّكم على أعقابكم منهزمين، وفي أذيال

الذلّ متعثرين، لأنه ما عدا أحد على أهل هذا الدين إلاّ ذلّ وانهزم لأننا قوم لنا الكنائس الأربع والصوامع والبيع والقسوس والرهبان والمذابح والقربان والإنجيل والصلبان ثم سكت عن كلامه.

قال الراوي: وكان هو الملك ابن المقوقس فكان أوّل مَن بادر إلى ردّ جوابه شرحبيل بن حسنة كاتب وحي رسول الله ﷺ فقال له: لقد افتخرت بما يؤدّي صاحبه إلى البوار، ويعقبه سوء الدار، يا ويلكم أتفتخرون علينا بالشِّرك والطغيان وعبادة الصلبان والكفر بالرحمٰن، ونحن أُولوا التُّقى والإيمان، والفوز والرضوان، والقبلة والقرآن، والحج والإحرام، والصلاة والصيام، والاجتهاد والاحترام، ديننا أفضل الأديان، ونبيّنا المبعوث بالمعجزات والبيان، وبالآيات والبرهان والمُنزل عليه القرآن، ومَن اتّبعه نال من ربه الغفران، ومَن جحد صحبته باء بغضب الملك الديّان الذي كان ولا مكان، ولا دهر ولا زمان، ولا وقت ولا أوان، شهد لنفسه بالربوبية ولصفاته بالأزلية ولذاته بالأحدية، ولملكه بالأبدية سلطانه قاهر وكرمه ظاهر وتدبيره محكم وقضاؤه مبرم وعرشه رفيع وصنعه بديع، وليس بوالد ولا مولود ولا لذاته حدٌّ محدود ولا لبقائه أجل معدود خضعت الأعناق لعظمته وخشعت الأصوات لهيبته وعنت الوجوه لعزّته وذلّت الأقوياء لقوّته لا يحصى نواله ولا يفنى كماله ولا تبيد نِعمه وأفضاله يا ويلكم كيف طال لكم الكفر بإلٰهيته والإشراك بربوبيته وأن تجعلوا له ولدًا من خلقه وبرِيّته وتسجدون للصلبان في دار مملكته ولا تفزعون من عظمته ثم إنه قرأ **﴿ويوم يحشر أعداء الله إلى النار فهم يوزعون حتى إذا ما جاؤوها شهد عليهم سمعهم وأبصارهم وجلودهم بما كانوا يعملون وقالوا لجلودهم لِمَ شهدتم علينا قالوا أنطقنا الله الذي أنطق كل شيء وهو خلقكم أول مرة وإليه ترجعون﴾** [فصلت: ١٩ ـ ٢١]. ثم قال شرحبيل: إن لله عبادًا لو أقسموا على الله أن يدكدك لهم هذا السور لفعل، وكانت إشارته إلى سور المدينة فغار السور في الأرض وبانت المنازل والدّور. قال فارتعدت فرائص الملك لما عاين ذلك من عظيم القدرة فلوى عنان جواده إلى عسكره وأفئدتهم قد طارت وأفكار القبط قد حارت، فلما جنّ الليل أخذ الملك خزائنه وأمواله وحريمه وعياله وركب في المراكب وسار يريد جزيرة أقريطش، فلما أصبح الصباح وقع الصايح بالمدينة بأن الملك قد انهزم فاجتمع الأكابر وقالوا: إن الملك قد انهزم وما لنا مَن يدفع هؤلاء العرب. قال فخرجوا بأجمعهم إلى أصحاب رسول الله ﷺ ووقفوا بين يدي خالد، وقالوا: إن الله قد نصركم بحق وأيّدكم بصدق، وإنّا نريد منكم أن تعاملونا بالنصفة وتنظروا إلينا بعين الرحمة، والعدل سُنّة مَن كان قبلنا معكم من الروم، فقال خالد: ما فعل ملككم؟ قالوا: انهزم بأهله وماله في البحر. فقال قوم: قد أسكن الله الرحمة في قلوبنا وبصّرنا بمعالم ديننا، وأظهرنا على أعدائنا، وفضّلنا على سائر مَن كان قبلنا من الأجناس. فقال تعالى: **﴿كنتم خير أمة**

أُخرجت للناس﴾ [آل عمران: ١١٠]، ونحن نُجريكم على أحسن عوائدنا مع سائر مَن فتحنا بلادهم، وقد أمسكنا عنكم ولو أردنا أن نملك البلد بالسيف لهان علينا، ولكن خير الناس مَن قدر وعفا ونريد منكم مائة ألف مثقال ذهبًا صلحًا عن أنفسكم وأهاليكم وندعوكم بعد ذلك إلى الإسلام، فمَن أجاب منكم كان له ما لنا وعليه ما علينا ومَن عدل عن ذلك أخذنا منه الجزية عن السنة الآتية من كل رجل وغلام بلغ الحلم أربع دنانير ونشرط عليكم شروطًا أن لا تركبوا دابّة ولا تعلوا دُوركم على دُور المسلمين ولا ترفعوا أصواتكم عليهم ولا تبنوا كنيس ولا صومعة ولا ديرًا ولا تجدّدوا ما دثر وتلقوا المسلمين بالذل والانكسار وتسارعوا في قضاء حوائجهم وما يريدون في إصلاح شأنهم لا تعدلوا عن تعظيم أهله، ومَن أذنب منكم ذنبًا حددناه ومَن ارتدّ عن قولنا قتلناه، وأن تشدّوا الزنانير على خصوركم إظهارًا لدينكم، وأن لا تُظهِروا ناقوسًا ولا صليبًا ولو آمنتم بالله ورسوله لكان خيرًا لكم. فقالوا: أيها الأمير ما نترك ديننا فقرأ **﴿وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتّبع ما وجدنا عليه آباءنا أوَلو كان الشيطان يدعوهم إلى عذاب السعير ومَن يسلم وجهه إلى الله وهو مُحسِن فقد استمسك بالعروة الوثقى وإلى الله عاقبة الأمور ومَن كفر فلا يحزنك كفره إلينا مرجعهم فننبّئهم بما عملوا إن الله عليم بذات الصدور نمتّعهم قليلاً ثم نضطرهم إلى عذاب غليظ﴾** [لقمان: ٢١ ـ ٢٤] فقالوا: أيها الأمير نريد أن تولي علينا رجلاً منّا حتى يجمع المال الذي تقرر علينا فيلمّه بالعدل وليكن معه رجل منكم من أصحابكم، فقال خالد: إني لا أعرف أحدًا من أجاويدكم فاختاروا لأنفسكم برضاكم من أوليه عليكم فأشاروا إلى رجل منهم اسمه شيعا بن شامس، وكان مقدّمًا في القبط فولاّه خالد على جمع المال ورياسة البلد وندب معه قيس بن سعد وأوصاهم، وقال: خذوا مَن كل واحد ما يحتمل حاله ومَن كان مُعسِرًا ضعيفًا فدعوه، وأحسنوا إن الله يحبّ المحسنين. ولا تظلموا يتيمًا ولا فقيرًا ولا أرملة، فتعجب القبط من حُسْن وصيته وكلامه فدخل القوم واجتمعوا في دار الإمارة وبعث شيعا غلمانه يجمعون الناس.

قال: حدّثنا جرير بن عاصم عن نعيم بن موسى الداراني عن سليمان بن عوف عن جدّه مازن بن سعيد. قال: وقع القسط على أهل إسكندرية فكان أكبرهم في الحشمة وأغزرهم في المال يَزِن عشرة قراريط وأوسطهم حالاً يَزِن قيراطين ولقد أتى برجل من أغنيائهم اسمه براس لا يدري ما يملك من المال والدبش والغنم وكان أبخل أهل زمانه، فقال له شيعا: قد وجب عليك في هذا المال دينار، قال: وحقّ المسيح ما أنا بالذي يؤدّيه ولو متّ وإن تصدّقت به كان أفضل من عطيتي للعرب. فقال له قيس بن سعد: إن في الذي نأخذه منكم صَونًا لأنفسكم وحفظًا لدمائكم ونحن ما نأخذه على وجه الصدقة منكم بل نأخذه حلالاً لا حرامًا يا ويلك لو دخلنا مدينتكم بالسيف ألستَ كنت أنت أوّل

مَن قتل ومالك أول ما نُهب؟ وقال لشيعا: خذلك الله ولعنك كلُّ مَن في إسكندرية يعلم أنك كنت أولاً فقيرًا لا تقدر على شيء من أمور الدنيا وقد آتاك الله من فضله ووسّع عليك رزقه. فقال: ألست ورثته عن آباء كرام وأجداد عِظام وما لله عليَّ من فضل. قال فغضب قيس وقام إليه وقمعه بمقرعة كانت معه، وقال له: كذبت يا عدوّ الله ورسوله الفضل والحمد والمنّة لله لأنه رزقنا من فضله وأسبغ علينا من نِعمه **﴿وإن تعدّوا نعمة الله لا تحصوها﴾** [إبراهيم: ٣٤] ثم قال قيس: اللَّهمَّ إنه جحد نعمتك فأزِلْها عنه. قال: فوالله ما مضى يومه حتى جاء الخبر بأن أغنامه قد هلكت جميعًا وبساتينه يبست ودياره قد تهدمت وأمواله ذهبت. قال قيس: الله أكبر هذا والله حديث سمعته من رسول الله ﷺ وأبو هريرة بجانبي. قال: «إن ثلاثة من بني إسرائيل كان أحدهم أبرص، والآخر أقرع والآخر أعمى. فبعث الله إليهم ملكًا فأتى الأبرص فقال له: أيّ شيء أحب إليك؟ فقال: الجلد الحسن والإبل، فأتى الأقرع فقال له: أيّ شيء أحبّ إليك؟ قال: الشعر الحسن والغنم، وأتى الثالث فقال له: أيّ شيء أحبّ إليك؟ فقال: النظر والبقر. قال: ثم إن الملك مسح بيده على جلد الأبرص فعاد أحسن جلدًا وأعطاه ناقة عشراء فبارك الله له فيها حتى ضاقت بإبله الديار، وأما الأقرع فأتاه ومسح بيده على رأسه فأنبت الله له شعرًا حسنًا وأعطاه نعجة عشراء فتوالدت إلى أن ضاقت بها تلك الديار. ثم أتى الأعمى ومسح بيده على عينيه فعادتا أحسن عينين وأعطاه بقرة عشراء فتوالدت إلى أن ضاقت بها تلك الديار. قال: ثم أتاهم ليمتحنهم، فأتى الأبرص. فقال له: كنت أبرص فقيرًا لا تملك شيئًا فأعطني مما آتاك الله من هذه الإبل ناقة أتسبّب عليها، فقال له: ما كنت فقيرًا ولا أبرص وإنما ورثت هذا المال من آبائي. قال فذهب إلى الأقرع، وقال له مثل ما قال للأبرص، فقال مثل ما قال للأبرص، فذهب إلى الثالث، وقال له مثل ما قال لصاحبيه. فأجاب وقال: بسم الله والله لقد صدقت. . . فاذهب إلى هذا البقر فاقسمها بيني وبينك، فقال له: بارك الله لك في مالك وقد ردّ الله صاحبيك كما كانا فإنهما كفرا نعمة الله».

قال الراوي: وجمعوا المال ومضوا به إلى خالد وبنى فيها المساجد وأخذ كنيستهم العظمى فجعلها جامعًا وترك لهم أربع كنائس، وكتب إلى عمرو بن العاص يعلمه بفتح إسكندرية ففرح وركب وترك موضعه أبا ذرّ الغفاري وذهب إلى الإسكندرية وبنى فيها جامعًا في الربض، وهو معروف بجامع عمرو إلى يومنا هذا.

ذكر فتح مدينة دمياط وما والاها

قال الراوي: وأتت إليه أهل رشيد وفوّة والمحلة ودميرة وسمنود وجرجة ودمنهور وأبيار والبحيرة وصالحوه على بلادهم. ثم إنه بعث المقداد ومعه أربعون فارسًا وهم

ضرار وشاكر ونوفل وراجح وعاصم وفارس وعروة وسهل وعمير وكعب وسعيد ويزيد وصعصعة وغيرهم وأمرهم بالمسير إلى دمياط وأمَّر عليهم المقداد بن الأسود الكندي فساروا إلى البرلس، ودمياط كان بها خال الملك المقوقس، وكان عسكره اثني عشر ألفًا، وكان قد حصّن البلد وجمع فيها من آلة الحصار من الزاد وغيره، قال فلما أشرف عليه الصحابة ونظر إلى قلّتهم ضحك وقال: إن قومًا ينفذون إلينا منهم أربعين ليملكوا بلدنا إنهم لفي عجز وقلة عقل، قال: وكان ولده الأكبر فارسًا مشهورًا في جميع بلاد النيل وكان اسمه هريرًا وكان يثق به وبشجاعته وبراعته وليس في عينيه الفرسان شيئًا، فلما رأى الصحابة وهم أربعون قفز إليهم وهو لابس لامة حربه وطلب البراز فخرج إليه ضرار بن الأزور وحمل عليه فطعنه فقتله وحمل على عسكر دمياط فألجأهم إلى حيطان البلد وهو كأنه النار في الحطب فاستعاذ منه الجيش. ثم إن خال الملك وكان اسمه البامرك اجتمع بأرباب دولته وقد صعب عليه قتل ولده وكان عندهم حكيم يثقون به وبرأيه ويعتمدون على عقله فأحضروه، وقالوا له: أيها الحكيم العالم ما الذي تشير به علينا في أمر هؤلاء العرب؟

فقال: أيها الملك إن جوهر العقل لا قيمة له وما استضاء به أحد إلا هداه إلى سبيل نجاته وقاده إلى معالم مصالحه، وهؤلاء القوم لا تذلّ لهم راية ولا تلحق لهم غاية قد فتحوا البلاد وأذلّوا العباد واشتهر أمرهم، وعلا ذكرهم، وفشا خبرهم، وعلت كلمتهم، وطافت الأرض دعوتهم، فما أحد يقدر عليهم، ولا يصل إليهم، وما نحن بأشدّ من جيوش الشام ولا أمنع بلدًا وهؤلاء القوم قد أيّدوا بالنصر وغلبوا بالقهر وإن الرحمة في قلوبهم فعاهدهم فما عاهدوا عهدًا وخانوا وما حلفوا يمينًا فكذبوا وقد بلغك ما هم عليه من الدين والصيانة، والصدق والأمانة، والرأي عندي أن تصالحهم لتنال بذلك الأمن وحقن الدماء وصون الحريم ودفع الأمر العظيم ونكون قد صالحناهم ودفعناهم بشيء من مالنا. قال: فلما سمع البامرك ذلك من الحكيم أمر بضرب عنقه فلما عرف الحكيم أن المنيّة قد غشيته قال: اللَّهمَّ إني بريء مما يشركون بك لا شريك لك ولا ولد ولا صاحبة لك، وأنا أشهد أن لا إلٰه إلا الله، وأن محمدًا رسول الله. قال فلما سمع البامرك كلامه ضربه فقتله وأملهم بأن يأخذوا على أنفسهم للحرب، فلما كان الغد خرجوا إلى ظاهر دمياط ونصبوا خيامهم. قال وكان للحكيم ولد ورث فضائل أبيه، وكان فيه فطنة وعقل وتدبير. فلما قتل أبوه أظهر الفرح والدعة للملك البامرك، وقال: لقد أراحني الملك منه ومن شرّه فبلغ البامرك ما قاله ابن الحكيم فأرسل إليه وخلع عليه وطيّب قلبه، فلما كان الليل قال: والله لآخذنَّ بثأر أبي من هذا اللعين ومن أولاده، وكانت داره ملاصقة للسور فنقب نقبًا واسعًا وخرج منه وقصد الصحابة، فلما رأوه قالوا له: مَن أنت؟ قال: إن أبي قد قتل من أجلكم وقد نقبت نقبًا وخرجت منه فقوموا على

بركة الله وعونه حتى تملكوا المدينة منه. فقال له ضرار: يا ويلك، وإن الذي بعثك بهذه الحيلة أراد قتلك أما علمت أن الحذر شعارنا واليقظة دثارنا، وهمَّ بقتله. فقال له المقداد: أمهل يا ضرار وفّقك الله إلى الخير ووقاك الألم والضير. ثم قال المقداد: إني رأيت رسول الله ﷺ في المنام وهو يشير إلى شخص بين يديه وكأنما يقول على زيّ هذا الغلام، وكأنما أتأمل إلى هذا الغلام فرأيته على ما هو عليه الآن وكان على وسطه منطِقة من الأديم وفيها جلق فضة وهي تحت أثوابه. ثم إن المقداد قال: يا غلام اكشف عن أثوابك فكشف عن أثوابه وإذا المنطقة بعينها، فقال: أشهد أن لا إلٰه إلا الله وأشهد أن محمدًا رسول الله ﷺ، فقام المسلمون فصافحوه ومضى الغلام أمامهم إلى أن دخل بهم النقب ووسعوه بأيديهم حتى دخلت خيولهم. ثم ردّوا الحجارة والطين والبناء على حاله وأعمى الله أبصار القوم عنهم، فلما كان الغد نظر أعداء الله فلم يروا للصحابة أثرًا ولا خبرًا فضجّوا بكلمة كفرهم وماجوا وقالوا: هربت العرب ووقع الصائح في العسكر فظهر أهل البلد ليقفوا على صحة الخبر ولم يبق في البلد سوى النساء والأطفال. قال ابن إسحٰق: وكان للحكيم بنو عمّ ثمانون رجلاً وأن ولده طاف عليهم بالليل وأعلمهم بما فعل فأقبلوا معه وأسلموا عن آخرهم، فلما كان الغد وخرج كل مَن في البلد بادر بنو عمّ الحكيم وإخوته إلى الأبواب فأغلقوها وأعلنوا بالتهليل والتكبير والصلاة على البشير النذير فوقعت الخمدة على النساء والصبيان واستوثق القوم من المدينة بالثمانين رجلاً فأمسكوهم الأبواب وخرج الصحابة رضي الله عنهم ورفعوا أصواتهم يكبّرون ويدعون الله عزّ وجل، فلما نظر لهم أهل البلد علموا أنهم قد ملكوها وأن الذي فعل ذلك بنو عمّ الديرجان الحكيم وقد أغلقوا الأبواب وقفلوها وملكوا السور، فوقف الملك ينظر إلى ما فعله الصحابة وعلم أن المدينة أخذت منهم وكان في أولاده ولد عاقل لبيب كامل الذات والصفات وافر العقل وكان منذ نشأ يتبع العلماء ويُجالسهم ويطلب العلم ومنذ ملك عقله ما أكل لحم خنزير ولا كشف ذيله على محرم ولا سجد لصورة ولا لصليب، وكان همّ أن يبني صومعة وينفرد فيها فلم يمكّنه أبوه من فرط محبته له وكان لا يستطيع فراقه وهذا الغلام اسمه شطا وكان يحب أن يسمع أخبار رسول الله ﷺ ويبحث عنها؛ فلما نظر إلى الصحابة وقد ملكوا منه البلد وشطا عن يمين أبيه نظر شطا إلى الصحابة وإلى زيّهم وإلى نور الإيمان وهو ساطع منهم.

قال: فشَخَصَ شطا نحو السماء ببصره وصاح وسقط عن قربوس فرسه بوجهه. قال فارتاع أبوه وجميع عسكره من تلك الصيحة، فلما أفاق قال له أبوه: يا بني ما وراءك؟ قال: ظهر والله والحق وبانَ وقد تبيّنت لي حقيقة الإيمان، وقد نظرت إلى عسكر هؤلاء العرب وعليهم نور عظيم ومعهم رجال عليهم ثياب خضر وهم على خيول شهب وبينهم قبّتان معلقتان في الجو بلا علاقة من فوقها ولا دعامة من تحتها وفيها رجال ما رأيت

أحسن من وجوههم، ولا شك أنهم الشهداء ورأيت في إحدى القبّتين حورًا لو برزن لأهل الدنيا لماتوا شوقًا إليهنّ، وإن الله تعالى ما كشف عن بصري وأراني ذلك إلا وقد أراد لي الخير، وما كنت بالذي بعد هذه الرؤيا أبقى على الضلال ولا أتبع المحال، وأنا أشهد أن لا إلـٰه إلا الله، وأن محمدًا رسول الله، وحرّك جواده وقال: مَن أحبّني من رجالي وغلماني فليتبعني. قال: فتبعه من القوم ألف رجل ولحقوا بالصحابة وألقوا سلاحهم وأعلنوا بكلمة التوحيد. قال: فلما نظر البامرك إلى ما فعل ولده شطا. قال: والله ما فعل ولدي شطا ذلك إلا وقد رأى الحق ولست أشك في عقله ودينه. ثم إنه أسلم ولحق بولده، فلما نظر أرباب دولته ذلك، قالوا: إذا كان الملك وولده قد أسلما فما وقوفنا نحن؟ فأسلموا جميعًا على يد أصحاب رسول الله ﷺ ودخلوا المدينة، فمَن أسلم تركوه ومَن أبى أخرجوه إلى بلاد الأرياف. قال: وفتح المقداد النقب الذي دخلوا منه وأمر ببنائه بابًا فسمُّاه باب اليتيم وهو ابن الحكيم وترك عندهم المقداد رجلاً من الصحابة يعلّمهم شرائع الإسلام وهو يزيد بن عامر رضي الله عنه ورجع المقداد وأصحابه إلى إسكندرية وحدّثوا عمرًا بما فتح الله عليه من دمياط ففرح بذلك وكتب كتابًا إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه بفتح مريوط والإسكندرية ودمياط ورشيد وفوة والمحلة ودميرة وسمنود وجرجة ودمنهور وأبيار والبحيرة وبعث الكتاب مع عامر بن لؤي.

ذكر فتح الجزيرة تنيس

قال: حدّثني زياد عن حميد الطويل عن يونس بن الصامت عن نصر بن مسروق. قال: لما فتحت دمياط وكان من أمرها ما كان. قال البامرك لولده: يا بنيّ إن الله قد أنقذنا من نار الجحيم وقد هدانا إلى الصراط المستقيم وذلك لسابقة سبقت لنا في القِدَم، وهذه تنيس بالقرب منّا وهي جزيرة ولا يمكن التوصّل إليها إلا في المراكب، والصواب أننا نكاتب صاحبها أبا ثوب وندعوه إلى الله وإلى دين نبيّه. فإن أجاب وإلا قصدناه والله ينصرنا. فقال شطا: هذا هو الرأي وأنا أكون الرسول إليه بنفسي. فقال: يا بني اعزم على بركة الله وعونه. قال: فركب شطا في مركب وأخذ معه أربعة من غلمانه الخواص، فلما نظر يزيد بن عامر إلى ذلك. قال: وأنا أسير معك إلى صاحب تنيس. فإنه لو سألك عن ديننا ومعالمه لم يكن عندك به علم بأن تكلمه ونحن بحمد الله ما فينا مَن يتكبّر ولا مَن يتجبّر وما طلبتنا إلا الآخرة والعمل بما يقرّبنا إلى الله. ثم سار معه يزيد بن عامر صاحب رسول الله ﷺ حتى وصلوا إلى جزيرة تنيس وفيها رجال يحفظونها، فلما نظروا إلى شطا وغلمانه وبينهم رجل بدوي، قالوا: مَن أنتم؟ قال لهم شطا: أنا ابن الملك البامرك صاحب دمياط ومعنا هذا الرجل من أصحاب رسول الله ﷺ وقد جئناكم رسلاً. قال: فأرسلوا منهم واحدًا يستأذن لهم فأذِنَ لهم أبو ثوب. قال: فنزلوا في الزورق وإذا به

قد أرسل لهم دوابًا ليركبوها فامتنع يزيد من الركوب ووافقه شطا على ذلك وساروا كلهم رجالاً إلى أبي ثوب فاستأذنوا عليه فأذِنَ لهم، فلما دخلوا قصر أبي ثوب وإذا به في حشمه وخدمه وزينته والحجّاب والغلمان بين يديه وهو في مرتبة إمارته، وكان قد تكبّر وتجبّر منذ نزل أصحاب رسول الله ﷺ على مصر ومنع المال والخراج أن يؤدّيه للمقوقس وولده، وقد اجتمع عنده مال عظيم، فلما دخل عليه يزيد صاحب رسول الله ﷺ وشطا وأغلمانه ونظروا إلى أبي ثوب وغلمانه وتجبّره بدأ يزيد بالسلام، فقال: السلام على مَن اتبع الهدى **﴿إنّا قد أُوحي إلينا أن العذاب على مَن كذب وتولى﴾** [طه: ٤٨].

قال الواقدي: حدّثنا ابن سالم عن جرير بن أحمد عن أبيه عيينة عن ابن جرير وكان أعلم الناس بقصة فتوح مصر والمغرب. قال: كان أبو ثوب هذا من أرض العريش من متنصرة العرب من آل غسان، وهو قريب جبلة وكان صاحب مال ورجال، وأنه لمّا وقعت الهزيمة على الروم وفتح الشام وانهزم الملك هرقل وهرب معه جبلة هرب معهم أبو ثوب هذا بماله وأهله وإخوته إلى أرض الجفار ونزل في البرية ما بين العريش ورفح، وأن المقوقس خرج في بعض الأيام يريد الصيد في عسكره فانتهى في سرحته إلى أرض العريش، فانطرد قدّامهم وحش كبير فطلبه الملك وتبعه ولم يتبعه أحد من عسكره وهو وراءه وحده إلى أن رماه في حلل العرب في حلة أبي ثوب، فقام إليه وعظّمه وبجله وعلم أنه الملك فأمسك ركابه وأنزله في بيته وذبح له الأغنام ووضع له الطعام وتلاحق الجيش. قال: فأضافهم أبو ثوب ثلاثة أيام، فلما كان في اليوم الرابع، ركب في خدمة الملك وشيّعه وعاد، فلما دخل المقوقس إلى مصر أمر وزيره بأن يكتب إلى أبي ثوب بولاية تنيس وأعمالها وأرسل له الخلع والأموال والمماليك والغلمان، فلما وصل إليه منشور الملك وخلعه فرح أبو ثوب وركب وسار إلى الفرمة وركب منها في المراكب إلى تنيس، فلما مكث في ولايته بعث إلى أهله وإخوته فأتوا إليه، فولّى أخاه أبا سيف على جزيرة الصدف وولّى أخاه الثاني أبا شق على جزيرة الطير، وولّى ولده على دنيوز، فلما طال عليه الأمر طغى وتجبّر ومرّت الأيام والليالي حتى قَدِمَ أصحاب رسول الله ﷺ إلى أرض مصر فمنع دفع الخراج إلى مصر وإلى المقوقس وولده ورأى نفسه في تلك الجزيرة فتحصّن بها وقال: ما أحد يقدر أن يصل إليّ، فلما قَدِمَ شطا ويزيد بن عامر ونظر إليهم أبو ثوب أظهر الإعجاب والتكبّر ولم يلتفت إليهم ولم يجسر أحد من جماعته أن يأذن لهم بالجلوس، فلما نظر إلى ذلك يزيد بن عامر قرأ **﴿إن الأرض لله يورثها مَن يشاء من عباده والعاقبة للمتقين﴾** [الأعراف: ١٢٨] وجلس إلى جانبه شطا، ونظر يزيد إلى سرير أبي ثوب فإذا هو من الذهب وفيه صورة النخلة ومن تحتها صورة مريم والمسيح في حجرها فقرأ **﴿فناداها من تحتها أن لا تحزني قد جعل ربك تحتك سريًا وهزّي إليك بجذع**

النخلة تساقط عليك رطبًا جَنِيًا فكُلي واشربي وقرِّي عينًا فإما ترينّ من البشر أحد فقولي إني نذرت للرحمـٰن صومًا فلن أُكلِّم اليوم إنسيًا﴾ [مريم: ٢٤ ـ ٢٦] إلى قوله: **﴿إني عبد الله آتاني الكتاب وجعلني نبيًا وجعلني مباركًا أينما كنت وأوصاني بالصلاة والزكاة ما دمت حيًا وبرًا بوالدتي ولم يجعلني جبّارًا شقيًا والسلام عليَّ يوم ولدت ويوم أموت ويوم أُبعث حيًا﴾** [مريم: ٣٠ ـ ٣٣]. قال: فلما سمع أبو ثوب كلام يزيد، التفت إليه بغضب وحنق وقال: ما هذا الكلام الذي نطقت به؟ قال يزيد: هذا كلام الله جلّ جلاله الذي أنزله على نبيّه محمد ﷺ الذي لا تفنى عجائبه، ولا تنفذ غرائبه، ولا تبدّل كلماته، ولا تملّ آياته. فقال: ما معنى الذي ذكرت ونطقت به، وما تفسيره؟ فقال يزيد: أما قول الله إخبارًا عن عيسى حين قال: **﴿إني عبد الله﴾** فإنه يعلّم الخلق أنه عبد الله وليس بولد، جلّ الواحد الأحد الفرد الصمد. وأما قوله: **﴿آتاني الكتاب﴾** فمعناه أعلّمكم الأحكام وأُعرّفكم الحلال والحرام، وأما قوله: **﴿وأوصاني بالصلاة والزكاة﴾** فمعناه أني مأمور بالطاعة والخدمة والزكاة مثلكم فإن في مالي حقًّا لله، وأما قوله: **﴿والسلام عليَّ يوم ولدت ويوم أموت﴾**، فيعلمهم أنه يموت ومَن يموت لا يكون له العزّة والجبروت، وأما قوله: **﴿ويوم أُبعث حيًا﴾**، فيعلّمهم أنه وإيّاهم مبعوثون في يوم القيامة وقوف يوم الحشر والندامة، ولو كانا إلـٰهين لكان لهما إرادتان ووقع الخلف بينهما، وأن الحكمة غير ذلك، وهي على وحدانيته شاهدة. قال فلمّا سمع أبو ثوب من يزيد بن عامر هذا المقال، قال: لقد مثلتم بالأباطيل وغرقتم في بحر الأضاليل. فقال يزيد: الله أعلم مَن هو تائه في تيه المُحال مُشرِك بالملك المتعال، الذي لا سماء تظلّه ولا أرض تقلّه، ولا ليل يؤويه ولا نهار يأتيه، ولا ضياء يظهره ولا ظلام يستره، ولا يقهره سلطان، ولا يغيّره زمان، كل يوم هو في شأن، أما لكم بصائر أما منكم مَن ينظر ويعتبر في قدرة الله القادر؟ أما منكم مَن يعظ نفسه بذهاب النهار وإقبال الليل؟ أما آن لكم أن تنزّهوه؟ أما آن لكم أن توحّدوه، أما سمعتم ممّن تعبدونه، وتبرؤون إليه وتعظّمون؟ فإن المسيح قد أقرَّ له بالعبودية وتبرّأ من دعوى الربوبية، وقال: إني عبد الله، ولقد بشّر بنبيّنا قبل مبعثه وعرّف بني إسرائيل بقربه من الحق وكرامته، أما سمعتم بمعجزاته، وما ظهر من دلالاته؟ أما انشقّ له القمر؟ أما كلّمه الضبّ والحجر؟ أما خاطبه البعير والشجر؟ أما هو من أطيب بيت من مضر؟ قال: فعجز أبو ثوب عن ردّ الجواب، ولم يكن له ما يُزيل حجّته إلا أن قال ليزيد بن عامر: لقد علمنا ما فعل، ولكنه كان ساحرًا، وإن كان قولك هذا حقًّا، فادعُ الله وتوسّل إليه بمحمد أن يسقينا الغيث، فإن جاء الغيث علمنا أن قولك ليس في شك، ونؤمن بالله ونصدّق برسالة محمد ﷺ. قال يزيد بن عامر: إن الله يقدر على ما ذكرت، فإن الله على كل شيء قدير، إن العبد المخلص إذا دعاه أجاب دعوته، ولكنه يفعل ما يشاء، وأنا أتوسل إلى الله بخير خلقه وصفيّه وهو الفعّال لما يريد، ثم إن يزيد قام وخرج من

مجلس أبي ثوب. فقال له: إلى أين؟ قال: أدعو الذي لو شاء أنزل عليكم رجزًا من السماء ثم قرأ **﴿بل اتبع الذين ظلموا أهواءهم بغير علم فمَن يهدي مَن أضلّ الله وما لهم من ناصرين﴾** [الروم: ٢٩].

قال: حدّثنا عاصم عن رويم عن ابن جبير قال: إنما طلب أبو ثوب الغيث واقتصر عليه لأنه كانت له مزرعة بالبُعْد من النيل، ولا يقدر أن يسقيها ولا يصل إليها ماء، وكانت قد أشرفت على الهلاك واليبس، وكانت منه ببال، وكان قد غرس فيها من جميع الثمار والأشجار وصنع لها مصانع تمتلىء بماء المطر فيسقيها وقت الحاجة إليها، وكان المطر قد أمسك عنها والمصانع نشفت، فلما خرج يزيد إلى البحر توضأ وصلّى ركعتين، ثم رفع رأسه نحو السماء وقال: اللَّهمَّ إنك قد أمرتنا بالدعاء ووعدتنا بالإجابة، فقلت وأنت أصدق القائلين: **﴿وإذا سألك عبادي عني فإني قريب أُجيب دعوة الداعِ إذا دعانِ﴾** [البقرة: ١٨٦] وقد دعوت كما أمرت، فاستجب كما وعدت يا ذا المعروف الذي لا ينقطع أبدًا ولا يحصيه غيرك. قال ابن جبير: لقد بلغني ممّن أثق به أن يزيد بن عامر ما برح يدعو حتى ارتفع السحاب من الجو ووقف وقفة الخاضع، ورفع جناح السائل المتواضع وارتفعت سحابة وتألّقت، والرعد يصول حولها صولة الغاضب، وهو لها بصوت البرق يزجر بصلصلة وقعقعة وهرير وهو على ذلك سيره ومسيره، وقد أحاطت بالسحابة ملائكة الرحمة متمنطِقة بنطاق الخدمة يسوقونها من خزائن رحمته، ويجذبونها بأزمة القهر إلى ملك أبديّته وهو واضع أجنحة عبوديته، موسوم بوسم **﴿ويسبّح الرعد بحمده والملائكة من خيفته﴾** [الرعد: ١٣]، والركام يسري ويسرع إسراع الوجل يسبّح مَن يسجد لجلاله **﴿فترى الودق يخرج من خلاله﴾** [النور: ٤٣] فإذا هي أشرفت وتكاملت بالماء ووسقت، والبروق من أركانها قد انشقّت، وهبّت عليها رياح قدرته من مواضع خزائن رحمته **﴿وهو الذي يرسل الرياح بُشْرًا بين يدي رحمته﴾** [الأعراف: ٥٧] فعندها تفتح مغاليق أبوابها وترفع ستر حجابها فهمّت بدموع أشجانها على أيدي خزّانها، فتستبشر الأرض عند ورودها وتنتظم عقود الزهر عند ورودها في جيد وجودها، وتخرج كنوز ذخائرها **﴿فانظر إلى آثار رحمة الله كيف يُحيي الأرض بعد موتها﴾** [الروم: ٥٠]. قال: ونزل المطر يسكب بقية يومهم وليلتهم، فلما كان من الغد حضر يزيد بن عامر مجلس أبي ثوب وقال له: كيف رأيت صنع الله الصانع المتكفّل بأرزاق العبيد. قال: فضحك أبو ثوب، وقال: إن سحركم لعظيم وإن مكركم لجسيم وإن سحركم يفعل أكثر من هذا. فقال: إنما ذلك رحمة من الله، قد أبرّ مَن أقسم باسمه عليه، فلما رأى نزول المطر وظهرت بركات صاحب رسول الله ﷺ قال على سبيل المكر: الآن تحقّقت أن دينكم الحق وقولكم الصدق وأنا مؤمن بالله، ومصدِّق برسالة رسول الله ﷺ وسوف أعرض دين الإسلام على أهل جزيرتي وأصحابي وأهلي، وأبني المساجد وآمر بالمعروف

وأنهي عن المنكر. فقال يزيد: إن أنت فعلت ذلك رشدت، وإن نافقت فإن ربّك لبالمرصاد، ثم خرج من عنده هو ومَن كان معه شطا وغلمانه ومضوا إلى دمياط إلى البامرك وحدَّثوه بما كان من أبي ثوب. فقال: والله لقد خدعكم بخديعته ورماكم بسهم مكيدته. فقال يزيد بن عامر: **﴿ومكروا ومكر الله والله خير الماكرين﴾** [آل عمران: ٥٤] فما لبثوا أيامًا قلائل حتى وصل الخبر أن أبا ثوب جمع من سائر الجزائر وهو قادم عليهم، فلما سمع البامرك بذلك قال ليزيد بن عامر: ما الذي ترى من الرأي في أمر هذا العدوّ؟ فقال يزيد: نستعين بالله ونتوكل على الله، ومَن قاتلنا قاتلناه.

قال ابن إسحٰق: وإن البامرك أرسل ولده شطا إلى البرلس ودميرة وطناح ومن تحت يده يطلبهم فجاؤوا من كل جهة، وكتب يزيد إلى عمرو بن العاص يعلمه أن أبا ثوب قد جمع الجموع، فلما وصل إليه الكتاب أرسل إليهم هلال بن أوس بن صفوان بن ربيعة أحد بني لؤي ومعه ألف فارس وأمره بالمسير إلى دمياط، وذلك في العشر الأول من شعبان سنة عشرين من الهجرة، وكان لعمر بن الخطاب في الخلافة أربع سنين ونصف. أما ما كان من أبي ثوب، فإنه لمّا نفر إليه العساكر أخرجهم بظاهر تنيس، فكانوا عشرين ألفًا من الرجال، ومن الخيل خمسمائة فارس من القبط ومتنصرة العرب وعدَّاهم في المراكب وأتوا نحو دمياط فخرج شطا بن البامرك فقتل رجالاً وجندل أبطالاً، وأنه اشترى الجنة من الله بنفسه، ولم يزل يقاتلهم بقية يومه، ثم إنه عاد من قتال اللئام إلى الصلاة والصيام، ولم يزل على قدم الخوف والوجل وهو منكّس الرأس من الخجل من الله تعالى عزّ وجل، فلما مضى أكثر الليل وطلع نجم سهيل اضطجع، فلما كان وقت الغلس وقرب الصبح وتنفس استيقظ شطا وهو باكي العين. فقال له أبوه: يا بنيَّ ما الذي أبكاك؟ فقال: رأيت شيئًا في منامي أبصرته وسمعت منه كلامًا وعاينته وحفظته وحررته، والدنيا هي طالق وإني بعون ربي واثق، ولا شك أني لك مفارق. فقال أبوه: أعوذ بالله يا بني ما هذا الكلام؟ ولعل ذلك أضغاث أحلام.

فقال: لا والله ما هي أضغاث أحلام لكنه أمر من الملك العلاّم الذي أجرى الأقلام وخلق الضياء والظلام وبعث سيد الأنام بشرائع الإسلام، وإني رأيت في منامي كأن أبواب السماء قد فتحت، وأنوار الهداية قد سطعت ولمعت، ثم تفتحت أبواب السماء الثانية، ثم رأيت ملائكتها سجودًا على جِباههم لا يقومون ورُكّعًا لا ينتصبون وقيامًا من هيبة ربّهم لا يقعدون وباكين لا تجفّ لهم دموع، ثم كذلك رأيت سماء بعد سماء إلى السماء السابعة، ثم رأيت قبّة من زمرد أخضر وفيها قناديل من الجوهر وهي تسرج من الأنوار وتوقد من غير نار وفيها أربعون حوراء عليهنّ حُلَل ما رأيت قطّ مثلها ولا أبصرت شكلها بوجوه تفتن الإنس وفي أرجلهنّ نِعال الياقوت الأحمر يطأن بها على النمارق والزرابي،

فصاحت بي إحداهنّ وهي كبيرتهنّ، وقالت: يا مفتونًا بدار الدنيا أما آن لك أن تذكرنا فقد خلقنا الله لك منذ خلقك، وجعل مهرنا منك الجهاد في مرضاة ربّ العباد، وقد ألفت الجفاء، وما هكذا صنع أهل الوفاء، انظر إلى ما أعدّ لك وللشهداء، قال فنظرت وإذا بقِباب معلقة حيث لا يُدرَك لها نهاية بعدد النجوم وقطرات الغيوم، وقد نفد الميقات، وانقضت الساعات والأوقات، فتيقظ في المنام وارحل إلى دار السلام، وقالت: في كل قبة مثل ما رأيت، فقلت: ما هذه القباب؟ فقالت: هذه قباب قوّام الليل والشهداء يأوون إليها في جنة المأوى، ثم إنها جعلت تقول:

أنت يا مفتون دومًا في الدنا ثم المنام
فدع النوم وبادر مثل فعل المستهام
وابك بالوجد دوامًا بدموع وانسجام
ثم نحْ يا ذا كثيرًا في نهار وظلام
أيها اللائم دعني لست أصغي للملام
في عروس قد تبدّت فاقت البدر التمام
طرفها يرشق باللحـ ـظ مصيبًا كالسهام
ولها صدغ منير مثل نون تحت لام
أحسن الأتراب قدًّا في اعتدال وقوام
مهرها إن قام ليلاً وهو باكٍ في الظلام
يا عمادي ورجائي ومنائي والمرام
فاستمع مني قولي ثم فكر في النظام
وغدًا بادر لحرب وإلى ضرب السهام
مسرعًا تأتي إلينا بعد ترحال الظلام

فقال أبوه: اعلم يا ولدي أن من المنام ما يصدق وما يكذب فلا تشغل نفسك بما رأيت. فقال: لا والله يا أباه ما بقي لي في الدنيا طمع ولم يزل باقي ليلته يبكي ويتضرّع ويقوم على أقدام الخشوع ويخضع وأجفانه بالدوام تدمع إلى أن أصبح الصباح وأشرق بحيائه ولاح فودّع شطا أباه وأهله وخرج إلى الحرب فتعلق به أبوه وقال له: يا بني بحقي عليك لا تبلني بفراقك. فقال شطا: دع عنك العتاب، فقد قرب لقاء الأحباب، فعندها قامت على أبيه المواسم وانهلّ الدمع الساجم ودنا الفراق وقامت الأشواق وجرى دمع كل عين وأقبل البامرك يودّع ولده ويقول: يا بني إن صحّ منامك وضربت في دار السلام خيامك فاذكرنا بحُسْن طريقة الوفا وأقرىء سلامي على النبي المصطفى، فبرز شطا إلى الحرب ودعا للبراز فخرج إليه واحد فقتله وثانٍ وثالث حتى قتل اثني عشر فارسًا.

قال ابن إسحٰق: فلما رأى أبو ثوب ما فعل شطا بفرسانه لم يطق الصبر دون أن خرج إليه بنفسه وكان من الفرسان المذكورة، فلما سار شطا في الميدان قال له: يا شطا كيف تركت الدين المستقيم وعدلت عنه وصغيت إلى هؤلاء اللئام واتبعت دين الإسلام؟ لقد عمل فيك القوم واستوجبت العتب واللوم يا فتى عُد إلى الدين الصحيح والقول الرجيح وهو دين المسيح فأيّ شيء رأيت من هؤلاء المساكين حتى تبعت دينهم؟ فلما سمع شطا كلام أبي ثوب أقبل عليه مغضبًا وقال له: يا لئيم أتأمرني أن أدع الدين

المستقيم الذي كان عليه الخليل والكليم، وأنى لي بذلك وقد رأيت الليلة ما لي من الكرامة عند الله، وقد طلّقت الدنيا ثلاثًا، فلما سمع أبو ثوب كلامه حمل عليه ومدَّ سنانه إليه فتلقاه بقلب قوي وجنان جريّ وعزم مضي وحسام سري وتقاتلا نصف نهار فعطش شطا فأراد الله أن يطيّب قلبه فكشف عن بصره فرأى القبة التي رآها في المنام والحوراء التي أنشدته الأبيات وفي يدها كأس مَن شربها لا يفنى ولا يسقم وفيه من الرحيق المختوم، وهي تقول: يا شطا هذا شراب مَن شرب منه لا يسقم ولا يفيق والساعة تصل إلينا وتقدم علينا. قال فلما نظر شطا إلى ذلك وسمع منها ما قالت صاح الله أكبر ﴿**هذا ما وعد الرحمٰن وصدق المرسلون**﴾ [يٓس: ٥٢] وأخذه الدمع والبكاء خوفًا من الله. فقال له أبو ثوب: مِمَّ بكاؤك؟ قال: رأيت كذا وكذا، فضحك أبو ثوب من كلامه وحمل عليه فتقاتلا قتالاً شديدًا أعظم من الأول إلا أن أبا ثوب سبق شطا بطعنة في صدره فأطلع السنان من ظهره فخرَّ صريعًا، فلما نظر البامرك إلى ولده مطروحًا لم يأخذه صبر دون أن حمل عليه هو وأصحابه. قال وأظلمت آفاق تلك الأرض من الغبار وترادف القتار فوقعت الهزيمة على البامرك وأصحابه فألجأهم إلى أبواب دمياط وطمع فيهم عدوّ الله أبو ثوب وإذ قد أتاهم هلال بن أوس بن صفوان بن ربيعة فوضعوا أيديهم في أبي ثوب وأصحابه وهم ينادون بالتهليل والتكبير وتحامى أصحاب البامرك وحملوا مَن قبلهم. قال: وأما أبو ثوب وأصحابه فإنهم أيسوا من أنفسهم قال فهم في ذلك إذ التقى يزيد بن عامر بأبي ثوب. فقال له: يا عدوَّ الله أما اتّعظت بآيات الله؟ أما ظهر لك الحق من أصحاب رسول الله ﷺ؟ وأطبق عليه فأخذه أسيرًا وصاح الصائح أن أبا ثوب أسر فاستسلم قومه للقضاء فأخذوهم عن آخرهم بعد ما قتل منهم خلق كثير، ثم إنهم عزّوا البامرك في ولده شطا. فقال: احتسبته عند الله. فقال له يزيد بن عامر: إن في الجنة درجات لا ينالها إلا الصابرون، قال الله تعالى: ﴿**وبشّر الصابرين الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنّا لله وإنّا إليه راجعون أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم المهتدون**﴾ [البقرة: ١٥٥ ـ ١٥٧].

قال ابن إسحٰق: ودفنوا شطا في ثيابه بعدما صلّوا عليه ودفنوه في موضع قتله. قال فلما كان الغد أقبل البامرك إلى يزيد بن عامر، وقال: رأيت الليلة ولدي في النوم وهو في القبة والحور بين يديه. فقلت: ما فعل الله بك؟ قال: قبلني بأحسن قبول وجادَ عليَّ وأنزلني بجوار الرسول.

حدّثنا ابن إسحٰق حدّثنا عمر بن الأسقع عن جدّه عامر بن خويلد قال: قتل شطا في ليلة نصف شعبان فجعل له تلك الليلة موسمًا في كل سنة، وذلك أنه لمّا يبق أحد إلا زار قبره تلك الليلة، وأن هلال بن أوس نزل وأحضر أبا ثوب وعرض عليه الإسلام

فأسلم وأسلم من الأسرى أُناس وأبى منهم أُناس وبِقوا على دينهم وقرروا عليهم الجزية ودخل المسلمون في المراكب إلى تنيس وبنوا موضع الكنيسة جامعًا وبنوا في جميع الجزائر جوامع، وأخرج أبو ثوب الخمس من ماله وأموال قومه وبعثوه إلى عمرو بن العاص مع أموال مَن قتل وأن هلال بن أوس نزل على التل الأحمر بظاهر تنيس وأقرّ أهل الجزائر في أماكنهم. فقالوا أيها الأمير: قد أمّنتنا من جانبك وبقي علينا الخوف من جانب آخر. قال هلال: من أين؟ قالوا: من أصحاب القلعة المسمّاة الفرماء. قال: وأين هي؟ قالوا: على جانب بحيرة تنيس مما يلي شرقها وفيهم أقوام وعليهم الصامت بن مرّة من آل مرداس، فلما سمع هلال بن أوس ذلك مضى إليها بجميع مَن معه، فلما وصلوا إليها أشرف عليهم الصامت بن مرّة وأمر أصحابه أن يرموهم وكان بها ألف رجل وغالبهم رماة النبل فرموا عن قوس واحد ألف سهم فسمعتها العرب من الفرماء فأقام عليها هلال بن أوس عشرين يومًا فلم يقدر عليها فبعث إلى عمرو يعلمه بما وقع ويستنجده فأرسل إليه المقداد بن الأسود الكندي في خمسمائة من عسكر الإسلام وأرسل معه ثلاثة آلاف ممّن أسلم من القبط.

ذكر فتوح الفرماء والبقارة والقصر المشيد

قال: فلما نزل المقداد على الفرماء تأهب أهلها للقتال فنزل بالصامت بن مرّة ما نزل به فعلم أنه بيد القوم، لأنه ليس له ناصر ولا مُعين فصالح المقداد على أن يؤدي لهم أربعة آلاف مثقال من الذهب وأربعمائة ناقة وألف رأس من الغنم وأن يُمهِلوه إلى تمام السنة فإن شاء دان إلى الإسلام وإلا ارتحل بأمانه، فأجابه المقداد إلى ذلك وارتحل المقداد وهلال بن أوس ونزلوا على البقارة وكان عليها ابن الأشرف فأسلم هو ومَن معه ومضوا إلى القصر المشيد ففتحوه صلحًا ثم ارتحلوا ونزلوا على الوردة وكان اسمها الواردة فسلمها أهلها وارتحلوا إلى العريش فصالحهم أهلها وكذلك أهل رفح وبيدا ومياس ونخلة وعسقلان.

قال ابن إسحٰق: حدّثني يوسف بن عبد الأعلى قراءة عليه بجامع الرملة سنة مائتين وعشرين من الهجرة. قال: حدّثني موسى بن عامر عن رفاعة عن جدّه عبد العزيز بن سالم عن أبي يعلى العبدي عن طاهر المطوعي عن أبي طالب الفشاري عن وهبان بن بشر بن هزان قال: سمعت الشرح كله من محمد بن عمر الواقدي وهو يومئذ قاضي بغداد في الجانب الغربي.

ذكر فتوح ديار بكر وأرض ربيعة

حدّثنا عدنان بن يحيىٰ الحرثي عن معمر الجوني ومن طريق آخر عن ابن عمير

التميمي والابتداء عن المهلب وطلحة ومحمد قالوا جميعًا أو مَن قال منهم: إنه لما فتح الله الشام على يد أبي عبيدة عامر بن الجراح وعلى يد خالد بن الوليد وفتح أرض مصر على يد عمرو بن العاص بن وائل السهمي كتب أمير المؤمنين عمر بن الخطاب إلى أبي عبيدة يقول له: بسم الله الرحمٰن الرحيم. من عبد الله عمر أمير المؤمنين إلى عامر بن الجراح سلام عليك فإني أحمد إليك الله الذي لا إلـٰه إلا هو وأُصلّي على نبيّه محمد ﷺ. أما بعد: فقد أجهدت نفسك في قتل الكفّار وسارعت إلى رضا الجبار، وقدّمت لك ما تجده يوم عرضك ولم نرَ منك يومًا مُعرضًا عن أداء فرضك وقمت بسُنّة نبيّك وجاهدت في الله حقّ جهاده تقبّل الله منّا ومنك وغفر لنا ولك، فإذا قرأت كتابي هذا فاعقد عقدًا لعياض بن غنم الأشعري وجهّز معه جيشًا إلى أرض ربيعة وديار بكر وإني أرجو من الله سبحانه وتعالى أن يفتحها على يديه وأُوصيه بتقوى الله والجهاد والاجتهاد في طاعته ولا يلحقه التواني في الجهاد ويتبع سُنَن المؤمنين المجاهدين وما أمر به سيّد المرسلين مما أنزل عليه ربّ العالمين ﴿**يا أيها النبي جاهد الكفّار والمنافقين**﴾ [التوبة: ٧٣؛ التحريم: ٩] والسلام عليك وعلى جميع المسلمين ورحمة الله وبركاته. ثم كتب كتابًا آخر إلى عياض بن غنم بالولاية والمسير إلى أرض ربيعة الفرس وديار بكر. قال: وبعث بالكتاب مع ساعدة بن قيس المرادي وزوّده من بيت مال المسلمين وأمره بالمسير فسار إلى أن ورد على أبي عبيدة في طبرية فسلّم إليه كتاب عمر وسلّم الكتاب الثاني إلى عياض بن غنم الأشعري، فلما قرأه أبو عبيدة قال: السمع والطاعة لله ولأمير المؤمنين وهيّأ عياضًا بمسيره إلى الجهاد وعقد له عقدًا على ثمانية آلاف منهم ألف صحابي من جملتهم خالد بن الوليد والنعمان بن المنذر وضرار بن الأزور بن سابق وضمرة وعمرو بن ربيعة وذو الأدغار بن قيس والحكم بن هشام واليسع بن خلف وطلحة وعامر بن بهرام والمقداد بن الأسود وعمار بن ياسر وعبد الله بن يوقنا وكانوا قد قَدِموا على أبي عبيدة بعد فتوح مصر وكان قدومهم في شهر شوال سنة ست وعشرين من الهجرة وسار عياض بن غنم من طبرية في ثمانية آلاف يريد الجزيرة وعلى مقدمته خيل سهل بن عدي فلم يزل سائرًا حتى نزل على بالس وكان خالد قد فتحها صلحًا فأقام عليها وسرح سهيل بن عدي إلى الرقّة فنزل على حصارها وكان عليها بطريق اسمه يوحنا وكان من قبل صاحب رأس العين، وكان قد استعدّ للحرب وعبّى آلة الحصار، فلما رأى أهل الرقّة أن صاحبهم معوّل على الحصار اجتمع بعضهم ببعض وقالوا: أي شيء أنتم بين أهل الشام وأهل العراق ولا مقام لكم بين يدي هؤلاء القوم؟ قال: فمشوا إلى عياض بن غنم بالصلح فرأى أن يقبل منهم فبعث إلى سهيل بن عدي أن يصالحهم على ما وقع عليه الاتفاق وارتحل عياض بن غنم عن بالس ونزل على الرقة البيضاء وفي ذلك قال سهيل بن عدي:

وصادفنا الغزاة غداة سرنا بجود الخيل والأسل الطوالِ

أخذنا الرقة البيضاء لما رأتنا الشهب نلعب بالتلال
وأزعجت الجزيرة بعد خفض وقد كانت تخوف بالزوال
سنقصد رأس عين بعد حين أجد بحملتي جيش الضلال
وقصدك يا سهيل تبيد جيشًا وتقتل في البطارق لا تبالي
فنحن أُولو التقية والمعالي ونحن الصابرون لكل حال
صحابة أحمد خير الموالي رقى العلياء والرتب العوالي
إلى ربّ السماء دنا علوًّا وخاطبه شفاهًا بالمقال

ذكر فتح القلعتين: زبا وزلوبيا

قال الواقدي: لمّا فتحت الرقّة صلحًا عوّل عياض بن غنم على المسير إلى رأس العين وكان يملك يومئذ الجزيرة ملك من ملوك الروم يقال شهر ياض بن فرون وكان جيشه مائة ألف وتحت يده وفي عماله من العرب المتنصرة السلطان بن سارية التغلبي وهبيرة وهم ثلاثون ألفًا من الأبطال وأنهم لما اتصلت بهم الأخبار بفتح الرقّة وأن المسلمين قاصدون إليهم مع عياض بن غنم وخالد والمقداد أتوا إلى الملك شهر ياض برأس العين وقالوا له: اعلم أيها الملك أن أصحاب محمد ﷺ قد أتوا ديارنا وقصدوا نحونا، ونحن علينا الطلب أكثر منكم ومطلب القوم أننا ندخل في دينهم فاضرب خيامك بظاهر البلد واظهر بجيشك حتى نلقاهم فإما لنا، وإما علينا فأجابهم إلى ذلك وقال: غير أني أخاف أن تنهزموا عني فأعطوا رهائن واستوثق منهم ورتب آلة الحصار وأخرج الخزائن والأموال ورتب الحرس على الأسوار، وزاد في عمق الخندق وعرضه وأرسل إلى جملين وكفرتوتا ودارا وماردين وحران والرها وتل مرزة والسن والموزر وأقام ينتظر عياض بن غنم.

قال: حدّثنا عبد الله بن أسلم عن عاصم بن عبد الله عن ابن إسحٰق الأموي عن يزيد بن أبي حبيب عن راشد مولاه قال: لمّا عوّل عياض بن غنم الأشعري على المسير إلى رأس العين إلى قتال الملك شهرياض بعث قبل مسيره أشعث بن عويلم وعبد الله بن غسان إلى القلعتين المعروفتين بزبا وزلوبيا. فقال عبد الله يوقنا لعياض بن غنم: اعلم أيها الأمير أن هاتين القلعتين اللتين ذكرتهما حصينتان منيعتان إحداهما من الجانب الشرقي والأخرى من الجانب الغربي وهما كانتا تحت ولايتي وأن صاحبهما كان من قبلي وهو أحد بني عمّي واسمه أشفكياص بن مارية كُنِّيَ باسم أمه وكنت قد زوّجته ابنتي فأخذت في صداقها الحصن الشرقي من الفرات وقد رأيت أنك تأمرني بالتقدّم على هذين الحصنين حتى أحلَّ في القلعة الغربية فإن فتحتها كانت الأخرى في قبضتنا. فقال له: لله درّك يا

عبد الله لقد نصحت الإسلام وأهله فجزاك الله خيرًا أحسن ما جازى به أولياءه، سِر على بركة الله وعونه فإذا استقرَّ بك المكان ثلاثة أيام أنفذت إليك شعيبًا وعبد الله ومَن معهما من المسلمين، وبعد الفتح إن شاء الله تنزلون إلينا. فقال يوقنا: استعنّا بالله وتوكلنا عليه، ثم إنه أخذ معه من صناديد جماعته مائة ولم يأخذوا معهم ثقلاً سوى جنيب من الخيل واحد وسار من أول الليل وترك عياض بن غنم علي الباسل فجدّوا السير بقية ليلتهم فلما كان قبل الفجر أشرفوا على الخانوقة فوجدوا فيها ألفًا من الأرمن وهم بالعدّة الكاملة، فلما أشرف عليهم يوقنا ومَن معه وهم يتحدّثون بلغة الروم أنِسُوا بهم وسألوهم عن خبرهم فقالوا: هذا البطريق المعظّم يوقنا صاحب حلب قد هرب من العرب وأقبل لنصرة صاحب هذه القلعة، فلما سمعوا بذلك فرحوا وصقعوا بين يدي يوقا وأرسل المقدَّم عليهم خيّالاً وأمره بالسرعة ليبشّر أشفكياص بقدوم يوقنا إليه وهروبه من العرب وأنه يستأذن عليه فمضى الرجل وأخبر أشفكياص فأطرق إلى الأرض، ثم قال لوزيره: وحقّ المسيح والإنجيل ما جاء إلا لينصب علينا ويملك هاتين القلعتين منّا كما فعل بطرابلس وصور وما أنا بالذي يأمن، فما ترى أيها الوزير؟

قال ابن إسحٰق: ولقد بلغني أن هذا الوزير كان من أهل القراءة، وكان أديبًا عاقلاً لبيبًا ممّن قرأ الكتب السالفة والأخبار الماضية وقرأ ملاحم دانيال، وكان منذ بعث النبي ﷺ يسكن في دير مترهبًا وهو ما بين السر وحلب فتعبّد فيه زمانًا طويلاً حتى شاع ذكره بين أهل دين النصرانية، ثم بعد ذلك أخبر الروم بأنه قد وقع بحافر من حوافر حمار المسيح فكانت الروم ينذرون له النذور والصدقات وشاع خبره وسَمَا ذِكره فسُمِّي ذلك الدير بدير حافر وأنه في بعض الأيام خرج من ديره إلى مزرعة له هناك، وإذا برجل من البدو قد عبر وهو راكب على ناقة وكان الحرّ قد اشتدّ فأوى إلى ظلّ حائط الدير وأناخ ناقته وعقلها ونام والراهب ينظر إليه، فلما غرق في نومه أتت حيّة من مزرعة الراهب وفي فمها باقة نرجس فجعلت تروّح عليه حتى استفاق وذلك الراهب ينظر إليه، فلما أفاق أتى إليه وسلّم عليه، وقال له: من أيّ الناس أنت؟ قال: من العرب، قال الراهب: قد علمت ذلك، وإنما أسألك عن دينك، قال: ديني الإسلام الذي كان عليه أنبياء الله كلهم عليهم أفضل الصلاة والسلام. فقال: لعلك على دين هذا الرجل الذي في أرض الحجاز؟ قال: نعم.

قال ابن إسحٰق: وكان البدوي ورقة بن الصامت الهذلي ابن أُخت رواحة الأنصاري صاحب رسول الله ﷺ وكان حضر غزوة تبوك وحضر يوم السلاسل، وكان أديبًا لبيبًا شاعرًا لا يتكلم إلا بسجع وكان أبو عبيدة قد وجّهه لمّا كانوا في حصار قلعة حلب إلى صاحب الرقة يدعوه إلى الإسلام. فقال الراهب وكان اسمه شوجوان بن كربان: قد بلغني

أنكم تقولون ما خلق الله خلقًا أعظم ولا أكرم ولا أرحم من محمد وتركتم آدم ونوحًا وإبراهيم وإسحٰق ويعقوب والأسباط وموسى وداود وسليمان وعيسى فأُريد أن تبيّن لي حقيقة ذلك، فقال ورقة بن الصامت: اسمع ما أقول ولا تتبع الفضول: أما علمت أن عالم الملائكة اجتمعوا بالبيت المعمور ووقع بينهم الجدل في تصاريف الأمور وافتخر الكروبيون على الروحانيين والمسبّحون على المقرّبين فزاحمهم إبليس بدقة عبادته، ومشيد مباني زهادته. فقال: أنا المخلوق من ضرام النار البارع في خدمة العزيز الجبّار أين أنتم من وقوفي على أقدام الاهتمام مائة ألف عام وتعبّدي في السمٰوات وأكنافها وبروجها وأعرافها وأوساطها وأطرافها وجبال الأرض وأكنافها، فعارضه جبريل بالامتحان والابتداء، وصرفه عن حجّة الافتخار والادّعاء، وقال له: ما أنت في الافتخار إلا في الحضيض المحضوض إن لله نبيًّا في عالم الملكوت محجوبًا قد طال اشتياقنا إليها ووردنا الخبر فيما يريد وجعل نهاية عبادتنا الصلاة عليه فأيقن من المفاخر بالنزول ومن إطلاق شمس ادّعائه بالأفول، وقال: ربّ فهل إلى لقائه من سبيل وإلى الوصول إليه من دليل؟ فقال جبريل: اقطع مسافة الأمنية وخُض بحر الاعتراف بعزّ الربوبية وثق بحبال العزّ المكين فإنك لخدمة مَن كوّن من نور التكوين عليه منقوش بقلم التمكين ﴿**إنك لمن المرسلين**﴾ [يٓس: ٣] فخلع إبليس لباس العمل واستعمل أجنحة الأمل وألقى قِلادة الادّعاء ونكس تاج الكبرياء واستعدّ لقوادم الطلب وداخله من قول جبريل غاية العجب، وجعل همّة عزمه تحصيل السبب وحذر من سوء المنقلب.

وقال: يا للعجب أنا مع صدق طويتي في المعاملة والإنابة، وخلوص سريرتي في طلب الزيادة هل يكون أحد مثلي أو يبلغ درجة فِعلي وكيف ذلك وإذا رفعت رأسي بالتسبيح أُعاين ما حول العرش، وإذا سجدت لعظمة الله أنظر ما تحت العرش فنُودِيَ: أتفتخر علينا بجواهر طاعتك وتوفّر أسباب بضاعتك ونحن وفّقناك لطاعتنا ومعاملتنا وأريناك أطراف أرضنا وسمٰواتنا مَن قوّاك على خدمتي مَن جعلك معلّمًا لملائكتي؟ وعزّتي وجلالي لولا أحمد ما خلقت ملكًا، ولا أجريت فلكًا، ولا أَنَرْتُ قمرًا، ولا أمضيت قدرًا، ولا أسرجت شمسًا، ولا أقررت عرشًا، ولا بسطت فرشًا، ولا خلقت جنة ولا نارًا، ولا فجّرت أنهارًا ولا بحارًا، ولا جعلت النجوم طوالع ولا غوارب، ولا الدنيا مشارق ولا مغارب، ولكن طِرْ بأجنحة عجّل في طلب الإيثار حتى يُميتك الله بين الجنة والنار، قال: فسار بفلك طلب النجوم على قدم مطايا التفريد حتى اخترق ما بين العرش والكرسي واختبر كل جنّيّ وأنسيّ، وكلما مرّ بمغنٍّ من المغاني رأى معنى من المعاني، وذلك أنه لمّا رأى أصنافًا من الملائكة على اختلاف الأحوال من الاجتهاد والطاعة والأعمال وجميع عباد الله الشاكرة موقوفة على خدمة سيّد الدنيا والآخرة، وعلم معنى عبادتهم، وتحقق آثار إرادتهم زاد به الإعجاب فاستعظم وجود ذلك في عالم

التراب، وقال: أي ربِّ، أين أجده وأُناديه، أم كيف التوصّل إلى سبيل ناديه؟ فقال: اطلب نهر السلسبيل فهناك تجد إلى نظره سبيل، فسار تحت مشيئة القدر إلى أن وصل إلى النهر فرأى ضوءًا يلوح وأسراره بصفات ما فيه تبوح، ودار به المقرّبون والروحانيون والمسبّحون والصافّون والراكعون والساجدون وقطب عبادتهم دائرة على الاستغفار لأنه صاحب الافتخار وكلما سبّحوا وسجدوا يستغفرون للذين آمنوا به. قال: فانتظم في سلكهم وسلك سبيل مسلكهم لتفوز بالنظر في جملة مَن حضر وإذا بنور أحمد قد تعلّى ومن سرادقات قصره تجلى فسجدت الملائكة له بمعنى عظيم، وقالوا: **﴿إنك لعلى خلق عظيم﴾** [القلم: ٤] فردّ لمّا غشيه النور الوارد ونطق لسان جسده بما في جسده من ذا الذي ملأ الأكوان بعبادته وافتخر على الملائكة بخالص مجاهدته، وإذا بالنداء: معاشر الملائكة دعوا النظر إلى المغاني، وحقّقوا النظر إلى الفضائل والمعاني فأحدقت الملائكة نحو القصر بالأعين، وإذا في جوانبه أربعة أعين، فقالوا: يا ربّ العزّة قد تركنا المغنى فما حقيقة هذا المعنى؟ قال: هذه العيون عيون أنهاره، وسيوف أنصاره ومعالم سُنّته بحساب نسبته، وأبواب علمه ومقرّ حكمه وزينة دينه وأعلام يقينه وأول عين هي عين التصديق والعين الثانية هي عين العدل والتحقيق، والعين الثالثة هي عين النور والحياء والتوفيق، والعين الرابعة عين العلم والتشريق. فعين التصديق لصدِّيقه، وعين العدل لفاروقه، وعين الحياء لصهره ورفيقه، وعين العلم لأخيه وشقيقه فانظروهم بعين التبجيل والوقار وأكثروا لهم الدعاء والاستغفار. فأنا الذي قلت فيهم: **﴿الصابرين والصادقين والقانتين والمستغفرين بالأسحار﴾** [آل عمران: ١٧].

فلما علم شوجوان كلام ورقة بن الصامت لم يرد عليه جوابًا ولا أبدى له خطابًا غير أنه عرف الحق فكتمه، ولم يزل شوجوان في الدير حتى أخذ المسلمون حلب فانتقل إلى أشفكياص فاستوزره. قال فلما استشاره في أمر يوقنا قال له: اعلم أيها الملك أن يوقنا من الملوك وأبناء الملوك، وقد قرأ الكتب وأخوه كان أفضل منه في الدين وقد صحب هؤلاء العرب واطّلع على سرائرهم ونظر إلى دينهم، وربما أنه علم عند النظر أن دين المسيح أفضل من دين هؤلاء العرب وقد هرب من أيديهم إليك. فإن كان الرجل قد أتى بغير حمل ولا ثقل فاعلم أنه هارب من القوم إليك فيجب عليك أن تخرج إلى لقائه وتعظّم شأنه وترفع مكانه، فلما سمع أشفكياص ذلك خرج بعسكره للقائه وبقي الوزير في القلعة. قال: فسمعت ابنة يوقنا أن أباها قد أتى فنزلت تسبح في سرب لها تحت الأرض مع جواريها وخدمها وقصدت القلعة الثانية فوجدت أشفكياص قد خرج للقاء أبيها والوزير شوجوان في مرتبة وزارته فقام إليها وصقع بين يديها وخدمها فجلست تتحدّث معه. فقال لها: خذي على نفسك الحذر، فإن الملك قد خرج وأخاف أن يبطش هذا اللعين بأبيك واعلمي أنه ما تبع هؤلاء العرب إلا وقد

تحقق عنده أن دينهم الحق وقولهم الصدق، فقالت له الجارية: فما تقول أنت في دين القوم؟ قال: هو الله الحق، والدين الصدق، وإني كنت كاتم هذا السرّ، فلما سمعت ذلك تبسمت وقالت: والله لقد رضيت لنفسي ما رضيه أبي، ولكن أنت اكتم هذا عني.

قال الواقدي: وإن أشفكياص لقي عبد الله يوقنا وسلّم بعضهما على بعض وترجّل كلٌّ منهما لصاحبه وشكا كل واحد منهما ما يجده من الشوق. ثم ركبا وسارا إلى القلعة فنزل يوقنا فيها ومَن معه وأتت ابنته وسلّمت عليه وبكت وبكى، وأما أشفكياص، فإنه معوِّل على القبض على يوقنا، وقال له: أيها الملك كيف رأيت هؤلاء العرب في دينهم وعدلهم وسياستهم في ملكهم؟ فقال يوقنا: إن القوم يزعمون أنهم لا يريدون ملك الدنيا وإنما يريدون ملك الآخرة ومع هذا قد ملكوا الشام وأرض مصر وما تغيّروا عن طِباعهم وأنفسهم الدنيئة وأول الأمر وآخره أنهم أظهروا الناموس حتى ملكوا البلاد، ولما كشفت أسرارهم وتحققت أخبارهم ورأيت بيان ما هم عليه هربت منهم وبعدت عنهم بعد أن ظننت أنهم على الحق ونصحت لهم وملكتهم طرابلس وصور وغيرهما وأنطاكية، وقد علمت أن المسيح قد غضب عليَّ إذا تركت دينه وما أمر به من القربان وما أوصى به يوحنا المعمدان، ولست أظن أن لي تطهيرًا من دون الذنوب ومساوي العيوب. ثم إنه أظهر البكاء والتوجّع والشكوى. فلما عاين أشفكياص ما فعله وسمع كلامه انطلى عليه، وقال له: أيها الملك إذا كنت قد ندمت على قبيح فِعالك ورجعت إلى الدين الصحيح بقلبك فأبشر بقبول التوبة وزوال الحوبة، واعلم أن باب التوبة مفتوح وعلم القبول لأهل الندامة يلوح، وقد قرب عيد الصليب وبقي له عشرون يومًا وهذا مرقس الراهب بدير السكرة، وهو من أعظم أهل دين النصرانية فسِرْ إليه ليغمسك في ماء المعمودية فتخرج نقيًا من الذنوب. فقال يوقنا: أفعل ذلك، ولكن مَن يضمن أن يعيش فعندها قامت ابنته وصعقت، وقالت: والله يا أبت ما أدعك تمضي حتى أتملّى منك بالنظر وقبّلت يد أشفيكاص، وقالت: يا سيدي أُريد أن تأذن لأبي أن يسير معي إلى حصني، فقال: هو الليلة عندي وليلة غد يكون عندك فعلم يوقنا أنه لا بدّ من الأكل معه ولا بدّ في سماطه من لحم خنزير ولا بدّ من الخمر، فقال: أيها السيد أينما كنت فأنا في نعمتك وخيرك. فقال شوجوان لأشفيكاص: اعلم أيها الملك أن الملك يوقنا كثير الشوق إلى ابنته ولهما زمان ما رأيا بعضهما وما يخفى عليك ذلك، والصواب أن يكون الليلة عندها وليلة غد يكون عندك، فقال: افعلوا ذلك. قال فأخذت أباها ونزلت في السرب إلى القلعة الشرقية وعبر أصحابه إليه في المركب، فلما جنَّ الليل قالت الجارية لأبيها: يا أبت كيف تركت العرب بعد صحبتك لهم ونصحك لدينهم، أرأيت أن القوم على باطل وأن دينك الأول أفضل منه فرجعت إليه؟

فقال يوقنا: أي بُنيّة والله ما أتيت إليك إلا من شفقتي عليك وقد افترقنا في الدنيا وأخاف أن يكون الفراق في الآخرة أيضًا، وقد علمت وتيقنت أن هذين الحصنين نصب أعين المسلمين، وأنت تعلمين أن قلعتي كانت أمنع من كل قلعة بالشام، وقد ملكتها العرب ونزعت ملوكها عن أرضهم وبلادهم فاتقي الله يا بُنيّة في نفسك واعملي لخلاص نفسك من الزبانية والجحيم الحامية والخلود في الهاوية وارجعي إلى الله من قريب واكفري بدين الصليب، فوالله ما ثَمَّ دين أفضل من دين الإسلام، وعليه كان المسيح والأنبياء عليهم الصلاة والسلام، وإنما غرّر بالنصارى وحيّدهم عن طريق الحق رجل يقال له بولص كان من اليهود أضلّهم عن الطريق المستقيم وشرع لهم الضلال القديم حتى كفروا بما جاء به الخليل إبراهيم وهؤلاء العرب قد اتبعوا ما أمر الله به وأمر نبيّه محمد ﷺ ولديهم القول الراجح والفضل الصالح وأنهم طلّقوا الدنيا ثلاثًا وطلبوا بعد الاجتماع شتاتًا فارضي لنفسك ما رضي أبوك لنفسه. فقالت: والله ما قلت شيئًا إلا وأنا به عارفة وقد رضيت لنفسي ما رضيت لنفسك، وأنا أشهد أن لا إلٰه إلا الله وأشهد أن محمدًا رسول الله. قال ففرح بإسلامها. ثم قال: أي بُنيّة ما الذي نصنع في أمر هذا الكافر اللعين الفاجر؟ قالت: والله لقد قال لي الوزير شرجوان إنه مُصِرٌّ على قبضك. وقال: إنك ما أردت إلا لتنصب عليه. فقال يوقنا: إذا كان الأمر كذلك فاصنعي لنا سِماطًا وسِيري إليه واستدعيه هو وخواصّه فأنا آمر أصحابي أن يقبضوا عليهم وعليه إذا اشتغلوا بالطعام والشراب، فإذا فعلنا ذلك كانت القلعتان في قبضتنا ونسلّمهم إلى أصحاب نبيّنا. ثم إني أُريهم أننا هربنا منهم إلى أن نحصل في قرقيسيا فلعل الله أن يفتحها على أيدينا وهذا هو الرأي.

قال الواقدي: فلما ذهب الليل وأتى النهار أمرت جماعتها بصنع الطعام والحلويات وغيرها، فلما صنعوا ذلك وصفّوا الموائد وعليها من كل حارٍّ وبارد نزلت في السرب وقصدت أشفكياص في قلعته ووقفت بين يديه وصعقت له فقام لها إعظامًا وقال لها: كيف الملك يوقنا وأحواله؟ فقالت: أيها الملك إنه ما نام الليل، وهو متفكّر في القيامة وأحوالها والجحيم ومآلها، ولقد أراد اليوم المسير إلى مدينة قرقيسيا، وأن يقصد الراهب المعظّم قرياقوس وقد أخّرته إلى أن تحضروا معه على السماط وتمضي أنت وهو إلى جرجيس حتى يرجع إلى دينه وقد جئت إليك لتحضر سماطي وضيافتي أنت وأصحابك وخواصّك وتأكلوا من طعامي وتشربوا من شرابي ومدامي والكلّ من فضلك وإنعامك وإحسانك وتجبر خاطري. قال فأبى أشفكياص مما دخل على قلبه من يوقنا إذ لم يبت عنده وخاف أن يقبضه، فقال له الوزير شرجوان: أيها الملك ليس هذا برأي، وإذا امتنعت نفر قلبه منك وما يُدريك أيها الملك أنه ندم على ما سلف منه وقد أقرَّ بالذنب واعترف وأنك إذا أكلت على سماط ابنته ودعوتهم أنت إلى سماطك فافعل بعد ذلك فيهم ما شئت.

قال: وكان هذا الكلام من شرجوان لأشفكياص سرًا من ابنة يوقنا فقام عند ذلك وقال لوزيره: احفظ مكاني حتى أعود إليك، ولم يكن له ولد يرثه في الملك. قال فأخذ معه خواصّه من قومه وحجّابه وبني عمّه، ونزل في السرب والجارية أمامهم وجواريها بين يديه بالشمع، وقد علم الوزير أنه ما بقي يعود إليه بعدها، فلما حصل أشفكياص في قلعة زلوبيا وثب للقائه يوقنا وأصحابه وكان قد أوصاهم بما يفعلونه، فلما وقعت العين على العين، أقبل يوقنا إليه ليعانقه وضمّه إلى صدره وقبض عليه قبضة الأسد على فريسته، وفعل أصحابه كما فعل، وضربوا في الحال رقابهم، ولم ينتطح فيها شاتان، ولم يعلم بما فعلوه أحد، ثم نزلوا من فورهم من السرب ومضوا إلى زبا، فوجدوا شرجوان ينتظرهم، فلما رآهم تبسم وأعلن بكلمة التوحيد وقال: لله درّك يا عبد الله فقد شرح الله صدرك للإيمان، وأرضيت الملك الديّان، فجزاه يوقنا خيرًا، وملك قلعة أشفكياص وجعل يدعو بالرجال ويعرض عليهم الإسلام، فمَن أسلم تركه وضمن بعضهم بعضًا حتى لا ينهزم أحد منهم ويروح إلى صاحب قرقيسيا ويخبره بما صنع يوقنا وبعد أيام أشرف عليهم عبد الله بن غسان وسهيل بن عديّ في ألفي فارس، فأراهم يوقنا التمنّع والإعراض وناشبهم القتال خمسة أيام، وقد عرفوا أن ذلك منه حيلة وأرسل يعلمهم في السرّ أن القلعتين في يده، والليلة أُسلّمهما إليكم وأظهر الهرب إلى قرقيسا فلعل الله أن يفتحها على يدي، فلما كان من الليل أمر شرجوان أن يسلّمهما إليهم، ثم إن المسلمين أعلنوا بالتهليل والتكبير ووقع الصائح من كل جانب وشهروا القواضب، وكان في يومه هذا قد وصل الرسول من صاحب قرقيسيا بالهدايا والتحف إلى يوقنا يهنئه بالسلامة والخلاص من العرب والرجوع إلى دينه، فقبل يوقنا الهدية وأنزل الرسول في خيام أصحابه وكانوا قد ضربوا لهم وطافًا في الجانب الشرقي، فلما صار أصحابه المسلمين في قلعة زبا أظهر يوقنا الفزع والهلع، وقال: وحق ديني ما هؤلاء العرب إلا شياطين، ثم إنه أخذ بعض ثقل ابنته في الليل وساروا يطلبون قرقيسيا ففي ذلك قال طريف أحد بني ربيعة بن مالك وهو سائر صحبة المسلمين الصحابة رضي الله عنهم هذه الأبيات:

أتينا إلى أرض الفرات مع الزبا ... ونحن نروم الروم من كل فاجرِ
وقد أمّنا ليث الحروب وسهمها ... همام شجاع قاتل كل كافر
وأعني بيوقنا عليه تحية ... يناصب للأعدا حيلة غادر
وقاتل أبناء الصليب وحزبهم ... بحدّ حسام ماضي الصفح باتر
وصاح على الملعون قوم زلوبيا ... فأوردوه في الحال سكنى المقابر
وملكنا في القلعتين كلاهما ... بسعد وإقبال ونصرة قادر
سيحظى غداة البحث يوم معاده ... بروح وريحان وحور قواصر

حدّثنا سيف بن عمرو التميمي، قال: حدّثنا الأنصاري عن المهلب عن طلحة عن محمد بن أبي الدقيلي بن ميسور قال: لمّا كان من أمر يوقنا وأشفكياص ما ذكرناه وأرى من نفسه الهرب، سار مع ابنته وأصحابه والرسول معهم، يرومون قرقيسيا وهم منهزمون فوصلوها مساء ودخلوا معه على شهرياض وأعلموه بأخذ القلعتين، وكيف فعل معهم العرب، فأيقن بهلاكه وأخذ بلاده. فقال له يوقنا: أيها السيد لا تخف فنحن نقاتل بين يديك حتى نموت، وإن نزلت العرب علينا يريدون حصارنا، لأُرِيَنّك العجب بقتالهم، ولن يصلوا إليك بسوء، فوثق بقوله وخلع عليه وطيّب قلبه، وأنزله بدار جواره وبعث شهرياض من ليلته إلى خاله وهو يومئذ ملك أرض ربيعة برأس العين فأرسل يستنصر به على العرب ويعلمه أن العرب قد أخذوا قلعتي زبا وزلوبيا، وأن الرجل المعظّم يوقنا ملك حلب قد هرب منهم بعد خدمته لهم وهو عندي، فسار الرجل الرسول إلى دير مريع ومنه إلى المجدل إلى رأس العين، فوجد رسول شهرياض الملك بأعظم تحصين قد أعد آلة الحصار وزاد في عرض خندقها، ونصب خيامه ومضاربه على مغاربها وعلى طريق النقب، وهو معوّل على لقاء عياض بن غنم ومَن معه. وقد جمع عنده سائر عرب الجزيرة من بني تغلب وغيرهم، وقد صنع لهم سماطًا واستدعى بأمرائهم وهم نوفل بن مازن والفريد بن تغلب بن عاصم والأشجع بن وائل وميسرة بن وائل وميسرة بن عاصم وحزام بن عبد الله وقارب بن الأصم، وقال لهم:

يا فتيان العرب لم نزل نرعى صغيركم وكبيركم وحريمكم وعبيدكم، وقد أبحناكم أرضنا ترعون في حزنها وسهلها ونرضى منكم بما تؤدّون إلينا من أوباركم، فأنتم آمنون، وهؤلاء بنو عمّكم قد ملكوا الشام ومعاقله وأرض مصر وما معها ولم يكفهم ذلك، حتى أقبلوا إلينا يريدون أن يزاحمونا على ملكنا ويخرجونا من أرضنا، وقد علمتم أن القوم إن ظفروا بكم لا يبقون عليكم ولا يرضون منكم، إلا أن تدخلوا في دينهم أو تقاتلوا عن دينكم وأهلكم وأموالكم فكونوا يدًا واحدة لا ينفصل منكم شيء كما كان جبلة بن الأيهم وآل غسان مع الملك هرقل، فإن نحن نصرنا على القوم فالأرض لنا ولكم على السواء، وإن كانت الأخرى فنموت على دين واحد ويبقى ذكرنا إلى الأبد. قال: فأجابوه إلى ذلك وتحالفوا وتعاقدوا أن يموتوا على سيف واحد، فأعطاهم الأموال والعدد والسلاح، وساروا معه. قال: ثم إن رسول صاحب قرقيسيا قَدِمَ عليه، وأعطاه كتاب ابن أُخته شهرياض، فلما قرأه وفهم ما فيه، وأنه يطلب منه النجدة أرسل إليه يوريك الأرمني وهو الذي بنى تل المؤزر والسنّ وتل عرب وعابدين والسوائد فأرسله ومعه أربعة آلاف، فلما قَدِمَ الأرمني ومعه أربعة آلاف فارس إلى قرقيسيا، وكانوا قد قطعوا جسرهم الذي كان على الخابور وكان الجسر على أعمدة من حديد وعليها سلاسل وعلى السلاسل أرماح،

وكذلك أيضًا من ناحية الفرات وحفروا حول مدائنهم خندقًا عميقًا عريضًا وحصّنوا مدائنهم غاية التحصين وأقاموا ينتظرون عسكر الصحابة رضي الله عنهم.

ذكر فتح قرقيسيا

ولمّا ملك عبد الله بن غسان القلعة الغربية حين سلمها إليه شرجون بأمر يوقنا وترك يوقنا العرب وهرب إلى قرقيسيا دلّهم الراهب شرجون على الطريق نحو السرب إلى القلعة الشرقية فملكوها واحتووا على ما كان لأشفكياص فيها، وبعثوا إلى عياض بن غنم وأرسلوا يعلّمونه في السرّ بما صنع يوقنا، فدعا له المسلمون وشكروه، وأرسل يقول لعبد الله بن غسان ولسهل بن عدي: احتفظا على ما في القعلة الثانية ولا تأخذا منها قيمة الدرهم الواحد حتى يسلمه يوقنا لبنته واتركا في القلعة مَن يحفظها واطلبا قرقيسيا وأنزلا عليها والسلام. قال فلما وصل الكتاب إليهما، فعلا ما أمرهما به عياض ووليا على القلعة الغربية الأحوص بن عامر ومعه مائة فارس، وعلى الشرقية زياد بن الأسود في مائة فارس ومضى عبد الله بن سهل إلى قرقيسيا، فحال بينهم وبين الفرات، فدلّهم بعض سكان تلك الأرض على المخاضة، فعبروا في الليل، وأصبحوا على أرض واحدة مع أعداء الله، وأرسلوا إلى ماجن والمحولة والبديل والصور وبعثوا إليهم الأمان وأقرّوهم في منازلهم وقالوا: إن كانت لنا فقد أحسنّا فيكم الصنيع، وإن كانت علينا انصرفنا عنكم مشكورين على عدلنا فيكم. قال: فأجاب القوم إلى ذلك وباعوا عليهم الميرة.

قال: حدّثنا هلال بن عاصم عن يحيىٰ بن جبير عن سوار بن زيد قال: لمّا بعث عبد الله بن غسان إلى أهل تلك القرى وطيّب قلوبهم، بعث بعد أيام سهل بن إساف التميمي وكان من الصحابة الأول ومعه مائة من المسلمين ليأتوهم بالطعام والعلوفة من ناحية ماسكين فسار سهل ومَن معه، فلما وصلوا إلى السمسانية شنّ عليها الغارة واستاق أموالها فخرج عليه نوفل بن مازن في خمسمائة فارس، واستخلصوا منهم ما أخذوه ووقع بينهم القتال، فحملوا بأسرار صافية، ونيّات سامية، وأفعال نامية، وقلوب تنزّهت بالإيمان، وألسنة تنطق بذكر الرحمٰن، ولم يزالوا في قتال إلى أن قتل من المسلمين ثلاثون، وانهزم سبعة وأربعون، وأسر سبعة وعشرون من جملتهم سهل بن إساف بن عديّ وحدّثوا أصحابهم بما كان من المتنصرة ومنهم، فعظم ذلك عليهم.

قال الراوي: حدّثني نوفل بن عامر، عن سالف بن عاصم، عن سالم عن الدوسي قال: كنت مع سهل بن إساف حين قَدِمنا على السمسانية وخرج علينا نوفل بن مازن، فقال: والله لقد قاتلنا قتالاً شديدًا ما شهدنا مثله حتى كان من أمر الهزيمة ما كان. قال سالم بن عبد الله: لمّا أسرهم نوفل بن مازن شدّهم في الحبال وقرن بعضهم إلى بعض

ورجلهم عن خيولهم وسار بهم يطلب رأس العين، فأخبروه أن الملك شهرياض على مرج الطير من جانب النقب فقصد إليه ومعه من بني عمّه أربعون رجلاً وساقوا أصحاب رسول الله إلى أن أوقفوهم بين يديه وحدّثوه بأمرهم، فأمر بضرب رِقابهم وكان آخر مَن بقي أميرهم سهل بن إساف وكان أحسن الرجال وجهًا، قال فشفع فيه بعض البطارقة، فوهبه له وكان ذلك البطريق اسمه توتا بن لورك وهو صاحب كفر توتا فأخذه وأتى به إلى قصره في كفر توتا. قال فنظرت إليه ابنته، فسألت أباها عنه. فقال: أي بُنيّة إن المسيح قد طرح رحمة هذا الشاب في قلبي فسألت الملك فيه، فوهبه لي فخذيه إليك، فأخذته وأدخلته في بستان. قال فلما كان بعض الأيام دخلت البستان، فنظرت إلى سهل بن إساف وهو يقرأ ﴿**محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفّار رحماء بينهم تراهم رُكّعًا سُجّدًا يبتغون فضلاً من الله ورضوانًا سيماهم في وجوههم من أثر السجود**﴾ [الفتح: ٢٩]، فلما سمعت قراءته أخذت بمجامع قلبها. فقالت: ما أفصح هذا الكلام وأطيبه وألينه للأفهام. فقال لها: هذا كلام الملك العلاّم الذي أنزله على سيد الأنام. فقالت الجارية: أما محمد فهو نبيّكم لا محالة فيه فمَن هؤلاء الذين قال فيهم: ﴿**والذين معه**﴾؟ قال: هو صاحبه ووزيره أبو بكر الصدّيق رضي الله عنهم. ﴿**أشدّاء على الكفّار**﴾ هو صاحب هذه الفتوح ومجهّز هذه الجيوش عمر بن الخطاب ﴿**رحماء بينهم**﴾ هو كاتبه وصهره عثمان بن عفان ﴿**تراهم رُكّعًا سُجّدًا**﴾ هو أخوه وابن عمّه وصاحب سيفه عليّ بن أبي طالب. فقالت له الجارية، وكان اسمها أبريتا، وكانت تكتب بقلم التوراة والإنجيل وتتكلم بكلام العرب، وكثيرًا ما كانت تسأل علماء دينهم عن رسول الله ﷺ فلا يعطيها أحد منهم خبرًا حتى وقع بيدها سهل بن إساف. فقالت: مَن هؤلاء الذين ذكرت؟ قال: هم الذين قالوا وصدقوا وقاتلوا فحقّقوا وركبوا نجب السوابق، فوفّقوا وساروا في بادية الطلب فلم يرفقوا، وكلما لاح لهم علم الأفاضل تشوّقوا ونُودوا في سرائرهم رجال صدقوا، ثم أنشد يقول:

رجال من الأحباب تاهت نفوسهم ... ينادونه خوفًا ويدعونه قصدا
وقاموا بليل والظلام مغلس ... إلى منزل الأحباب فاستعملوا الكدا
يحثون حثّ الشوق نحو مليكهم ... وقصدهم الفردوس كي يرزقوا الخلدا
أولئك قوم في العبادة أخلصوا ... فتاهوا به شوقًا وماتوا به وجدا

فقالت له الجارية: لقد سمعت من نيسا راهب دير قنا أن الله ينشر دعوة نبيكم في المشرق والمغرب ويملك المشرق والمغرب، وأنهم يفضّلونه على الآباء والأمهات والأخوة والأخوات وأنهم بعد موته يسيرون إليه، وإذ ذُكِرَ يُكثِرون الصلاة عليه. فقال لها سهل بن إساف: أما علمت أنه كان في حياته يدعو لهم ويستغفر لهم ولمَن دخل في دينه

وأقرَّ به، ولقد كانت زوجته عائشة رضي الله عنها تقول: كانت ليلتي من رسول الله ﷺ، فلما مضى الثلث الأوَّل منها والفلك يدور بالنجوم، والسماء تزهو بالكواكب، والمردة تحرق بالشهب الثواقب، وسرادق الله قد مدَّ جناحه وأحال الظلام بادلهامه، فبينما أنا في وادي الوتين ساكنة وبجانبي أفضل مرسل وأكرم مَن ابتهل وتوسّل، وإذا به قد قبضني وبكلامه الشريف أيقظني وهو يقول: أيتها العين المكتحلة بعين السبات الغافلة عن موارد الهبات، هُبّي من منامك، واعملي ليوم حمامك، فقد قام أُولو الألباب، ومرغوا خدودهم على الأعتاب وفي التراب. قالت: فقمت معه للخدمة، ووقفنا نشفع للأمة إلى أن برق بارق الصباح، وانفلق فلق الأصباح، فقال هلمّي للصلاة والاستغفار، وطلب العفو من العزيز الغفّار. قالت: فوافقته على ما أراد، وبلغنا القصد والمراد، فلما سكت من تسبيحه، وفاح طيب ريحه رأيته وهو يتنفس ويقرع بسبّابته جوهر سنّه. فقلت: يا سيد الوجود وطيب الآباء والجدود إن العرب لا تقرع سنّها إلاّ لأمر مهم أو لشأن مُلِمّ. قال: تذكرت حال العصاة من أُمتي، والمخلصين في محبتي، وذكرت قوله تعالى: **﴿لأملأنَّ جهنم من الجنة والناس أجمعين﴾** [هود: ١١٩] فقلت يا رسول الله: أما أنزل عليك قوله تعالى: **﴿ليغفر لك الله ما تقدّم من ذنبك وما تأخر﴾** [الفتح: ٢] فوالله ليغفرنّ لك ولأمتك، لقوله: **﴿ولسوف يعطيك ربك فترضى﴾** [الضحى: ٥] أنت الذي خلقت السمٰوات والأرضين والعرش والكرسي من أنوارك، وأنت الذي ربط براق القرب ببابك، أنت الذي اخترقت معالم الملكوت وحملت إلى حضرة القرب والجبروت، وأنت الذي أُوتيت ليلة القدر، وأنت صاحب البطحاء والحرم، ولانت لك الأحجار، وسلّمت عليك الأشجار وانشقّ لك القمر ليلة الإبدار، وأنزل عليك **﴿يا أيها النبيّ جاهد الكفار﴾** [التوبة: ٧٣] أنت صاحب عرفات ومنى، والمخصوص بالشكر والثنا، وسوف يبلغك الله من أمتك المنى، أما وعدك الله المقام المحمود واللواء المعقود، والحوض المورود، والكرم والجود، وسرادق السعود على أمتك ممدود وسحاب التوفيق عليهم يجود، ولواء أصحابك بجواهر قبولك منضود، وعليه مرقوم عسى أن يبعثك ربك مقامًا محمودًا فكيف تخاف على أمتك نزول البأس، وقد فضلوا على سائر الناس بقوله تعالى: **﴿كنتم خير أمة أُخرِجَت للناس﴾** [آل عمران: ١١٠] يا سيدي أنت تعلم أن أباك آدم تشفع بك فتاب الله عليه، ونوح سأل بك فنجّاه الله من الغرق، وإبراهيم مع علوِّ قدره بك أنجاه الله من النار والحرق، وموسى مع تقرّبه ومكانته بك سأل ربه أن يشرح صدره وييسّر أمره.

قال الراوي: وما ذكر سهل للجارية هذه المناقب إلا لأن ترجع إلى دين الإسلام.
قال فلما سمعت كلامه قالت: فما جزاء مَن يدخل في دينه ويقول بقوله؟ فقال: يخرج من ذنوبه كيوم ولدته أُمه وتُمحى عنه سيئاته ويكون جزاؤه الرضوان في الجنان، ثم قرأ قوله تعالى: **﴿ومَن يعمل سوءًا أو يظلم نفسه ثم يستغفر الله يجد الله غفورًا رحيمًا﴾**

[النساء: ١١٠]، فلما سمعت الجارية ما تكلم به سهل وقع بقلبها وصغت إليه بلبّها وقالت: أنا أشهد أن لا إلٰه إلا الله وحده لا شريك له وأن محمدًا عبده ورسوله ففرح سهل بإسلامها. فقالت له: اكتم أمرك إلى الليل حتى أُخلّصك وأسير معك إلى عسكر الإسلام.

قال الراوي: حدّثنا صاعد بن عدي النميري عن أبيه أنه سمعه وهو يحدّث الناس بالمدينة وقد أتى عمر بن الخطاب رضي الله عنه بأموال رأس العين وخزائن الملك شهرياض. قال: وإن الجارية مضت واستدعت بجواريها، وأخذت من مال أبيها ألف دينار، فلما جنَّ الليل فتحت باب السرِّ بعدما تجسست فرأت كل مَن في قصر أبيها نيامًا فأتت إلى سهل وحلّته من وثاقه وقالت له: قم على اسم الله وبركة نبيّه فقام سهل بن إساف إلى الباب وأعطته لامة حرب ولبست هي مثلها وخرجا من الباب وإذا هما بجوادين فركبا وخرجا وسارا مقدار فرسخين عن كفر توتا وإذا هم بحسّ الخيل وراءهم، فقالت: إن كانوا من الروم فعليَّ مخاطبتهم وإن كانوا من العرب المتنصرة فعليك مخاطبتهم قال: فوقفوا غير كثير وإذا بالقوم عدّتهم ثلاثة وعشرون فارسًا وعليهم ثياب خضر وهم على خيول شهب قال: فتأملهم سهل وإذا هم أصحابه الذين قتلوا بحضرة الملك قال فدنا منهم سهل وسلّم عليهم وقال: سبحان الله ألم أُشاهد قتلكم؟ قالوا: نعم. أما علمت أن الشهداء أحياء لا يموتون، وإنما هي نقلة من دار إلى دار وأن الله قد بعث بأرواح الشهداء في هذه الليلة لتزور قبر النبي ﷺ وكانت تلك الليلة ليلة النصف من شعبان. فقال لهم: أُريد المسير معكم وفي صحبتكم، قالوا: إنك لا تقدر على ذلك وقد بقي من عمرك إحدى وأربعون ليلة وتلحق بنا. وأما هذه الجارية فقد أعدّ الله لها في الجنة ما أعدّ لأوليائه، وقد بنى لها قصرًا من الجوهر والياقوت الأحمر على شاطىء نهر الكوثر، ستوره معلقة وبالأنوار مرونقة، وقبابه مزوّقة وأسرَّته موصولة وفرشه مرفوعة، وأباريقه مصفوفة، وزواياه محفوفة، وحُلله منسوجة، وحواشيه بحُسْن الوفاء مسروجة، على أبوابه مكتوب بقلم السرِّ المكنون ﴿**ادخلوا الجنة بما كنتم تعملون**﴾ [النحل: ٣٢] فلما سمعت الجارية قولهم قالت: فبِمَ استوجبت هذا النعيم؟ قالوا: بتوحيدك الربّ العظيم، وتصديقك النبي الكريم. قال: فصاحت صيحة فإذا هي ميتة، قال سهل: فنزلت فدفنتها وغاب الشهداء عني وسرت إلى المسلمين فحدّثت عبد الله بن غسان وسهل بن عدي بذلك فازداد المسلمون يقينًا بذلك وعاش سهل بعدها أحدًا وأربعين يومًا ومات.

حدّثنا صفوان بن عامر عن خويلد بن ماجد عن عبد الرحمٰن بن النعمان عمّن حدّثه عن فتوح الشام وأرض ربيعة الفرس. قال لمّا نزل عسكر المسلمين على قرقيسيا

مع عبد الله وسهل قال: خندق المسلمون على أنفسهم خندقًا وتركوا لهم موضعًا يدخلون منه ويخرجون. قال واتصلت الأخبار بعياض بن غنم وهو بجانب الرقّة، وهو يتروّى فيمن يبدأ بحربه بشهرياض وجنوده أو بحرّان والرها. فقال له خالد بن الوليد رضي الله عنه: أتترك جيشًا قد تهيأ واحتفل لقتالك وتمضي لسواه، والرأي أن تلقى هذا العدو. فإذا أنت هزمته وأوقعت الهيبة هنا فاقصد ما شئت من البلاد فإنها تفتح إن شاء الله تعالى. قال: فعوّل عياض على ذلك وإذا قد أتته جواسيسه وأخبروه أنه قد تهيّأ لحربكم الملك شهرياض ونوفل وطرباطس صاحب دارا والمؤزر وصاحب جملين وأرمانوس صاحب تل سماوي وأرجو وصاحب البارعية وشهرياض صاحب ماردين ورودس صاحب حرّان والرها وقد صارت جريدتهم مائتي ألف وقد ضمنوا للملك لقاءكم وقالوا: لا نلقى العدوّ إلا بأهالينا وأولادنا وأموالنا وحريمنا حتى لا ينهزم منّا أحد وقد تقدم إليكم الأرمن وبعدهم الروم وهم دون الفرات، فلما سمع عياض ذلك بعث إليهم الوليد بن عقبة ووصّاه بما أراد قال فقَدِمَ على بني تغلب وجمع أمراءهم وهم نوفل بن مازن وعاصم والأشجع وميسرة وحزام وقارب وقال: يا فتيان العرب اعلموا أن مَن نظر في العواقب أمِنَ من المعاطب، وليس أنتم أحدُّ سُننًا ولا أقوى جنانًا ولا أجرأ في الجولان ولا أوسع ميدانًا من بني غسان، وليس فيكم مَن يشبه جبلة بن الأيهم وكان في ستين ألفًا، وقد نصرنا الله عليهم وقتلنا ساداتها، والصواب أن ترجعوا إلينا وتكونوا من حزبنا. قال فأجابوه بأجمعهم إلا طائفة إياد الشمطاء فإنهم ارتحلوا إلى بلاد الروم ووصل عرب بني تغلب إلى جيش بن غنم مسلمهم وكافرهم فرحّب بهم وطيّب قلوبهم وقال لهم: يا معاشر العرب إن الله سبحانه وتعالى قد أراد بكم خيرًا بوصولكم إلينا ونزوعكم عن عبدة الصليب، وقد أراكم الله إعزاز دينه وشرف نبيّه وقد وعدنا ووعده الحق بملك كسرى وقيصر وأخذ كنوزهما وما كان ينطق عن الهوى وقال الله في حقنا: **﴿ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذّكر أن الأرض يرثها عبادي الصالحون﴾** [الأنبياء: ١٠٥] قال فأسلم كافرهم وبقوا جميعهم مسلمين.

قال الراوي: أخبرنا سيف عن خالد بن سعيد قال: لمّا علم عياض بهروب إياد الشمطاء إلى بلاد الروم كتب إلى عمر بن الخطاب بذلك فأرسل عمر رضي الله عنه إلى هرقل وولده قسطنطين يقول لهم: إن لم تصرفوهم عن أرضكم لأفنينَّ كل نصراني عندنا.

قال الراوي: فلما وصلت رسالة عمر إلى هرقل وولده أنفذ بهم إليه. قال وعزم عياض على لقاء الملك شهرياض. وأما ما كان من شهرياض صاحب قرقيسيا فإنه جمع بطارقته وقال لهم: اعلموا أنه قد بلغني عمّن تقدم من الملوك أنهم كانوا يجيشون

الجيوش ولا يستغنون عن الحيل وأنا أُريد في غداة غد أن أخرج إلى لقاء العرب. فإذا اصطفّت الصفوف فرجّلوني عن جوادي وأشهروا عليّ سلاحكم كأنكم تريدون قتلي فأقول لكم: أنا معتذر إنما أردت أن أُجرّب خبر حَمِيَّتكم لدينكم وظننت أنه قد أخذكم الخوف من هؤلاء فإذا سمعتم مني ذلك فأرجعوني إلى إجلالي وإعظامي، ثم ناوشوهم الحرب فأهرب أنا إليهم وأقول لهم إني أردت أن أُسلّمكم البلد فهاش القوم عليّ كما رأيتم وهمّوا بقتلي وقد جئت إليكم راغبًا في صحبتكم فإذا أمّنوني وغفلوا عني قتلت أميرهم في الليل وأنا أعلم أن القوم بعده يهون عليّ أمرهم ثم أعوّل على انهزامهم فقال له وزيره الأرمني: وكيف تسمح بنفسك وتلقيها في أضيق المسالك وإن أنت فعلت ذلك لا نأمن عليك من العرب ويعتبنا خالك ويقول لنا كيف تركتموه يمضي إلى العرب؟ فقال عبد الله يوقنا: لقد صدق السيد في قوله وكيف نتركك تمضي إليهم وأنا أدبّر لك مع هؤلاء القوم تدبيرًا يكون أقرب من هذا وأهون.

فقال شهرياض والوزير الأرمني: وما هذا التدبير أيها الملك؟ قال: أن نخرج غدًا بأجمعنا ونلقاهم ونُريهم الجدّ من أنفسنا ونقاتل بحسب الطاقة ثم ننهزم إلى المدينة ونستوثق من أبوابها ونصعد على السور فربما قربوا منّا فلا نقاتل. فإذا فعلنا ذلك طمعت العرب فينا ودنوا منّا واعلموا أن في عسكرهم جماعة من الروم ممّن صبأ إلى دينهم فربما قربوا منا فإذا أرادوا ذلك كتبنا إليهم نطيّب قلوبهم ونرسل رسولاً في طلب الصلح ونقول: أرسلوا إلينا عشرة من عقلائكم حتى نرى ما تريدون منّا ولعلنا نعقد معكم صلحًا فإذا فعلوا ذلك وحصلوا عندنا قبضنا عليهم ونشهر سيوفنا عليهم ونقول لهم: إما أن ترحلوا عنّا وإلاّ ضربنا رِقابهم فإن القوم إذا أرادوا الجِدّ منّا طلبوا صلحنا بأصحابهم ورحلوا عنّا، والعرب إذا قالوا قولاً وفوا به فإن هزموا الملك شهرياض واحتووا على بلاده دخلنا بعدها تحت طاعتهم وارتحلنا عنهم إلى بلاد الروم. قال: وإنما أراد يوقنا بهذا الكلام أمرين: أحدهما أن يبرأ عندهم من التهمة حتى يطمئنوا إليه. والثاني أن يحصل من أصحاب رسول الله ﷺ عشرة في المدينة فيحتال أن يكونوا تحت يده ليثور بهم فيملك بهم المدينة. فقال له وزيره الأرمني: وإن كان العرب يبعثون إلينا صعاليكهم أو مواليهم فنقبض عليهم ونعدهم بالقتل فلا يلتفتون إلى ذلك ويقع الجِدّ منهم في قتالنا ولا يرحلون عنّا فكيف تصنع؟ قال: فأراهم يوقنا أنه غضب وحوّل وجهه، وقال:

- وحق المسيح لقد دخل رعب القوم في قلوبكم ولن تفلحوا بعدها أبدًا وحقّ ما أعتقده لقد قاتلتهم في قلعتي بحلب قتالاً سارت به الركبان إلى سائر البلدان مدة سنة كاملة ولولا أن عبدًا أسود من عبيدهم اسمه دامس أبو الهول وعشرين معه نصبوا حيلة عليّ ملكوا قلعتي لما قدروا عليها أبدًا وكانوا قد نزلوا عليّ بجميع عسكرهم وأبطالهم

فكيف بكم وما نزل عليكم إلا شرذمة يسيرة وبلدكم حصين ليس عليه قتال إلا من موضعين من صوب الجبل ومن الغرب وما لكم عذر ومَن أراد رِضا المسيح والأجْر قاتل عن دينه وصان أهله وحريمه من هؤلاء العرب، وإن خفتم أن القوم يرسلون إلينا مواليهم أو مَن لا له عندهم قدر ولا شأن فأنا أعرف الناس بهم وبفرسانهم وأبطالهم ومواليهم وخاصة أصحابهم فأنفذوا مع رسولكم كتابًا بأسماء القوم الذين أُريد منهم المقداد والنعمان وشرحبيل بن كعب ونوفل وعبد الرحمٰن بن مالك والأسود مولى قيس وخالد بن جعفر وابن قيس وهمام الحرث ومالك بن نوبة وسلامة بن عامر. قال فضحك الوزير الأرمني وقال: وحق ديني إن العرب لا يسمحون بهؤلاء قطّ إلا أن يطلبوا رهائن منكم. فقال يوقنا: ما أفشل رأيكم وأضعف قلوبكم انفذوا إلى القوم فإن أجابوا كان ببركة السيد المسيح، وإن طلبوا رهائن أرسلنا أضعفنا من أهل المدينة ومن أولادهم وألبسناهم أفخر الثياب وقلنا هؤلاء أكابرنا من أهل المدينة. قال شهرياض: وحق القربان ما نفعل إلا ما أمرتنا.

ثم إنه أمر بطارقته وأرباب دولته أن يأمروا الناس بالتأهّب للحرب ففعلوا ولبسوا سلاحهم واستعدّوا للقتال، وأمر سهل بن عدي أصحابه بالركوب فركبت العرب وخرجت من باب الخندق واستقبلوا العدوَّ بهِمَم عالية وقالوا: اللّهمَّ انصرنا عليهم كنصر نبيّك يوم الأحزاب وعبّوا صفوفهم ثم وعظهم وقال في آخر وعظه: ها أنا حامل نحو طاغية الروم وصليبه فاتبعوني، فإن فتح الله بقتله أو أخذ صليبه فالقوم لا ثبات لهم فقالوا: أيها الأمير لقد دعوتنا إلى شيء هو أحبّ إلينا فاحمل حتى نحمل. قال محمد بن عبد الله: فحمل هو ومَن معه على عسكر قرقيسيا وكان أمير المسلمين عبد الله بن غسان وسهل بن عدي فلقد قاتلوا قتالاً شديدًا وجاهدوا في الله حقّ جهاده وبذلوا رماحهم وسيوفهم في أعداء الله والتقى عبد الله بن مالك الأشتر بيورنيك الأرمني فلما عاين زيّه علم أنه من ملوكهم فطعنه في صدره فأخرج السنان من ظهره والتقى النعمان بن المنذر بشهرياض وقد طحطح الجموع ولم يعلم النعمان بأنه صاحب البلد بل عرف أنه من الملوك فحمل عليه النعمان وهو يقول هذه الأبيات:

وإنّا لقوم في الحروب ليوثها ... وتنفر منّا عند ذاك أُسودها
نحامي عن الدين القويم نصونه ... ونرغم آناف العِدا ونذودها
لنا الفخر في كل المواطن دائمًا ... بأحمدنا الهادي فذاك سعيدها
ملكنا بلاد الشام ثم ملوكها ... إلى أن تبدي بالنكال عديدها
وسوف نقود الخيل جردًا سوابقا ... إلى شهرياض الكلب ذاك شديدها
ونملك دارًا ثم جملين بعدها ... كذا رأس عين والجيوش نقودها

ونمضي إلى حرّان ثم سروجهم كذا الرّها للمسلمين نُعيدها
وإني أنا النعمان ذاك ابن منذر أبيد ليوث الحرب ثم أُسودها

ثم أطبق عليه وفاجأه بطعنة فألقاه صريعًا، فلما نظر جيش قرقيسيا إلى هلاك ملكهم انحرفوا إلى مدينتهم وتحصنوا في بلدتهم وخافت أرمانوسة ودخل الرعب في قلبها. ثم إنها قالت للعبد الصالح يوقنا: يا عبد المسيح ما بقي لي أحد سواك يسوس مُلكنا ويدبّر حالنا. فقال: أيتها الملكة أنا لك وبين يديك. ثم إنها خلعت عليه وعلى أصحابه وقالت: اعلموا أن هذه المدينة والمملكة لكم. فقال يوقنا: يجب علينا أن نقوم بحقها ونقاتل بين يديها، ثم إنه رتّبهم على الأسوار فدنا المسلمون ورجالهم وهم يرمون بالمقاليع فكانت حجارتهم لا تخطىء أبدًا وكان المقدّم على الرجال والموالي المنذر بن عاصم ولم يكن بالحجاز ولا باليمن قاطبة أرمى منه بالمقاليع وكان من قوة ساعده إذا خرج حجره يجاوز البرج الأعظم فلم يزل يرمي فيه كل يوم فيصيب الرجل والرجلين فسمّته العرب برج المنذر، وكانوا قد ضايقوا أهل قرقيسيا مضايقة شديدة. فقالت أرمانوسة: أين ما وعدت به الملك شهرياض من تدبيرك في هؤلاء العرب، فقال: أنا في الأمر متفكّر. ثم إنه صعد على السور مما يلي المسلمين ونادى: يا معاشر العرب قد طال الأمر بيننا وبينكم ولا نسلّم لكم إلا أن تهزموا الملك وتملكوا رأس العين ونحن لكم بعد ذلك واطلبوا منّا من المال ما تريدون فقد علمنا أنكم إذا قلتم فعلتم ووفّيتم. قال فلما رآه عبد الله بن غسان وسهل بن عدي والصحابة ونظروا إليه علموا أنه يريد أن ينصب حيلة على أهل قرقيسيا. فقال سهل بن عدي: يا عدوّ نفسه مَكَرْتَ بنا وتمّمت منصوبك علينا بدخولك في ديننا حتى اطمأننا إليك. ثم غدرت ورجعت إلىٰ دينك الأول فأين تهرب منّا أو تولي عنّا ونحن لك في الطلب وسوف نملك هذه المدينة بالسيوف ونضرب عنقك وهذا أيضًا من تمام الحيلة. فقال: يا معاشر العرب لقد نصحتكم وخدمتكم وما رأيت منكم إلا خيرًا ولكن طالبتني نفسي بديني فرجعت إليه والآن فقد مضى ما مضى وهذه المدينة ما لكم إليها وصول ولا تقدرون عليها لأنها حصينة وفيها رجال الحرب والقوت عندنا كثير، ولكن أنفذوا إلينا منكم عشرة من أعزّ أصحابكم ممّن نثق بهم يحلفون لنا ونحلف لهم إذا فتحتم رأس العين سلّمنا هذه المدينة إليكم ويكون الصلح بيننا بقية هذه السنة فقد بقي منها أربعة أشهر أولها شهر رمضان.

فقال له عبد الله بن غسان: قد أجبناك إلى ذلك فمَن هم العشرة الذين تريدهم حتى نرسلهم إليك؟ فقال: أريد المقداد بن الأسود والأسود مولى قيس وخالد بن جعفر ورواحة بن قيس وهمام بن الحرب وسلامة بن عامر وابن نعيم فهؤلاء نريدهم فإنه لا يقع الصلح إلا بهم. فقال: فوجّه عبد الله هؤلاء الذين ذكرهم له يوقنا. قال وفتح لهم

الباب، فقال له عبد الله: نحن ما نسمح بأصحابنا بلا رهائن فمضى يوقنا إلى الملكة أرمانوسة وأخبرها أن القوم يريدون رهائن، فقالت: أرسل لهم من أولاد السوقة. قال يوقنا: أيتها الملكة إن الحيل في الحرب من عند العرب خرجت والملوك من شأنها إذا قالت قولاً وَفَت به واعلمي أنه قد قال حكيم الفرس: إذا كان الغدر طِباع قوم فالثقة بكل أحد عجز، واعلمي أن أهل بلدك فيهم رؤساء وملوك وهم يعظِّمون شأنك بعد الملك، ولكن ينظرون إليك بعين التأنيث وينظرون إليَّ بعين الغربة ولا هيبة لي عندهم وربما سمعوا بصلحنا مع العرب فلا يملّكونا من ذلك ولا يتم لنا ما نريده وربما يرسلون يستنجدون علينا بمثل ملك الموصل وصاحب الهنكارية ويعظِّم الأمر. قالت: فما الذي تراه من الرأي؟ قال: الرأي أن نبعث الرؤساء رهائن عند العرب، وإنما فعل ذلك يوقنا حتى لا يتعرّض له متعرّض في المدينة وإذا سلّمهم لا يكون فيها رئيس من رؤسائهم فأجابته إلى ذلك وأنفذت الرؤساء منهم رهائن إلى عبد الله بن غسان، فلما وصلوا إليه دخل العشرة من أصحاب رسول الله ﷺ، فلما حصلوا في المدينة أمر بهم إلى البرج الكبير وهو المعروف ببرج المنذر، وإنما فعل ذلك حتى لا يعصى مَن في البرج، لأن فيه مال أهل البلد، فلما حصلوا هناك رجع إلى الملكة أرمانوسة وقال: قد حصّلتهم في البرج وغدًا نوقفهم بأعلى البرج ونقول لهم: إما أن ترحلوا عنّا أو نقتلهم. قالت: وكيف نصنع برهائننا وإن نحن فعلنا بأصحابهم ما ذكرت يفعلوا بأصحابنا كذلك؟ قال لها يوقنا: إذا كنت تفزعين على أهل البلد فصالحي القوم. قالت: دبرنا بحُسن رأيك. فقال: السمع والطاعة، وأنا أمضي إلى هؤلاء العشرة مع ما وصّاهم به أميرهم وننظر ما الذي يطلبونه منّا، ثم إنه مضى إلى الصحابة وحدّثهم بما عزم عليه من تسليم البلد وقال لهم: إذا سمعتم الضجة فدونكم ومَن في البرج، ثم رجع إلى أصحابه ورتبهم على السور ولم يترك معهم أحدًا من أهل البلدة، فلما أظلم الليل سار عبد الله يوقنا مع أصحابه المائتين وأعلنوا بالتهليل والتكبير وبادروا إلى الباب ففتحوه وأرسل إلى عبد الله بأن يأتي إليهم بعسكره فأتوا ووضعوا السيف في أهل البلد، فما أفاق أهل قرقيسيا إلا والمسلمون قد مكّنوا منهم القواضب فقصدوا البرج الأعظم فثار عليهم العشرة الصحابة فعلمت الملكة أرمانوسة أن الحيلة قد تمّت عليها من قِبَل يوقنا وسمعت أهل البلد ينادون الغوث الغوث فأمّنهم عبد الله بن غسان وسهل بن عدي واحتووا على ما في المدينة وأخذوا جميع ما كان فيها من الأموال وما في البرج الأعظم من الذخائر فأخرجوا منه الخمس وقسموا الباقي على المسلمين وعرضوا عليهم الإسلام، فمَن أسلم منهم وهبوا له أهله وماله ومَن أبى ضُرِبَت عليه الجزية، ثم اجتمع الذين أسلموا وأتوا إلى الأمراء وقالوا: نحن قد دخلنا في دينكم فسلّموا لنا كرومنا وبساتيننا. فقال لهم عبد الله بن غسان وسهل بن عدي: هي بحكم الإمام، يعني عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وهو الذي يُسكِن فيها مَن أراد

ويأخذ خراجها مَن هي في يده، فإن حكم الخراج والخمس والجزية بأمر الإمام يأخذ حاجة منه ويصرف الباقي في صالح المسلمين.

قال الواقدي: وأسلمت أرمانوسة ومَن كان يلوذ بها فأقرّهم عبد الله في أماكنهم وأحسن إليهم غاية الإحسان وجدّد لهم الأمان كل ذلك ليتصل الخبر بأهل البلاد فيدخلوا في الإسلام. قال عطية بن الحرث، وكان ممّن أدرك ذلك: كان فتح قرقيسيا أول ليلة من شهر رمضان سنة اثنتين وعشرين من الهجرة، وبنوا الكنيسة العظمى وهي بيعة جرجيس جامعًا ولم يبرحوا حتى صلوا فيه وأطلقوا الرهائن وتسلم ولايتها شرحبيل بن كعب في مائة وخمسين رجلاً وعوّلوا على المسير إلى ماكسين والتفت الأمير إلى عبد الله يوقنا، وقال: مُرْ ابنتك أن ترجع إلى قلعتها فقد جاءت الوصية إلينا من قِبَل الأمير عياض. قال: فرجعت والحمد لله وحده والصلاة والسلام على مَن لا نبيَّ بعده.

ذكر فتح ماكسين والشمسانية

قال: حدّثني زهمان بن رقيم عن الصّلت بن مجالد عن القيل بن ميسور. قال: لما ارتحل عبد الله عن قرقيسيا ونزل على ماكسين فتحها صلحًا على أربعة آلاف درهم من نقد بلادهم وألف حمل طعام حنطة وشعير فقلقوا من ذلك فترك لهم النصف وكذلك أهل الشمسانية، ثم نزل على عربان فجاؤوا إليه وصالحوه بما صالح به أهل ماكسين، ثم ارتحل إلى المجدل فملكها وأقام ينتظر ما يَرِد عليه من أخبار أميره عياض بن غنم وهو نازل على نهر البلخ فكتب إليه يعلمه بما فتح الله على يديه، فلما وصل الكتاب إليه كتب إليه أن الزم مكانك حتى يأتيك أمري والسلام. قال سهل بن مجاهد بن سعيد: لما فتح الله على يد عبد الله بن غسان أرض الخابور صلحًا وأقام بالمجدل أنشد قيس بن أبي حازم البجلي هذه الأبيات:

أقمنا منار الدين في كل جانب ... وصلنا على أعدائنا بالقواضبِ
ودان لنا الخابور مع كل أهله ... بفتيان صدق من كرام العرائب
هزمناهم لمّا التقينا بماسح ... وثار عجاج النقع مثل السحائب
وكل همام في الحروب نخاله ... يكرُّ بحمل في صدور الكتائب
وجندل وفد الروم في كل جانب ... تركناهمو في القاع نهبًا لناهب
وما زال نصر الله يكنف جمعنا ... ويحفظنا من طارقات النوائب
فللّه حمد في المساء وبكرة ... وما لاح نجم في سدول الغياهب

ذكر فتوح قلعة ماردين

قال: حدّثني سوار بن كثير عن يوسف بن عبد الرزاق عن الكامل عن المثنى بن عامر عن جدّه: قال: لمّا فتحت مدائن الخابور صلحًا بلغ قتل الملك شهرياض صاحب أرض ربيعة وعين وردة ورأس العين فعظم عليه وكبر لديه فجمع أرباب دولته وهو نازل على أرض الطير وقال لهم: هذه ثلاث مدائن من بلادنا قد ملكت وقلعتان والعرب المتنصرة قد مضت عنّا. فقال له البطريق توتا: أيها الملك إنه لا بدّ للعرب منّا ولا بدّ لنا منهم ويعطي الله النصر لمَن يشاء غير أنه كان من الرأي أنك لو زوّجت ابنك عمودا الملكة مارية بنت أرسوس بن جارس صاحب ماردين ومرين لأعانتنا قلعة المرأة.

قال الراوي: وكان السبب في بناء القلعتين المذكورتين أن هذا الرجل أرسوس بن جارس كان من أهل طبرزند، وكان بطلاً منّاعًا، وكان أول مَن بنى المملكة بأرمينية وكان منفردًا بطبرزند، وكان يغير في بلاد الروم حيث شاء حتى كتب أهل تلك البلاد إلى الملك الأعظم يستغيثون به من يده فأرسله الملك هرقل من أنطاكية إلى ديار ربيعة وقال له: ابْنِ لك حصنًا تسكن فيه، فلما توسّط أرض جبل ماردين نزل تحته ونظر وإذا على قلة الجبل موضع نار وكان فيه عابد من عبّاد الفرس وكان مشهورًا عندهم بالعبادة وكانت الهدايا تُقبِل إليه من أقصى بلاد خراسان والعراق وكان اسمه دين، فلم يمرّ به أرسوس حتى صادقه وكان يحمل إليه الهدايا والتحف وكان العابد لا يحتجب عنه ولم يزل معه حتى إنه وقع به منفردًا فقتله وغيّبه، فلما عدمه أهل تلك الأرض قالوا: مات دين، ثم إن أرسوس بنى بيت النار وجعله حصنًا وكانت له ابنة يقال لها مارية، فلما رأت أباها بنى له مكانًا وتحصّن فيه بَنَت أيضًا قلعة بإزائه وحصّنتها وجعلت فيها أموالها وذخائرها ورجالها وكانت كلما خطبها أحد تراه دونها لأنها من بيت المملكة.

وكان بالقرب من قلعتها دير بسفح الجبل وفي الدير راهب قد انقطع فيه وكان من أجمل الناس وجهًا وكان اسمه فرما، قال: فأتت إليه زائرة، فلما رأته وقعت محبته في قلبها فلم تزل تتردد إليه وتتجاسر عليه إلى أن صارت بينهما صحبة فسلّمت نفسها إليه فحملت منه، فلما تكامل حملها ولدت في خفية ولدًا ذَكَرًا فسلّمته إلى دايتها وقالت لها: انظري كيف تفعلين بهذا الغلام فإني أُحبه ولا أُريد قتله، لأنه إن علم أبي بقصتي قتلني، ثم أخرجت له ذخائر نفيسة وجعلتها في قماطه وخيّطت عليها وقالت: مَن وقع به ينفقها على تربيته، ثم إنها افتقدت بدنه وإذا على خدّه الأيمن شامة سوداء بقدر الظفر ورأت أُذنه اليمنى وفيها زيادة قال: فأخذته الداية ونزلت به ليلاً ومعها خادم وكان مطّلعًا على أسرار الملكة فأتت به إلى أسفل القلعة في الطريق الأعظم وهناك عمود من رخام وغالبه غائص في الأرض وهو قائم على رأس ذلك العمود قاعدة من الرخام فوضعت ذلك

المولود على القاعدة خوفًا عليه من الوحش أن يقربه فيأكله ثم رجعت هي والخادم إلى القلعة.

قال الراوي: وكان من قضاء الله وقدره: أن صاحب الموصل الملك الأنطاق قد بعث رسولاً لشهرياض ثم أرسوس بن جارس صاحب ماردين فجاز سحرًا في الطريق الذي فيه العمود فسمع بكاء الطفل فدنا منه وهو على جواده فنظر عصابة الذهب فأخذه وسلّمه إلى جارية كانت معه في السفر وقال لها: احتفظي على هذا المولود فلا شك أن له شأنًا، ثم أوصل الرسالة إلى صاحب ماردين وارتحل إلى رأس العين وأعاد الجواب على الملك شهرياض وأجرى الله على لسانه بأن حدّث الملك شهرياض بقصة الطفل الذي وجد على العمود. فقال: أعطني إياه فإنه ليس لي ولد يرثني ويخلفني في مُلكي فدفعه إليه فأخذه الملك ودفعه إلى الحواضن والدايات فربّوه إلى أن ركب الخيل ونشأ وترعرع فسماه الملك عمودًا وسمّاه الناس ولد الملك وتربى في النعمة وتعلّم طريقة الملوك من ركوب الخيل والرماية والقتال والمعالجة والصراع إلى أن سَمَا ذِكْره وانتشر في الناس فخره وكان لا يأوي إلى عين وردة بل أكثر زمانه في الصيد والقنص وبنى له قصرًا على رأس المغارة يأوي إليه وسُمِّي القصر باسمه عمودًا وليس عند أُمه مارية خبر بما فعل الزمان به وانقضت الأيام واندرجت الأعوام حتى قَدِمَ عسكر المسلمين يريد فتح أرض الجزيرة، فلما شاور الملك أرباب دولته في أمر العرب أشار عليه توتا أن يزوِّج ولده عمودًا من الملكة فإنها لا تصلح إلا له. . . وهي بكر ولها من العمر ثلاثون سنة وقد خطبها الملوك وأبناؤهم فلم ترضَ بهم لأنها تراهم دونها وأنت إذا طلبتها لولدك لم يمتنع من ذلك أبوها ويفرح بمصاهرتك، فأجابه إلى ذلك وبعث إلى أرسوس بن جارس هدية عظيمة وقال لتوتا: كن أنت الواسطة في ذلك، فسار توتا إلى أرسوس وسلّم عليه ودفع إليه الهدية فقبلها وتحدّث معه فيما ذكرناه فأجابه إلى ذلك وطلب منه الصداق مائة ألف دينار والبارعية وجملين وعشرين أميرًا من العرب ليقتلهم قربانًا للمسيح ليلة زفافها فأجابه توتا إلى ذلك، فركب أرسوس إلى قلعة ابنته ودخل عليها وأعلمها بالخبر فرضيت فخرج من عندها وجمع القسوس والشمامسة وزوّج ابنته لعمودًا وليس عندهم خبر من أحكام القدر.

قال الراوي: ورجع توتا إلى الملك شهرياض وأعلمه أن الأمر قد انبرم وأعلمه بما اشترط عليه أرسوس من القلعتين البارعية وجملين ومائة ألف دينار وعشرين أميرًا من العرب ليقرّبهم ليلة زفافها ففرح بذلك وأنفذ الأموال وقال: إذا زُفَّت إليه سلّمت إلى أبيها القلعتين، ثم إنه طلب عمودًا وأخبره أنه قد زوّجه ابنة أرسوس بن جارس وقال له: اعلم يا بني أن من جملة الصداق عشرين من فرسان العرب فتجهّز وخذ العسكر واقصد العرب

وأمر أن يخرج معه توتا الوزير ورودس صاحب حران وقال لهم: إن قدرتم أن تكبسوا العرب فافعلوا ومضوا في عشرين ألفًا.

قال الراوي: وأتت عياضًا عيونه وأخبرته بما جرى وأنهم قد أقبلوا إليك وهم رودس صاحب حران وصاحب كفر توتا وعمودًا ابن الملك في عشرين ألفًا وهم يريدون كبسكم في الليل فاستيقظوا لأنفسكم. قال: فجمع عياض وجوه الصحابة واستشارهم. فقال خالد بن الوليد: اكتب من وقتك إلى عبد الله بن غسان وسهل بن عدي أن يسيروا إلينا من وقتهم ويعلمهم بما قصد العدو فيكونون منهم على حذر. فإذا قربوا منهم يكمنون لهم حتى يعبروهم ويصير أصحابنا من ورائهم ونكمن نحن عن يمينهم وشمالهم ثم نطبق عليهم. فقالوا كلهم: هذا هو الرأي المصيب وخرج خالد في ألفين وكتب في الحال إلى عبد الله وسهل يأمرهما باللحوق بعسكر خالد ويوصيهما بما يفعلان وبعث الكتاب مع سراقة بن دارم فوصل إليهما في يومه على ناقة له، فلما وصل وقرأ الكتاب ارتحلوا من ساعتهم وأطلع الصحابة علىٰ الخبر فركبوا وأنفذ عبد الله عيونه يتجسّسون له خبر العدو.

قال الراوي: وأما خالد فإنه انفصل من عياض في ألفين ولم يأخذ بهم على الجادة، بل أرسل ألفًا عن يمين الطريق وأمر عليهم ابن سعدا، وألفًا عن يسار الطريق مع خالد وأمر سعدًا أن لا يبعد عن الطريق، وأرسل عيونه.

قال الواقدي: إنه لمّا سار عمودًا وتوتا ورودس في العشرين ألف فارس لم يزالوا سائرين إلى أن بقي بينهم وبين عسكر عياض بن غنم عشرة فراسخ. فنزلوا في مكان يستريحون ويعلقون على خيلهم ويلبسون لامة الحرب.

قال الواقدي: وسار جيش عبد الله بن غسان من ورائهم وسار خالد بن الوليد عن يمينهم ونجيبة بن سعد عن يسارهم وليس عند الروم خبر من ذلك، فلما علم خالد أن أصحاب رسول الله ﷺ قد أحدقوا بالقوم أرسل يُعلِم المسلمين أن يتأهبوا إلى وقوع الصوت. قال: فتأهبوا، ثم إن خالدًا أخذ خمسمائة من أبطال المسلمين وترك خمسمائة مع عدي بن سالم الهلالي وقال له: إذا رأيت الحرب قد اشتعل نارها وتطاير شرارها فاخرج من كمينك، ثم إن خالدًا لمّا قصد جيش العدو بمَن معه وتظاهر لهم رفعوا أصواتهم بالتهليل والتكبير قال: فسمعت الروم أصواتهم فلبسوا سلاحهم ولم يركب منهم سوى رودس وأصحابه وهم خمسة آلاف ولم يكن فيهم مستيقظ سواه وتوتا مشغول مع عمودًا. قال: وإن صاحب حران استقبل خالدًا واستصغر شأنه لمّا رآه في شرذمة قليلة فطمع فيه واشتغلت الروم بالنظر إليهم وقالوا: رودس يكفينا أمرهم. قال: فبينما هم

ينظرون إذ صاح خالد بعدوّ الله رودس وانحطّ عليه انحطاط السحاب وهو يقول هذه الأبيات:

وإنّا لقوم لا تكلّ سيوفنا ... من الضرب في أعناق سوق الكتائبِ
سيوف دخرناها لقتل عدوّنا ... وإعزاز دين الله من كل خائب
قتلنا بها كل البطارق عنوة ... جلاء لأهل الكفر من كل جانب
إلى أن ملكنا الشام قهرًا وغلظة ... وصلنا على أعدائنا بالقواضب
أنا خالد المقدام ليث عشيرتي ... إذا هممهت أسد الوغى في المغالب

وفاجأ رودس بطعنة فألقاه على وجه الأرض فأوثقه غلامه همام وحمل في أصحابه هو ومَن معه. قال: فهمَّ قي ذلك إذ خرج عليهم نجيبة بن سعد وعدي بن سالم وأشرف من بعدهم عبد الله بن غسان فامتلأت الأرض بالزعقات وارتجّت سائر الجهات وصدموهم على الخيل العربيات ونادوا باسم جبار الأرض والسمٰوات وأطبقوا عليهم من كل جانب، وكان التوفيق للصحابة مصاحبًا فما لحقت الروم أن تركب على خيلها إلا والسيف يعمل فيهم فطحطحوهم وفرّقوا مواكبهم واستوثقوا منهم أسرى وأخذوا عمودًا وتوتا فكانت الأسارى أربعة آلاف والقتلى ألفًا وسبعمائة وستة وستين وولّى الباقي الأدبار فوصلوا إلى الملك شهرياض فأعلموه بما وقع فضاقت عليه الأرض بما رحبت وعلم أن دولته قد انقرضت وأن أيامه قد اضمحلت ومضت فأحضر مَن بقي من أرباب دولته فاستشارهم فيما يفعل. فقالوا: أيها الملك إن مقامنا على رأس العين سفه فإن بينه وبين حران والرّها وسروج بعيد، يطمع العرب في بلادنا، بل الرأي أن نرحل ونتوسط البلاد وتكون قلاعنا أقرب منّا والميرة تصل إلينا من كل جانب، فإن كانت لنا وانهزمت العرب أخذنا عليهم سائر الطرقات، وإن كانت علينا انهزمنا إلى ماردين وقلعة مازن وكفر توتا وقصدنا جملين وتل توتا والبارعية وتل سماوي وتل القرع والصور ودجلة الجبل ونأمن على أنفسنا. قال: فأجابهم إلى ذلك وارتحل من برج الطير وقصد رأس العين ورتب آلة الحصار وترك في المدينة عشرة آلاف فارس مع مرتودس وكان من الفرسان المشهورة وهو متزوج بابنة الملك شهرياض، فلما رتب أمره رحل إلى مرج رغبان.

حدّثنا أبو يعلى عن طاهر المطوعي عن أبي طالب بن مليحة عن وهبان بن بشر بن هزارد. قال: قرأت الفتوح من أوله إلى آخره بجامع الرصافة على أحمد بن عامر الحوفي وأحمد قرأ على سعدان بن صاحب وابن صاحب قرأ على يحيىٰ بن سعيد المروزي ويحيىٰ قرأ على أبي عبد الله بن محمد الواقدي وهو يومئذ قاضي الجانب الغربي. قال: لمّا نزل الملك شهرياض على مرج رغبان بجيوشه ارتحل عياض في أثره بعدما كتب

بخبر الوقعة وفتح زبا وزلوبيا والخابور إلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه وسأله الدعاء وبعث الكتاب والخمس وما أخذه من القلاع وأرسله مع حبيب بن صهبان وضمّ إليه مائة فارس فسار إلى المدينة، وأما عياض بن غنم ومَن معه من عساكر المسلمين فإنهم تَبِعوا شهرياض إلى أن نزلوا مع العدو بمرج رغبان. قال: فنزلوا في مقابلتهم، قال واتصلت الأخبار بأرسوس بن جارس صاحب ماردين بأسر عمودا فأحضر ابنته إليه وقال لها: أي بُنيّة اعلمي أن بعلك قد أُسِرَ وهو ابن الملك ونحن نخاف العار بأن يقال مارية بنت أرسوس ما كانت موافقة على ابن الملك وأنه لمّا تزوّج بها أُسِر وقد جِزْتُ في أمري. فقالت له مارية: يا أبت وحق المسيح لقد قلت الحق وتكلمت بالصدق فما عندك من الرأي؟ قال لها: وما عندك أنت؟ قالت: أُريد أن أتنكر وأدخل إلى عسكر المسلمين وآتي أميرهم وأقول له إني قد أتيت أُسلم على يديك لرؤيا رأيتها وهو أني رأيت المسيح في النوم ومعه الحواريون وكأني أشكو للمسيح ما نزل بنا منكم، وكأنه يقول لي أسلمي فإن القوم على الحق وقد جئتكم لأُسلم وأُملّككم قلعة أبي وتتركوني أنا في قلعتي، فإذا قال أميرهم: كيف تملّكيننا قلعة أبيك وهي أمنع الحصون وأحصن القلاع، فأقول له: يرسلِ معي من فرسانهم مائة فارس من صناديدهم وأدخلهم في قلعتي وأجعلهم في صناديق وأُرسلهم إلى قلعة أبي وأسير معهم إلى والي قلعة أبي وأقول هذه الصناديق فيها أموالي وأُريد أن أجعلها في خزانة أبي فإذا حصل القوم عندي رميتهم في المطامير وأقول لهم لست أدعكم حتى ترسلوا إلى أميركم يرسل إليّ بعلي. فقال لها أبوها: إنك تريدين أن تلقي نفسك في الهلاك، وإن العرب لا تتم عليهم الحِيَل لأنهم هم أربابها. قالت: وإن طلبوا مني رهائن، فإذا وقع الفداء بأصحابهم طلبت الرهائن مع بعلي. فقال لها: دبّري ما تريدين فلعل أن يكون فيه المصلحة. قال فنزلت في الليل وقصدت مرج رغبان ومعها خادم وأربعة مماليك يسوقون بغلتها وعليها من الهدايا والتحف والطُّرَف. قال فلما وصلت إلى تنيس التقت بغلمان أبيها وحاجبه ومعهم أربعون أسيرًا من العرب: منهم عبد الله بن غسان وأمثاله. قال وكان السبب في ذلك أن عياض بن غنم لمّا ارتحل يطلب رأس العين مع هؤلاء السادة الذين مع عبد الله بن غسان بحسب العادة في سيرهم إلى حرّانْ وسروج والرّها ليأتوا بالطعام والميرة للعسكر فساروا، فلما توسطوا البلاد لقيهم السائس ابن نقولا وجرجيس بن شمعون وقد أقبل بميرة عظيمة لعسكر الملك شهرياض ومعهم ثلاثة آلاف غائصون في الحديد، فلما رأوا قلّة المسلمين طمعوا فيهم فأقبلوا وأطبقوا عليهم من كل جانب فأخذوهم قبضًا بالكف وأحضروهم بين يدي الملك شهرياض فهمَّ بقتلهم. فقال له وزيره: أيها الملك ليس هذا برأي لأن ولدك عمودا في يد العدو وورودس صاحب حران وتوتا صاحب الحجّاب، فإن أنت قتلتهم قتلوا أصحابك وولدك والصواب أنك ترسلهم إلى قلعة ماردين: يعني قلعة المرأة وتسلّمهم إلى

الملكة مارية ويكونون عندها فإذا طلبتهم العرب تقول لهم إنهم بقلعة ماردين وليس هم في أسرنا ونحن لا نبالي بمَن هم عندهم فيكون أعظم لحُرمتك وهيبتك، فاستصوب رأيه وأرسلهم إلى مارية مع صاحب أبيها فالتقت بهم على تنيس كما ذكرنا، فأمرت الحاجب أن يوصلهم إلى قلعتها ففعل، ثم إنها سارت حتى أتت إلى عسكر المسلمين في حندس الليل فكان يطوف في العسكر سهل بن عدي ونجيبة بن سعد في جماعة، فلما رأوها أتوا إليها وسألوها عن حالها. فقالت: أريد أميركم فأتوا بها إلى عياض بن غنم.

فلما وقفت بين يديه قدّمت له الهدايا وهمّت أن تسجد له فنهاها، وقال: إن الله قد أعزّنا بالإسلام وأنقذنا من الضلال بمحمد ﷺ، فأزال عن قلوبنا الغلّ والحسد واتّباع الهوى وشرّفنا بالتحية ونزّهنا أن يسجد بعضنا لبعض وما يرغب في ذلك إلا الجبابرة من ملوك الأرض وإن الله يقول: العظمة ردائي والكبرياء إزاري، فمَن نازعني فيها قصمته ولا أُبالي، ومارية تفهم ما يقوله، فلما انتهى قالت: أيها الملك إن الله بهذا نصركم علينا. قال لها: فمَن أنتِ؟ قالت: أنا مارية بنت أرسوس بن جارس صاحب ماردين، وإن الذي بأيديكم أسيرًا هو بعلي ولا صبر عليه وهو عمودا، فلما كثرت فكرتي فيه واشتد شوقي إليه رأيت المسيح في نومي والحواريين، وقد أمرني باتّباعكم وقد أتيت إليكم بهذه النيّة بأن أتّبع دينكم وأسلّم لكم القلعتين قلعتي وقلعة أبي على شرط أن تُبقوني في قلعتي ولا تغيّروا من أمري شيئًا وأُقيم أنا وبعلي فيها وأكون الحاكمة على أهل بلدي. قال فتبسّم عياض من قولها وقال: يا مارية أما إنك ما أتيت إلينا إلا لتنصبين علينا بسبب بعلك وكيف يكون هذا بعلك وهو ولدك وحديثه كذا وكذا. قال فلما سمعت الجارية الحديث من عياض بن غنم امتقع لونها وتغيّر كونها وقالت له: يا سيدي ومن أين لك هذا وأن عمودا ولدي وهو ولد الملك شهرياض. قال لها رأيت رسول الله ﷺ الليلة وحدّثني بذلك كله. فقالت: إني أُريد أن أراه، فإن كان ولدي فإن لي فيه علامة، فأمر عياض بن غنم بحضوره فأتى به سعيد بن زيد، فلما نظرت إليه ووقعت عينها عليه ورأت الشامة التي على خدّه وزيادة أُذنه ورأت عصابتها وما فيها من الجواهر صاحت صيحة عظيمة أذهلت مَن حضر وترامت عليه والتزمته وقالت: لا شك ولدي، وقد صدق محمد ﷺ في قوله. قال ونظر الغلام إلى أُمه فتحرك الدم في بدنه فغشي عليه من البكاء، فلما أفاق بكى بكاءً شديدًا هو وأُمه، فلما سكتا قال لهما عياض: قد وجب عليكما أن توحّدا الله شكرًا على ما أنعم عليكما فإنه يزيد الشاكرين ورحمته قريب من المحسنين ولا يردّ بأسه عن القوم المجرمين ليس له حدّ ولا قبل ولا بعد، هو الأول وعليه المعوّل، وهو الآخر وله المفاخر. قال فلما سمع عمودًا ما قاله عياض قال: والله ما في قولك زور ولا مُحال، وأنا أشهد أن لا إلٰه إلاّ الله وحده لا شريك له وأن محمدًا عبده ورسوله. قال

فلما نظرت مارية أُمه إليه وقد أسلم وافقته في الحال وعرجت عن طريق المُحال وشهدت لله بالوحدانية ولنبيّه بالرسالة. فقال عياض بن غنم ومَن حضر من المسلمين: تقبل الله منكما إسلامكما ووفّقكما واعلما أن الله قد طهّر قلوبكما وغفر ذنوبكما فاستأنفا العمل ولكن كيف السبيل إلى هذه القلعة المنيعة.

فقالت: أبشر فإن أصحابكم أُسروا عند حرّان وقد وجّههم شهرياض إليّ لأفدي بهم منكم هذا الغلام عمودا وقد سيّرتهم إلى قلعتي، وها أنا أسير إليهم وأُحصّلهم في قلعة أبي وأفكّ أسرهم وأملك بهم القلعة إن شاء الله تعالى. فقال لها عياض: لقد وفّقك الله في كل حال، وصرف وجهك عن المُحال، ولقد صعب عليَّ أسْر أصحابي، ولكن قد طاب قلبي بما قلت من الصواب، فدعي ولدك عندنا وارجعي إلى أبيك، فإذا رأيتيه فقولي له: قد تمّت حيلتك علينا، فإذا حصلت عند أصحابنا فافعلي ما فيه الصلاح. فقالت: السمع والطاعة، ثم ودّعت زوجها أي ولدها والمسلمين، وسارت من ليلتها إلى ماردين، فوجدت أباها قد نزل إلى خدمة الملك إلى مرج رغبان، ووجدت الحاجب الذي كانت معه الأسرى، قد أوصلهم إلى قلعة أبيها وتركهم تحت قبضته، وكان هذا الحاجب من عقلاء الناس، ممّن قرأ التوراة والإنجيل والزبور، وكان راهبًا في مبدأ أمره، وكانت له صومعة على عمود رخام قائم طويل، وصنع على رأس العمود قائمة عظيمة، وعقد عليها قبة وكان يصعد إليها بسلم أبريسم معلق بأعلى القبة، وله سكّتان في الأرض، فإذا حصل في القبة، انتزع السكّتين وأخذ السلم إليه. فشاع خبره ونَما ذكره بالعبادة والرهبانية، فلما توجه إلى بلادهم وفتحت الخابور صلحًا، اجتمع حول ذلك العمود أُمم، وقالوا: يا أبانا ما الذي تشير به علينا، فإن العرب قد توجّهت إلينا وقد فتحوا الشام وأكثر العراق وحصلوا في أرضنا فما الذي نصنع؟ قال فاطّلع عليهم من القبة وقال:

يا معاشر النصرانية، ما زالت النِّعَم عليكم ظاهرة وباطنة، مطمئنين في البلاد، وقد ذلّت لكم رقاب العباد ونصركم المسيح على سائر الأمم، وردَّ عنكم سائر الغمم، ومهّد لكم الأرض في الطول والعرض إذ كنتم تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتردّون المظالم إلى أهلها وتحكمون بالحق وتتبعون شريعتكم، وتزجرون أنفسكم عن أكل الحرام واتّباع الزنا، فلما غيّرتم غيّر بكم، وفي إنجيل يحيىٰ وإنجيل مرقص مكتوب: مَن اتّبع سُنن الحق وعوّد لسانه طريق الصدق وفعل بأوامر ربّه وألزم نفسه بما يعنيه ولم يبخس الناس أشياءهم، وداوم على صلاته، وعمل بأوامر شريعته، ولم يتّبع هواه بلغه زهده ما تمنّاه، ومَن جار وبغى وظلم وتجبّر وحادَ عن طريق الحق، كان فناؤه عاجلاً ولنفسه بيده قاتلاً وخربت داره، ونفد ادّخاره، وكان الخوف شعاره، والجحيم دثاره، وفي التوراة

مكتوب: لا تظلموا إنه لا يحبّ الظالمين. وقد بلغني أن في القرآن مكتوبًا ﴿**إن الله لا يصلح عمل المفسدين**﴾ [يونس: ٨١] فأصلحوا ذات بينكم، واجعلوا تقوى الله نصب عيونكم، وقاتلوا عن أهلكم وحريمكم واتبعوا شريعة نبيّكم، وأخرجوا إلى جهاد عدوّكم، فإن الجهاد اليوم أفضل من جميع العبادات المأمور بها فإنه مَن جاهد أعداءه، كانت الجنة مأواه، ألا وإني نازل من صومعتي هذه فلا يتخلّف أحد منكم، ثم إنه أرسل سُلّمه ونزل، فلما رأوه وقد نزل أقبلوا عليه بالسلام وقبّلوا يديه ورِجليه، فأتى بهم إلى كنيسة دمائر وكنيسة باذا، فصلّى بهم ودعا، ثم أمرهم بالجهاد وقصد دير ملوخ هو قبله من دار عبديدان الروم، وكان فيه راهب فناداه باسمه وقال له: ليس هذا وقت العبادة فأنزله من صومعته وسار إلى نصيبين، فخرج إلى لقائه الملك قرقياقس، فترجّل إليه وصافحه، وسار بين يديه إلى البيعة وزار دير يعقوب، وهرع إليه أهل نصيبين فوعظهم وأمرهم بالجهاد، وقصد رأس العين وبلغ خبره لأرسوس بن جارس، فلما أسر عبد الله بن غسان ومَن معه بعثهم مع الراهب ميتا بن عبد المسيح ولقيته مارية في الطريق كما ذكرنا وأمرته بأن يسير بهم إلى قلعتها، فلما أبعد عنها لَقِيَ أباها في عسكره فسأله عمّا هو فيه فأخبره أن الملك شهرياض أرسله بهؤلاء الأسرى.

فقال له: مَن أنت؟ قال: ميتا بن عبد المسيح، فلما سمع أرسوس قوله فرح به وقال: وحقّ ديني لي زمان أرقبك ولست أستغني عن رأيك، ولكن انطلق بهؤلاء إلى قلعتي وتولَّ أنت حفظهم حتى يأتيك أمري وخذ خاتمي هذا. فانطلق وأوصلهم إلى القلعة ووضعهم في الاعتقال وتولى حفظهم بنفسه وجعل ينظر إلى حُسْن عبادتهم وجودة تلاوتهم فأقبل عليهم، وقال لهم: أخبروني كم فرض عليكم في اليوم والليلة. فقال عبد الله بن غسان: خمس صلوات فمَن أتى بها بركوعها وسجودها على الكمال لا يرد على النار قال الله تعالى في كتابه: ﴿**حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى وقوموا لله قانتين**﴾ [البقرة: ٢٣٨] وقال نبينا ﷺ: «الصلاة صلة ما بين العبد وربه فيها إجابة الدعاء وقبول الأعمال وبركة الرزق وراحة الأبدان وستر بينه وبين النار وثقل في الميزان وجواز على الصراط ومفتاح الجنة» وهذه الصلاة فرضت على جميع الأمم فلم يؤدّوها وقصروا فيها حتى فرضها الله علينا فأديناها والصلاة جامعة لجميع الطاعات فمن جملتها الجهاد وإن المصلّي مجاهد عدوَّين نفسه والشيطان وفي الصلاة الصوم فإن المصلّي لا يأكل ولا يشرب وزادت على الصيام التمسك بمناجاة ربّه وفي الصلاة الحج وهو القصد إلى بيت الله الحرام والمصلّي قصد ربّ البيت وزاد على الحج بقربه من ملكوت ربه قال الله تعالى: ﴿**واسجد واقترب**﴾ [العلق: ١٩] وقال نبينا ﷺ: «جميع المفترضات افترضها الله في الأرض إلا الصلاة فإن الله افترضها في السماء وأنا بين يديه» وقال: يا محمد هذه الصلاة افترضتها على جميع الأنبياء، وأما أُمتك فقد سلمتها إليهم وجعلت جميع الطاعات كلها فيها».

وقال ﷺ: «أتاني جبريل وقال لي: يا محمد قم فاصنع مثل ما أصنع، فتقدَّم وصلّى ركعتين وقال لي: يا محمد هذه صلاة الصبح وهي أول صلاة صلاّها ولذلك سمّاها الأولى، ثم صلّى به مرة أخرى إذ صار ظل كل شيء مثله، وقال له: هذه صلاة الظهر، ثم صلّى العصر أول وقتها وقال: هذه صلاة العصر، ثم صلّى به مرة أخرى إذ صارت الشمس مصفرّة، ثم صلّى والشمس قد غربت وقال: هذه المغرب، ثم صلّى به عند مغيب الشفق، وقال: هذه عشاء الآخرة، ثم صلّى المرة الخامسة والفجر قد طلع، وقال: هذه صلاة الصبح. وقال نبيّنا: فرضت الصلاة مثنى مثنى فزيدت في الحضر وتركت صلاة السفر على حالها». فقال ميتا لعبد الله بن غسان: يا أخا العرب فما معنى رفع أيديكم في الصلاة للتكبير. فقال: ألا ترى أن الغريق لمّا يجد شيئًا يتعلق به لينجو من الغرق، وكذلك العبد في الصلاة فهو غريق في بحار الخطايا والمعصية يرفع يديه ويقول: يا ربّاه خذ بيدي فإني غريق في بحار الخطايا والمعصية هارب منك إليك، وأما معنى القراءة في الصلاة فهو عتاب بين العبد وربه، وأما الركوع فمعناه أنا عبدك وقد مددت يميني إليك، وأما الرفع من الركوع وقول العبد: ربنا لك الحمد يعني على عتق رقبتي من الذنوب يقول الله تعالى بقول العبد أنا عبدك قد أعتقتك من الذنوب، وأما معنى السجدة الأولى ووضع الجبهة على الأرض كأنه يقول: منها خلقتني والرفع منها: أخرجتني والسجدة الثانية: وفيها تُعيدني والرفعة الأخرى: ومنها تخرجني تارة أخرى، وأما معنى السلام على اليمين: اللَّهمَّ أعطني كتابي بيميني ولا تعطني كتابي بشمالي، ولما حضرت عند رسول الله ﷺ سمعته قال: «مَن حافظ على الصلوات الخمس كانت كمثل نهر عذب يغتسل فيه أحدكم كل يوم خمس مرات فهل يبقى من درنه شيء فكذلك الصلوات الخمس لا تُبقي على العبد خطيئة».

فلما سمع الراهب ميتا كلام عبد الله قال: أشهد أنكم على الحق وأن دينكم حق وقولكم صدق، ثم أسلم، وبعده بقليل وصلت مارية لمّا علمت أن الصحابة في قلعة أبيها فلما صارت في أعلى القلعة ونزلت في دار أبيها باتت على قلق بسبب الصحابة فلما كان قد دخل عليها ميتا وسلّم عليها. فقالت له: يا ميتا ما الذي صنعت بالعرب؟ قال: استوثقت منهم حتى يرى الملك فيهم رأيه. فقالت: والله ما قصرت، ولكن اجعلهم معنا في البيعة حتى يروا حُسْن عبادتنا وقراءتنا الإنجيل فلعلهم أن يدخلوا في ديننا. فقال: السمع والطاعة ثم إنه نقلهم إلى البيعة فلما كان الليل أتت البيعة فرأت أصحاب رسول الله ﷺ وهم في القيود ولم يكن هناك سوى ميتا، فقالت له: يا ميتا أنت من علماء ديننا وما يخفى عليك الحق اطّلعت على دين هؤلاء القوم فالحق معنا أو معهم. فقال: أيتها الملكة ليس على الحق من غطاء، الحق مع هؤلاء العرب والذي قد جئتني به فانجزيه من قبل أن تطلبيه فلا تقدري عليه وقد رأيت بيان صدق القوم وصدق دينهم حتى جمع الله

بينك وبين ولدك عمودا. قال فلما سمعت كلام ميتا بقيت باهتة فيه فقالت له: ومن أين لك هذا؟ قال: رأيته في نومي، وحدّثها بما كان كأنه كان حاضرًا فسجدت شكرًا لله، فلما رفعت رأسها وثبت قائمة وحلّتهم من وثاقهم ودفعت إليهم السلاح وأمرت ميتا أن يكرمهم، وقالت له: أنا أدبّر كيف تقبض على الوالي ونملك القلعة، ثم إنها سارت إلى قلعتها وولّت عليها مَن هي به مطمئنة الفكرة وأخرجت منها مَن تخشى جانبه واستوثقت منها، وأما ميتا فإنه جعل الصحابة في البيعة في بيت المذبح، وقال لهم: إذا كانت غداة غد وأتى الوالي وأصحابه إلى الصلاة فاخرجوا عليهم فإن الله ينصركم عليهم.

قال الراوي: فلما كان الصبح أقبل الوالي وخواصّه ليصلّوا وضُرِبَت النواقيس وأتى القسّ ليفتح باب المذبح ويقرّب القربان، فلما فتح الباب خرج عبد الله بن غسان وأصحابه الأربعون وكبّروا تكبيرة واحدة ارتعدت لها القلعة وما فيها وبذلوا السيف فيهم فقتلوهم عن آخرهم واحتووا على القلعة وما فيها وسمع أهل الربض التكبير فعلموا أنهم قد ملكوا القلعة فولّوا على وجوههم هاربين، قال فلما سمعت مارية التكبير والصياح علمت أن قلعة أبيها قد ملكت فغلقت أبواب قلعتها وأرسلت مَن تثق به إلى عياض بن غنم وأخبرته بما جرى فشكر الله على ذلك ووصل أكثر المنهزمين إلى الملك شهرياض وأعلموه أن قلعة ماردين ملكها العرب فصعب عليه وأيقن بتلف مُلْكه ووقع الرعب في قلبه وقلوب عسكره وبلغ أرسوس الخبر أن قلعته ملكت وخزائنه أُخِذَت فكتم أمره إلى الليل وأخذ مَن يثق بهم، وسار يطلب حرّان فوصل إليها في الليلة الثانية، فلما قرب من الباب قام إليهم الحرس فصاح بهم أصحابه وقالوا: افتحوا، هذا البطريق رودس يعنون بطريقهم الأول وقد تخلص من العرب ففتحوا لهم فدخل أرسوس وملك المدينة وفشا الخبر في تلك البلاد أن أرسوس صاحب ماردين قد ملك حرّان بالحيلة فقصد إليه جميع مَن يطلب الديوان فصار عنده جيش عظيم.

ذكر فتوح الرّها وحرّان

قال الراوي: وكان لرودس هذا صاحب حرّان المقبوض عليه ولد وكان قد قبض أبوه عليه لأنه خاف منه وكان شجاعًا اسمه أرجوك فقبض عليه وحبسه في العمق وكان له أُمّ اسمها ستّ العسكر وهي صاحبة سميساط، وكانت قد مضت إلى زيارة أهلها وهي غضبانة للقبض على ولدها، فلما بلغها أن أرسوس ملك حرّان صعب عليها وركبت من سميساط وجاءت العمق وخَلَت بولدها وأخبرته أن حرّان ملكها أرسوس فأخرجته وسلّمت إليه الأموال وقالت: أنفق على الفرسان واجمع لك جيشًا وامضِ إلى هذا الرجل الذي فعل ما فعل، قال فأنفق المال وأتت إليه الرجال وبقي في جيش عظيم وعبر الفرات

وقصد حرّان وبلغ أرسوس الخبر فخرج إلى لقائه والتقى الجمعان وكان قد قَدِمَ أمام جيشه بطلاً من الأرمن اسمه أرجوك في ثلاثة آلاف فوقعت الهزيمة على الأرمني.

حدّثنا عبد الله بن أسيد. قال: حدّثنا سالم بن ربيعة عن عدلان التميمي عن محمد بن عمر الواقدي. قال: لمّا بلغت الأخبار إلى عياض بن غنم بمسير أرجوك الأرمني إلى أرسوس أحضر عياض رودس صاحب حرّان وأخبره بما انتهى إليه من خبر أرسوس وكيف ملك حرّان وأن ولده يريد أن يلقى أرسوس وإني قد عوَّلت على قتلك إلا أن تدخل في ديننا، فقال: إن أنت أطلقتني سلّمت إليك ما تحت يدي من القِلاع ولعلّي أُخلّص حرّان لأن أهلها يحبونني لأني كنت مُحسِنًا في حقهم، وأنا أقول إنهم إذا رأوني سلّموا إليّ البلد، وأنا أُسلّمها إليكم على أن تعطيني السويداء ونصيبين الصغرى، وأنا أعطيكم الجزية كل عام. قال: فأجابه إلى ذلك وأمر عبد الله يوقنا أن يستحلفه فحلف وأجاب إلى ذلك فأطلقه وبعث معه يوقنا في جماعته وردّ على رودس خيامه وثقله وجماعته وانسلّوا من الليل من مرج رغبان طالبين حرّان، فلما قربوا منها أرسلوا عيونهم فوجدوا العسكر نازلاً خارجًا منها وعسكر ولده بإزائه غير أنه قد أسر أرجوك وأخذ أرسوس، وأن عسكره باقٍ على حاله وقد بعث إليهم أرسوس رسولاً يدعوهم أن يكونوا من حزبه وينعم عليهم وأن ينزل بهم وبعسكره على الرها ليأخذها وتصير من تحت يده، قالوا: حتى نرى لأنفسنا في ذلك.

قال الراوي: فلما قَدِمَ رودس ويوقنا ونظرا إلى العسكرين والنيران تتّقد، قال رودس ليوقنا: هذه النار القريبة لا شك أنها لعسكر ولدي فأرسل إليهم مَن يختبرهم فسار الرجل وعلم مَن هم وعاد فأخبره أن القوم معوّلون على أن يحلف لهم أرسوس، وأن يكونوا جنده وقد تقرر الحال على أنه في غداة غد يخرج في مائة فارس من أصحابه إلى دير فرها بين الرّها وحرّان ومن عسكر ولدك خمسون من أكابرهم ويتعاهدون هناك، قال: فلما سمع يوقنا ذلك تهلّل وجهه فرحًا، وقال لرودس: أبشر فقد صار القوم في قبضتنا. ثم مضوا يطلبون الدير وكمنوا بالقرب منه ثم إن يوقنا أرسل غلامًا له، وكان نجيبًا قد ربّاه وكان اسمه شامس وكان لبيبًا، فقال: يا شامس انطلق إلى صاحب الرّها وهو كيلوك وقل له إن مقدمي صاحب أرجوك قد بعثني إليك لكي يكونوا من رجالك فإنك منهم وإليهم وأرسوس من الروم، وإن رجالاً منّا يأتون إلى دير فرها وأرسوس معهم حتى يحلف لهم ويحلفوا له ويريد منك أن تخرج في مائة وتكمن لنا بالقرب من الدير. فإذا قَدِمنا فاخرج علينا، قال: فانطلق شامس إلى أن قَدِمَ على صاحب الرّها وحدّثه بما ألقى إليه صاحبه يوقنا، وكان من قضاء الله وقدره أن الحيلة التي دبرها يوقنا وبعث بها إلى صاحب الرّها

قد بعث بها أكابر جيش أرجوك، فلما قَدِمَ شامس عليه من قبل يوقنا وحدّثه بالحديث الذي ذكرنا تأكد عنده ذلك وخرج في أربعمائة من قومه في أكمل سلاح وساروا طالبين دير فرها، قال وكان يوقنا قد كَمَن بالقرب منهم واختلس شامس وأتى إلى يوقنا وأخبره بأنهم كامنون في المكان الفلاني وهم منكم قريب، قال وأما ما كان من أمر أرسوس فإنه لما أرسل رسوله إلى الأرمن من عسكر أرجوك أتى رودس، وقال لهم إنه يحلف لهم ويحلفون أنهم لا يخامرون عليه ووقع الاتفاق على أن يكون الحلف في دير فرها، فلما كان آخر الليل مضوا وهم متباعدون من بعضهم خوفًا من الغدر وكان خاطرهم طيبا بصاحب الرها بما قرروا عنده. ثم إنه قبل خروجهم أعلموا ألفًا من شجعانهم بأن ينسلّوا من العسكر في خفية وأن يلحقوهم ليكونوا عونًا لصاحب الرّها، وقالوا لهم: لا تتكلموا دون أن تروا صاحب الرّها قد خرج عليه بكمينه. فإذا خرجتم فازعقوا بشارة كأنكم من أصحابه حتى يطمئن إليكم فلعل أن تقبضوا عليه حتى يخلص أميرنا أرجوك، قال فانسلّوا من أول الليل ولم يعلم بهم أحد.

قال الراوي: ولما أشرف أرسوس على الدير إذا به قد خرج عليه مائتا فارس من أصحاب رسول الله ﷺ وكان المقدّم عليهم عمرو بن معديكرب الزبيدي، وكان السبب في ذلك أن عياض بن غنم لما بعث رودس ويوقنا معه وأصحابه ساء ظنه من جانب رودس، وقال: لقد فرطت وأذهبنا وليَّ الله مع عدوّ الله. قال خالد: أيها الأمير لا تشغل سرّك من قبل رودس فإن ملوك الروم إذا قالت وَفَت ويرون العار في أن يقول أحدهم قولاً ولا يَفِي به، فقال: يا أبا سليمان إنه لا ينبغي لنا أن نغفل عن صاحبنا ومَن معه. ثم إنه أرسل عمرو بن معديكرب الزبيدي في مائتي فارس وساروا طالبين حرّان فلقوا في طريقهم أرسوس وهو خارج إلى الدير فقبضوا عليه وعلى مَن كان معه، وأما يوقنا فإنه قبض على كيلوك صاحب الرّها وكَمَن إلى الليل وتوجّه إلى الرّها، فلما قربوا منها وقد لبسوا الثياب التي كانت على صاحب الرّها وألبس جماعته ثياب جماعة صاحب الرّها، فلما قربوا منها وكانوا قد أوقدوا لهم مشاعل فتحوا لهم الباب فدخلوا، فلما حصلوا داخلها رفعوا أصواتهم بالتهليل والتكبير والثناء على ربّ العالمين فما جسر أحد من العوام أن يتكلم واحتوى يوقنا على ما كان فيها من ذخائر وتحف وخزائن كيلوك وأمواله وترك عليها مَن يثق به بعدما قبض على مَن يخافه من رؤسائها وأكابرها وكان قد استأمنه ابن عمّ كيلوك فأمنه فدلّه على جميع ما كان لكيلوك. ثم أخذه أمامه وساروا طالبين حرّان فوجدوا رودس قد فتحها وذلك أنه لمّا قبض عمرو بن معديكرب على أرسوس سار رودس ومعه بقية عسكر المسلمين حتى وصل إلى حرّان ونادى الناس الذين على السور، فلما عرفوه فتحوا له الباب وصقعوا وساروا معه إلى دار إمارته فملكها وأتى له عظماء البلد وهنّئوه بالسلامة فقام فيهم خطيبًا، وقال لهم: اعلموا أن الله تعالى أنقذني وأنجاني

وقد جرى من حديثي كذا وكذا وأني عاهدت أمير القوم أن أُسلّم إليهم هذه المدينة ويوليني على نصيبين الصغرى والسوداء وحلفت له على ذلك، وأني سوف أوفي بعهدي وأُشهدكم أن كل دين يخالف دين الإسلام فهو باطل، وأنا أشهد أن لا إلٰه الله وأشهد أن محمدًا رسول الله. قال فلما سمع أهل حرّان ذلك، قالوا: لقد أراد الله بك خيرًا ونحن نوافقك على إسلامك فأسلموا إلا قليلاً منهم.

ذكر فتوح قلعة رأس العين

قال الراوي: حدّثنا ربيعة بن هيثم عن عبد الله التنوخي عن عبدان بن عطية قال: ما أسلم من أهل الجزيرة إلا حرّان، فلما رآهم أصحاب رسول الله ﷺ قد دخلوا في الإسلام، قالوا: اللّهمّ ثبّتهم على دينك ولا تمكّن من بلدهم عدوًّا وأعادوا الكنائس مساجدًا وجوامع وسلّموا الصحابة ما حول حرّان والرّها تسليمًا وأتى يوقنا من الرّها إلى حرّان واجتمع بأصحاب رسول الله ﷺ وشاورهم في أمر الرّها وكيف يكون حكمها، فقال سعيد بن زيد: إنك قد أخذت هذا البلد بحيلتك، وقد قال رسول الله ﷺ: «الحرب خدعة» وقد صار كلّ مَن فيها عبيدًا للمسلمين هم وأموالهم. فقال يوقنا: أنتم تعلمون أن أكثر الجزيرة ما ملكتموه، وثم إلى الآن حصون وموانع والصواب أن تصنعوا جميلاً وخيرًا يعلو به ذكركم ويرتفع به فخركم، فقال له سعيد: إذا كان الأمر على ما ذكرته فاتركوهم على حالهم حتى نرى ما يرى فيهم الأمير عياض بن غنم. قال ففعلوا ذلك ثم إن الأخبار اتصلت بالملك شهرياض أن حرّان والرّها وسروج والسخن وأكساس والعمق قد صارت كلها للعرب فأيقن بزوال ملكه فدخل إلى رأس العين هو ومَن يثق به وصلّوا في بيعة نسطوريا وهي الجامع اليوم، فلما فرغوا من صلاتهم قال: يا معاشر الروم اعلموا أن العرب قد شاركونا في بلادنا وقد صار لهم معاقل يجتمعون فيها وتقوم بأودهم ويصل إليهم منها الميرة والعلوفة وتجيئهم منها الأموال والخابور وفيها كلها حكمهم وما بقي بيننا وبينهم إلا هذا المصف. فإن كان لنا فلا مقام للعرب بيننا وإن كان للعرب فالبلاد لهم من دوننا وقد رأيت رأيًا فيه السداد. فقالوا: وما هو؟ قال: أرى أن أُماطلهم بالمصف ونكتب للملكين المعظّمين شقر وزعفرة فلعلهما ينجدوننا بعسكرهما ونكاتب الملك حرفتاس بن فارس ونكاتب الملك الأنطاق صاحب نينوى وبلادها وإلى الحبرا بن صاحب الهكارية. فإذا أرسلوا إلينا عسكرهم نستعين بالمسيح ونلقى المسلمين والله يعطي نصره لمَن شاء، فقالوا: هذا رأي جيد فكتب الكتب وأرسل الرّسل إلى الملوك المذكورة وعاد إلى عسكره.

قال الواقدي: وما منع عياض بن غنم عن حرب القوم إلا أنه رأى أن البلاد تفتح لأصحابه بدون قتال فلم يستعجل لأنه قوي ظهره بالبلاد التي فتحت، وأيضًا أنه كتب إلى

عبيدة بن الجراح يطلب منه خبرًا يأتيه، قال ووصلت كتب الملك شهرياض إلى أصحاب الأقاليم فما منهم إلاّ مَن عيّن عسكرًا لنصرته. قال ووصل مكتوبه إلى صاحب أخلاط وكان له بنت ذات جمال فائق وكانت من الشجاعة على جانب عظيم، وكان اسمها طاريون وكان مستقرها بجبل سمّوه باسمها، وكان كل مَن خطبها لا ترضى به إلا أن تلقاه في الميدان فإن قهرها كانت له زوجة. قال وإنها غلبت جميع خطّابها، وكان من جملة مَن خطبها غلام اسمه سوسى بن سلنطور صاحب جبل السناسنة وكان قد قَدِمَ إلى أخلاط بهدية من أبيه إلى أبيها، فقالت هي: على شرط معروف فبارزته في الميدان فقهرته وجزّت ناصيته ومرّت الأيام والليالي، فلما بعث الملك شهرياض يستنجد الملوك وأرسل إلى صاحب أخلاط أرسل إليه أربعة آلاف فارس وأمّر عليهم ابنته طاريون، وقال لها: أي بُنَيّة قد قدّمتك على الجيش وأُريد منك أن تظهري على العرب ما كنت تظهرين به على الفرسان حتى تُشكَري عند أُمة المسيح. قال وأرسل معها ملك السناسنة نجدة وهم ألف رجل وكان المقدّم عليهم ولده فسار في صحبتها وكان الغلام قد كَمُلَ شأنه وحَسُنَ كماله وابتدر هلاله ولم يكن أحد في زمانه يوصف بجماله، فلما نظرت طاريون إلى حُسنه وجماله نظرته بعين المحبة فوقع قلبها في شبكة عشقه فسيّرت رجالها مع رجاله.

قال الواقدي: وأحسن ما رأيت في هذه الفتوح أنه كان لهذه الجارية ابن عمّ اسمه برغون وكان يحبها ولا يستطيع أن يسمع بذكرها وكان من أهل الشجاعة والشدة وكان تحت يده من المعاقل حيزان والمعدن وأبزون وقف وأنطر وأيدليس وأرزن وأنه سار ينجد شهرياض في ثلاثة آلاف، فلما عبر جيش ابنة عمه طاريون بيدليس اهتم لها وأكرمها وأهدى لها الهدايا والتحف وسار معها إلى أن عبروا حصن كيفا وأخذوا طريقهم على الموزر ونزلوا على حصن يُعرَف بالهتاج على طريق النهر وكان لابن عمّها عيون يطلعون على أخبارها. قال فلما نزلت على النهر أرسلت إلى الغلام سوسى الذي تحبه وهي تقول له: اعلم أن المحبة الصادقة لا تكون إلا بعد العداوة المفرطة وقد ندمت على ما فات وما كان مني إليك وقد رأيت أنك بعد رجوعنا من قتال العدو ترسل إلى أبي وتطلبني منه، ولكن أُريد منك أن تصل إليّ ليلاً وفي خفية من ابن عمي يرغون حتى تحلف لي أنك ترسل إلى أبي وتطلبني منه وأحلف لك أني لا أُريد سواك وبعثت له بهدايا مع بعض خدمها وأرسلت معه شيئًا من الحلوى وأرسلت مثل ذلك لابن عمها ولكل أمير صحبها حتى لا ينكر عليها. قال وإن ذلك الخادم قد علم بما جرى وكان هذا الخادم قد ربّى ابن عمها على كتفه وكان يحبه محبة شديدة فأعلمه بما وقع من حديثها مع الغلام سوسى بن سلنطور وهي تريد أن تجتمع به الليلة حتى تحلف له أنها ما تريد غيره. قال فكتم يرغون أمره، فلما جنَّ الليل طلب عظماء جيشه، وقال لهم: اعلموا أني ما وُلِّيت عليكم إلا وقد علم المسيح أن عقلي أوفر من عقلكم. قالوا: أيها الصاحب أعلِمنا بما تريد حتى نقبل

قولك ونطيع أمرك. قال: يا قوم اعلموا أننا سائرون على غرّة وعن قليل ترون الخيل تنوشنا والرماح تحوشنا، قالوا: وكيف ذلك؟ قال: لأن العرب لا تنام ولا ترام، وقد عاد النصر إليهم، واعلموا أن الملك شهرياض ليس بأعظم همّة ولا أكثر جنودًا من هرقل ولا من ملوك الأرض، وقد ملكت العرب دولتهم وأخذوا معاقلهم وأذلّوا ملوكهم، وأنا أعلم أن شهرياض لا ثبات له مع العرب يوم المصف، وقد ملكت بلاده وهي: حرّان والرّها وسروج والبيرت والخابور، وقد أخذوا ماردين وقلعة ماردين يعني قلعة المرأة، وأخذوا أرسوس وابنته مارية، وكأنكم بالعرب قد ملكت ديار شهرياض وعادت إليكم وملكت دياركم، وسَبَت حريمكم، واعلموا أن الحق مع العرب وأنهم إذا قالوا قولاً وفوا به، ومَن أسلم إليهم أمِنَ على نفسه وأهله وماله، سواء رجع إلى دينهم أو أقام على دينه، واعلموا أن بقلبي النار من هذه الجارية طاريون، وقد أرسلت إليها لتكون لي أهلاً وأكون لهاَ بعلاً، فأبت ذلك وهي تحب ابن ملك الغساسنة، فإن تزوجت به وصاروا يدًا واحدة أخذوا معاقلنا وملكوا حصوننا ولا يكون لنا معهم مقام، وقد رأيت أنني في هذه الليلة أقبض عليها، ثم إنه أخبرهم بما حدَّثه به الخادم. قالوا: أيها الملك إذا أخذتها فأيّ أرض تؤويك وأي حصن يحميك؟ قال: نقصد إلى عسكر العرب ونأخذ لنا منهم أمانًا. قالوا: إذا كنت عوَّلت على ذلك فاعزم. قال: فخذوا على أنفسكم وتأهّبوا للرحيل ففعلوا.

قال الواقدي: فلما جنّ الليل، تزيّا يرغون ابن عمّها بزيّ الغلام سوسى، وسار إلى سرادق الجارية، فلما رأته ظنت أنه سوسى فوثبت إليه قائمة وسلّمت عليه وصقعت له، وكانت قد أبعدت الحرس عنها والغلمان والحجّاب حتى لا يطّلع أحد على سرّها، قال ثم إنها تحققت أنه ابن عمّها فاستحيت منه ووجلت، فلم يمكنها إلا أن تخدمه بأعظم خدمة. فقال لها: يا طاريون أظننت أني لا أقف على سرّك ولا أبحث عن أمرك؟ يا ويحك أيّ مناسبة بين الروم والأرمن، حتى أنك مِلْت إلى ابن ملك الغساسنة وتركت مثلي، ثم إنه مال عليها بشدَّته وقبض عليها وألقمها أكرة وكتّفها وخرج بها إلى عسكره، فوجد أصحابه قد لبسوا وركبوا ورموا المضارب، وشالوا ثقلهم، فلما وصل إليهم حملها على بغل وساروا ونظر أصحاب سوسى إلى رحيل يرغون، فقال لهم: أمهلوا أنتم بالرحيل إلى أن يطلع الفجر، فإن هذا طريق ضيق تزدحم فيه الخيل والبغال، قال ففعلوا ذلك وجدَّ يرغون في السير، فما أصبح إلا وهو على مرج السور، فنزل هناك، وأما الغلام سوسى فإنه لم يمضِ إلى الجارية ولا سأل عنها ولا سار إليها، لأنه خاف أن يكون ذلك منها مكرًا به، فتقبض عليه، فلما أصبح أمر غلمانه بالرحيل وركب وأتى إلى سرادق الجارية طاريون، فوجد قومها ينتظرون خروجها من سرادقها، فدخل عليها خادمها وخرج وقال لهم: إن الملكة ما كان من أمرها ولا سبب لغيبتها. قال فماج أصحابه

وأرادوا الرجوع، فقال لهم صاحبها: إن عدنا إلى الملك فلا نأمن أن يرمي رقابنا ويقول كيف غفلتم حتى أُخِذَت ابنتي من بينكم، وما عندكم خبر وما أخذ الملكة إلا يرغون ابن عمها لأن في قلبه شيئًا، ثم إنهم ركبوا وجدّوا في طلبه. قال وإن يرغون لمّا نزل في مرج السور واستراح، وهمَّ بالمسير إذا بالقوم قد أشرفوا عليه، وهم يزعقون: يا ويلك اترك الملكة من يدك، قبل حلول منيّتك، فاستقبلهم هو ومَن معه من بني عمّه وأقاربه فعندها قال لبني عمّه: اعلموا أن العرب ما نصروا على أعدائهم إلا بالصدق في دينهم وقتالهم عن دين الله، واعلموا أن هؤلاء القوم الذين طلبناهم لا يبخلون لا سيما إذا علموا أننا قصدناهم وأردناهم من غير قهر، لكن من طريق العقل أن دينهم أفضل من ديننا لأنهم يشيرون إلى الله بالوحدانية، ونحن نسجد للصلبان والصور ونقول إن للخالق زوجة وولدًا وهو واحد أحد فرد صمد، وقد بلغني أنهم يقولون إنه مَن قتل منهم صار إلى الجنة، ومَن قتل منّا صار إلى النار لأننا عندهم من الكفّار، فإن كنتم تريدون النصر على أعدائكم فأقرّوا الله بالوحدانية وقولوا: لا إله إلاّ الله محمد رسول الله. قال فأعلنوا بكملة التوحيد فدوّت من أصواتهم الجبال والتلال والرمال والشجر والحجر، فلما سمع أعداء الله ما نطقوا به علموا أنهم دخلوا في دين الإسلام، فتقدم سوسى وقد داروا بيرغون وأصحابه وقالوا له: يا ويلك يا يرغون أما كفاك أن تكون غادرًا حتى تكون بدين النصرانية كافرًا؟ أتظن أن برجوعك إلى دينهم ينصرونك علينا، وأين العرب وما يصل صائحك إليهم إلا ونحن فرغنا منك. وقتلناكم أشرّ قتلة عن آخركم؟ فقولوا لمحمد ينصركم، ثم إنهم حملوا على يرغون ومَن معه، فاستقبلوهم بنية صادقة، وهِمَم متوافقة، وأعلنوا بكلمة الحق، والصلاة على سيد الخلق، وبذلوا صوارمهم في العدا وأوردوهم شراب الردى، وقصدوا نحو أعدائهم وطلبوا بجهادهم منازل الجنة، وطلّقوا الدنيا ثلاثًا وكانوا يمشون في ظلمات ثلاث، فانقدحت نار شوقهم بزناد صدقهم فأحرق زرع الكفر **﴿فأصبح هشيمًا تذروه الرياح﴾** [الكهف: ٤٥]، فلما أضاءت لهم الأفكار ولاحت لهم لوائح الأنوار لم يجدوا مَن يُشار إليه بالوحدانية ويوصف بالإلـهية وينعت بالأزلية إلا الواحد القهّار، فركضوا في ميدان الاعتذار، ونادوا بلسان الإقرار: آمنا بالله الواحد القهّار، فلما سرَّحوا خواطر الافتكار، في أسرار الاعتبار. قالوا: كيف عبدنا سواه؟ وما ثم لنا معبود إلا إيّاه، فواخجلتنا إذا وقفنا بين يديه يوم العرض عليه، فبأيّ عمل نلقاه، وبأيّ بضاعة نقصد رضاه، فأشار إليهم منادي الإيمان من القرآن **﴿وآخرون اعترفوا بذنوبهم خلطوا عملاً صالحًا وآخر سيئًا عسى الله أن يتوب عليهم﴾** [التوبة: ١٠٢]، فلما رحلوا في عسكر الطاعة، وخافوا من هول يوم الساعة، وجعلوا رواحل رجائهم، في ركب إقبالهم، وساروا في موكب عزهم وجلالهم، أشرقت شموس إسلامهم في فلك استسلامهم،

وانقضت بازات أفراحهم، من جوّ أتراحهم، ومنادي جهادهم يناديهم: يا أخيار ﴿**سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار**﴾ [الرعد: ٢٤].

قال الواقدي: ودارت بهم الأوغاد، وشرعوا نحوهم الصعاد، وأشرف يرغون وأصحابه على الهلاك، وإذ باب السور قد فتح وخرج منه مائة فارس كالليوث العوابس، وقد رفعوا أصواتهم بالتهليل والتكبير، ونادوا: يا مَن تعلقوا بكلمة التوحيد أبشروا بالنصر والتأييد، ها نحن قد لبّينا دعوتكم، وخرجنا لنصرتكم وسوف نخلّصكم من الأمر المهول، فنحن أصحاب الرسول.

قال الواقدي: وكان هذا السور حصنًا من الحصون وكان قد سلّمه ميتا لأصحاب رسول الله ﷺ وكان قد أرسل عياض بن غنم عبد الرحمٰن بن أبي بكر الصديق في مائة فارس ليأتوه بالميرة، وكان فيهم المقداد بن الأسود وضرار بن الأزور، وسعد بن غنيم الأسدي، ومعمر بن ماجد السلمي، وباري بن مرّة الغنوي، وهلال بن عامر الأنصاري، وعيينة بن رافع الجهني، وخضر بن يعشور الفزاري، ومثل هؤلاء السادات رضي الله عنهم أجمعين، فلما وصلوا إلى السور تلقّاهم طالوت صاحب الحصن وأنزلهم وأكرمهم وأمر لهم بالطعام وأقاموا عنده ثلاثة أيام حتى جاء يرغون، وكان من أمره ما كان، فلما سمعوهم يكبّرون قالوا: هؤلاء قد دخلوا في ديننا، وقد وجب علينا نصرتهم فخرجوا كما ذكرنا وحملوا على أعداء الله ونصروا يرغون ومَن معه وانهزموا في الليل إلى مرج رغبان إلى الملك شهرياض فأخبروه بما جرئ عليهم. قال فأيقن بذهاب ملكه. قال: فلما أصبح يرغون أتى إلى الصحابة وشكر الله إذ نجّاه ومَن معه على أيديهم، وقد ازدادوا إيمانًا وحدّث الصحابة بما كان من أمرهم وسار معهم إلى عياض بن غنم، فما جازوا على ماردين نزل إليهم ميتا وكان قد بلغه ما جرى فسلّم عليهم وهنّأهم بالسلامة وقال ليرغون وأصحابه: إن كنتم تريدون الثواب الجزيل من الملك الجليل فتمّموا إسلامكم بما ألقيه عليكم. فقال يرغون: وكيف العمل؟ قال ميتا: انزل هٰهنا أنت ومَن معك فإذا غربت الشمس فسيروا على بركة الله وعونه واقصدوا كفر توتا. فإذا جئتم إليها ليلاً فقولوا لأهلها: نحن قد وجّهنا الملك إليكم لحفظ المدينة. فإذا صرتم داخلها فثوروا على اسم الله وبركة نبيّه. قال ففعل ذلك يرغون وجلس إلى أن جنّ الليل وارتحل بجيشه وثقله وودّعوا الصحابة وساروا بالميرة وسار يرغون إلى أن وصل إلى كفر توتا، وكان آخر الليل والفجر بدر، فلما وصل إليها أمر أصحابه أن يرفعوا أصواتهم بذكر شعارهم حتى لا ينكر عليهم القوم وجاءت الأثقال والبغال وسمع أهل كفر توتا ضجة العسكر فأشرفوا عليهم من أعلى السور وسألوهم مَن أنتم؟ قالوا: نحن من عسكر الملك شهرياض وقد بعثنا لنكون عونًا لكم.

قال الواقدي: وأعجب ما في هذه القصة أن الملك شهرياض قد بعث إليهم يعرّفهم أني مرسل إليكم جيشًا مع الحاجب، فإذا وصلوا إليكم فافتحوا لهم الباب فإن العرب في آثارهم. قال فلما وصل إليهم يرغون ومَن معه وقالوا لهم نحن من عسكر الملك فتحوا لهم ودخلوا ولم يتكلم حتى أنه نزل في دار الإمارة فلما استقر به الجلوس وثق من الأبواب وصعد إلى السور وقال لأهل البلد: استريحوا، لأن الملك قد وصّاني بالحرس على البلد فقالوا: أيها السيد إن كتاب الملك قد جاءنا بغير ما قلته بأن لا يتولى حفظ البلد إلا الحاجب. قال فلما سمع يرغون قولهم علم أن الملك يريد أن يرسل لهم جيشًا فقال لهم: انصرفوا إلى منازلكم وإياكم أن يظهر منكم أحد في الليل فإني إن وقعت بأحد منكم قتلته، قال فانصرفوا ولم يبق عنده سوى الوالي الذي كان من قبل توتا هو وغلمانه فقبض عليهم يرغون وضرب رقابهم وتركهم في بعض الأبراج المهجورة وقال لأصحابه: كونوا على حذر فإن شهرياض يريد أن يرسل جيشًا إلى هذه المدينة فإذا رأيتموهم قد وصلوا فانزلوا وافتحوا لهم درقة الباب الواحدة، وكلما دخل فارس فأبعدوا به عن الباب وأنزلوه عن فرسه وخذوا عدّته وكتّفوه وألقوه في البرج. قال فبينما هو يوصيهم إذ وصل الجيش وهم ألف فارس والمقدّم عليهم صاحب الملك الكبير فصاحوا عليهم: افتحوا لجيش الملك فتبادرت أصحاب يرغون ففتحوا درقة الباب الواحدة وقالوا: لا نمكّن أحدًا يدخل إلا واحدًا واحدًا مخافة من يوقنا وأصحابه فإنّا نخاف أن يدخلوا في جملتكم، فبقي كلما دخل فارس رجلوه بعد أن يبعدوا به عن الباب ويأخذوا سلاحه وجواده ويكتّفوه إلى أن أدخلوا الألف والحاجب بعدهم، فلما اجتمعوا نادوا بأعلى أصواتهم الله أكبر الله أكبر فُتح الله ونصر وجاءنا بالظفر. قال فارتجّ كفر توتا ووقع الرعب في قلوب أهلها وعلموا أنهم ملكوا بلدهم فلم يجسر أحد منهم أن يظهر في المدينة ومَن ظهر قتل، فلما أصبح طلب يرغون أكابر البلد ومشايخها وبطارقتها، فلما حضروا قبض عليهم وأنفذ إلى عياض بن غنم يعلمه بما صنع، فلما وصلت إليه الرسالة سجد لله شكرًا، وكان عبد الرحمٰن بن أبي بكر وأصحابه لمّا وصلوا بالميرة أخبروا المسلمين والأمير بما وقع وأن يرغون مضى إلى كفر توتا فكان منتظرًا لما يأتي إليه من خبره، فلما جاء الخبر بالفتح حمد الله تعالى وتفاءل بالنصر.

قال الواقدي: قال عياض بن غنم للصحابة: اركبوا ودونكم والقوم ولا حول ولا قوة إلا بالله العليّ العظيم، وأمر خالد بن الوليد أن يكون بأصحابه في الميمنة من القوم وأمر عمر بن سالم أن يكون على يسار القوم وقال لهم: لا تخرجوا حتى تشبّ نار الحرب وتشتغل بالطعن والضرب فاحملوا واعتمدوا على السيوف فإنها أقرب للحتوف وليكن شعاركم التهليل والتكبير واقطعوا أجل أُمنيتكم من الحياة الفانية، وارغبوا في العيشة الراضية، وإياكم والميل إلى دار الغرور، فإنها محل النوائب والثبور ﴿فلا تغرنّكم

الحياة الدنيا ولا يغرَّنَّكم بالله الغرور﴾ [لقمان: ٣٣] وقفوا بهِمَمِكم وقوف قوم غذّوا بحلاوة وصاله فصانوا أمرهم بالوقوف على طاعته فهاموا وتجرّدوا في الليل لخدمته وقاموا فأثنى عليهم إذ بحبه هاموا **﴿إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا﴾** [فصّلت: ٣٠] قال فسار أصحاب رسول الله ﷺ نحو الجهات التي ذكرنا وزحف الموحّدون ونشرت الرايات والبنود وتواعدوا على اللقاء في اليوم الموعود وقالوا: إلٰهنا ما لنا سواك من نصير فأنت **﴿نعم المولى ونعم النصير﴾** [الأنفال: ٤٠] قال: ووقع الصائح في عسكر الروم أن المسلمين قد زحفوا وأشرفوا. قال فتبادروا إلى القتال وتمسكوا بقول المُحال ولبسوا وتدّرعوا، وعن الآخرة نزعوا وإلى الصليب تضرّعوا، ورفعوا رايات الطغيان وتلت عليهم الإنجيل القساوسة والرهبان، وفتحت لهم أبواب النيران عندما أشركوا بالرحمٰن وصار على جيشهم من الكفر شبه الدخان، وصار إمامهم الشيطان، وعلا منهم الضجيج ووقعوا في أمر مريج، فلما نظر المسلمون إلى كثرة مَن اجتمع من قومهم استسلموا لحكم القضا وقالوا: نرضى بما قدّر وقضى فنودوا من سرائرهم قد اشترينا منكم النفوس فاصبروا لحكم الملك القدوس ولا تولّوا الأدبار فقد سبق الحكم وانبرى وخط القلم في اللوح وجرى وكتب بأمر الله **﴿إن الله اشترى﴾** [التوبة: ١١١] قالوا: ما الذي اشتراه مَن له المنّة؟ قال: **﴿أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة﴾** [التوبة: ١١١].

فقالوا: نحن نريد التسليم لنصل إلى جنان النعيم. فقيل لهم: انهضوا إلى سوق المبيع فقد هبّت بشائر الربيع وتجلّى لقبض أرواحكم البصير السميع فسبّحوه وسجدوا ورفعوا أصواتهم بتوحيده ومجّدوا، فلما أيقنوا بالوصال طلع لهم سهيل الحل وأزهرت شجرة الأحوال واستدار لهم رقيبه في فلك التيسير وناداهم **﴿إني بما تعملون عليم﴾** [المؤمنون: ٥١] فلما سمعوا منادي الأفكار يناديهم بالعشي والأبكار بذلوا نفوسهم وأرضوا قدوسهم وجاهدوا واجتهدوا وحملوا واقتصدوا ونهلوا من نهر الشهادة ووردوا ولم يزالوا في حرب الأعادي وموارد الاجتهاد في مغاني ميادين الجهاد حتى خرجت الكمناء وهبّت عواصف رياح الفناء، فدمر ما كان شيّده الكفّار من البناء وانتشرت أستار ما أملوه من الأماني والمني فقتلت بينهم الصناديد، وأصبحوا صرعى على وجه الصعيد، وناداهم منادي التهديد **﴿إن عذابي لشديد وما هي على الظالمين ببعيد﴾** [هود: ٨٣]، ولم يزالوا في قتال الكفّار إلى أن مضى النهار وأقبل الليل بالاستار، والمسلمون يقولون: يا ليتنا دام لنا النهار ولا غلبتنا جيوش الاعتكار، وإذ قد ظهر لهم على أطناب سرادق القتار، ولا الليل سابق النهار، قال فلما مضى الليل بغياهبه، وأقبل الصباح بجانبه بادروا إلى الحرب والطعن والضرب ولم يمهل بعضهم بعضًا دون أن وقعت الحملة على المسلمين فانهزم الجناح الأيمن، وكان فيه أخلاط العرب. قال وانهزمت ميسرة العدو ووقع فيهم أصحاب رسول الله ﷺ ولم يزل القتال فيهم إلى أن غلبهم الليل فانفصلوا،

فلما كان اليوم الثالث تولى الحرب خالد بن الوليد ورتب الناس ترتيبًا جيّدًا وجعل في الميمنة باهلة وطبا، وجعل في الميسرة عديًا ونميرًا وفزارة، وفي الجناحين كندة وعاملة ومرة، وفي القلب أبطال الأنصار من ذوي الشدة والانتصار وجعل راية الميمنة بيد عامر بن سراقة، وراية الميسرة بيد ضرار بن الأزور وراية الجناح الأيمن بيد عبد الرحمٰن الأشتر، وراية القلب بيد عبد الرحمٰن بن أبي بكر الصديق، فلما رتبهم قال لهم: اتقوا الله الذي إليه مصيركم، واعلموا أنه متكفّل بتأييدكم ونصركم وإياكم أن يؤتى المسلمون من قبلكم واتبعوا سُنن الذين فتحوا الشام من قبلكم، فمَن ولّى الأدبار كان مأواه النار وغضب عليه الجبار، واعلموا أن الله فرض عليكم الجهاد وقتل الأعداء، واعلموا أن الأحب إلى الله تعالى جلّ جلاله قطرتان... قطرة دم جرت في سبيل الله وقطرة دمع جرت من خشية الله، وهذا اليوم له من الأجر ما لا يعدّ فاتقوا الله عباد الله واثبتوا في هذه المواطن كما ثبتم في المواطن الكبار وإياكم والفشل فتذهب ريحكم وقوّموا شريعة نبيّكم، واعلموا **﴿إن الله مع الصابرين﴾** [البقرة: ١٥٣] و**﴿لا يضيع أجر المحسنين﴾** [التوبة: ١٢٠]، وها أنا أنفرد بجماعة من إخوانكم إلى صليب القوم ولست براجع إلا بحطم مَن حوله من الكَفَرة والمشركين. قال جلّ ذكره: **﴿وكان حقًّا علينا نصر المؤمنين﴾** [الروم: ٤٧]، فإذا رأيتم صليب القوم قد هوى إلى الأرض فاحملوا ولا تمهلوا. قال: فلما وعظهم خالد رتب كل صاحب راية في موضعه وانتخب مَن انتخب من أبطال المسلمين وقال للناس: إذا رأيتم الصليب قد وقع فاحملوا والله ينصركم وحمل هو ومَن معه وقصدوا لواء شهرياض الأعظم فما ردّهم عن حملتهم كثرة العساكر.

قال الواقدي: ولقد بلغني ممّن أثق به أنهم لمّا حملوا طحطحوا العساكر وزعزعوا الدساكر وأزالوا الأبطال عن مراكزها والبطاركة عن مراتبها وما اعتمدوا إلا على السيوف واستقبلوا بها الصفوف، فلما رأى شهرياض فعل أصحاب رسول الله ﷺ رمى التاج عن رأسه وزعق بالبطارقة والأراجية والقياصرة وقال: يا معشر الروم من بني الأصفر اعلموا أنه ما بين ذهاب دولتكم إلا هذا اليوم فإما أن تقاتلوا عن دينكم وحريمكم وملككم وذراريكم وأولادكم وإلا أُخِذت منكم فإياكم أن تولّوا الأدبار فمَن تولى غضب عليه المسيح وأدخله النار.

قال الراوي: وبلغني أنه في ذلك اليوم وصل إليهم بَتْرَكهم الكبير المشار إليه في دينهم ومعه كل قسّ وشماس ورهبان بأرض الجزيرة جاء ليحرّض الروم على القتال، وكان هذا البترك اسمه دين الديروم، وكان يسكن بدير يقال له دير قرقوت وأنهم وصلوا قبل أن يحمل المسلمون فوعظهم بين الصفوف وقال: مَن انهزم منكم حرمته فلا يقبله

المسيح أبدًا ثم انفصل من القوم هو ومَن معه وعلوا على رابية تشرف على القوم ورفعوا الصلبان وفتحوا الأناجيل وأشركوا بالملك الجليل.

قال الواقدي: حدّثنا عبد الله بن مالك عن موسى بن أبي العام عن الأشعب عن يحيىٰ قال وحدّثنا بشر بن عامر وكان ممّن حضر وقعة مرج رغبان وكانت الواقعة يوم الثلاثاء ثالث شهر صفر سنة سبع عشرة وكان شهرياض قد أرسل إلى رأس العين وسائر بلاده فأتوا بحريمه وحريم سائر الأجناد والبطارقة وأولادهم وأقامهنّ يوم المصفّ على أبواب الخيام وقال لهنّ: ما من امرأة إلا ترفع ولدها وتصيح باسم بعلها وأخيها، إنما فعل ذلك ليثبتوا في القتال فأوقعوا الصياح من كل جانب وعملت القواضب وثبت الروم ثباتًا عظيمًا لأجل حريمهم وأولادهم ولأجل البترك ووقف في مقابلتهم رجال من اليمن يرمونهم بالنبل، وأما خالد بن الوليد، فلما حمل بأصحابه وهو يريد صليب القوم سمع عياض بن غنم وهو يقول هذه الأبيات:

سنحمل في جمع اللئام الكواذب	ونفري رؤوسًا منهم بالقواضبِ
ونهزم جيش الكفر منّا بهمّة	تطول على أعلى الجبال الراسب
وننصر دين الله في كل مشهد	بفتيان صدق من كرام الأعارب
فيا معشر الأصحاب جدّوا وجندلوا	وكرّوا على خيل كرام المناصب
فدونكم قصد الصليب وبادروا	لنرضي إله الخلق معطي المواهب

قال: ثم قصدوا الصليب وكان اللعين شهرياض لما صفّ الصفوف أقام حول الصليب الأعظم اثني عشر ألف فارس كلهم لبس الزرد وترك أمامهم حسكًا من حديد حتى لا يصل إليهم أحد، فلما حمل خالد وأصحابه وقربوا من الصليب داس خيولهم على ذلك الحسك فانكبّت على وجوهها فوقعوا عن ظهورها فانكبّت عليهم الروم بغيظهم وحنقهم فأخذوهم بالأكفّ، لأنهم وقعوا عن ظهور خيولهم من الحسك فأخذوهم عن آخرهم وارتفعت العطاعط من كل جانب وعملت المرهفات القواضب، فلما نظر الأمير عياض بن غنم ما نزل بخالد ومَن معه صعب عليه واشتد لديه، وقال في نفسه: يا ابن غنم ما يكون عذرك بين يدي الله وقد مضت هذه السادة تحت رايتك فصاح بأعلى صوته: يا معاشر المسلمين احملوا ولا تمهلوا أيقظوا هِمَمَكم وعجّلوا واستخلصوا السادة من الأسْر واطلبوا من الله النصر.

قال: فلما صاح عياض أوقفوا خالدًا ومَن معه أمام الصفوف فتأسف ابن وضاح بن مجيد بن نافور بن عمر بن سالم بن النابغة الذبياني وكان من أفصح الناس لسانًا، وأجرأهم جنانًا وأحدّهم لسانًا، وأعلمهم بيانًا وكان حليفًا لخالد بن الوليد رضي الله عنه،

فبرز يومه بمرج رغبان وقال: أيها الناس إن الصبر والثبات جندان فلا يغلبان، وهذا يوم يا له من يوم وما ترون من نخواتكم ومروءتكم ودينكم أن تدعوا أصحاب رسول الله ﷺ في يد العِدا فاستنقذوهم من الردى واتقوا الله الذي إليه مصيركم، واعلموا أن ترك الأشياء النفيسة لا يليق إلا بالنفس الخسيسة، أما تحقّقتم أن الدنيا تؤول إلى الزوال والفناء، والآخرة هي دار النعيم والبقاء. أما علمتم أن الهِمَم العليّة الروحانية والأشباح الجسمانية عوّلت على الانتقال من الدنيا الساحرة إلى دار الآخرة، وقالت: لا بدّ من الرحيل، لأن البقاء في الدنيا قليل فتزوّدوا معاشر الأرواح فقد قرب الرواح والقصد منكم قد عرفناه ومرادكم قد فهمناه وإن سفركم سفر شاق يحتاج إلى زاد ورفاق قالوا: فما الزاد الذي نكثر منه ولا نعدل عنه؟ قيل لهم الزاد الأقوى فيّ وتزوّدوا فإن خير الزاد التقوى. قالوا: أما هذا الزاد فمنّا مَن يقدر عليه ومنّا مَن لم يقدر عليه، قيل: إياكم والتعرّض لهذا السفر بغير أعمال واعملوا ليوم لا بيع فيه ولا خلال، فلما تزوّدوا أخلصوا ومن جيفة الدنيا تخلصوا خلع عليهم خلع الأنعام وتوّجهم بتاج العزّ والإكرام وجعل لهم الفردوس منزلاً وقال في حقهم: ﴿**كانت لهم جنات الفردوس نزلا**﴾ [الكهف: ١٠٧] واسمعوا ما قال فيهم الملك المقتدر: ﴿**فمنهم مَن قضى نحبه ومنهم مَن ينتظر**﴾ [الأحزاب: ٢٣] قال فعندها حملوا بأسرار صافية وهِمَم وافية وطعنوا في صدور الرجال ورفرفت على رؤوسهم طيور الآجال ووضعوا السيف في الروم وجعلوه عليهم يومًا مشؤومًا. قال ولم يزل القتال بينهم بقية يومهم إلى الليل وانفصلوا عن القتال ورجع المسلمون وهم متأسفون على أسْر خالد ومَن معه، فإنهم لمّا وقعوا في الأسْر وانفصل الناس من القتال وجنّ الليل أرسلهم الملك شهرياض إلى رأس العين مع حاجبه نقيطا بن عبدوس ومعه ألف فارس وأمره أن يسير بهم في الليل ويجدّ بهم في السير وأن يسلمهم إلى والي رأس العين. قال: فسار بهم ولم يطلع الفجر إلا وقد وصل بهم إلى رأس العين وأرسل مَن يُعلِم الوالي بالقصة، فخرج في موكبه للقائهم ووضع الصايح في رأس العين بقدومهم فما تخلّف أحد وكان لهم يوم مشهود فألقاهم الوالي في الكنيسة العظمى التي هي جامع اليوم وأوثقوهم في الحديد.

قال: حدّثنا فاهم اليشكري عن بشّار بن عدي عن سراقة بن زهير عن خزيمة بن عازم عن جدّه عبد الله بن عامر. قال: إنه لمّا فتح الرّها وحرّان وسروج صلحًا اجتمع يوقنا بِرودس ومعه أصحابه. فقال: اعلموا أن الله سبحانه وتعالى قد فتح علينا هذه البلاد، وأن رأس العين مدينة عظيمة وأهلها قد استعدّوا للقتال وآلة الحصار وربما صعب أمرها وعسر فتحها على المسلمين، وإني معوّل أن أهب نفسي لله وأسير مع أصحابي فلعلي أن أحصل في داخل المدينة، ولعل الله أن يفتحها على يدي. فقال له سعيد بن زيد: قوّى الله وسدّد أمرك. قال وعوّل على المسير في تلك الليلة وإذا بعيون المسلمين

قد أقبلت إلى حرّان يخبرون أنه قد أتى عاصم بن رواحة المتنصّر في خمسمائة فارس من قومه من إياد الشمطاء.

وكان قد وصل مع قومه إلى قسطنطينية وقد ورد على الملك هرقل كتاب عمر بن الخطاب رضي الله عنه بأن يبعدهم عن دياره فأبعدهم عن أرضه فتفرقوا في كل موضع وأتى منهم عاصم بن رواحة إلى هذا الملك شهرياض في خمسمائة فارس وكان الملك يحبه، ولما وصل إلى البرية كتب إلى الملك يعرفه أنه خرج من بلاد القسطنطينية وأتى قاصدًا إلى بلاده وخدمته. وبعث الكتاب مع رجل من بني عمّه اسمه رفاعة بن ماجد فوصل إلى الملك وأعطاه الكتاب ففرح الملك بقدومه وأمره أن يعجل في الحضور وأرسل إلى والي رأس العين بأن يخلي له دارًا ينزل فيها إذا قَدِمَ مع أصحابه، فلما سمع يوقنا ذلك الخبر بان من عيونه فرح وقال: من أي طريق يأتون؟ قال: من طريق سروج وبقي بينكم وبينه ليلة واحدة، فخرج يوقنا ومَن معه وصحبهم عمرو بن معديكرب وسعيد بن زيد ومَن معهم وكمنوا لهم في موضع قد علموا أنهم لا بدّ لهم من العبور فيه، فلما ضرب الليل سرادقات ظلامه ونصب على الخافقين أعلامه إذ أقبلت خيول القوم وسمعوا حسّهم فصبروا حتى توسطوهم من كل جانب وقصد كل واحد واحدًا فأخذوهم عن بكرة أبيهم ولم ينفلت منهم أحد واحتووا على أثقالهم ورِحالهم ورجعوا إلى مكمنهم ونزلوا عن خيولهم.

فقال لهم سعيد بن زيد: مَن أميركم حتى أُخاطبه... فأشاروا إلى عاصم بن رواحة. فقال له سعيد بن زيد: يا ابن رواحة أيّ مناسبة بينكم وبين الروم حتى لُذْتَ بهم ومِلْتَ إلى جانبهم وتركت العرب العرباء فأنت منّا وإلينا وحسبك حسبنا ونسبك نسبنا؟ لأن أنمارًا وإيادًا وربيعة ومضر كلها ترجع إلى نزار بن معد بن عدنان، وأن الله تعالى قد اختارهم لسكنى حرمه وجوار بيته وقد كنّا نعبد الأصنام ونستقسم بالأزلام ونتبع طرق الحرام حتى بعث الله نبيّه محمد ﷺ وأنزل عليه ﴿**وأنذر عشيرتك الأقربين**﴾ [الشعراء: ٢١٤] وأمره بالمقام في دار الخيزران، ثم دعاهم إلى عبادة الملك الديّان وقال لهم: أنتم من ولد إسماعيل بن إبراهيم الخليل وقد فضّلكم باريء النسيم بسكناكم البلد الحرام والبيت المعظّم وزمزم والمقام فما لي أراكم على الأصنام عاكفين وبالأزلام حالفين وفي ثياب الكفر رافلين، أما لكم عقول تردّكم، أما لكم بصائر تصدّكم، أما أنتم من ذوي الأحلام الراجحة، أما أنتم من ذوي الآراء الشامخة، ألهذا خلقتم أم به أمرتم؟ نحتُّم الأصنام من الأحجار وسلكتم طريق الفجار وكفرتم بالواحد الجبار الذي سيّر البحار وأجرى الفلك الدوّار وخلق الليل والنهار. أما تشكرون الصانع الذي جعل النجوم طوالع وكلٌّ إليه راجع؟ قالوا: يا محمد مَن أمرك أن تسبّ آلهتنا

وتسفّه أحلامنا؟ قال: «يا قوم العلم أمرني والعقل بصّرني، أما علمتم أنه مَن نظر في المصنوعات وتدبّر علم أن لها صانعًا لا يتغير، فالنظر في المخلوقات حكمة، والتفكّر في صنعه والإقرار بوحدانيته نعمة والإيمان به رحمة».

قالوا: فمَن تعبد؟ قال: أعبد الذي فطرني وصوّرني وشرح خاطري ونوّر بصائري وخلق المخلوقات وقدّر صنع المصنوعات وأنزل الأرزاق بقضاء وقدر ليس في مشيئته كيف ولا في أقضيته حيف، يقول ولا يتلفّظ ويريد ولا يظهر ويسمع ويبصر تعالى عن المكان والأين والشبيه والبيّن، وقال: **﴿لا تتخذوا إلـهين اثنين﴾** [النحل: ٥١] أما علمت يا ابن رواحة أن ديننا هو الحق وقولنا هو الصدق وما بعث الله نبيًّا إلا وأمر أُمته باتباع دين الإسلام. قال الله تعالى في القرآن: **﴿ما كان إبراهيم يهوديًا ولا نصرانيًا ولكن كان حنيفًا مسلمًا وما كان من المشركين﴾** [آل عمران: ٦٧] وقال تعالى: **﴿اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام دينًا﴾** [المائدة: ٣] وقال: **﴿وما جعل عليكم في الدين من حرج ملّة أبيكم إبراهيم هو سمّاكم المسلمين من قبل﴾** [الحج: ٧٨] وأنت تعلم الآن أنكم في قبضتنا وأسْرنا، فإن آمنتم بالله وصدّقتم برسالة نبيّه ﷺ كان لكم ما لنا وعليكم ما علينا وإن أبيتم ضربنا أعناقكم. قال: فلما سمع عاصم بن رواحة ذلك من كلام سعيد بن زيد. قال: وإن نحن رجعنا إلى قولكم واتبعنا دينكم يغفر لنا ربنا ما سلف من الإشراك في ربوبيته والسجود لغيره؟ قال سعيد: نعم، لأن الإسلام يهدم ما كان قبله وجميع ما كنتم فيه لا يطالبكم الله به وتخرجون من الذنوب كما خرجتم من بطون أُمهاتكم إلى الدنيا، ثم تلا قوله تعالى: **﴿قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعًا إنه هو الغفور الرحيم﴾** [الزمر: ٥٣] فلما سمع عاصم كلام سعيد قال: أنا أشهد أن لا إلـه إلا الله وأشهد أن محمدًا رسول الله، فلما نظر أصحاب عاصم إليه وقد أسلم أسلموا عن آخرهم، ففرح المسلمون بذلك وقالوا قد وجب علينا أن نطيب قلوب هؤلاء القوم ثم ساروا إلى حرّان وأنزلوهم وخلعوا عليهم.

فقال يوقنا: الآن فتحنا رأس العين وربّ الكعبة. فقال سعيد: فكيف ذلك يا عبد الله؟ قال: سوف أُريك بيان ذلك، ثم إنه قال لعاصم بن رواحة في السرّ بينه وبينه: أُريد منك أن تشدّني كتافًا أنا وأربعين من أصحابي وتجعلنا على ظهور الجمال التي تحمل أثقالكم وتركب مع هؤلاء السادة ـ يعني الأربعين الذين هم من أصحاب رسول الله ﷺ ـ وتسيروا من ليلتكم هذه إلى رأس العين وتقولوا لواليها لمّا عبرنا الفرات خرج هؤلاء علينا فنصرنا المسيح عليهم فقتلنا مَن قتلنا وأسرنا هؤلاء وأتينا بهم إليكم وإياك أن تمكّنه أن يقتل واحدًا منّا، وإذا أراد ذلك تقول له إن المصف بين يدي الملك وبين العرب ولا

ندري مَن يؤخذ من أصحابنا فيكون عندنا الفداء وتترك أصحابك بحرّان. قال عاصم: ولِمَ لا نسير بأجمعنا وبأصحابي كلهم؟ فقال يوقنا: إن الإسلام لم يتمكن بعد من قلوب القوم ونخاف أن أحدًا منهم يغمز علينا فيفسد حالنا، والثقة بكل أحد عجز. فقال: والله لقد صدقت في قولك فنزل ببني عمّه الخمسمائة في حرّان، وإنما قال يوقنا ذلك ودبره ليكونوا على سبيل الرهائن. قال فكتّفوا يوقنا والأربعين من بني عمه وتزيّا الصحابة بزيّ إياد الشمطاء وخرجوا من حرّان في الليل وطلبوا رأس العين، فلما وصلوا إلى مكان يُعرَف بعلوا إذا بقرع حوافر الخيل فأخفوا أمرهم حتى وصلوا إليهم، وإذا هم بأربعمائة عبد أسود وخمسين وهم يقرؤون القرآن وبعضهم يسبّح فاستقبلهم سعيد بن زيد ومَن معه وكبّروا مثل تكبيرهم وقرّبوا منهم فإذا هم موالي أصحاب رسول الله ﷺ والمقدّم عليهم دامس أبو الهول رحمه الله تعالى، وكان السبب في قدومهم أنه لمّا بعث عياض بن غنم كتابًا إلى أبي عبيدة، يستنجده على القوم ويُعلمه بمَن قد اجتمع من الكفّار بمرج رغبان. فلما قرأ الكتاب أرسل دامسًا ومَن معه لنصرة الإسلام، وكانوا بسميساط وبلادها، ومنذ فتحوها استمروا بها حتى جاءهم كتاب أبي عبيدة: فترك دامس على سميساط وبلادها مَن يثق به، وجاء في العدة التي ذكرناها. فلما لقيهم سعيد بن زيد سلّم بعضهم على بعض وفرحوا باجتماع الشمل، ونظر دامس إلى الجِمال وعليها يوقنا وأصحابه. فقال: أظفرتم بهؤلاء في طريقكم؟ فقال سعيد: هذا يوقنا عبد الله وأصحابه قد باعوا نفوسهم لله.

قال: فلما سمع أبو الهول كلام سعيد سجد لله على قربوس فرسه وأتى إلى عبد الله يوقنا وسلّم عليه. فقال له: مرحبًا بقوم طلّقوا الدنيا بتاتًا وزهدًا، وطلبوا مرضاة الله. ثم إنه قال لسعيد بن زيد: يا صاحب رسول الله أشرِكونا معكم في هذه الحيلة. قال: نعم، ولكن اسحبوا هذه الجِمال وأخفوا الدروع والعدد واحتزموا فوقها وسوقوا الجِمال أمامكم كأنكم عبيدنا فإنه لا ينكر عليكم مَن رآكم. قال: ففعلوا كما أمرهم سعيد وأخفوا سلاحهم في وسط الجِمال وأقبلوا على سوقها. فلما وصلوا إلى الزليخة نزلوا هناك ولبسوا وتدرّعوا ونشرت الأعلام والصلبان التي كانت مع إياد الشمطاء، وداروا بيوقنا وأصحابه وجعلوهم بينهم وساروا حتى قربوا من رأس العين فبعث سعيد رجلاً من حلفائهم إلى والي رأس العين يبشّره بقدوم عاصم بن رواحة وإياد الشمطاء. فلما وصل إليه الرسول خرج بالمواكب إلى لقائهم، وقد أعلمه الرسول بقدوم يوقنا أسيرًا ومعه أربعون من أصحابه، فصاح الصائح بذلك، فما بقي أحد إلا وخرج أمام الوالي والتقوا بالصحابة، وهم بزيّ أصحاب إياد الشمطاء، وقد داروا بعاصم بن رواحة وكان الوالي يحبّه ويعرفه فترجّل إليه وترجل عاصم وتعانقوا، وأقبلت المواكب يسلّم بعضها على بعض. فقال الوالي: كيف أخذت هؤلاء وهذا المارق ـ يعني يوقنا ـ؟ فقال له: إنّا لمّا

وصلنا إلى الفرات وعدّينا خرج علينا برجاله فقاتلناه وقاتلنا فنصرنا المسيح عليهم بعد ما قتلنا منهم خمسين رجلاً وأخذنا هؤلاء وانهزم الباقي. قال: ففرح الوالي وأقبل على يوقنا يوبّخه بكلام وهو لا يردّ عليه والروم تشتمه وتسبّه وهو لا ينظر إليهم ولا يكلمهم إلى أن دخلوا رأس العين وأمرهم أن يجعلوهم عند الأسارى في بيعة نسطوريا، وقال لهم: احتفظوا بهم حتى نكاتب الملك ويرى فيهم رأيه، قال: فجعلوهم عند خالد وأصحابه. ثم إن عاصمًا قال للوالي: أنت تعلم ما بيننا وبين هؤلاء القوم من العداوة وإن كانوا عربًا مثلنا، ونخاف أنك تجعل على حفظهم أحدًا من الروم أو من الأرمن، وأن يتحدّثوا معهم بإطلاقهم وتدخل المضرّة على الملك وعليكم، والصواب أن نجعل بعضنا في البيعة وبعضنا خارجًا فإنه مَن أتى إلى الجهاد لا يركن إلى الراحة، فإنه مَن تعب في الدنيا قليلاً استراح في الآخرة طويلاً. قال: فاستصوب الوالي رأيه وأنزله في البيعة هو وأصحاب رسول الله ﷺ وأضاف يوقنا إلى خالد.

قال الواقدي: فحصل ستمائة فارس من المسلمين.

قال الراوي: فلما استقروا في البيعة وجنّ الليل قام سعيد بن زيد إلى خالد وسلّم عليه وبشّره بالفرج. فقال: يا ابن زيد لقد علمت بذلك منذ قيل إن يوقنا قد أتى به ومعه أربعون فنظرت بنور الإيمان فعلمت صحة ذلك. قال: وإن الوالي بعث إلى الملك يبشّره بأخذ يوقنا ومعه أربعون من أصحابه وقدوم عاصم بن رواحة ومعه خمسمائة من أصحابه، فلما بلغه الخبر أمر بالبوقات فضربت فسمعت المسلمون بذلك. فقالوا: ما ضربت البوقات إلا لأمر مهم إذ أقبل عباد بن بشير وهو متنكر وأتى إلى عياض بن غنم، فلما رآه قام إليه وسلّم عليه، وقال: يا ابن بشير بِمَ تبشّرني أقرَّ الله عينيك؟ فلم يردّ عليه شيئًا حتى خَلاَ به وحدّثه بجميع ما جرى، فلما سمع عياض بشارة عباد بن بشير سجد شكرًا لله. فقال عباد: أيها الأمير إن سعيد بن زيد ومَن معه يسلمون عليك وعلى مَن معك ويقول لك أنجز المصف فلعل أن يفتح على يديك فما بينك وبين فتح رأس العين إلا أن تهزم القوم وقد فتحت. فقال عياض: توكلنا على الله. . .

فلما جنّ الليل جمع أصحاب الرايات وحدّثهم، وقال لهم: لا تُعلِموا أحد مخافة من جواسيس الروم ولا يُصبِح الصباح إلا وأنتم على أُهبة الحرب، قال: فما أصبح الصباح إلا والمسلمون قد أخذوا أُهبة الحرب، فلما طلعت الشمس وانبسطت على الأرض عَلَت علي الخيل رِكابها وحملت بأصحابها وشبّت من الحرب نارها وطار شرارها، وقطعت الجماجم، واستعرّت الملاحم، وصالت أُسودها، وتعفّرت خدودها وصبرت على شدة حالها، وحانت منها أحوالها، وتدانت آجالها، فهم في الحرب متوافرون وفي العدد والعديد متقاربون، وفي الزحف إلى الفزع مختلفون، والعجاج ثائر،

والدم فائر، والأسلاب مطروحة للضياع، ولحوم القتلى رزق للطير والسباع، ولقوة العمائم تشتكي منها الأسماع، والشمس تضجر منها الجسوم والنفوس، والحرب قد أخذت أمرًا بقطع الآجال، وقد شمّرت عن ساق وسروال، والوطيس قد حميت جوانبها، واستحيت عين مجانبها، والصفوف تدانت إلى الهياج، وقد غيّبهم غيم العجاج، وكل مقدّم قد شذّ منه جيشه وتكدّر بعد الصفو عيشه، والخيل تكرّ كرّات، وتجتمع مرات، والسيوف تقطع البيض، والنفوس تكاد تَميز من الغيظ والغبار قد سحب ذيلاً زنجيًا، وانسبل وأسبل على الوهاد رداءً سجيًا، والطيور قد حامت، وكأن القيامة قد قامت واستقبل المسلمون هذا الحرب الخطير، والضرام المستطير فحلّ بالروم العقاب وسمحوا بنفوسهم ولقوا أليم العذاب، ونال المسلمون ما رغبوا فيه من حُسْن المآب.

قال الواقدي: والتقى عبد الله بن عياض بن وائل وعبد الله بن قرط بالملك شهرياض وقد عوّل على الهرب وكلّ مَن في جيشه قد اشتغل بنفسه عن نصرته وليس عنده سوى عشرة من غلمانه فأطبق عليه عبد الله بن قرط وعبد الله بن عياض.

قال الواقدي: ولم أدرِ أيّهما كان أسبق بالطعنة فطعنه في صدره فأخرج السنان من ظهره، فلما نظر غلمانه إلى ملكهم مجندلاً ولّوا على أدبارهم ونزل عبد الله فاحتزّ رأسه وجعله على رمحه وركب وصاح: ألا وإن الملك قد قتلته فمَن كان منكم يثبت للحرب فليثبت وصالت المسلمون على أعداء الله ووضعوا فيهم السيوف فقتل مَن قتل وانهزم الباقون بعدما أسروا منهم مَن أسروه وقد تركوا الأثقال على حالها والأموال والسرادقات فاحتوى عليها المسلمون.

قال جديد بن ناشب الضميري: كنت مولعًا إذ سكنت الحرب بعدد مَن قتل من الروم فأخذت مخلاة على عاتقي، وملأت حجري حصى، فكنت لا أمرّ بمقتول إلا وطرحت عليه حصاة، ثم عددت الحصى، فإذا هي ثمانون ألفًا وسبعمائة وخمسون، وأما الأسرى فلا يحصيهم عدد، فلما وضعت الحرب أوزارها أمر عياض بالأثقال والأسرى إلى كفر توتا، وبعثها مع الصلت بن مازن ومعه ألف فارس، وأمره أن لا يبرح منها، حتى تفتح رأس العين. قال: ثم ارتحل عياض في أثر الوقعة إلى رأس عين وردة وبات ليلته يتلو القرآن. وقال ووصل المنهزمون إلى رأس العين، وهم بأسوأ حال، ووقع الصائح بجوانب المدينة بهزيمة الجيش، وقتل الملك شهرياض فعظم عليهم، وكبر لديهم، واستوثق الوالي مرسيوس من المدينة والأسوار وعوّل على أنه في غداة غد يضرب رِقاب المأسورين، وكان من عادة الروم إذا قتل منهم ملك يقتلون عليه مائة أسير من أعدائهم، فلما كان الغد ركب عدو الله مرسيوس الوالي وسط المدينة وأمر أن يؤتى بالأسرى وهم خالد ومَن معه ليضرب رِقابهم فأرادوا أن يأتوا بهم وإذا بعياض قد صبحهم

صباحًا فأشغلهم عن ذلك، ونزل على باب أسطاحون وهو الباب الشرقي، وكان قد ضرب على الباب المذكور قبة من الديباج برسم عدو الله مرسيوس، وإلى جانب القبة منجنيق عظيم يتعلق في حباله مائة رجل، وكان صاحبه ابن عمّ الملك، وكان اسمه مترقي بن أشفكياص، وكان أبوه هو الملك قبل شهرياض، وهو صاحب الدنانير الأشفكياصية.

قال: وإنما تقدم عياض بالمسلمين للقتال، حتى يشغل أعداء الله عن خالد ومَن معه بالمدينة، فصاروا يرمون بمجانيقهم وسِهامهم، وكان قد وصل مع عياض غلام من أهل المدينة اسمه جميل بن سعد الداري، وكان أرمى خلق الله بالنبل، وكان قد وصلت له أُم عجوز، فلما كان ذلك قال: يا أُماه، أُريد أن أُجاهد هذا اليوم في الله حقّ جهاده، فلعلّي أن ألحق بإخواني وجدّي الذين قتلوا بين يدي رسول الله ﷺ فودّعها وسار. فقالت: يا بنيّ سِر والله ينصرك ويؤيدك، قال: ثم إنه تقدم ووقف وهو يتستر، وكان قد شاع ذكره بين العرب، وأنه كان ينظر إلى الطائر في الجو. فيقول: إنني قد عوّلت أن أضرب هذا الطائر في موضع كذا، فيضربه فيقع الطائر والضربة في المكان الذي ذكره، فلما كان يوم قتال عين وردة تقدم وجعل يضرب البطارقة من أعلى السور، فلا يقع سهمه إلا في فؤاد أو في حدقة، حتى قتل ثلاثين بطريقًا، منهم مَن وقع إلى المدينة ومنهم مَن وقع إلى الخندق. قال وكشف برج الباب. قال وكان عدو الله مترقيس المتقدم ذكره صاحب المنجنيق أرمى خلق الله، فجعل يعبر ويرمي. فقال الناس لجميل بن سعد: أيها الغلام أبعد لئلا يصل إليك حجر المنجنيق فإنّا نخاف عليك منه. فقال: يا قوم سمعت رسول الله ﷺ يقول في كتاب الله العزيز: ﴿**أينما تكونوا يدرككم الموت ولو كنتم في بروج مشيدة**﴾ [النساء: ٧٨] ولا بدّ أن أثبت لهم، ثم إنه رمى رجلاً من الذين يجرّون الحبال فقتله، وثانيًا وثالثًا فقتلهما، قال فهربت البطارقة عن الحبال، وقالوا: لا طاقة لنا بالوقوف في هذا المكان من هذا الغلام. فقال مرسيوس: البسوا الدروع واستتروا، ففعلوا وقعدوا في الحبال، ورمى بحجر فوقع في رجل من بجيلة فقتله، ولم يزل حتى قتل ستة رجال، قال: وإن جميل بن سعد يرمي فلا تخطىء نباله وهو يقول: واشوقاه إلى الشهادة وأن أصل إلى دار العلم والشهادة، فنودي من سرّه إن أردت ذلك فبادر إلى ذلك ولا تخف ولا تحاذر، وأطلق عنان كلّيتك في ميدان طلبتك وإياك والتخلّف عن بابنا، فمَن أرادنا أردناه ومَن أحبّنا أحببناه.

فقال: ها أنا أتقدم وجناني في الحقيقة لا يتألم، قد بعت منك نفسي فاقبل شراها فعسى أن آتي الجنة وأراها. فقيل له: قد قبلناك فامرح وأطلق لسانك بشكرنا وافرح، فمَن باع نفسه منّا لم يكن بمغبون، واسمع ما سطّرناه في الكتاب المكنون،

﴿ولا تحسبنّ الذين قتلوا في سبيل الله أمواتًا بل أحياء عند ربّهم يرزقون﴾ [آل عمران: ١٦٩].

قال: فبينما هو كذلك إذ عبر عليه عدوّ الله ورماه، وكذلك جميل قصده بنبلة فوقعت في صدره ومرَّت من ظهره ونظر جميل إلى الحجر وقد قصده، فعلم أنه ميت، فالتفت إلى ابن عمٍّ له اسمه رافع بن خالد وقال له: بلّغ العجوز سلامي، وأنشدها هذه الأبيات، وجعل يقول:

أيا رافعًا ألا حملت رسالتي ... تخبر أني قد لقيت حمامي
وإن جئت أُمي رافعًا وعشيرتي ... فخصّهم مني بكل سلام
وإن سألت عنّي العجوز فقل لها ... قتيل حجار لا قتيل سهام
طريحًا بباب الحصن لما تطايرت ... من الحجر الصلد الأصم عظامي
ولست أُبالي إن قتلت لأنني ... أرجى بقتلي في الجنان مقامي

قال: وعلم عياض بقصته فبكى رحمة لأُمه، وأمر به فدفن بعدما صلّى عليه وبلغ خبره إلى أُمه فصبرت صبر الكرام وقالت: يا بنيَّ عشت سعيدًا ومُتَّ شهيدًا وسلكت سبيل آبائك فرحمك الله وآنس غربتك ونفعني بك يوم القيامة، ثم قرأت **﴿الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنّا لله وإنّا إليه راجعون﴾** [البقرة: ١٥٦].

قال: حدّثنا معمر بن الجون النهائي، وكان ممّن حضر مع جدّه سراقة فتح رأس العين. قال: لما قتل ابن سعد فرحت الروم، وإن عدوّ الله مرسيوس صاحب الأمر بعد شهرياض لمّا رأى أن المسلمين معوّلون على حصاره مضى في الليل إلى بيعة نسطوريا وصلّى بها وقرّب القربان، وكان من بغضه للمسلمين قد صوَّر على باب البيعة صورة رجل من العرب وكتب عليه هذا نبيُّ العرب، فكل مَن دخل البيعة يبصق عليه، وكان في داخل البيعة صورة القيامة والميزان والصراط والجنة والنار وصور عيسى وبيده الصليب وأُمه تحت لوائه على باب الجنة. قال: فلما صلّى قال لعاصم بن رواحة: لقد أردت الليلة أن أُقرِّب عشرة من هؤلاء العرب الأسرى في بيت المذبح. فقال له عاصم: ليس هذا برأي أيها الملك حتى ترى ما يكون من أمر العرب وهذا بين يديك. قال فسكت وخرج، وإن عاصمًا لم يترك في البيعة أحدًا من الروم، واستوثق من أبواب البيعة، ودخلت الصحابة إلى بيت المذبح، فوجدوا فيه سلاحًا كثيرًا مما كان يجتمع من النذور، فأخذوه وعوّلوا على أنهم في صبيحة غد إذا اشتغل أهل المدينة بالقتال ليثوروا في المدينة. قال ولما دخل الليل قاموا يذكرون الله وينظرون إلى تلك الصور المصوّرة وصفة القيامة والصراط والجنة والنار. فقال عاصم بن رواحة لسعيد بن زيد: الهرب إلى دين رسول

الله ﷺ يزيد في الإيمان. قال: نعم، ويقرِّب إلى مقام إبراهيم إذا كان يوم القيامة يوم الحسرة والندامة، وعصفت رياح الطامّة، وحشرت الخلق والورى، وبرزت الجحيم لمَن يرى، وصفّت صفوف العالمين، وحييت جوانب المتقين الموقنين، ونشرت رايات الصادقين، ورفعت أعلام المحققين، ونصبت منابر الأنبياء والمرسلين، وتصدَّرت مراتب الصديقين، وفرحت أرواح الموحدين، وضاقت أرواح الكافرين، وزهقت نفوس المشركين، وقيل بُعدًا للقوم الظالمين، وذلّت الملوك والجبابرة، وطأطأت رؤوس الأكاسرة والقياصرة، واستبشرت الأبرار، ويئست الفجّار، ونادَ مُناد الملك الجبار: **﴿لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾** [غافر: ١٦]، ألم نحذّركم دار البوار؟ ألم يأتكم الإنذار؟ ألم تسمعوا ما أنزل على السيد المختار؟ **﴿قل تمتعوا فإن مصيركم إلى النار﴾** [إبراهيم: ٣٠]، **﴿هذا يوم الفصل جمعناكم والأوّلين﴾** [المرسلات: ٣٨]، هذا يوم العرض، هذا يوم الجزاء، هذا يوم الراجفة، هذا يوم الآزفة، هذا يوم الفصل، هذا يوم العدل، فإذا غصّ الموقف بأهله، وقدم كل ذي جهل بجهله، وعضّت الأنامل أسفًا، وطارت القلوب لهفًا، ونادى المنادي يا معاشر المجرمينْ: امتازوا فإن المتقين قد فازوا، أما سمعتم في الكتاب المكنون، **﴿وامتازوا اليوم أيها المجرمون﴾** [يّس: ٥٩].

فبينما هو قد كظمهم العطش، ولحقهم الدهش، وعظم الأرق، واشتد القلق، وسال العرق، ونادى المنادي، وهم يسمعون... قفوهم إنهم مسؤولون، قفوهم حتى يروا هيبتي ومملكتي، قفوهم حتى يشاهدوا سلطاني وعظمتي، قفوهم حتى يعرضوا عليَّ، قفوهم حتى أناقشهم الحساب، أين مَن عصى وأجرم، أين مَن طغى وظلم، أنا الجبّار الأعظم، لا أرحم مَن لا يرحم، أين أُمة نوح، أين مَن كان يغدو في البطالة ويروح، أين أُمة هود، أين آل ثمود، أين أُمة التظليل، أين أمة شعيب، أين أهل الشِّرك والشك والريب، أين أُمة التوحيد، أين أهل الصلاة والتمجيد، أين أهل القرآن، أين أُمة راكب البراق، أين أُمة طاهر الأخلاق؟ هلمّوا للعرض والحساب، فقد تجلّى ربّ الأرباب، لا ظلم اليوم إن الله سريع الحساب، والمصطفى ﷺ في كبكبة حشمته، وموكب زينته، على رأسه تاج الرضا مكتوب عليه بقلم الإمضا **﴿ولسوف يعطيك ربك فترضى﴾** [الضحى: ٥] وبيده لواء الحمد، وبين يديه جنائب السعد، وعن يمينه الأنبياء، وعن يساره الأولياء والملائكة وقوف بين يديه، وأهل الموقف ينظرون إليه، وأمته يصلّون عليه وقد تهلّلت وجوههم فرحًا، وقد أسبل عليه الإسلام سرباله، وأوصل بهم حباله، قد نادوا بهم بالتمجيد، وأزعجوا الموقف بالتوحيد، وقد أضاء نور إيمانهم، وعرضوا على ديّانهم، واستشهدهم على الأمم فشهدوا، فقبلت شهادتهم وغيّبت عنهم نجوم الإفلاس، وأمنوا من الهول والبأس، ونادى مُناديهم **﴿كنتم خير أُمة أُخرجَت للناس﴾** [آل عمران: ١١٠] وأهل الموقف ينظرون إلى جمالهم، ويتعجبون من هيبة جلالهم،

ويقولون: لقد فاز مَن اتبع ملّتهم وصدق شريعتهم. قال مالك يوم الدين **﴿ربما يودّ الذين كفروا لو كانوا مسلمين﴾** [الحجر: ٢] فإذا ورد مقامه، أطال فيه هناك قيامه، وبسط كفّ ابتهاله، وبالغ في طلبه وسؤاله ويقول: أسألك قبول شفاعتي في العصاة من أمتي.

وإذا بالنداء: وعزّتي وجلالي لا أخلف لك وعدًا ولا أنقض لك عهدًا، ولأرَيَنّ أهل الموقف علوَّ شأنك ورفيع مكانك، ولأعطينّك حتى ترضى **﴿ولسوف يعطيك ربك فترضى﴾** [الضحى: ٥]. قال: فازداد عاصم إيمانًا، فلما كان وقت السحر، وثبت الصحابة على أقدام الحزم والعزم، وخرجوا على أهل المدينة، فاستعانوا بالله وقالوا: اللَّهمَّ انصرنا كنصر نبيّك يوم الأحزاب، وقال خالد: إيّاكم أن تفترقوا فتذهب ريحكم واتقوا الله الذي إليه مصيركم، واعلموا أن الأعداء يجتمعون عليكم والنساء يرجمنكم، والشباب يقاتلونكم وإيّاكم أن تطمعوا أحدًا في بحار الحرب، بل اصبروا على مرّ الكرب والضرب، وإنما يتبين صبر الرجال عند ملاقاة الأهوال، وما نحن ممّن يفزع بهجوم الآجال لأنّا قد تحققنا أن لكلٍّ منّا أجلاً لا يتعدّاه، ومَن خاطر بعظيم نال عظيمًا، وهذه اسمها عظيم والجمع فيها أعظم، وهي قصور ديار بكر وربيعة، وقد حصلنا في وسط مدينة القوم، فإن كنتم طالبين الظفر فاصبروا ولا تعجلوا فالصبر مقرون بالظفر، والعجلة مقرونة بالزلل، والصبر عاقبته النصر، واعلموا أن هذه البيعة هي بيعتكم المعظمة، ولا بدّ لهم من القدوم إلى الصلاة، فإذا حصل واليهم هٰهنا ومقدم عساكرهم أطبقنا عليهم من كل جانب، وقصمناهم بالقواضب، فإنه إذا قتلت الملوك وعظماء البطارقة فما يجسر بعدهم أحد أن يرفع يده، وأما العوام فلا اعتبار بهم. فقال عاصم بن رواحة: لله درّك أيها الأمير ما أخبرك بالأمور والحرب، ولقد تكلمت بالصواب وأحسنت في الخطاب، فليقرّ كل واحد منكم في مكانه وأخفوا سلاحكم في أعبابكم، فإذا اشتغل القوم في صلاتهم ثرنا عليهم ومددنا أيدينا إليهم، فاستصوبوا رأيه. . . قال: وكانت الصحابة في بيت كبير في البيعة كان برسم النذور وفيه شيء من الأمتعة لا يثمن لكثرته.

قال الراوي: حدّثنا عبد الله بن يانس، عن جدّه فياض بن زيد، وكان من جملة مَن ذكرناهم من الصحابة وحضر فتوح رأس العين. قال: هكذا كانت قصتنا وكنّا قد دبّرنا هذا التدبير، ثم رجعنا عنه، وكان من الأمر المقدّر أن ذلك اليوم الذي رجعنا فيه لم يقاتل فيه أحد من جند رأس العين وكان له سبب نذكره.

قال الراوي: كان من قضاء الله السابق في خلقه، أنه كان للوالي أخ عاقل لبيب له رأي وتدبير، وكان يعرف من الحكمة التي وصّاه بها فهرايس أحد حكماء اليونانيين، وقد عرف من علم الملاحم، وكان صاحب سرّ شهرياض، فما كان يفعل شيئًا إلا بمشورته وكان قد نهاه عن قتال العرب وقال له: ما أرى لك في قتالهم خيرًا والأمر عليك لا

لك، فلما كان من الملك ما كان، وقتل جيشه ورجع الأمر إلى مرسيوس. قال له أخوه الحكيم، وكان اسمه أسالوس، معناه حكيم زمانه: اعلم يا أخي أنه ليس ينبغي للعاقل اللبيب الفاضل الأديب أن يرمي نفسه في غير مراميها ولا ينقاد بزمام شهوة النفس، فإنه مَن أطاع نفسه هوى في مهاوي الذلّ ونسب إلى الجهل، فإن الشهوة عرض واتّباع الهوى مرض والاستمتاع بالملذّات سبب الهلكات ولا خير في لذة تؤدّي إلى الفناء وتورث صاحبها العناء، الشهوة حين، والأمل شين، والاستمتاع بين، والتمتع دين، وحبّ الدنيا مين، وما ندم عاقل، ولا ساد جاهل، ولا وفق عجول، ولا رأي لملول ولا سعد خائن، ولا صدق مائن، ولا عظم بخيل، ولا قدم ذليل، ولا فحم نبيل، ولا حقر جليل ولا نال العبادة مَن زهد في الإفادة، ولا أمِنَ في الآخرة مَن سُرَّ بالدنيا الساحرة، ولا سدّد من ظلم، ولا حرم مَن حلم، ولا حزم مَن ندم، ولا خاف مَن تاب، ولا ردَّ مَن أناب، ولا هجر مَن لزم الباب، ولا ذلّ مَن اتّبع الصواب، واعلم أن بالسياسة تدوم الرياسة، وبالعدل تدوم الدول، وبالجور هلك الأول، وبقلّة التدبير يحصل التبذير، ومَن بذل جهده كملت أوصافه، ومَن أفشى السلام فضله الأنام، وإصلاح السريرة نِعْمَ السيرة، وجمال الإنسان فصاحة اللسان، وزينة الرجال كرم الخلال، وخير الأصحاب التقوى، وشرّ الإخوان اتّباع الهوى، ولا خاب مَن قصد طوره. ولا ارتفع مَن جهل قدره، والتعلق بالآمال ضياع الأعمال، ومعالي الأخلاق نعمت الرفاق وممارسة الحلال نجاة من الأهوال، وحبّ العاجل يبيد الآجل، وارتكاب العصيان علامة الخذلان، وعلامة التوفيق تيسير الطريق، والنظر في العواقب أمن من المعاطب، ومَن نظر إلى الدنيا بعين الفنا أدرك في الآخرة ما تمنى، واعلم يا أخي أنك قد أصبحت مقيدًا بحبّ الدنيا سابحًا في بحار أهوالها متعلقًا بأذيال مُحال آمالها، وقد تزيّنت لك بِرياشها، ووقفت لك على قدم احتياشها، وزوت عنك جلّ مصائبها، ونصبت لك شبكة مصايدها، ووضعت لك تاج شهواتها، على مفرق رأس آفاقها، حتى إذا أشرت إليها بالوصال، منحتك لذيذ الاتصال، وأحسنت لك صحبتها شهرًا، ورمتك بسهام الهجر دهرًا، وطالبتك بما كتبت عليك مهرًا، حتى إذا علمت أنك غريم الانغاص غير منقاد للقصاص، ألقتك في بحر الآفات، وحجبتك في سجن الغفلات، وصغّرت أملك عند الناس، ووكّلت بك سحائب الوسواس، فلا تبرح تذكر الإنسان بما كان فيه حتى تخرج روحه من فِيْه، واعلم أن من جملة ما ذكر لنا عن عيسى ابن مريم عليه السلام: أنه رأى طائرًا مليح الشكل، حسن الريش، كامل الزينة.

فقال: مَن أنت؟ قال: أنا الدنيا، ظاهري مليح، وباطني قبيح، قال عيسى: عجبت لغافل ليس بمغفول عنه، ومؤمل إتمام الشيء والموت يطلبه، وإنما ضربت لك هذه الأمثال لتتّعظ بها وبما نزل بالملك شهرياض، كان بالأمس على السِّماط واليوم نزل على

الصراط، بالأمس كان في سلطانه وملكه يُباهي، واليوم صار في الحفر واهي، ما أفاده، الغنى أذهبه ألفَنا، وذهب الفرح بالترح، والنوم على السرير بالنوم على العفير، ومعانقة الأتراب، بالتعفّر في التراب، وبدل عن خلٍّ وودود بمجاورة الدود، جار وما أجار، واشتغل بالدار عن الجار، وبالرماد عن المهاد، وانظر بأيّ سنان بتر، وبأيّ آلة كيف هجر، وصار قصره مهجورًا، وعمارته خرابًا بورًا، وتبدّل السرور بالثبور، ما نفعه الجيش وكثرته، ولا الخزائن وعدته أصبح والله ذليلاً، وبعد الكثرة قليلاً، فلا عمل صالح، ولا عزّ راجح، ولا ثواب ينفع، ولا جميل يدفع، وقد بقي مرتهنًا بأعماله موثقًا بأفعاله، وأنت تريد أن تسلك مسلكه، وتتبع سبيل ما أهلكه، فما أحد ينفعك ولا عمل يتبعك، اتق الله في نفسك وفي أهل مِلّتك وبلدتك واعقد لك مع هؤلاء العرب صلحًا، واقبل ما قلت لك نصحًا، واحقن الدماء وارحم النساء والإماء وأسلم تسلم، وهؤلاء القوم ما قالوا قولاً إلا وفوا به، لأن الصدق دليلهم والإيمان يقينهم، ما هم ممّن يطلبون الملك فينازعون عليه ولا يميلون إليه، بل طلبهم الآخرة وما عند الله، وبالأمس وفوا لرودس صاحب حرّان، ورجع عن دينه ودخل في دينهم وكذلك الملكة مارية بنت أرسوس، وقد دخل في دينهم جبابرة الروم مثل يوقنا ويرغون وعمودا وميتا الذي هو أعلم منّا بديننا وقد ملكوا الأرض في الطول والعرض، وإنما يحاصر عن نفسه مَن له ميرة وعدد وجيش وسلاح وعدد يقدر على محاصرة البلد، وهذا بلد عظيم وما فيه ما يقوم بأهله سنة أو أقل فإن لم تسلم أنت سلم أهله وسلّموك إليهم برقبتك، وهذه حرّان لهم وكفر توتا والرّها وسروج وسجستان وماردين والصور والخابور وما عدا الفرات إلى الشام إلى أرض مصر، وجيوشهم قد طبقت العراق وملأت الآفاق، وقد بلغني أن الملك كسرى قد عاد إلى المُحاق فابعث إلى أمير هؤلاء العرب واطلب منه الصلح فإنه يعطيك وتربح نفسك ومالك وأهلك وولدك وعش في ظل القوم إن شئت على دينهم وإن شئت على دينك فإنهم لا يغضبونك. قال: فلما سمع مرسيوس كلام أخيه الحكيم أرسالوس غضب عليه وضربه بمقرعة كانت في يده وقال: أنت ما خلقك المسيح إلا ذليلاً، وكيف تأمرني أن أُسلّم مُلْكي للعرب، وتعرضني للعطب؟ اخرج يا ويلك عني، فإن وقعت عيني عليك بعدها قتلتك.

قال: فخرج من عنده وهو غضبان، وأما اللعين مرسيوس فإنه أمر أرباب دولته أن يجتمعوا في كنيسة بيعة نسطوريا حتى يحلفهم فمضى شاويشه فجمعهم وجمع مشايخ البلد وكبراءها وأحضر القسوس والرهبان والشمامسة وبترك دير مقرب حتى يستحلف أهل المدينة. فلما حصلوا في البيعة أغلقوا أبوابها حتى لا يدخل إليهم أحد من العوام وحصلوا كلهم فجلس الملك والبترك وشرعوا يحلفونهم وهم آمنون مطمئنون إذ خرج عليهم أصحاب رسول الله ﷺ بكل سيف مسلول وعزم غير محلول وصاحوا بالتهليل

والتكبير ونادوا: نحن أمة التنزيل وأصحاب النبي الجليل، نحن حَمَلَة القرآن، وصوّام رمضان قد أخذ الله منكم بذنوبكم، وهتك ستوركم، وعصفت عليكم المِحَن، أين الصلبان وعبادتها، أين الصور وحشمتها، أين تقريب القربان، أين تدبير الرهبان؟ ادعو أربابكم ينصرونكم هيهات والله ذهب باطلكم، وهلك بالشرك جاهلكم، واضمحلت أيامكم، وذهبت دولتكم، ووضعوا فيهم السيوف، وعجلوا بهم الحتوف، وقتلوا البطارقة بالنيّة الصادقة فماتوا عن آخرهم، فلما رأت الروم ما نزل بهم ضجّوا وبأصواتهم عجّوا، فقال خالد: أولياء الله جودوا الضرب في أعداء الله وأهريقوا دماء مَن أشرك بالله، قال فقتلت الطرامخة وذوو الحشمة الشامخة، فلما بلغ الخبر العوام انهزموا عن الأسوار لما حلّ بقومهم البوار ودهمتهم الأقدار فذهب دامس إلى الأبواب ففتحها فدخل المسلمون بالتهليل والتكبير ولم يزل القتل يعمل في رأس العين وقد وردوا موارد الحين وناح عليهم غراب البين وأيّدت شريعة سيد الكونين.

قال الواقدي: ولم يؤخذ من ديار بكر بالسيف إلا رأس العين. قال: وأخرج الخمس من المال وأرسله إلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه وكتب له كتابًا يقول فيه: بسم الله الرحمـٰن الرحيم من عياض بن غانم الأشعري إلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه، سلام عليك فإني أحمد الله الذي لا إلـٰه إلا هو، وأصلّي على نبيّه. أما بعد: فإن الله قد فتح علينا يسير ما كان عسيرًا وكان لعدة الفتيان شعاع يخطف العيان، فلما تضايفوا أمامي وازدحموا قدّامي عاينت جيشًا كثيفًا وسدًّا منيفًا قد أقبلوا من الأفواج وتتابعوا كالأمواج وتناصروا من كل صوب واشتهروا في كل ثوب، والحديد يتألق كالحريق، وقد تطايرت السيوف فللاً والأرماح كعوبًا وانقضت المدة وقد وضعت الحرب أوزارها وانطفأت نارها بعد ما قتل المسلمون أهل الطغيان الفاسقين ونصر الله الكفاة وخذلت العتاة وولّت الأعداء الأدبار وأراحنا الله من مضرّتهم وظهرت البلاد من كفرهم وكان زعيمهم الخائن، وملكهم أول مخذول، وأهون مقتول، وبعد ذلك فتحنا رأس العين ونحن بعد ذلك معوّلون على ديار بكر والله المُعين وبه نستعين والسلام عليك وعلى جميع المسلمين واقرأ سلامنا على قبر سيد المرسلين ﷺ. ثم طوى الكتاب وختمه وسلّمه مع الخمس لعبد الله بن جعفر الطيار وضمّ إليه مائة فارس من المهاجرين والأنصار فسار عبد الله ومَن معه، وأقام المسلمون على رأس عين شهرًا وعمل بيعة نسطوريا جامعًا وصلّوا فيه وبنوا الكنائس مساجد وترك عرفجة بن مازن العامري عليها واليًا ومعه مائة فارس وأخذ مال الرّها وكفر توتا فأخرج منه الخمس وأرسله بعد عبد الله بن جعفر مع سلامة بن الأحوص ومعه خمسون فارسًا.

ذكر فتح دارا وبيرحا وباعماء

قال: ورحل عياض بن غنم من رأس العين ونزل على كفر توتا وأقبل إليه الغلام يرغون فرحّب به وولاّه على المدينة وعرض الإسلام على الجارية طاريون فأسلمت وزوّجها بابن عمّها وبنى البيعة جامعًا، وارتحل منها إلى دارا فنزل عليها وخرج إليه أهلها واعتقبوا لهم منه صلحًا وكان جملة ما صالح عليه أهل دارا عشرين ألف مثقال ذهبًا وثلاثين ألف مثقال فضة وأن لا يبقوا سلاحًا فأجابوا إلى ذلك وبنى كنيستهم جامعًا وما أسلم منهم إلا القليل وأقرّهم على أداء الجزية وارتحل عن دارا وقصد بيرحا فصالح أهلها على ربع ما صالح عليه أهل دارا ورحل عنها وكانت بنو إسرائيل تعظّمها وتقصد إليها بالنذور، وكان بانيها حزقيا بن تورخ بن بازيا أحد أنبياء بني إسرائيل فخرجوا إلى عياض وصالحهم على قدر ما صالح به أهل دارا غير أن مقدمهم قال: إنني لم أزل أملك البلد حتى يأتيني الموت ومَن أراد أن يدخل في دينكم من أهل بلدنا فلا مانع يمنعه. فقال له عياض: ما اسمك؟ قال: اسمي طرياطس. فقال: يا طرياطس إنّا نحكمكم على العدل فما فتح الله علينا إلا باتّباع الحق وسلوك طريق الصدق والعدل في الرعيّة. وإنّا نتجنب البغي والظلم وما قصدنا قاصد إلا وجدنا وأنتم منذ خرجتم إلينا ووردتم علينا فنحن نجيبكم إلى سؤالكم ونصالحكم على ما صالحنا عليه أهل دارا. فقال طرياطس: وتصالحون أهل معرين على ما صالحتم عليه أهل بيرحا فأجابهم عياض إلى ذلك ونزل على باعما ودير. قال: وإنما أجابه عياض إلى ذلك وألانَ له العريكة حتى يبلغ الخبر أهل ديار بكر فيجيبون طائعين ويسلّمون له من غير منازعة.

وكان قد بلغه تحصّن بلادهم وامتناع قلاعهم. قال: فدخل طرياطس وأخرج المال من خزائنه ولم يأخذ من أهل بلده شيئًا ودفعه لعياض فقبله منه وكتب له كتاب الصلح وشرط عليهم الجزية كما فعل أهل دارا من العام القابل، فلما تمّ ذلك دخل المسلمون إليه وبنوا جامعًا، فلما بلغ أهل نصيبين حُسْن سيرتهم وعدلهم وجُودة أحكامهم أسلم أكثرهم، وكان في جملة مَن أسلم أصحاب النذور وأخربوه وبنوه جامعًا وأقام عياض على نصيبين شهرًا، فلما أراد الرحيل جاءه طرياطس وقال: قد زدتم في أعيننا بما رأينا من صلاتكم وعبادتكم فأسلم وحَسُنَ إسلامه ولم يزل ملكًا حتى مات في خلافة عثمان ونزل في مسجد كندة أسامة بن عامر الكندي وعشرة من بني عمّه وارتحل عياض ونزل تحت قلعة المرأة وفيها مارية وولدها عمودا فانزلوا له الإقامة والضيافة وسار إلى أن نزل على آمد لسبع خلون من شهر جمادى الأولى.

ذكر فتوح ميافارقين وآمد

وكان بآمد أخوان شديدا البأس اسم أحدهما بطرس والآخر يوحنا. . . وكان بطرس في شرقي البلد ويوحنا في غربيها، وكان ليوحنا بنت اسمها رغوة، ولبطرس بنت اسمها صفورا، وكل واحد مشغول بما هو فيه، ويوحنا أراد أن يتزوّج فأرسل إلى صاحب دارا وهو مرطاوس فزوّجه لبنته مريم وحملت من بلد أبيها إليه، وكانت صاحبة حيلة ومكر، فلما حصلت بآمد نظرت إلى المدينة وكثرة مالها ونِعَمها وتحصّن أهلها وسورها وغزارة بساتينها. فقالت لدايتها في السرّ يا دايتي: ما رأيت أحسن من هذه المدينة ولا أحصن منها ولا أمنع ألا ترين إلى الأعين المخترقة في وسطها وإلى الجبال التي قد دارت بها، تعني سورها الأسود، فمَن بناها على الحقيقة؟ قالت لها: اعلمي أنه قد ملك بلاد الروم أجمع من أول بلاد اليونان إلى بلاد عمورية ملك يقال له طيماوس بن أرسالوس بن ميهاط بن مكلاوكن بن الأصفر بن العيص بن إسحٰق وكان أول مَن بنى بيت الحكمة في بلده رومية الكبرى، وكان فد فتحت له المطالب ونشر في الأرض العجائب وأنه حدّثته نفسه بملك الأرض لكثرة المال فانتهى إلى سويقة، وكان له ولد اسمه إسطنبول فقال لأبيه طيماوس: أُريد أن أبني لي هٰهنا مدينة أذكر بها. قال: يا بني افعل وأمدّه بالمال والرجال فأدار سورًا على ستة فراسخ وسمّاها باسمه وعاش أربع سنين ومات وخلف ولدًا اسمه قسطنطين فأتمّ بناءها فسُمِّيت باسمين إسطنبول باسم أبيه والقسطنطينية باسم ابنه وأما أبوه فإنه صار يفتح البلاد حتى وصل إلى هٰهنا فرأى هذه الأعين والدجلة فاستحسن المكان فطلب أرباب دولته وكانوا اثنين وسبعين ملكًا وقال: قد اخترت أن أبني هٰهنا مدينة لا يكون على وجه الأرض مثلها ولا أحسن منها ولا أمنع وأُريد أن كل واحد منكم يبني لنفسه مدينة وبرجًا، فقالوا جميعًا: نفعل أيها الملك فركبوا واختطّوا المدينة وشرعوا في بنائها وأتوا بالصُّنّاع من أقصى البلاد واختصّ كل ملك بمدينة وبرج وحمام وكنيسة، فلما أتمّوا بناءها مات الملك فسُمِّيت آمد لانقضاء أمده بها وما زال الملوك يتوارثونها إلى أن انتهت إلى هذين الأخوين بطرس ويوحنا، قال: فتعجبت مريم من قول دايتها وكتمت الأمر، وكان لبطرس ولد اسمه لاون فطلب من أخيه ابنته صفورا لولده وقال له: زوج ابنتك لولدي حتى أُزوّج ابنتي لولدك. . . فامتنع ووقع الشرّ بينهما حتى كان في وسط البلد سور وأبواب فأغلقت وصار كل واحد منهما مشغولاً بناحيته، فلما رأت مريم ذلك دخلت بينهم بالصلح وقالت: هذا لا يجوز وأنتما أخوان ويطمع فيكما ملوك ديار بكر. . . وركبت بنفسها وأصلحت بينهما وفتحت الأبواب التي داخل المدينة وصنعت وليمة عظيمة ودعت إليها بطرس وولده لاون وابنته صفورا، فأكلوا وليمتها وقدّمت لهم الخمر ممزوجًا بالسُّمّ، فلما تمكن منهم قتلوا عن آخرهم وكذلك فعلت بزوجها وولده وصارت ملكة وبنت بيعة لم يرَ ببلاد الروم مثلها وفرشت أرضها بالفصوص

والرخام الملوّن وزخرفت الحيطان بالذهب والفضة وعلّقت فيها ستور الديباج المذهّب وطلبت كل عالِم مشهور وأزالت عن أهل البلد جميع ما كان عليهم من الحيف وعدلت فيهم، فأحبّها أهل البلد وشكروا سيرتها واستخدمت الرجال وزادت في إكرامها وقصدها الناس من كل مكان لأجل عدلها وأقامت في مُلْك آمد اثنتي عشرة سنة وبعدها نزل عليها عياض بن غنم، ومَن معه وأحاط بالمدينة.

قال الواقدي: بلغني أن عِياضًا نزل على التل ونزل سعيد بن زيد على باب الروم ونزل معاذ على باب الجبل ونزل خالد على باب الماء، فلما نظرت الملكة مريم إلى ذلك ورأت أن الصحابة قد عوّلوا على حصارها ركبت إلى كنيستها وجمعت أرباب دولتها وقالت: اعلموا أن هؤلاء العرب قد حلّوا بساحتكم ونزلوا على مدينتكم، وقد طمعت أنفسهم في أخذها وأنتم تعلمون أن هذه قفل ديار بكر ومتى فتحوها فقد أخذوا ديار بكر عن بكرة أبيها واضمحل دين المسيح ولا يبقى له ذكر في هذه البلاد وأنا أعلم أن الملوك ومَن يشار إليهم من أهل دين النصرانية وبني ماء المعمودية كلهم ينتظرون ما يكون منّا. . . ويعلمون أن مدينتكم لو أقاموا عليها مائة سنة ما قدروا عليها فقاتلوا عن حريمكم وأموالكم واصعدوا فوق الأسوار وقاتلوا هؤلاء العرب. . . وطلبت القسوس والشمامسة والرهبان وأمرتهم أن يحلفوهم على أن يكونوا يدًا واحدة ولا يخامروا عليها ففعلوا ذلك وصعدوا على الأسوار وشهروا السلاح وآلة الحرب وأقاموا الصلبان والرايات والأعلام وتولّت كل طائفة بحفظ برج من الأبراج. قال: فلما نظر عياض إلى ذلك وأنهم قد عوّلوا على القتال من أعلى الأسوار جمع أمراء جيشه إليه وقال لهم: إن هذه المدينة حصينة وهي عين ديار بكر ومتى فتحها الله علينا ملّكنا ديار بكر، فما الذي ترون من الرأي؟ وكيف يكون قتالها وأعداء الله قد تحصنوا بهذا الحصن المنيع؟

فقال خالد: أيها الأمير اعلم أننا ما ملّكنا الله البلاد بقوة ولا بكثرة مدد ولا بعدد بل بتيسير الله لنا نرجو الله أن يفتحها ببركة نبيّنا ﷺ وبذلك وعد الله نبيّه وأن هؤلاء القوم إن باطشونا على ظاهر مدينتهم بالقتال رجونا تسهيل الأمر وإن أقاموا على ما هم عليه فالصبر، فإن عاقبة الصبر النصر، ولعل أن يأتي في العرضيات ما لم يكن في الحساب واكتب إلى هذه المرأة كتابًا وخوّفها، ثم منّها بكل جميل فلعل الله تعالى أن يليّن قلبها للإيمان أو تسلم لنا صلحًا فدعا عياض بداوة بياض وكتب إليها يقول: بسم الله الرحمٰن الرحيم، وصلواته على سيدنا محمد وآله، من عياض بن غنم أمير جيوش المسلمين بأرض ربيعة وديار بكر إلى مريم الدارية. أما بعد: فإن الله سبحانه وتعالى قد نصرنا وبجميع الكفّار قد ظفرنا، وعلى قبض ملوكها أيّدنا وما نزلنا على بلد إلا ملكناه ولا قابلنا جيشًا إلا هزمناه والعزّة لله ولرسوله وللمؤمنين وليس حصنك بأمنع من تدمر ولا حصن

هو الحصن المنيع الذي بناه سليمان بن داود وما هو إلا أن نزل عليه المسلمون حتى ملكوه وكذلك بعلبك وحلب وأنطاكية دار الملك هرقل، ولم يبقَ بين أيدينا صعب إلاّ سهّله الله علينا وبذلك وعدنا الله في كتاب العزيز فقال: **﴿وكان حقًّا علينا نصر المؤمنين﴾** [الروم: ٤٧] فإذا وصل إليك كتابي هذا فسلِّمي تسلَمي وإياك أن تخالفي تندمي ومهما أردت بلغناك ولسنا نُكرِهك على فراق دينك ولا أحدًا من أهل بلدتك قال الله تعالى: **﴿لا إكراه في الدين﴾** [البقرة: ٢٥٦] وإن تمسكت بالهوى فستعلمون مَن أضعف ناصرًا وأقل عددًا، وسلام على عباده الذين اصطفى، ثم طوى الكتاب وختمه وسلّمه إلى رجل من المعاهدين وقال له: ادْنُ من الحصن وناولهم الكتاب وقف حتى يردّوا عليك الجواب. قال فذهب ودنا من السور وناداهم بلغتهم وأشار إليهم بالكتاب فأدلوا له حبلاً فرابطه لهم ووقف ينتظر الجواب. قال فأوصلوا الكتاب إلى الملكة مريم فقُرِئ عليها، فلما فهمت ما فيه قالت لأرباب دولتها: ما تقولون فيما كتب إليها أمير العرب؟ قالوا: أيتها الملكة الرأي لك فمهما أمرتينا به امتثلناه. فقالت: يا قوم أنتم تعلمون أن النار ولا العار ومتى سلّمنا لهؤلاء العرب عيّرتنا الروم ويقولون كيف سلّمتم مدينتكم وما حاصرتم سنة ولا عشرة أيام ومدينتكم أحصن بلاد الروم، وإذا شئتم كان لكم موضع تزرعون فيه والمياه عندكم وكل ما تحتاجون إليه، وقد وصلت إليّ الكتب من جميع ديار بكر ووعدوني أن يرسلوا عساكرهم لنصرتنا، فقالوا: أيتها الملكة هذا هو الرأي الرشيد، فاكتبي للقوم كتابًا أن يقطعوا طمعهم منّا فكتبت تقول: أما بعد: فقد وصلني كتابك وفهمت خطابك، فأما ما ذكرت من نصر الله لكم، أما علمت أن المسيح يُمهِلكم ولا يُهمِلكم، وإنما ذلك استدراج لكم ثم يأخذكم بعد ذلك وكأنكم بالملوك وأبناء الملوك وقد أقبلت عليكم بسواعد شِداد وسيوف حِداد وجيوش وأمداد فيأخذون منكم بالثأر ويكشفون عن عباد المسيح العار، وما كنا بالذي نسلّم حصننا إليكم أبدًا، فإن شئتم المقام وإن شئتم الرحيل والسلام. وربطوه بالحبل وأعطوه للمعاهد فأخذه وأتى به إلى عياض، فلما قرأه وفهم ما فيه قال: توكلنا على الله وفوّضنا أمرنا إليه ثم قرأ **﴿ومَن يتوكل على الله فهو حسبه إن الله بالغ أمره قد جعل الله لكل شيء قدرًا﴾** [الطلاق: ٣].

قال: وعوّل عياض أن يقيم على آمد وخيله تُغير على الهتاج وميافارقين وسائر تلك البلاد. قال: وسمعوا ضرب الناقوس. فقال عياض: أتدرون ما يقول هذا الناقوس؟ قالوا: وما يقول؟ قال: بعث رسول الله ﷺ ابن عمه علينا ومعه جماعة من المسلمين ليُغِيروا على أطراف تبوك فاجتازوا بدير الراهب، وذلك الراهب يضرب بناقوسه. فقال عليّ لمَن معه: أتدرون ما يقول هذا الناقوس؟ قالوا: الله ورسوله أعلم وأنت يا عليّ. فقال: يقول مهلاً مهلاً يا بني الدنيا مهلاً مهلاً إن الدنيا قد غَوَتنا واستغوتنا وشغلتنا غدًا

نرى ما نرى ما من يوم يمضي عنّا إلا لنا أو علينا، يا بني الدنيا جمعًا جمعًا يا بني الدنيا شرطًا شرطًا، ما من يوم يمضي عنّا إلاّ أثقل ظهرًا منّا، ما من يوم يمضي عنّا إلا صار منّا جهلاً قد ضيّعنا دارًا تبقى واستوطنّا دارًا تفنى. قال عياض: فقالوا: يا ابن عمّ رسول الله أوَ يعلـم النصراني ذلك؟ قال: لا يعلم ذلك إلا نبي أو صدِّيق.

قال: حدّثنا الربيع أبو سليمان عن موسى بن عامر عن جدّه قراءة بالخضراء من عسقلان قال: فأقام عياض على آمد أربعة أشهر قال: فخرج من جيشه الحكم بن هشام واستأذن عياضًا أن يشنّ الغارات على ميافارقين فأذِنَ له فأخذ معه من الصحابة مائة من المهاجرين والأنصار فخرجوا بعدما صلّوا الظهر وعبروا الدجلة وساروا والأرض تطوي لهم فما مضى قليل من الليل إلا وهم على ميافارقين فداروا بها إلى أن وصلوا إلى برج يُعرَف ببرج الشاة، فقال الحكم بن هشام وددت من الله لو فتح لنا هذه المدينة بلا قتال. قال فما استتمّ كلامه حتى انفتح لهم باب من حائط البرج فدخلوا وهم يخترقون الطرق إلى وسط المدينة إلى كنيستهم العظمى وتُعرَف ببيعة ماريا وكانت تلك الليلة عيدًا عند النصارى، فلما أقبلوا إلى الصلاة وجدوا أصحاب رسول الله ﷺ وهم نزول على باب البيعة فصاحوا وتسامع الناس فأتى صاحب البلد وكان اسمه أسلاغورس، فلما رآهم قال: مَن أنتم؟ قال له الحكم: نحن أصحاب رسول الله ﷺ. قال: ومن أين جئتم؟ قالوا: من عسكرنا. قال: ومتى جئتم؟ قالوا: بعدما صلّينا الظهر. قال: ومَن فتح لكم مدينتنا؟ قال له الحكم: فتح لنا مَن بيده مقاليد الأمور. قال: أوَما تفزعون منّا؟ فقال الحكم: وكيف نفزع من مخلوق لا يضرّ ولا ينفع وهو تحت أحكام القهر؟ وقد قال ربّنا في كتابه: ﴿**فلا تخافوهم وخافونِ إن كنتم مؤمنين**﴾ [آل عمران: ١٧٥].

فقال أسلاغورس: إن دينكم دين محدث وديننا دين قديم والقديم أفضل من المحدث. فقال له الحكم: إذا كان ما قلته حقًّا ففضل إبليس على آدم لأنه أقدم منه أعلمت أن طينة آدم مشكلة، وقد قال الله تعالى: ﴿**أفمن شرح الله صدره للإسلام فهو على نور من ربه**﴾ [الزمر: ٢٢] أشرق نور قلبه في وقت تجلّيه واشتعل بالاتّقاد فيه فنظر إليه إبليس وظن قميص عبوديته أبيض بالتوحيد، وإذا هو أسود بالشِّرك فأبان نعته القديم عن نعت وقته بقوله: ﴿**وكان من الكافرين**﴾ [البقرة: ٣٤]، كان سائرًا في أرض الشِّرك تحت ظل الجهل بالعواقب فما زال يقطع منازل العبادات بالعبادات، وهو في عماية عن أبصار جمال المشاهدات، فلما ظهرت أنوار مصباح الإلهية من مشكاة الأبدية استنار وجه صورة حاله، فإذا هو قد فهم من جوابه وأن عليك لعنتي، وأصل آدم لمّا طار من وكر بشريّته بأجنحة همّته في جو الطلب تعالى عن حطيطة إنسانيته حتى دنا من نيران المِحَن فافترقت أنوار القسم بأجنحة اصطفائه وحصن قوادم ارتقائه فوقع في حبال وعصى آدم

ربّه، فلما أتاه في أودية محبته، هطلت عليه سحائب محنته، ورمى بصواعق اهبطا، فلما خرج إلى بيداء كرباته اشتملته مواكب آلائه مبشّرة إيّاه باجتبائه **﴿ثم اجتباه ربّه فتاب عليه وهدى﴾** [طه: ١٢٢] قال: وإن أسلاغورس أمرهم أن يدخلوا البيعة. فقال الحكم بن هشام: وما الذي نصنع في بيتكم؟ قال: تذكرون فيها ربكم. قال: ما كنّا نُدعَى إلى ذكر ربنا فنتأخر عنه.

قال: فربطوا خيلهم ودخلوا ما أراد أسلاغورس بذلك إلا أنه قد زخرفها وصوّر فيها بيت المقدس والصخرة وقبّة السلسلة ومحراب دواب ومهد عيسى وصورته وأُمه مريم، فلما توسّطها أصحاب رسول الله ﷺ قرأ الحكم بن هشام **﴿وإذ قال الله يا عيسى ابن مريم أأنت قلت للناس اتخذوني وأمي إلـٰهين من دون الله﴾** [المائدة: ١١٦] ورفع بها صوته. فقال: لا والله. وإنما أقول: لا إلـٰه إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمدًا عبده ورسوله. قال: فوالله لقد ماجت بيعة القوم وتزلزلت وصفقت القناديل بعضها ببعض، قال: وكان للبيعة شيخ عالم بالأديان والشرائع وكان اسمه عبد المسيح، فلما نظر ما حلّ بالبيعة والقناديل صلّب على وجهه وكذلك كلّ ما كان فيها، وقالوا لملكهم: أنت ما أردت إلا هلاكنا إذ أدخلت هؤلاء العرب إلينا أما ترى كيف غضب المسيح علينا؟ فقال البطريق: لا وحق المسيح ما هو إلا توحيدكم لله وذكر نبيّهم أظهر لكم من معجزة نبيّهم ما رأيتموه يا ويلكم إذا كان قد فتح لهم باب في السور ودخلوا منه علينا فكيف لا تهتز البيعة وتصفق القناديل لمّا دخلوها، وأنا كنت في شكٍّ مما ذكرت والآن فيا طوبى لمَن كان على دينهم.

قال الواقدي: وكان هذا خادم بترك بيت المقدس، وكان في بيت المقدس يوم فتحت على يد عمر بن الخطاب رضي الله عنه وسمع من البترك في بيت المقدس وهو يقول هذا الذي يفتح الأرض في طولها والعرض، ومحمد هو الذي بشّر به المسيح ابن مريم، ولقد سأله رجل لمّا رأى المسلمين يعظّمون الصخرة ويقبّلون القدم الذي فيها، فقال للبترك: نرى المسلمين يقبّلون قدم المسيح، فقال له: يا بني نحن نقول إنه قدم المسيح، وإنما هو قدم نبيّهم محمد بن عبد الله لمّا عرج به إلى السماء. قال: أوَ عرج به؟ فقال: نعم، أسرى به من مكة إلى بيت المقدس وصلّى بالنبيين وأسرى به.

قال الحكم: وذلك لمّا استبشرت به النفوس وبلغ خبر رسالته، وأنه زيد في كماله وأشرقت أنوار جماله، وأراد الحق أن يشرّفه على أهل الكونين باقترابه من قاب قوسين فنودي في عالم الملكوت: تأهبوا ثم تأدبوا فهذه ليلة الدنو والاقتراب، هذه ليلة عتق الرقاب، هذه ليلة الحبور، هذه ليلة السرور، هذه ليلة الابتهاج، هذه ليلة المعراج، انصبوا سُلّم الإرسال، وافرشوا فرش الإظلال، وقوموا على أقدام الاسترسال، يا جبريل

زخرف الجِنان، وزيِّن الحور والولدان، يا جبريل انزل بالتهاني إلى بيت أُم هاني، أيقظ حبيب مملكتنا وأركبه على بُراق قدرتنا لنُريه من آياتنا، فأخذ جبريل مطيّة خلقها عجيب، ونعتها غريب، فألجمها بلجام القرب، وأسرجها بموكب الحب وسار بها في ميدان الجلال، وهو ينادي: **﴿سبحان الذي أسرى﴾** [الإسراء: ١]، فلما وقف ببابه ورفع حجابه ونظر، وإذا هو مدّثر بعباءة تذلّله، متوسّد بوسادة عمله، قد أنحَلَه الشوق، وأذابه التوق فنشر عليه أنوار السعد، وبشّره بإنجاز الوعد، فقال له: **﴿يا أيها المدّثر﴾** [المدّثر: ١] قم على قدم هِمّتك، وقم بوارد عزيمتك، واركب في السماء، وارقَ واصعد معراج الدنو والارتقاء، فقام السيد واتّشح، وجسمه من الحياء قد رشح، وقد باح باستسلامه، وركب مركب تحيته وسلامه ورفع على رأسه سحابة الاحترام، وأسرى به من البيت الحرام ذكره جليسه، وفكره أنيسه، وشوقه دليله وجبريل خليله، فلما ولج دائرة بيت المقدس، وحصل في فناء المسجد فجليت عليه أرواح الأنبياء في حُلَل الأنوار والبهاء، فبادروا إلى سلامه وتحيته وإكرامه، وجليت بين يديه وأثنوا بالصلاة عليه، وأراد كلٌ منهم أن يصف منزلته، ويذكر فضيلته، فقال آدم: الحمد لله الذي خلقني بيده ونفخ فيَّ من روحه وأسجد لي ملائكته وأسكنني دار كرامته، وقال إدريس: الحمد لله الذي رفعني مكانًا عليًا، وبوّأني مجلسًا سَنِيًا، وقال نوح: الحمد لله الذي نجّاني من القوم الظالمين، وجعلني أبًا للمؤمنين.

وقال إبراهيم: الحمد لله الذي اتخذني خليلاً، وجعل النار بردًا عليّ وسلامًا وأصلح لي زوجي بعدما كانت عقيمًا، وقال موسى: الحمد لله الذي أعطاني تسع آيات بيِّنات وكتب لي في الألواح من كل شيء موعظة وتفصيلاً لكل شيء وأهلك عدوّي فرعون ونجّى قومي، وفلق لي البحر وكلّمني تكليمًا، وقال لي: إني أنا الله، وقال سليمان بن داود: الحمد لله الذي سخّر لي الإنس والجنّ والطير والريح وعلمني منطق الطير وآتاني مُلكًا لا ينبغي لأحد من بعدي، وقال عيسى: الحمد لله الذي لم يخلقني من نطفة قذرة وأحيا لي الموتى وأبرأ لي الأكمه والأبرص، فلما افتخروا بجميع كراماتهم. قال النبي ﷺ: الحمد لله الذي خلقني من أنوار البهاء ورفع قدري في الأرض والسماء، وكتب اسمي على ساق عرشه، وقرن اسمي باسمه، ونزّه ذِكري في معالم قدسه، وشرح لي صدري، ويسّر لي أمري، ورفع قدري، وغفر لي ما تقدم من ذنبي وما تأخر، وأيّدني على مَن كفر، وبعثني بالرعب، وأرسلني بالحنيفية، ونصرني وجعل أُمتي خير الأُمم، وفرض طاعتي على العرب والعجم، وجعل لي الأرض مسجدًا، وترابها طهورًا وشفّعني يوم القيامة في أمتي، ونسخ سائر الشرائع بشريعتي، وأدخل سائر الأُمم في شفاعتي، وجعل الكعبة قِبلتي، وأسمعني صلاة أُمتي من بعدي لأشهد لهم يوم القيامة، وجعلني شاهدًا، وأُمتي شهودًا على مَن جحد وظلم، وكتب

اسمي على الأفلاك، وقال جلّ وعلا: ﴿إِنَّا أرسلناك شاهدًا ومبشِّرًا ونذيرًا﴾ [الأحزاب: ٤٥].

قال الواقدي: فلما سمع البطريق ميافارقين هذا الكلام من الحكم بن هاشم. قال: والله ما في دينكم مراء وأنتم على الحق، ولقد كنت أسلمت على يد عمر بن الخطاب رضي الله عنه ببيت المقدس، ثم جئت إلى هذه المدينة وكان عليها والٍ فمات ووليت الأمر من بعده فرجعت إلى ديني الأول. فإن أنا تُبْتُ إليه ورجعت إلى دينكم أيقبلني على ما ارتكبت من المعاصي؟ فقال له الحكم: سمعت رسول الله ﷺ يقول يومًا لأصحابه: «بأيّ شيء يكون ابن آدم أشدّ فرحًا»؟ فقالوا: بالأهل، فسكت رسول الله ﷺ وسكت الناس. فقال رسول الله ﷺ: «لا يكون ابن آدم أشد فرحًا منه إذا كان في مفازة ومعه راحلته عليها زاده وماؤه ومنافعه. فإذا كان في بعض المفازة اشتدّ عليه الحرّ فأوى إلى ظل فنزل عن راحلته وتوسد ذراعه فنام ثم انتبه وقد ذهبت راحلته وعليها طعامه وشرابه وغذاؤه ومنافعه فانطلق في طلبها يمينًا وشمالاً فلم يجدها فرجع إلى موضعه ليموت فيه، وقد أيقن بالهلاك فنام، ثم انتبه فوجد راحلته كما هي فأخذ بخطامها»، ثم قال النبي ﷺ: «إن الله أشدّ فرحًا بتوبة عبده المؤمن من ذلك الرجل بتلك الراحلة».

قال: فلما سمع أسلاغورس كلام الحكم بن هشام دمعت عيناه وأخذهم إلى دار ولايته وقال: والله لقد بانَ الحق وظهر الصدق فأسلم وحَسُنَ إسلامه وطلب جماعته فأسلموا بأجمعهم. ثم إنه طلب أكابر البلد وأخبرهم بإسلامه وقال لهم: إني أُريد منكم ما أريده لنفسي، وإن دين هؤلاء يعلو ولا يُعلى عليه فمَن أسلم منكم أمِنَ في الدنيا والآخرة وهم قد نزلوا على آمد ولا بدّ لهم من ديار بكر جميعها فمَن خالفهم وعصى نهبوا بلده، واستعبدوا أهله وولده، فإن أسلمتم لهؤلاء القوم أمِنتم على أنفسكم وأولادكم. فقالوا: أيها الصاحب أمهلنا ثلاثة أيام حتى نرى ما لنا فيه من الصلاح فتركهم وانصرفوا من عنده، فلما كان الليل اجتمعوا وتحالفوا أن لا يسلموا للعرب أبدًا ولو هلكوا عن آخرهم وأصرّوا على القتال، فبعد ثلاثة أيام طلبهم فلم يأته إلا القليل، وأتت إليه العين الصافية وأخبرته بما عزم عليه أهل البلد، ثم لبسوا سلاحهم وأتوا إليه يقاتلونه فخرج إليهم بجماعة ومعه أصحاب رسول الله ﷺ فقاتلوا قتالاً شديدًا، فلما جنّ الليل. قال لهم: أرسلوا إلى أميركم ينجدنا فأرسل واحدًا منهم فما بَعُدَ عن البلد حتى سمع قرع حوافر الخيل، فلما تبيّنهم إذ هم من عسكر الموحدين، وإذا هم خمسمائة فارس وعليهم ضبّة بن عديّ، وكان السبب في ذلك أن عياض بن غنم رأى النبي ﷺ في المنام وأخبره بقصة ميافارقين وما جرى لصاحبها من أهل بلده وأمره أن يرسل إليهم جيشًا فاستيقظ من نومه وأرسل إليهم ضبّة بن عدي ومعه خمسمائة فارس وأذِنَ الله للأرض أن تطوى لهم

فوصلوا إليهم في تلك الليلة فأتى بهم إلى السرّ، وكانوا قد وكّلوا به مَن يحفظه فنادى ففتحوا لهم، وإذا بصاحب البلد قابلهم فأدخلهم، فقالوا له: مَن أعلمكم بقدومنا؟ فقال صاحب البلد: أعلمني بكم النبي ﷺ رأيته، وقد نمت من ضيق صدري بقتال هؤلاء القوم أهل البلد فنمت فرأيت شخصه الشريف فبشّرني بقدومكم، فلما حصلوا بأجمعهم خرج للقتال أهل البلد فصاح بهم المسلمون: يا أعداء الله قد حلّ بكم البوار، وأحاطت بكم الأقدار، من أصحاب محمد المختار، ووضعوا فيهم السيف فولّوا إلى منازلهم ودُورهم ليتحصّنوا بها، وقد علموا أنه قد نزل بهم ما لا طاقة لهم به فنادوا الغوث. فقال لهم: مَن أتى إلينا فهو آمن فخرجوا، فقال أصحاب رسول الله ﷺ: قد أمّناكم على جميع مالكم إلا السلاح. قال: فأتوا بجميع ما عندهم من السلاح وسلّموه للصحابة. فلما رأوا منهم صدق القول أسلموا إلاّ قليلاً منهم وعملوا البيعة الكبيرة جامعًا وأقاموا ثلاثة أيام وتركوا عندهم الحكم بن هشام ومعه عشرة من أصحابه ليعلّموهم شرائع الدين، وأتى ضبّة ومَن معه إلى عياض وأخبره بما جرى ففرح بذلك وقال: وإن أهل آمد لم يفتحوا بابًا ولا باشروا قتالاً وضاق صدر عياض ومَن معه من ذلك.

قال الواقدي: ومكثوا خمسة أشهر وكان خالد بن الوليد كما ذكرنا على باب الماء وكان في يوم يركب بجيش الزحف ويدور حول المدينة، فإذا أتى الليل نزل في منزله وكان غلامه همام يخبز له في كل ليلة أقراص شعير ويتركها له في قبّته. فإذا صلّى المغرب أكل تلك الأقراص عند الإفطار وأنه استمر ثلاث ليالٍ لم يجد شيئًا يفطر عليه، فقال لغلامه همام: أنت يا ولدي ما عندك ما تفطرني عليه ولك بهذه الليلة ثلاث ليال لم تصنع لي شيئًا. فقال: والله يا مولاي إنني في كل ليلة أصنعها وأضعها لك ولم يكن عندي منها علم وما ظننت إلا أنك تأكلها، فلما كانت الليلة الرابعة وضع همام الأقراص على عادته وأخفى نفسه وجلس لينظر مَن يأخذها، فإذا هو بكلب قد أقبل من نحو المدينة ودخل القبة وأخذ الزاد وخرج فتبعه همام وإذا به قد دخل من مسرب الماء في جانب السور. قال فتركه همام وعاد، فلما أتى خالد من صلاته أقبل وطلب الفطور، فقال له همام: يا مولاي كان من الأمر ما هو كذا وكذا، قال خالد: يا همام أرِني الموضع فمضى همام أمام خالد وأراه الموضع الذي دخل منه الكلب، فلما رآه قال: الله أكبر فتح الله ونصر وعاد وطلب أصحابه وأعلمهم بالقصة.

وقال لهم: قد عوّلت أن أدخل المدينة من مسرب الماء وأُريد منكم مائة رجل يهبون نفوسهم لله تعالى وتعلمون أن الدنيا دار صدق لمَن صدقها، ودار وفاء لمَن أخذ منها بحقها، ودار رجاء لمَن تزوّد منها، ودار نجاة لمَن فهم عنها الدنيا، مهبط وحي الله ومصلى ملائكته ومسجد أحبابه وأوليائه، اتخذوها مزرعة فرحمنا الله وإياكم

وكان لنا ولكم فمَن أراد الزاد من هذه الدنيا الفانية إلى يوم حشره، فليبادر إلى التجارة الرابحة ولا يغرّه طول الأجل فيطمئن إلى التقصير في العمل، ألا وإني قد وهبت نفسي لله وقد اشترى. ثم قرأ ﴿**إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة**﴾ [التوبة: ١١١] فمَن باع فليبادر ولا يجزع مما يحاذر فالموعد بيننا في عرصات القيامة وموقف الحسرة والندامة فاتبعوا سلفكم الطاهر والدين الباهر فعوّلوا على بركة الله وعونه واختار من أصحابه مائة وأمرهم بلبس السلاح وركب إلى عياض وأعلمه بما عزم عليه من دخوله المدينة من المسرب وقال له: كن على أُهبة إذا سمعت التكبير والتهليل. فقال: علمت ذلك وأنا على أُهبة بحمد الله امضِ أعانك الله ونصرك وسِرْ على بركة الله وعونه. قال: فودّعه خالد ورجع إلى أصحابه فوجدهم قد استعدوا فسار أمامهم وهم رجالة إلى أن أتى إلى باب المسرب وكان نصف الليل، وأمر الله سلطان النوم فاستولى على مَن كان على السور والحرس لأنه جلّ شأنه إذا أراد أمرًا بلغه وهيّأ أسبابه. قال: فأول مَن دخل من المسرب خالد رضي الله عنه وتبعه عامر بن الأحوص وحذيفة بن ثابت وعمران بن بشر وتمام المائة رضي الله عنهم، وما منهم إلا مَن تسرّب ودخل ومَن كان جسيمًا لا يقدر على الدخول رجع وهو متأسف على الشهادة فحصل في المدينة ثمانون رجلاً ولم يصحبهم إلا مَن دخل من المسرب. ثم إن واحدًا من الذين تأخروا عالج في حجر فقلعه فاتّسع المكان ودخلوا بأجمعهم وأدركوا أصحابهم وقد توسطوا المدينة وارتجّت بها الأصوات واستيقظ الراقد وارتعد القاعد. وقصد خالد مطلع السور ومنع الناس من النزول وأخذتهم الأحجار وأرسل خالد عشرة من أصحابه إلى الباب فكسروا الأقفال وفتحوا الباب، وكان عياض قد ركب وأيقظ الناس وقد تهيّأ للحرب، فلما كبّر خالد ومَن معه بادر عياض ومَن معه إلى الباب فوجده مفتوحًا فدخلوا، وأقبل أهل المدينة يهربون إلى السور والليل قد غسق والظلام اتّسق والقتام قد أطبق، فما بقي أحد يقوم من مرقده إلا والسيف قد رمى رأسه عن جسده وهذا خرج من عند أولاده والسيف قد قطع في فؤاده وخالد ومَن معه يكبّرون وقد تقطعت بأهل آمد الأسباب وأحاط بهم العذاب. قال: ولم تزل الأبطال تبطح وتطرح وصدور المسلمين تشرح، ولنُحُور الكَفَرَة تذبح، والعوائق تقطع والشجعان للرؤوس تقرع، والصوارم تقطع، والأنوف تجدع، وقلب الذليل يفزع، والجبان يجزع، والعيون تدمع، والصائح لا يسمع، ولا شافع يشفع، ولا مانع يمنع، ولا دافع يدفع، ولا قلب يخشع، حتى إذا ولّى الليل ونزع، والصباح عوّل على أن يطلع، وخالد يصيح صياح السميذع، حتى انطوى الليل بمطارف الدجى عند انتشار رايات الضيا، فنظر أهل البلد إلى ما حلّ بهم ونزل عليهم. فأقبلوا إلى دار الإمارة يطلبون الملكة مريم فلم يجدوها. قال وكان السبب في ذلك أنها سمعت بأن الصحابة قد حصلوا على المدينة فعلمت أنها لا تخرج من أيديهم فأخفت

نفسها ومَن معها ونزلت في سرب في دار الإمارة وأخذت ما تقدر على حمله وخرجت من ذيل الجبل وطلب بلاد الروم.

قال الواقدي: فلما علم أهل المدينة أن ملكتهم هربت نادوا الغوث الغوث فرفعوا عنهم السيف وجمعهم الأمير إليه فاجتمعوا في ميدان المدينة. فقال لهم عياض: أما بعد: فإن الله تعالى قد نصرنا عليكم وصبرنا وظفرنا بكم ولولا أن الله جعل نبيّنا نبيّ الرحمة وأسكنها قلوب المؤمنين لأبَدْناكم بالسيف عن آخركم، ولكن قد أمرنا ربنا في كتابه بكَظْم الغيظ والعفو فقال الله تعالى: **﴿والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس والله يحبّ المحسنين﴾** [آل عمران: ١٣٤] ثم نظر فيهم فمَن أسلم ومَن لم يسلم ضرب الجزية عليه من عامه.

قال الواقدي: وكان شاهد الجمع في فتح آمد زيد بن حالوك اليهودي، وكان عالمًا بدين اليهودية والنصرانية، وكان يزعم أنه من أولاد داود عليه السلام، وكان بنو إسرائيل يعظِّمون شأنه ويأتونه بالهدايا والتحف، وأنه لمّا دخل عياض بن غنم رضي الله عنه إلى آمد وجمع أهلها في الميدان وتكلم المشايخ بما تكلموا به قام هو من وسط قومه، وكان اسمه مليا بن حنيتا وعرّف المسلمين بمكانه وأنه مُقَدَّم على بني إسرائيل وأنه من ذرية داود. قال: أنتم أصحاب نبي الرحمة وأن الله خلق الرحمة وأسكنها في قلوبكم، وأن الله فضّلكم على سائر الأمم وقد أنزل في صُحُف إبراهيم وموسى يقول: إني أبعث في آخر الزمان نبيًا أميًا، وأجعل أُمته أفضل الأمم، وأُسْكِن الرحمة في قلوبهم وبهم أُباهي ملائكتي وأبعثهم غرًا محجّلين من آثار الوضوء، وإن داود عليه السلام لمّا أصاب الذنب ونفر عنه الوحش خرج إلى فلاة من الأرض وقال: إلٰهي بحق النبي العربي الذي تبعثه في آخر الزمان إلا غفرت لي فأجاب دعوته. فقال عياض: إن الله يحبّ العفو وقد عفونا عنكم. فقال أهل المدينة: فإذا عفوتم عنّا نرجع إلى دينكم فأسلم أكثرهم وضُرِبَت الجزية على مَن لم يسلم في العام القابل على كل بالغ أربعة مثاقيل ذهبًا وأخذوا سلاحهم وحملوا لهم شطر أموالهم فحملها وبنى البيعة المعروفة جامعًا وأقام في آمد اثني عشر يومًا وولّى عليه صعصعة العبدي ومعه خمسمائة من بني عمّه ومن العرب.

ذكر فتوح اليمانية وجبل الجودي

قال: وارتحل عياض إلى الحصون وهي حصون الجبابرة وأنفذ إلى أهلها فأسلموا وأرسل النعمان بن معرف إلى أهل أنكل فأسلموا وسُمِّيت باليمانية لأنها فتحت على يد حذيفة بن اليمان ومضى عياض إلى الجابية ففتحها صلحًا ونزل إلى أهل جبل الجودي والسيوان وذي الفرض. . . فأخذوا من المسلمين صلحًا وعهدًا على تقرير بينهم وارتحل

المسلمون حتى نزلوا على الهتاج فأبى أهله أن يسلموا، وعوّلوا على القتال ونصبوا الرعادات والمجانيق فنظر عياض إلى ذلك فعَظُمَ عليه. وقال: هذا حصن منيع ومتى تركناه ومضينا عنه أغاروا على أهل هذه البلاد وأذاقوهم الشرّ وقد لزمنا مَن أسلم ومَن صالحنا ألزم لنا فلا نحيد عنه حتى نفتحه إن شاء الله تعالى، فقال خالد: انزلوا بنا عليه ولعل أن يأتي من عرضيات الأمور ما لم يكن في حساب.

قال الواقدي: وكان صاحب الهتاج شيطانًا مريدًا جبّارًا عنيدًا، وكان اسمه يانس بن كليوس وكان قد تزوج بميرونة ابنة بزيونة ابنة بريول بن كالوص صاحب قلب والحصن الحديد وكانت قد زُفّت إليه وأقامت عنده سنة، ثم إنها مضت إلى زيارة أبيها وأُمها وأقامت عندهما شهرًا، فلما خرجت من عندهما ومضت إلى الهتاج عند زوجها فبينما هي في نصف الطريق إذ بلغها المسلمين قد نزلوا على الهتاج فجلست في مكانها ولم تبرح وكان عدوّ الله يحبها ولا يجد له عنها صبرًا، فلما رأى المسلمين وقد نزلوا عليه علم أنه لا يقدر أن يجتمع بالجارية فاتفق رأيه أن يصالح المسلمين حيلة منه ومكرًا وخديعة حتى تحصل زوجته عنده ويغدر ولا يعطي أحدًا طاعة فأرسل إلى عياض يقول له إنك لو أقمت علينا بقية عمرك لما قدرت علينا ولكن صالحنا سنة كاملة شمسية، فإن أنت فتحت ما بقي من ديار بكر فنحن نرجع إلى طاعتك وإن لم تقدر على فتح البلاد فلا طاعة لك علينا والسلام، وأرسل إلى عياض رجلاً من متنصرة العرب من ربيعة الفرس وكان ذلك الرجل مدبّر بلاد الهتاج هو وبنو عمّه، وكان اسمه مرهف بن واقد وكان ميله إلى العرب أكثر من الروم، فلما أدّى الرسالة إلى عياض أجابه إلى الصلح لئلا يطول مقامهم، فلما همّ مرهف بالرجوع قال لعياض: أما والله أيها الأمير ما كنت بالذي أدع النصيحة للعرب وأستعملها للعلوج، وهذا العلج قد اتفق رأيه على كذا وكذا، فإن كنت ترحل وتكمن لزوجته وتأخذها ومَن معها وتطلب منه البلد فإنه يسلّم لوقته فافعل. فقال عياض: ما كنا نقول قولاً ولا نَفِي به ولعلَّ الله ينظر إلى صدق نيّاتنا فيفتحه علينا.

حدّثني مالك بن بشر بن عامر وكان ممّن حضر فتوح الشام وديار بكر وديار ربيعة. قال: بينما مرهف يحدّث عياضًا إذا بغبرة قد أقبلت فقال عياض لميسرة بن مسروق: اركب وانظر ما هذه الغبرة. فركب ومضى هو وجماعة من الصحابة وعاد ميسرة وهو يقول: أبشر أيها الأمير بالفتح. قال: وما الخبر يا ابن مسروق؟ قال: هذا جيش ابن هبيرة المازني قد أغار على البلاد وأتى بالأموال والرجال. قال فظهر البِشر في وجه عياض وجعل يتطاول إلى قدوم ابن هبيرة المازني حتى وصل وسلّم على عياض وعلى المسلمين وعرض عليه الغنائم ومرهف بن واقد يتأملها إلى أن عرضت عليه جارية رومية تخجل الشمس منها وعليها زيّ الملوك فأطرق المسلمون إلى الأرض يستعملون الأدب

مع الله في قوله: **﴿قل للمؤمنين يغضّوا من أبصارهم﴾** [النور: ٣٠] فلما نظر إليها مرهف قال: أشهد أن لا إلٰه إلا الله وأشهد أن محمدًا رسول الله وأن دينكم الحق وقولكم الصدق. فقال له عياض: ما بالك أيها الرجل؟ قال: هذه زوجة يانس صاحب الهتاج وقد طرحها الله في أيديكم فسجد عياض شكرًا لله فلما رفع رأسه قال: **﴿ومَن يتّق الله يجعل له مخرجًا ويرزقه من حيث لا يحتسب﴾** [الطلاق: ٢، ٣].

قال الواقدي: وكانت ميرونة قد خرجت من عند أهلها ومعها جماعة من بنات البطارقة فوافق طريق قيس بن هبيرة تلك الأرض فأخذها ومَن معها وأتى بها إلى عياض. فقال عياض لمرهف: ارجع إلى يانس واكتم إسلامك وأخبره بما رأيت واستعمل النصح للمسلمين وقل له إن أراد أهله فليسلّم لنا هذه القلعة ومهما أردنا منه. قال فرجع مرهف إلى يانس وحدّثه بما جرى فعظم ذلك عليه وكبر لديه وقال لمرهف: ما الذي ترى من الرأي؟ قال: اعلم أن هؤلاء القوم ما قالوا قولاً إلا وفوا به وبذلك نصروا علينا ومن الرأي أن نسلّم لهم القلعة ويعطوك زوجتك وجميع مالك، وأنا الضامن لك منهم ذلك. فقال: يا أنس انزل إليهم وائتني بعشرة رجال يحلفون لي على ما أُريد فإن أجابوني إلى ذلك سلّمت إليهم القلعة ولا تأتني إلاّ بمَن يُقبَل قوله ويُشكَر فعله حتى أستوثق منهم نفسي ولعله يكون الرجل الذي شاع ذكره بالشجاعة وفتح البلاد والشام - يعني خالد بن الوليد -، وإنما أراد الملعون ذلك حتى يقبض عليهم ويخلّص بهم زوجته. قال فنزل إلى عياض وأخبره بذلك وبما قاله يانس. فقال عياض: يا مرهف يريد الملعون أن يخدعنا، ونحن ثمرة الخداع ونرجو من الله أن يرجع مكره عليه ولديه، ثم قرأ **﴿إن الله لا يصلح عمل المفسدين﴾** [يونس: ٨١]. قال خالد: دعنا أيها الأمير نصعد إليه والله الموفّق للصواب.

فقال عياض: اعزموا على بركة الله ولا حول ولا قوة إلا بالله العليّ القدير العظيم، فنهض خالد والمقداد وعمار وسعيد بن زيد وعمرو بن معديكرب والمسيب بن نجيبة وقيس بن هبيرة وميسرة وضرار بن الأزور وعبد الرحمٰن بن أبي بكر الصديق رضي الله عنهم أجمعين وساروا ومرهف أمامهم إلى أن وصلوا باب القلعة وكان رتّب عدوّ الله غلمانه في دركات القلعة وأمرهم أن يأخذوا منهم سلاحهم ففعلوا ذلك إلا خالدًا وعبد الرحمٰن وضرارًا فقالوا: ما كنّا نسلّم عدّتنا لغيرنا فإن أراد أن ندخل عليه بسلاحنا وإلا رجعنا من حيث أتينا فدخل مرهف عليه وقال: إن هؤلاء الثلاثة امتنعوا من إعطاء السلاح وما الذي يقدرون على أن يفعلوه دعهم يدخلوا كيف شاؤوا فلو كانوا نارًا ما أحرقوا ولا تُرهِم الجزع فيطمعوا. فقال: وحق المسيح لقد صدقت دعهم كلهم يدخلوا بعددهم حتى يعلموا أننا لا نخافهم ولا نرهبهم وأيضًا لئلا تنفر قلوبهم منّا فرجع مرهف

وأمر الغلمان أن يردّوا إليهم أسلحتهم ودخلوا، فلما توسّطوا القلعة إذا بيانس واقف، فلما وقعت عينه عليهم دخل الرعب قلبه، لأن مَن خاف الله خاف منه كل شيء فجعل يهتزّ ويقع وكان قد قال لجماعته إذا رأيتموني قد قربت منهم وصافحتهم فدونكم وإياهم فنظر خالد إليهم فعلم ما في قلوبهم فقال: أيها البطريق قف مكانك فإنّا قوم لا نؤتى بحيلة ولا مكر لأنّا قهرنا الملوك وأخذنا بلادهم بهذه الأشياء ثم إنه انتضى سيفه وزعق بيانس فأدهشه وخُيِّلَ له أن كلّ مَن في القلعة منهم وتقدم إليه وضربه على حبل عاتقه فأطلع السيف من علائقه فهجمت الصحابة على أهل القلعة ووضعوا السيف فيهم وتكاثر عليهم العدو وتزايد المدد. قال وكان في داخل المدينة خلق من الرستاق من قرى الهتاج من فسطاس وقرساط وكان يانس قد جمعهم لقتال المسلمين. قال: فلما قتل خالد يانس ونظروا إلى صبر الصحابة على قتال أهل القلعة قالوا لبعضهم: أنتم تعلمون أن العرب ما يسكتون عن أصحابهم، وقد فتحوا آمد والبلاد فلا يمتنع منهم الهتاج وغيرها فخذوا لكم عند المسلمين يدًا وقاتلوا معهم أهل القلعة. قال ففعلوا ذلك وجرّدوا سيوفهم وضربوا منهم مَن كان في القلعة وسمع عياض الصياح.

فقال: أما والله إن خالدًا ومَن معه غُدِرَ بهم فبادروا إليهم أيها المجاهدون، قال فبادر أبو الهول وأصحابه الأربعمائة وهم رجاله فتفرّقوا في الجبل وقصدوا القلعة فمَن انهزم من الكفّار وضعوا فيهم السيوف فما نجا منهم أحد وما وصل أبو الهول إلى القلعة إلا وقد ملكها خالد واحتوى عليها وصعد عياض والمسلمون وأخذوا كل ما كان فيها وولّى عليها مولاه سالمًا وجعل عنده مائة رجل وكتب إلى أهل فسطاس وفرساط ومَن في القلعة أن لا يزنوا بامرأة أبدًا وأشهد عليهم خالدًا والمقداد وعمّارًا ومعاذًا وشرحبيل وعبد الرحمٰن بن أبي بكر وضرارًا وأطلق عياض الأسارى الذين أتى بهم قيس بن هبيرة وارتحل يطلب ميافارقين فلقيه في طريقه أهل تلك الجبال وأهل الجزيرة وقلب ومتنان وحزب الكلاب فأعطاهم الأمان وضربت عليهم الجزية وردّهم إلى بلادهم وأتى إليهم أهل ميافارقين للقائهم وشكروهم على حُسْن سيرتهم وعدلهم وأخرجوا لهم الضيافات والعلوفات ونزل من جهة الميدان في سفح الجبل وأقام بها عشرة أيام ثم جمع أصحاب رسول الله ﷺ واستشارهم وقال: إني عوّلت على المسير إلى ديار أرمينية وإلى أرزن الروم فأشيروا عليّ يرحمكم الله أيّ طريق نسلك؟ فقال رجل من المعاهدين ممّن هو أعرف الناس بتلك البلاد: أيها الأمير أتأذن لي أن أتكلم. فقال: مَن كان له رأي فليتكلم. فقال: اعلم أنك إذا قصدت بلاد أرمينية يطول مكثك فيها، واعلم أن بالقرب منك حصنًا منيعًا يقال له حصن لغوب وغلب عليه اسم صاحبه وهو يطالقون بن كنعان بن عيديوس له جيش عرمرم يزيد على ثلاثة آلاف فارس.

ذكر فتح حصن لغوب

ثم قال: اعلم أيها الأمير أن تحت يده معاقل كثيرة، وربما إنه رحل ركابه من هنا فوقع بهذه البلاد وشنّ الغارات على أهلها، ومن الرأي أنك لو وجّهت إليه جيشًا لعل الله أن يفتح عليك، فإن أنت فتحت هذا الحصن مضيت حيث تريد وتكون طيب القلب على مَن تستخلفه من أصحابك. فقال عياض لأصحابه: ما تقولون فيما تكلم به هذا الرجل؟ فقال خالد: لقد تكلم بالحق ونطق بالصدق فاعزم وتوكل على الله، ثم انصرفوا من عنده وبات ليلته متفكّرًا فيمن ينفذه إلى الحصن فوقع اختياره على يوقنا فدعا إليه وقال له: يا يوقنا يا عبد الله قد اتفق الرأي عليك أن تمضي إلى الحصن فما الذي تراه؟ فقال يوقنا: أصلح الله الأمير قد بلغني أن الحصن منيع، وربما إذا نزلنا عليه طال الأمر وتنفد المدة وينقضي هذا الوقت ولا ندري ما يكون، ولكن أهب نفسي لله ولرسوله وآخذ مائة من بني عمّي ونتزيّا بزيّ الفلاحين ونأخذ نساءنا وأولادنا نتركهم على البقر وندخل في جملة أهل البلاد الفلاحين، فإن حصلنا في الحصن فنحن نملكه إن شاء الله تعالى. فقال عياض: يا عبد الله قد اشتهر أمرك عند جميع أهل النصرانية ونخاف أن تسير فتغرّر بنفسك ومَن معك فيُقبَض عليكم والله تعالى قال: **﴿ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة﴾** [البقرة: ١٩٥] قال: فإذا أبيت فائذن لي أن أشنّ الغارات على بلاد القوم. قال: قد أذِنت لك فخرج يوقنا ومَن معه وهم ألف من قومه وساروا على أرزن وسرد وأسعرد وياباسا وحيزان والمعدن.

قال الواقدي: وكان من قضاء الله وقدره أن صاحب أسعرد وحيزان والمعدن وياتحلسا ويمهرد وطراجر وسلواس كان بينه وبين يطالقون حرب، وكان يُغير بعضهم على بعض وأخربوا المملكتين، فلما انتشرت الأخبار بقدوم أصحاب رسول الله ﷺ وأنهم على ميافارقين جفل أهل تلك البلاد، وعلم بذلك حرسلو صاحب أسعرد وأنه لا طاقة له بالعرب فأخذ هدية سَنِيّة وذهب بنفسه ليطالقون بن كنعان حتى يصطلح معه ويكونوا يدًا واحدة على قتال المسلمين، فبينما هو سائر والهدية معه وقد نزل على قرية اسمها أرغير وعلق على خيله وهو معوّل على المسير وهو ينتظر الخيل تقطع عليقها وإذ قد كبسهم يوقنا، وقد أحاط بالقرية وأخذ كلّ مَن فيها وأسر البطريق ومَن معه وبات ليلته، فلما أصبح عرض الأسرى وقال لهم: إن الله قد ظفرنا بكم ونصرنا عليكم، واعلموا أني ملك من ملوك الروم ملكت البلاد وقُدْتُ الجيوش وأمرت ونهيت وعبدت الصليب وقرّبت القربان، فلما أتى الله بهؤلاء القوم أخبرتهم ونظرت ما هم عليه فعلمت أن الحق معهم فتبعتهم وقلت بقولهم، وقد كنّا بالشام تفزع منّا ملوك العجم وكسرى بن هرمز والديلم والترك وكان لنا كرّة الأرض وكنّا لا نلتفت إلى العرب حتى خرجوا علينا فأذاقونا مرًّا

وذهبت شجاعتنا وملكوا معاقلنا وحصوننا واحتووا على مُلكَنا ونصرهم ربّ الأرض والسماء علينا لأنهم يشيرون إليه بالوحدانية، فإن آمنتم بالله وحده كان لكم الربح في الدنيا والآخرة وأطلق سراحكم وإن أبيتم قتلتم عن آخركم. فقالوا: اتركنا يومنا هذا إلى الليل ندبر أمرنا فتركهم واختلى بحرسلو البطريق وحدّثه في السرّ وقال له: اعمل في خلاص نفسك ورقبتك من النار وأسلِم وفادِ نفسك حتى تنال ما تريد فقد بلغني من الوقائع بينك وبين صاحب الحصن. فقال البطريق: لقد صدقت، فمَن أعلمك؟ فقال له: ما السبب في العداوة بينك وبينه؟

فقال: إنه طلب أن يتزوج ابنتي وبعث إليّ هدية فرددتها عليه، فصار عدوّي وأغار على بلادي وأغَرتُ على بلاده، والآن قَدِمتُ إليه بهدية حتى أكون أنا وإياه يدًا واحدة، فأتيت أنت إليّ وأخذتني، فقال يوقنا: إني أُريد لك من الخير ما أُريد لنفسي ولست أُجبرك على أن تترك دينك ولكن تعاهدني على أن لا تغدر وأنا أُخلي سبيلك وتمضي إلى صاحب الحصن وتدني نفسك بين يديه وتقول: أيها الصاحب قد ندمت على ما كان مني إذ رددتك عن تزويج ابنتي وإني كنت أخذتها وزيّنتها وسُقْتُ معها أموالها على أني أُهديها لك، فلما كنت في ذرية كذا وكذا خرج عليّ قوم من العرب، فأخذوا المال والرجال، وقد نجوت إليك بنفسي، لتأخذ بيدي وتستنقذ ابنتي من العرب، فإنه إذا سمع دعاه الطمع واستجرّه الأمل حتى يخرج إلينا ولعل الله تعالى أن يظفرنا به، فإذا ملكنا الحصن إن شاء الله تعالى كنت أنت تبقى على بلادك، وكنت آمنًا مطمئنًا، واعلم أن ذمامي هو ذمام العرب ومهما فعلته امتثلوه وأمضوه، فلما سمع البطريق كلام يوقنا قال: أفعل ذلك ولكني أخاف من المسيح أن يغضب عليّ إذا خامرت على أهل ديني. فقال يوقنا: أنا أحمل هذه الأوزار عنك، ودع عيسى ابن مريم يطالبني يوم القيامة. فقال البطريق: إن كان هذا الذي قلته، فأنا أفعل وليس يصعب عليّ ولكني أخاف إن فعلت ذلك الذي أمرتني به أن لا ينزل من الحصن وربما بعث معي بعض أصحابه فلا يحصل طائل من عدوّكم. فقال يوقنا: وما يكون التدبير؟ فقال البطريق: الرأي عندي غير هذا. قال: وما هو؟ قال: تذهب مع أصحابك جريدة بالخيل، وأنا أكون معك فما نصبح إلا ونحن على الحصن، فإذا أشرفنا عليه تعطيني جوادي وسلاحي وأركض على فرسي في حال العجلة، فإني أجده في الميدان مع أرباب دولته فإذا وقعت عيني عليه ترجّلت وحثوت التراب على رأسي وأصيح: أيها الملك، العرب قد أخذوا أصحابي وغلماني، وما جاء معي برسمك، فإذا قال: وأين هم؟ أقول: على فرسخ من بلدك. فإنه إذا سمع قولي لا يمكنه التأخير عن نصرتي ولا له إلاّ السرعة إليكم، واعلم أن أكثر جنده قد فرّقهم على الحصون وما عنده إلا ألف فارس أو أقل.

قال: فلما سمع يوقنا ذلك من قوله وثق به وبعث الأسرى إلى عياض، فلما وصلوا إليه قال لهم: إن أطلقتكم أتعرفـون لنا ذلك؟ قالوا: نعم وكيف لا نعرفه. فأطلقهم حتى تسمع أهل البلاد فينزلوا إلى طاعته، وأما يوقنا فإنه سار جريدة بقية ليلته، فما برق ضياء الفجر إلا وقد أشرفوا على الحصن فعندها أطلق البطريق ووثق منه بالعهود وأعطاه جواده وسلاحه، وسار كأنه قد أفلت نفسه وساق على شوط واحد إلى الحصن، وكان بالقضاء المقدّر أنه وجد البطريق يطالقون قد عبر إلى جانب أسعرد ومعه ألف فارس وألف راجل، وكان السبب في ذلك أن قومًا من أصحاب البطريق حرسلو كانوا في كنيسة يوقنا فأتوه وحدّثوه بما تمّ عليهم من القوم، فعبر لعله يستخلصهم من يد يوقنا، فلما وصل إليه البطريق ترجّل وصقع له وحدّثه فرقّ له وقال: كيف تخلّصت؟ قال: خلّصت يدي من الكتاف وركبت هذا الفرس، فلما أحسّوا بي ركبوا ورائي، وها هم في أثري بالقرب من باياعا. قال فلما سمع ذلك يطالقون بن كنعان أمر بالركوب وسار من وقته طالبًا يوقنا، وقال: هذا الذي أردناه من أمر الجهاد قد قرّبه الله إلينا فدونكم والقوم. ولم يمهل بعضهم بعضًا، وتطاعنوا بالرماح وصبر يوقنا صبر الكرام ووقع الصائح من كل جانب ونشرت أجنحتها النوائب، واستعان أصحاب يوقنا بربّ المشارق والمغارب، فبينما هم قد أشرفوا على المعاطب، إذ أشرفت عليهم غرر الخيل وهم يتسابقون، فنظر إليهم يوقنا وإذا هم أصحاب رسول الله ﷺ وهم ثلاثة آلاف فارس يقدمهم خالد بن الوليد وكان السبب في قدومهم أن عياضًا خاف على يوقنا وبني عمّه، فأرسل إليهم في أثرهم خالدًا فوجدهم في القتال فأطلق عنانه وقال: يا أهل الإيمان، وحَمَلَة القرآن، دونكم وعَبَدَة الصلبان، ارفعوا أصواتكم بذِكر ربّك. قال: ونظر يوقنا النصرة وقد أقبلت، فعظم شأنه والتقى بصاحب الحصن، وقد عرفه بزيّه فتطاعنا طعنًا كافيًا وتضاربا ضربًا شافيًا إلا أن يوقنا طعن صاحب الحصن فرماه إلى الأرض قتيلاً، وصنع فيهم خالد رضي الله عنه والصحابة رضي الله عنهم كما تصنع النار في الحطب، ولما قتل يوقنا صاحب الحصن قطع رأسه وجعله على سنانه ونادى: عمّن تقاتلون وقد قتلنا صاحبكم، فلما رأوا الرأس ولّوا الأدبار ومات أكثرهم وولّوا الباقون نحو الجبل، ووقع الصائح في الحصون بأن يطالقون قد قتل فولّوا الأدبار.

قال الواقدي: وكان ليطالقون زوجة عاقلة لبيبة صاحبة رأي وتدبير، فلما رأت ما حلّ بزوجها وأن أهل الحصن قد قتل أكثرهم وتفرّقوا بالهزيمة أيقنت بزوال مُلْكها وخراب بيتها، فجمعت المشايخ من أرباب دولتها، وقالت لهم: اعلموا أن الملك قد قتل وقد تفرّق شمل مَن كان معه، وقد وصلكم ما صنع هؤلاء العرب مع ملوك دين النصرانية وبني ماء المعمودية، وكيف ملكوا الشام وأرض ربيعة وديار بكر وديار مصر، وقد دانت

لهم الأمور وانتشر شرعهم وعَلاَ ذِكرهم ودخل في دينهم الملوك والبطارقة، وما نزلوا على حصن إلا ملكوه، ولا وافوا جيشًا إلا هزموه وقد دخلوا أرضكم، وحلّوا ساحتكم فما ترون من الرأي الرشيد؟ قالوا: أيتها الملك ما تكلمت بشيء إلا فهمناه وعرفناه والأمر إليك. فقالت: الصواب أنكم تحقنون دماءكم، وتصونون حريمكم وأموالكم وتدخلون فيما دخل فيه أهل البلاد وتصالحون العرب فتأمنون على أنفسكم وتعيشون في ظلهم. فقالوا: هذا هو الصواب. قالت: فلينطلق منكم رجال إلى هؤلاء العرب ويعقدوا لنا منهم صلحًا. قال فخرجوا من عندها وسار منهم ثلاثون رجلاً من خيارهم وعبروا الشط إلى عسكر خالد، فلما رآهم خالد والمسلمون، علموا أنهم من أهل الحصن فاستقلوهم وسلّموا عليهم ورحبوا به ومشوا معهم إلى قبة خالد، وإذا هو جالس على التراب ووجوه أصحابه حوله وهم يُكثِرون من ذكر الله وليس لهم حاجب ولا بوّاب، فسلّموا عليهم فقرأ خالد ﴿**وإذا حُيِّيتم بتحية فحيُّوا بأحسن منها أو ردُّوها**﴾ [النساء: ٨٦] فتقدّم كبراؤهم وعلماؤهم في دينهم، وقالوا: أيّكم الأمير نخاطبه؟

فقالوا: ليس فينا أمير ولا مَن يلحَظ أخاه بعين الذلّ، لأن الإسلام شملنا والدين جمعنا، ونحن عباد الله، فلما سمع القوم ذلك قالوا بأجمعهم: والله ما نصركم الله علينا إلا باتّباع نبيّكم، وقال خالد: كم تبذلون لنا من المال؟ فقالوا: مهما أردتم امتثلناه. فقالوا: إنّا لا نريد إلا ما ترضى به أهل الذمة الذين في البلد حتى تطيب قلوبهم ومَن لا يرحم لا يُرحَم، ولقد سمعت نبيّنا ﷺ يقول: «لا تنزع الرحمة من قلب شقي». قال فلما سمع القوم ذلك تهلّلت وجوههم فرحًا وقالوا: لقد نصركم الله بحق وما نرى دينكم إلا حقًّا، فأسلموا عن آخرهم وعادوا إلى قومهم واجتمعوا في كنيستهم وحدّثوهم بما كان وبما رأوا من أصحاب رسول الله ﷺ وحُسْن سيرتهم. فقال أهل البلد: ما كنّا بالذين نرفع أنفسنا عليكم لأنكم أُولو الرأي والدين، وقد رضينا بما رضيتم به لأنفسكم فأسلموا إلا قليلاً منهم، وأما الملكة لما سمعت ذلك طاب قلبها وبعثت بالإقامة والعلوفة إلى خالد وسألته أن يعبروا إلى جانبهم ونصبت لهم الجسر، فعبر خالد ومَن معه ونزلوا بالبيعة حيث إن الملكة تشرف عليهم وتنظر إليهم فرأت أقوامًا قد طلّقوا الدنيا وطلبوا الآخرة... وليس فيهم مَن ينهر ولا يسفه، ولا يخالف أخاه، قد اشتغلوا بالذكر، وتوحشوا بالصبر، فلما نظرت إلى حُسْن عبادتهم نزلت إليهم، وأسلمت على أيديهم. فقال خالد: تقبّل الله منك ورضي عنك، فالزمي قلعتك، فلا سبيل لأحد عليك، ونظر يوقنا إليها. فقال: وددت لو كانت هذه أهلي، فأنفذ خالد يشاورها: فأجابت إلى ذلك، وبعث خالد إلى عياض يشاوره، فبعث إليه الجواب بأن زوِّجه ولا تترك من بلاد الحصن مكانًا إلا وتنزل فيه.

ذكر فتح طنز ويمهرد وأسعرد

قال: فعوَّل على العبور إلى جانب أسعرد ويمهرد، إذ قَدِمَ عليه أهل حصن طنز للصلح وأن يكونوا طوعًا للمسلمين. فقال خالد: مَن أسلم منكم قبلناه وكان له ما لنا وعليه ما علينا، ومَن بقي على دينه كانت عليه الجزية من العام القابل فأجابوه إلى ذلك، فكتب لهم عهدًا وعبر إلى طنز ويمهرد وأسعرد والمعدن وأرزن، وقرروا صلحًا ورضوا به. قال وانقضت عدّة صاحبة الحصن وهي جانوسة وتزوّجها يوقنا ولحق خالد بعياض، فوجده على سوقاريا وهي مدينة جالوت، فلما وصل خالد إليه أسلم الناس بعضهم على بعض وأقاموا هناك خمسة أيام وعوّلوا أن يسيروا إلى بدليس وأخلاط وإذ قد جاءهم الخبر أن طاريون ابنة الملك وهي زوجة الغلام يرغون الذي فتح كفر توتا وكان من أمرها ما ذكرناه قد هربت إلى أبيها ورجعت إلى دينها. قال فصعب ذلك عليهم.

قال الواقدي: حدّثني محمد بن يونس. قال: حدّثني إسماعيل عن قيس قال: إن طاريون لم تتنصر ولا عادت عن الإسلام، وإنما مضت إلى أبيها لتدبر عليه حيلة وتسلم البلد للمسلمين لأنها أرادت أن تصنع كما صنع زوجها يرغون بكفر توتا، فاتفق رأيها ورأي زوجها على ذلك. فقال يرغون: أما أنا فلا أتبعك لأنني أفزع من أبيك أن يقبض عليّ. فقالت له: الزم مكانك ولبست ثيابها وعوّلت على المسير، وجعلت غلمانها في محل خلوة وقالت لهم: اعلموا أني قد عزمت على أمر أفعله وأنا أبوح به إليكم. قالوا: أيتها الملكة ما على العبد إلا الطاعة لمولاه، فأوقفينا على سرّك. قالت لهم: اعلموا أني كرهت المقام بين هؤلاء العرب، وأيضًا قد اشتقت إلى وطني وعوّلت على أن أخرج بكم إلى الصيد في الجبل، فإذا جنّ الليل طلبنا أرضنا، فلما سمعوا قولها فرحوا، وقالوا: نِعْمَ الرأي. فقالت: إني لست أكرهكم، فمَن كان له رغبة أن يلبث هٰهنا وهو مائل إلى هذا الدين، فليقم غير ملوم، ومَن أراد الرجوع إلى وطنه فليعزم معي فإني أمضي في هذه الليلة، وحق ما أسير إليه لئن بلغني أن أحدًا منكم أفشى سرّي إلى يرغون أو غيره من الناس لأضربنّ عنقه، فمَن كان عازمًا على صحبتي فليتبعني، فأجابوها إلى ذلك، فلما جنّ الليل ودّعت يرغون وخرجت ومعها اثنا عشر نفرًا كانوا لا يريدون الإسلام. وكان لها بكفر توتا اثنا عشر غلامًا قد رسخ الإسلام في قلوبهم وأحبّوا المسلمين. قال وسارت نحو الجبل ومضت إلى أن تركت أرزن خلف ظهرها وأشرفت على بدليس، فنزل صاحبها إليها، وقدّم لها إقامة وعلوفة وأقامت هناك بقية يومها.

ذكر فتوح بدليس وأرزن وأعمالها

وكان من قضاء الله السابق وقدره أن عياضًا لما نزل على سوقاريا ولحق به خالد

ومَن معه ولحقهم يوقنا فرح المسلمون بسلامتهم وحدّثه بما جرى فسجد لله شكرًا، ثم بعث يوقنا رسولاً إلى صاحب بدليس وكانت أرزن وبدليس وقف وأنظر وغيرها من القلاع لبطريق اسمه سروند بن بولص والجارية طاريون نازلة هناك وسروند عندها، فلما علموا بقدوم يوقنا ركبوا إلى لقياه واختلت به طاريون وقالت له: يا عمّ لا تظن أني هاربة ولا إلى الروم طالبة وإنما أُريد أن أنصح لله ولرسوله وللمسلمين وأُريد أن أغدر بأبي وأقتله وأُسلّم معاقله للمسلمين، لكن يا عمّ أشِر عليّ بما أصنع فأنت تعلم هذا الدرب لبدليس وأخلاط وعليه قلعة قف وأنظر، وإذا أرادت العرب العبور فليس لهم قدرة فما الذي تراه؟ وأخاف إن حصلت عند أبي أن لا أقدر على الرجوع إلى بعلي وإلى المسلمين. فقال لها يوقنا: اعلمي أنك إذا سرت بهذه النيّة فإن الله جلّ وعلا يفتح عليك أبواب الخير وامضي على ما أنت عليه وأنا لا بدّ لي أن أمضي برسالة الأمير عياض إلى أبيك وها أنا أبكّر فإذا حصلنا هناك كان لنا من التدبير ما يريده الله ونصل إن شاء الله إلى ما نريد وعلّمها ما تصنع وودّعته وعادت. فقالت: إن هذا العديم العقل يلحّ عليّ ويعذلني لأجل أن أرجع وأعود عمّا عزمت عليه من الرجوع إلى دين المسيح ولولا أنني أخاف ممّن معه ومن صاحب هذا الحصن أن يعينه علينا لكنت قبضت عليه، ثم إنها ركبت وسارت تجدّ السير وأرسلت بعض غلمانها يبشّر أباها بقدومها، فلما وصل البشير ارتجّت المدينة وركب أبوها والبطارقة وأهل البلد لملتقاها فلقوها عند خضريا، فلما رأت أباها ترجّلت وترجّل أبوها والعسكر جميعه وصقعوا بين يديها وضمّها أبوها إلى صدره. وقال لها: يا ابنتي كيف كان أمرك؟

قالت: إن يرغون نصب عليّ ووصل بي إلى عسكر المسلمين وأسلم فلم يمكنني ألا أن أُطاوعه خيفة منهم إلى أن دخلوا ديار بكر فهربت إليك فصلّب أبوها على وجهه وهنّأها بالسلامة وركب وساروا والمواكب حولهم إلى أن دخلت البلد ودخلت دار المملكة فتلقّاها الجواري والخدم وصقعوا لها وبكوا وبكت وأخرجت الصدقات والنذور للبيع والكنائس وباتت تحدّثهم بما جرى لها وحديث شهرياض وكيف أخذت رأس العين. فقال أبوها: يا بنية كيف رأيتيهم في دينهم؟ قالت: أيها الملك: القوم يتظاهرون بالدين وأنهم يطلبون الدين والعدل حتى يرجع الناس إليهم، وليس والله دين أفضل من دين المسيح وقد نذرت نذرًا متى خلصت من يد العرب أن لا أقرّب قربانًا ولا أشرب خمرًا ولا آكل لحم خنزير ولا أنغمس في ماء المعمودية حتى أتعبد في بيعة يوحنا شهرين كاملين فإذا أنا تطهّرت من دينهم أُقرّب القربان وأُقبّل الصلبان ففرح أبوها بذلك، فلما كان الغد مضت إلى البيعة وأخلت لها موضعًا وجعلت تتصدق على الفقراء وتُظهِر النسك والعبادة وأقامت تنتظر ما وعدها به يوقنا من القدوم بالرسالة إلى أبيها.

قال الواقدي: حدّثنا أبو محمد قال: حدّثني مَن أثق به عن قيس بن هبيرة. قال: كنت من أصحاب يوقنا حين سار بالرسالة إلى بدليس وتحدّث مع طاريون وأنفذ صاحب بدليس إليه، وكان لما بلغه قدوم يوقنا صعد إلى حصنه فاستحضره وأنا معه فوجدناه على سرير مملكته فسلمنا عليه. فقال يوقنا: إن أمير جيوش المسلمين بأرض ربيعة وهو عياض بن غنم قد أرسلنا إليك ندعوك إلى توحيد الله ورسالة نبيّه ولكم ما لنا وعليكم ما علينا واعتبر بمَن تقدم من الملوك وأصحاب الأقاليم والعزّ فقد أصبحوا هالكين فما جوابك؟ فقال: أيها السيد إني قد كنت أردت أن أرسل رسولاً إلى أميركم في طلب الصلح وأُعطيه شيئًا وأن أبقى على ديني، ومَن أراد من أهل بلدي أن يرجع إلى دين القوم فلست أمنعه. فقال يوقنا: بكَم يطيب قلبك أن تدفع في صلحك على بدليس وأرزن وما تحت يدك من البلاد فإني إذا أمضيت لك الصلح فقد رضيت به العرب. فقال: أيها السيد أعطيهم مائة ألف دينار وخمسمائة زردية وألف قوس وأن لا يولّى على مملكتي غيري حتى أموت وأن لا يبقىَ من قبلهم إلا رجل أو رجلان حتى يعلموا مَن أسلم شرائع الإسلام وأن يكون أمري نافذًا في مملكتي، ومَن أسلم يكون أمره لمَن يكون عندنا من قبلكم وما يكون لي عليهم حكم. فقال يوقنا: قد أمضينا صلحك وأتممنا عهدك وأنا أُعطيك عهد الله ورسوله على ما ذكرته. قال وأعطاه عهد الله ورسوله وهادنه على الهيئة التي هادن رسول الله ﷺ هرقل ملك الروم وحلف له عن المسلمين كلهم. قال وإن قيسًا ذهب إلى عياض فأعلمه بما استقر بينهم، فلما وصل كتاب يوقنا إلى عياض رحل من مكانه إلى أن نزل على بدليس فوجد البطريق قد أخرج ما وقع عليه الصلح، فلما قَدِمَ عياض نزل إليه البطريق وتلقّاهم وحيّاهم بأحسن تحية وأنزلهم في أحسن منزل وقدّم لهم الأموال وكتبوا بذلك عهدًا.

قال: ونظر المسلمون من أهل اليمن وبادية العرب إلى البنات وحُسْنهنّ فمالت أنفسهم إليهنّ وشرب أكثرهم الخمر، فلما رأى عياض ذلك صعب عليه فأمر أن يؤتوه بمَن فعل ذلك فأقام عليهم الحدّ وأخذ منهم حق الله وقال لهم: أكُفر بعد إيمان، أبهذا أُمرتم أم لهذا خلقتم، أما سمعتم ما قال مَن أمره بين الكاف والنون... قال فتابوا بأجمعهم، فلما جنّ الليل اجتمع يوقنا بعياض وحدّثه بأمر طاريون وما وافقته عليه وأنها قد وهبت نفسها لله تعالى ومضت تدبرّ كيف تعمل في تسليم البلد للمسلمين وإني وعدتها أن أسير إليها وأُعينها على ذلك. فقال عياض: إذا كان الأمر كذلك فيجب علينا أن نُطلِع عليه خالدًا وأصحابه. فقال يوقنا: افعل ما فيه الصواب، فأرسل إلى خالد ومعاذ وقيس والمسيب بن نجيبة وعمرو بن معديكرب وعبد الرحمٰن بن أبي بكر رضي الله عنهم وحدّثهم بالحديث وقال لهم: ما ترون من الرأي؟

ذكر فتح أرمينية وأخلاط وقف وأنظر

قال خالد: أصلح الله الأمير... إذا كان الأمر كذلك فابعث يوقنا رسولاً ونحن معه، فإذا حصلنا هناك يفعل الله ما يريد والحاضر يرى ما لا يراه الغائب.

قال: فسيروا على بركة الله تعالى فتأهّبوا وساروا وسار مع يوقنا خمسة وثلاثون من الصحابة وعشرون من أصحاب يوقنا، فلما وصلوا أخلاط ونظرت إليهم الروم والأرمن علموا أنهم رُسُل فأعلموا بذلك الملك وأنهم رُسُل من العرب، فأمر بإحضارهم فأتتهم الحجّاب إلى باب رومية وهو باب بدليس فرأوهم على خيولهم. فقالوا لهم: ادخلوا فأخذوهم إلى دار الإمارة وأعلموا الملك بوسطيوس بذلك فأمر بإحضارهم، فلما توسطوا الدهليز أراد الغلمان أن يأخذوا أسلحتهم.

فقال خالد: إنّا قوم لا نسلّم سيوفنا لغيرنا، وإن الله بعث نبيّنا بالسيف وقد قلّدنا إيّاه ولسنا نُزيل ما خصّنا الله ورسوله به، فدخل الحجّاب وأعلموا الملك بما قال خالد. فقال الملك: دعوهم يدخلوا كيف شاؤوا لئلا يظنّوا أنّا نخافهم وإنما ذاك ناموس الملك فدخلوا بهم، فلما رآهم وسلّموا عليه جلسوا على الأرض كأنهم السِّباع وكلٌّ منهم قد جعل يده على مقبض سيفه وقد بلغ الملك ما هم عليه من الدين والزهد في الدنيا، فأوصى أصحابه أن لا يأمروهم بأن يصقعوا له فإنهم لا يجيبونهم لذلك. قال فلما استقر بهم الجلوس قال لهم ترجمانه: يا هؤلاء بما أتيتم إلينا؟

فقال يوقنا: إن أمير جيوش المسلمين بأرض بدليس قد بعثنا إليكم رُسُلاً ندعوكم إلى شهادة أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمدًا عبده ورسوله أو تدخلوا فيما دخل فيه الناس وتؤدّوا الجزية عن يد وأنتم صاغرون فأعلم الترجمان الملك بما قاله يوقنا.

حدّثنا قدامة أنه لم يكن بينهم ترجمان، وإنما كان المتكلم يوقنا بالرومية وهو لسان القوم.

قال الراوي: حدّثني مَن أثق به. قال كان الترجمان بينهم لأن الملك أرمني لا يفهم إلا بلسان الأرمن ويوقنا كان روميًا لا يفهم لسانًا آخر، فلما بلغه الترجمان غضب وقال: وحقّ المسيح والإنجيل لا نعطيهم ولا ندخل في دينهم أو نموت عن آخرنا ولا يحسبوا أننا مثل مَن لاقوا من جيوش الروم ولنا الشدة والبأس والقوة والمراس، ونحن نرمي عن الأقواس بالنشاب والعرب تسميه قاطع الشهوات والأسباب وأنا أبعث إلى صاحب خوى وسلواس وأستنصر عليهم بأسراغوص ملك المرج ونردّهم على أعقابهم ونستخلص منهم البلاد وليس عندنا جواب غير هذا. قال: فبلّغهم الترجمان ما قاله.

فقال يوقنا: ليأذن لنا بالانصراف لنُعلِم صاحبنا بهذا الجواب. فقال الملك: بيتوا عندنا هذه الليلة وفي غد تنصرفون وأمر بهم أن ينزلوا في المكان الفلاني فخرجوا من عنده إلى المكان الذي أمر به فنزلوا به ينتظرون ما يكون من الجارية طاريون. قال ولما خرج الصحابة من عنده ركب من وقته إلى بيعة يوحنا واجتمع بابنته وقال لها: إن العرب قد وجّهوا إليّ رسولاً ومعه جماعة وقالوا لي كذا وكذا وأجبتهم بكذا وكذا فما ترين من الرأي؟ فقالت: أيها الملك أين هم؟ قال: عوّقتهم هذه الليلة حتى أُشاورك في أمرهم. فقالت: أُريد أن أنظر مَن هم فإنه لا يخفى عليّ أمرهم، إن كانوا من وجوه العرب النافذ أمرهم، فأمرني أن أتحدّث معهم وأُطيّب قلبهم بأنك تصالحهم وأُطمعهم بذلك، فإذا اطمأنوا بذلك أمرتك بالقبض عليهم واتركهم عندك حتى لا يكون لهم خلاص، فإذا قبضت عليهم ترسل إلى صاحبهم تقول له متى تقدّمت إلينا مرحلة واحدة بعثت إليك برؤوسهم فإذا سمع ذلك لا يتقدم ويقع الصلح على أن نسلّم إليه أصحابه وينصرك المسيح ويطول عمرك ويرفع قدرك وينصرفون عنك وما ثَمَّ رأي أوفق من هذا. فقال لها: يا بنية المسيح يطيل عمرك ويرفع قدرك فقومي إليهم ودعي هذه البيعة والزمي البيعة التي في دارنا فإنك كلما أقمت هٰهنا كان أخوف بنا، وإن كان مقصودك العبادة ففي أيّ مكان كنت فيه فإن لك معبدًا، فلما سمعت قوله قالت: لست أبرح من هٰهنا حتى يأمرني بترك هذا المكان فأرسل الملك وراء البترك، فلما حضر قام الملك له وعظّمه وأجلسه إلى جانبه وحدّثه بقصة ابنته.

فقال البترك: قد أذنت لك أن تتعبدي حيث شئت وقد استوهبت ذنوبك مع المسيح وغفر لك. قال: فصلّبت على وجهها ودعت لهم وقدّموا لها بعض مراكب أبيها فركبت ومضت إلى المكان الذي فيه أصحاب رسول الله ﷺ ولم يدخل فيها سواها وأبيها الملك، فلما رأت يوقنا فرحت واستبشرت وقالت له: أيها السيد إن أبي جاهل بكم غير عارف بقولكم وسوف أكشف له عن أموركم وحق ديني ما رأيت منكم إلا خيرًا وسوف أُجازيكم على ذلك، ولولا محبة الأهل والوطن ودين المسيح ما كنت فارقتكم وخرجت هي وأبوها ومضت إلى القصر وقالت له: أبشر بما يسرّك هؤلاء وجوه القوم وساداتهم والذي عليه زيّ الروم هذا يوقنا بطريق حلب الذي طرده المسيح عن بابه والرأي عندي أن نطلبهم عندنا إلى هذا القصر ونقبض عليهم بحيث لا يقف أحد على سرّنا. قال ففرح أبوها بقولها وبعث حاجبه إلى الصحابة فأتى بهم وأنزلهم بعض حُجَر القصر.

قال الواقدي: وكان عمّال أبيها من البطارقة والمقدّمين على القلاع قد أتوا يهنئون أباها برجوعها إلى دين المسيح فقالت طاريون: من الصواب أن نمضي أنا وأنت إلى هؤلاء العرب ونجلس عندهم ونأكل معهم حتى يطمئنوا إلينا وأقول لهم إني أُريد أن

أُشاور أهل بلدي وأرباب دولتي، فإما أن نصالحكم ونؤدّي إليكم الجزية أو نقاتلكم ونبعث إليهم طعامًا مبنّجًا فإذا أكلوه وحكم فيهم البنج قبضنا عليهم ونفعل بهم ما نريد وأُشير به عليك. قال فلما جنّ الليل أتت هي وأبوها عندهما وتحدّثوا ساعة ومضوا، فلما كان الغد جلس أبوها على سريره وعلمت ابنته أنه اشتغل بما هو فيه فأتت طاريون إلى الصحابة وقالت لهم: إذا جئت الليلة أنا وأبي فدونكم وإياه لا تمهلوه فقد اتفق رأيه على كذا وكذا فشكروها على فعلها ومضت عنهم، فلما كان الليل جاءت ومعها أبوها وتقدمت كأنها تحجبه وأشارت إليهم بأن لا تعجلوا وأمهلوه فأمسكوا عنه وتحدّثوا ساعة وخرجا من عندهم، فلما خلا مع ابنته قال لها: أما قولك نقبض على هؤلاء العرب فليس بصواب، وإني أُريد أن أجمع بطارقتي ووُلاة أمري من الحصون والقلاع وآخذ عليهم عهدًا أن لا يخامروا عليك أبدًا وأن يطيعوك وأُرسل المال والذخائر وما نخاف عليه إلى قلعة يرقبوس فإنها أمنع قلاع الأرض.

قال الواقدي: وهذه القلعة التي ذكرت في وسط بحيرة أرجيس لا سبيل لأحد عليها. قال لها: وإذا ولّيتك عليها أُطلق هؤلاء العرب فإنه ما سبقني أحد من الملوك إلى قبض الرُسُل وأيضًا يتحدّث عني أني فزعت من العرب وقد عوّلت على لقائهم، فإن نصرت عليهم فذاك هو المراد وإن نصروا عليّ فلي أُسوة بأمثالي من الملوك، وقد أرسلت إلى الملك درفشيل صاحب أرزن الروم بأن يأتي إليّ بجنوده وعدّته وعدده ووعدته أن أُزوّجه بأُختك فاروثة فما ترين من الرأي؟ قالت له: أيها الملك إذا عزمت على هذا الأمر فلا تترك هؤلاء يمضون حتى يجتمع العسكر ويقدم الملك درفشيل بجيشه ولا يتخلّف عنك أحد وبعد ذلك اترك هؤلاء، فإذا ساروا إلى صاحبهم فسِرْ أنت في أثرهم بالجيوش واكبس عكسرهم.

فقال: يا بُنَيّة ليس من الرأي أن نطلقهم من أيدينا بل نبعث إلى صاحبهم نقول له إنهم مكرّمون عندنا وقد رأينا أننا في يوم عيد ندبّر فيه أمرنا فإما أن نصالحكم بأداء الجزية وإما أن نقاتلكم والله ينصر مَن يشاء ونأمرهم أن ينزلوا في مرج بطان فإنه مرج واسع يصلح لملتقى العساكر ونضرب معهم مصفًّا، ونحن أخبر منهم بالبلاد ونمسك عليهم الدروب فما ينجو منهم أحد ونسير إلى ديار بكر فنملكها ونأخذ أرض ربيعة ولا يبقى في هذه البلاد ملك سوانا. فقالت له طاريون: افعل ما تشاء وتركته وانصرفت إلى مكانها، فلما عرفت أن أباها قد أغلق أبوابه أتت إلى الصحابة وعرّفتهم بما قال أبوها. فقال خالد: اللّهمّ يسّر لنا الأمر من غير تعب وإذا أراد الله أمرًا هيّأ أسبابه. فقال يوقنا: وكيف ذلك يا صاحب رسول الله؟ فقال خالد: نعم نحن أُمورنا بحمد الله مَنوطة بالنصر وقد كفانا كل أمر، واعلموا أن هذا الرجل قد عوّل أن يبعث ليجتمع ملوكه وجيوشهم

ويحرّضهم على قتالنا، والصواب أننا نصبر حتى يجتمعوا. فقالت طاريون: لقد نطقت بالصواب يا صاحب رسول الله ووفّقت ولعل أن يحصلوا كلهم في أيديكم إن شاء الله فإن أبي لا يقدر أن يوليني إلا في البيعة بحضرة أصحاب القلاع والحصون ويأخذ لي عليهم العهد وبعدما يفعلون ذلك تثورون عليهم إن شاء الله، ولعل أن يكون في جملتهم صاحب أرزن ونرسل العبد الصالح يوقنا بزيّ صاحب أرزن فلعله يملكها إن شاء الله تعالى ونكون ظفرنا بالأرب وخرجت من عندهم.

قال الواقدي: حدّثنا صالح بن عمران عن عبد الرحمٰن بن الحسن عمّن حدّثه قالوا جميعًا أو مَن قال منهم: إنه لمّا اتفق الرأي على الملك صاحب خلاط على ما ذكرنا وأصبح الصباح أرسل وراء صاحب أعماله ووُلاة الحصون أن يحضروا عنده فأتوا بأجمعهم ولم يتخلّف منهم أحد وأتى درفشيل من أرزن ومعه عسكره وكان اجتماعهم في ليالي عيدهم الكبير فزيّنوا البيعة وجاءت القسوس والرهبان من كل مكان ودخلوا البيعة وصلّوا وقرّبوا القربان، فلما فرغوا من قربانهم وصلاتهم جلس الملك على سريره وابنته واقفة عن يمينه. فقال للملوك والبطارقة: اعلموا أنني ما جمعتكم إلا لأمر أعرضه عليكم وفيه سداد أمركم ومُلككم ودينكم وقد عوّلت على أنني أُولي أمركم الملكة طاريون فإنها كما علمتم من أصحاب العقل والرأي والتدبير في الحرب والشجاعة والبراعة فإن قضي عليّ فإنها تكون مالكة فما تقولون؟ فقاموا بأجمعهم وصقعوا له وقالوا: نِعْمَ الرأي الذي رأيته أيها الملك فانجز أمرك فعندها وثب قائمًا وأزال التاج عن رأسه ووضعه على رأس طاريون وأمسك بيدها وأجلسها على السرير ووقف عن يمينها كأنه حاجب ووقف صاحب أرزن عن يسارها وصعقت لها الملوك وبايعوها وتقدمت القسوس والرهبان وأخذوا لها عليهم العهد والميثاق وأجابوا بالسمع والطاعة وبعدها زوّجوا أُخت طاريون بولد صاحب أرزن وخرجوا من البيعة في خدمة طاريون إلى قصر الملك وأكلوا السماط وخلعت عليهم وزيّنت المدينة وضربوا خيامهم بظاهر البلد وعوّلوا على قتال المسلمين.

قال الواقدي: حدّثني إسرائيل بن إسحٰق عن أبي الأحوص. قال: بلغني أن عياض بن غنم لمّا وجّه خالدًا إلى مدينة أرمينية وهي أخلاط واستبطأهم ساءت به الظنون فيهم فارتحل من بدليس إلى أرض أرزن ونزل بالمرج ووجّه عيونه إلى خلاط فغابوا عنه أيامًا وعادوا إليه وأخبروه أن الملك قد ولّى ابنته طاريون على المملكة وقد عقد لها التاج على رأسها وبايعها الملوك وزيّنوا المملكة من أجل ذلك وقَدِمَ صاحب أرزن الروم وزوّج أُخت الملكة لابنه وأن القوم قد عوّلوا على لقائهم، فلما سمع عياض ذلك قال: لا حول ولا قوة إلاّ بالله العليّ العظيم غدروا أصحابنا. فقال المسلمون: كيف ذلك يا صاحب رسول الله؟ قال: لأن أصحابنا مضوا لأمر يرومونه وقد وفد عليهم. فقالوا: ثق بالله

وتوكّل عليه وأقام عياض على المرج عشرة أيام وحصل له مرض على أمر الصحابة فأتته الناس يعودونه. فقال: إذا أراد الله بعبده خيرًا زاره الناس.

قال الواقدي: وعُوفِيَ عياض، فبينما هو قد ركب مع وجوه الصحابة وهم يسيرون وقلبه مشغول من قبل خالد ومَن معه، وإذ قد أتاه سعيد بن زيد وهو ينادي: الوحا الوحا العجل العجل فأسرع إليه عياض وقال: ما بك يا ابن زيد يرحمك الله؟ فقال: الحق خالدًا ومَن معه فقد وقعوا في بحر اللجاج وهم في وسطه، فلما سمع عياض ذلك قال: وكيف؟ قال: إن طاريون لمّا ولّاها أبوها الملك وجعل العهد لها ظفرت بأبيها فقتلته وبعثت وراء الملوك على لسان أبيها، فلما جاؤوا إليها قتلتهم وإن بعض غلمانها اطّلع على سرّها فمضى إلى بقية البطارقة والوُلاة فأخبرهم بما صنعت فلبسوا السلاح وقعدوا على أُهبة، فلما كان بالأمس ركبت هي في جيش أبيها إلى الميدان وركبنا نحن لركوبها فما علمنا إلا والقوم قد أطبقوا علينا وقالوا لنا: أظننتم أن المسيح غفل عن أمركم وأنه لا يؤاخذكم بذنوبكم، وقد أمكن الصليب منكم وهمّوا بأخذنا فقاتلناهم قتالاً شديدًا ما سمع أحد بمثله وملأنا الأرض من قتلاهم، فلما جنّ الليل وضعت الحرب أوزارها وانفصل الجيش مع صاحب أرزن الروم وبقي مع الجارية نفر يسير من غلمانها وغلمان أبيها فأفاضت عليهم الخلع والنِّعَم وبعثت إلى الأرمن تقول لهم: إنما فعلت ذلك شفقة عليكم وصَونًا لحريمكم لأنهم أرادوا أن يقبضوا على هؤلاء العرب ويقتلوهم فكان أصحابهم لا يتركون منكم مخبرًا، فلما بلغهم ذلك، قال العقلاء منهم: والله لقد فعلت معنا كل خير وأجابها من القوم خمسة آلاف رجل وإني تركت المصف وجئت إليكم مستنفرًا، فلما سمع عياض كلام سعيد أمر الناس بالرحيل وسار سيرًا خفيفًا وخببًا إلى أن أشرفوا عليهم وإذا بالحرب قد قامت على ساقها فكبّر عياض ومَن معه فارتجّت منهم تلك الأرض والجبال وحملوا وكان خالد وأصحابه قد أرضوا الله بقتالهم فقاتلوا قتالاً ما سمع على وجه الأرض بمثله ولم يزالوا كذلك حتى انقشع الغبار وانفصل القتار، وافتقدوا مَن قتل فوجدوا مَن قتل من بادية الأعراب مائة وعشرين رجلاً، وافتقد معاذ بن جبل ولده فلم يجده، فلما جنّ الليل دخل ومعه رجال من المسلمين إلى المعمعة فوجدوه يجود بنفسه وقد ناله جراحات فحملوه إلى رَحله وجلس أبوه عند رأسه. فقال عبد الرحمٰن بن غنم أخو عياض: لما رأيته يجود بنفسه بكيت وانتحبت. فقال له: مَه وهذه الغزوة أحبّ إليّ من كل غزوة غزوتها مع رسول الله ﷺ.

ثم قال له: يا بني ستلقى ربك، وكان لما أذّن المؤذّن للظهر فما انصرف العسكر من صلاتهم إلا وقد كفّنه في درّاعته، وهو متضمّخ بدمائه، فجاءه الناس فوجدوه قد دفنه، فقالوا له: يرحمك الله هلاّ كنت انتظرتنا حتى نحضر جنازته. قال: ليس ذلك من

السُنّة، وإن ذلك فعل الجاهلية، وقد كنّا نشتهي أن نبطىء بموتانا ولكنّا أُمِرنا بإنجاز موتانا، فلما دفنه في القبر ورجع إلى رحله غسل رأسه ولحيته واكتحل ولبس بُرديه وأتى إلى خيمة عياض وهو يُكثِر من الابتسام والتكبير، وليس به إلا ما يسليه عن ذلك، وقال: هنيئًا لك يا ولدي. فقال له عبد الرحمٰن: وماذا؟ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «مَن مات له ابن وكان به ضنينًا، وكان عليه عزيزًا فحسن عليه عزاؤه ولم يرَ منه شيء في قضاء الله إلا غفر له وللميت وأبدله دارًا خيرًا من داره، وأهلاً خيرًا من أهله، وزوّجه الله من الحور العين». ولما طلع النهار ركب المسلمون وطلبوا الجهاد وإذا بخيل قد أتت وعليها فرسان بغير سلاح، فلما قربوا منهم ترجّلوا وقصدوا الأمير فابتدر إليهم يوقنا وقال لهم: مَن أنتم؟ قالوا: نحن أصحاب أرزن الروم وهذا مقدمنا، وأشاروا إلى شيخ منهم حسن الشيبة فراطنه يوقنا. فقال: إن الله دلّني عليكم وبتُّ الليلة على نيّة القتال فرأيت المسيح ابن مريم في النوم وهو يأمرني باتّباع محمد، وقال لي: إن نبيّ هؤلاء العرب هو الذي بشّرت به فمَن عدل عنه فليس مني، فلما سمع يوقنا قوله ترجّل هو وجميع مَن كان معه ومشوا معه إلى عياض وحدّثه بجميع ما جرى فقام له وصافحه هو والمسلمون وحدّث عياضًا بما حدّث يوقنا، ثم أسلم هو ومَن معه ففرحت بذلك الجارية طاريون وسلّمت إليه أُختها، وسار بها إلى أرزن الروم وأرسلوا معه عشرة من المسلمين ليدعوا أرزن الروم إلى الإسلام ويعلّموهم شرائع الدين.

قال الواقدي: وهم رواحة بن عبد الله وسلامة بن عدي والمرقال بن الأكوع وابن خويلد وجرير بن صاعد، وعبد الله بن صبرة، وسهل بن سعد، ومصعب بن ثابت، وحازم بن معمر وأبو نمير بن بشار. قال: وودّع درفشيل أصحاب رسول الله ﷺ وارتحل والعشرة معه حتى وصل أرزن الروم ففرح أهل المدينة بهم وخرجوا للقائهم، فلما استقر الملك في مجلسه طلب أكابر الناس وحدّثهم بما رآه وعرض عليهم الإسلام فأسلم أكثرهم، وأقبل العشرة يعلّمونهم شرائع الإسلام والقرآن قال وسلّم القلاع والحصون التي كانت لأخلاط المسلمين، فمنهم مَن أسلم ومنهم مَن أقام على أداء الجزية من عامهم الآتي وبعث عياض إلى خوى وسلواس وما يلي تلك الأرض فأسلم أهلها إلا القليل وبعث من المسلمين رجالاً يعلّمونهم الشرائع وأقرّ طاريون على أخلاط، والله تعالى هو الموفّق للصواب وإليه المرجع والمآب.

ذكر فتح أرزن وأسعرد وجبل مارون

قال الواقدي: قال عبد الله بن عقيل الجعدي عن أبي إسحٰق الهمداني قالوا: جمعًا وفرادى أو مَن قال منهم: إنه لما فتح الله ديار بكر وأرمينية وأخلاط على المسلمين على يدي عياض بن غنم بعد فتوح ربيعة أرسل وراء الغلام يرغون في كفر توتا، فلما قَدِمَ

عليه قلّده أمر أرمينية وأخلاط له ولزوجته طاريون وأخذ عليهما موثقًا من الله أن يعاملا الناس بالعدل وأن يتبعا الشريعة وأن يأمرا بما أمر الله ورسوله فقَبِلاَ ذلك وارتحل عياض من أرض أرمينية بعد أن بعث أفلح مولى رسول الله ﷺ مع مائة رجل إلى بلاد العراق حتى يدعوا أهلها إلى الإسلام ووعدهم بالاجتماع هنالك. قال فانصرفوا بالرسالة، وأما عياض فإنه سار على طريقه التي ورد عليها إلى أرزن الروم وخرج منها إلى أسعرد إلى جبل مارون.

قال الواقدي: كان الذي أسّسها السموأل بن عاديا، وكان قد سبق قبل ذلك الأبلق الفرد من أرض تيماء، ولما جاء وزير كسرى وطلبه هرب إلى هذه الأرض وبنى له فيها هذا البلد، فلما نزل عياض عليها دعاهم إلى الإسلام فأجاب العقلاء منهم، ومَن أبى أقرّ عليه الجزية وكتب لهم عهدًا ورحل حتى نزل على الشمطاء وأساوح فأجاب أهلها ولم تكن الجزيرة يومئذ محدودة وأن الذي بناها رجل من أهل برقعيد يقال له عبد العزيز بن عمرو وكانت دجلة قبل ذلك، فلما نزل عياض عليها وزار هو ومَن معه جبل الجودي وموضع السفينة، وكان بجنبها أخباث كثيرة فكانت أهل تلك البلاد تنزح الأخباث، وكان ملكها الجزيري صالح فأجاب وأطاع وكان يسكن بعاديا، وكانت تحت يده كواس والزعفران وقفيز ودربيس وأماكن كثيرة قال ولما بلغته الرسالة أجاب صالح وأطاع وأقبل إلى عياض وأسلم وكتب لأهل بلده عهدًا وأنفذ لهم مَن يدعوهم إلى الإسلام.

ذكر فتوح الإسماعيليات

قال: وارتحل عياض إلى الجانب الغربي ونزل على بلد فيها بديع القبطي فأجاب صلحًا على ما تقرر عليه وارتحل عياض إلى أن نزل بالإسماعيليات، وبعث عمرو بن جند ليُغير على الموصل وأعمالها فمضى وأغار وأخذ الغنائم ووقع الصايح فخرجوا عليه وقاتلوه وانتزعوا منه الغنيمة وقاتل حتى قتل ودفن بالجانب الغربي، فلما بلغ عياضًا ذلك ارتحل من الإسماعيليات ونزل على الموصل فخرج إليه أهلها بالعدد والسلاح فكرّ عليهم خالد بجيش الزحف فجعلهم حطامًا ولم يكن عليها يومئذ سور يمنع فأخذها بالسيف ونظر إلى نينوى فإذا هي مدينة قد أخذت السهل والجبل فقال: ما هذه؟ فقيل: هذه نينوى، فقال: لعلها مدينة يونس بن متّى عليه السلام.

قال الواقدي: وكان ملكه يومئذ الملك أنطاق فكاتبه عياض فأبى فأنفذ إليه الجزيري صالح. فقال: لئن لم تجب هؤلاء إلى ما أرادوه وإلا أذقتك شرًا ولا أترك لك عيشًا فكتب إليه يقول: إني أُصالحهم إلى ستة أشهر حتى أرى ما يكون من أمر كسرى، فإن فتحوا بلده دخلت في طاعتهم. قال وكان هو من تحت يد كسرى فأجابه المسلمون إلى

ذلك وصالحوه على موجها ومرجها وكتب عياض إلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه يعلمه بما فتح الله عليهم فكتب إليه يقول: بسم الله الرحمٰن الرحيم من عياض بن غنم الأشعري إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه. أما بعد: سلام الله عليك ورحمته وبركاته فإني أحمد الله الذي لا إلٰه إلا هو وأُصلّي على نبيّه محمد ﷺ فالحمد لله الذي أيّد الإسلام بنصره وأدحض الشرك بقهره، ولله الحمد على ما أولى ومنح وأزال وكشف ورفع وصرف من عظائم، وأخذ من غنائم حمدًا يزيد الآمال انفساحًا، والصدور انشراحًا، وقد لانت الشدة صلابتها ورقّت الأيام بعد قساوتها ويسّر الله تعالى أمرها، وقد أوردت الأعداء موارد المهالك، وضيّقت عليهم المسالك فارتكبوا في زقاقهم، واشتركوا في وثاقهم، ولم يجدوا في الأرض نفقًا ولا في السماء مرتقى واشتد بهم الفرق وأزعجهم القلق وأنهم احتالوا وخايلوا وداهنوا وأرسلوا وأظهروا البعد عن الآثام والدخول إلى الإسلام والتنزّه من الظلم، والجنوح إلى السلم فأقررناهم على ذلك بعد أن أشرفوا على المهالك، فمنهم مَن أسلم وبايع، ومنهم مَن أقام تحت الذمة وتابع، وقد نشر الله أعلامنا، وأعزّ ديننا، وقهر عدوّنا، وشدّ سيوفنا، وأعلى كلمتنا، وأظهر شريعتنا، وقد صرف الله سورتهم، وأخمد نارهم، وأزال نصرتهم، وكفى البلاد والعباد مؤنتهم، والحمد لله وحده، وصلّى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلّم والسلام عليك وعلى جميع المسلمين ورحمة الله وبركاته. وبعث خمس ما تحصل من ديار بكر مع شرحبيل بن حسنة كاتب وحي رسول الله ﷺ وضمّ إليه مائتي فارس وسلّمه الكتاب وأمره بالمسير فسار شرحبيل وبعد أيام وصل إلى عياض من العراق عامر بن مزينة رسولاً من عند سعد بن أبي وقاص يستنجد عياضًا على كسرى فأنفذ له نجدة ثم فتح الله العراق على يد سعد، وما جرى له من الحروب والوقائع نذكر من أمره ما كان والله الموفق.

ذكر فتوح العراق

قال: حدّثنا عبد الله بن محمد. قال: أخبرنا عبد الله بن جابر.

قال الواقدي: أخبرني مَن أثق به، قال لمّا وجّه أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه سعد بن أبي وقاص بالجيوش إلى العراق لم يزل سائرًا حتى قَدِمَ أرض الرحبة واتصلت الأخبار باليعمور بن ميسرة العبسي، وكان يومئذ ملك العرب بعد أياس بن قبيصة النعمان بن المنذر الملك من قبل كسرى بن أزدشير فكتبا يعلمانه أن جيوش المسلمين قد أقبلت من المدينة، وقد وجّهها عمر بن الخطاب رضي الله عنه إليك. وقد عوّل على أخذ العراق فاستيقظ أيها الملك من غفلتك وانظر في مصالح دولتك واعلم أن هذا الزمان هو الذي كنّا نسمع به ولا نصدق، ونكذب به ولا نحقق، ولا نظن أن أحدًا يجسر علينا ولا يصل جيشه إلينا حتى جاء الوقت المقدور ووليَ المدينة

عمر وهو صاحب الفتح ومصبح الملوك بشر صبوح، فقم على قدم الهِمَم وسِر إلى أعدائك وتقدم، وقد أعلمناك لتكون على بصيرة من الأمر، وإياك أن تهمل الأمر فرُبَّ صغير أمر عاد كبيرًا ويسير عاد عسيرًا والحرب أوله شرر وآخره نار تسعر والسلام، قال: وبعثا الكتاب مع نجاب، فلما وصل به إلى كسرى وقرىء عليه انتفض لذلك واهتزّ على سريره وأحضر الأساورة والموابذة والديلم والسهارجة وقرأ عليهم كتاب الملوك. وقال لهم: ما ترون في هذا الأمر الذي قد وقفنا عليه وأشرفنا عليه؟ واعلموا أن هؤلاء العرب قد أخرجهم الجدب والجهد فهم ينظرون لهم مواضع يسكنون إليها وينزلون فيها، وقد أذاقوا الروم شرًّا وأنزلوا بهم ضرًّا وملكوا المدائن واحتووا على الخزائن.

وكانت الروم قد اجتمعوا عن بكرة أبيهم وما كان منهم أحد إلا أتى الشام وتلاقوا في الحرب بمكان يقال له اليرموك وهذه شرذمة من العرب قد سرحوا بلادكم. وقد عوّلوا على أن ينزعوا المُلك من أيديكم ولا ينفعكم إلا أن تكشفوا عن ساق العزم، وتتّشحوا بوشاح الحزم وتذبّوا عن أهليكم وأموالكم وأولادكم وحريمكم وبلادكم، واعلموا أن العرب لهم الطمع، وقد دخل في قلوبهم أن يملكوا بلادكم وحصونكم، متى رأوكم ناكلين عن قتالهم فاشلين عن نوالهم مالوا عليكم ميلة الأسود على فرائسها فاحسموا موادّهم من أول يوم، وقد قيل في الأمثال: مَن نظر في العواقب أمِنَ غائلة النوائب، ثم إنه فتح خزائن الأموال والخلع وخلع على الهرمزان وقدمه على خمسين ألفًا، وخلع على عطارد بن مهرود، وقدمه على عشرين ألفًا وخلع على قارين بن همام وقدمه على عشرين ألفًا وأمرهم أن يضربوا خيامهم بأرض زرندان ففعلوا ذلك، وكتب من وقته إلى خراسان وما وراء النهر يستفزّهم ومَن معهم من الأجناد على قتال أصحاب رسول الله ﷺ، فلما وصلت الكتب إليهم أقبلوا يهرعون إلى العراق كالجراد المنتشر، وكان في جملة القوم شهريار بن كباد والفرحان الأهوازي والهزيل بن جسوم جاسر الهمذاني ومعهم أربعون فيلاً ووفد الجانيوس بن قتاد.

قال الراوي: فلما اجتمعت الجيوش خرج كسرى يحرّضهم بأرض شهرطاق وفراشة، وكان رأس جيشه مهرمان فعرض الجيوش. فإذا هي مائة ألف وخمسون ألفًا غير الأتباع وقدَّم الديلم والعجم وأمامهم الفيلة وعقدوا على ظهورها الأسِرّة بثياب الديباج، وعلى كل سرير أربعون رجلاً مقاتلة، هم يضربون بالطبول والصنوج في خراطيمها أعني الفيلة السيوف ليقاتلوا بها، وكان فيها فيل أعور كأنه الجبل العظيم وكان هو المقدّم على الفيلة حيثما سار سارت وراءه، وإن وقف وقفت، وقد ربط وراء الفيلة عجل يحمل بيوت السلاح والأموال، فلما عوّلوا على المسير عاد الملك أزدشير إلى مَن ذكر من المقدمين. وقال: اعلموا يا أهل فارس أنكم ما زلتم ملوكًا وهيبتكم في قلوب الترك

والديلم والروم والجرامقة وذلك لمّا كنتم عادلين في الرعية فادفعوا هؤلاء بالمال. فإن أبوا فدونكم والسيف وودّعوه وساروا.

ذكر فتوح الخورنق
وقتل النعمان بن المنذر وفتح الحيرة والقادسية

قال الواقدي: حدّثنا الحسن بن إسحٰق. قال: أخبرنا سليمان بن عامر، قال: بلغني أن سعيد بن أبي وقاص قَدِمَ العراق في ثلاثين ألف فارس من بجيلة والنخع وشيبان وربيعة وأخلاط العرب وما منهم مَن قَدِمَ العراق إلا بأهله وولده وما قَدِمَ أحد من ملوك الفرس إلا بماله كله حتى يقاتلوا بجدٍّ وعزم وبذلك وصّاهم الملك كسرى. قال: وإن سعدًا ارتحل من الرحبة إلى الحيرة البيضاء وكان هناك جيش النعمان بن المنذر وقد ضرب خيامه والسرادقات إلى ظاهرها، وقد أضاف إليه جميع العرب وهم من العراق في ثمانين ألفًا وقد أفاض عليهم النعمان النِّعَم والخلع ووعدهم من الملك كسرى بكل جميل وقال لهم: إن هؤلاء عرب وأنتم عرب وهلاك كل شيء من جنسه، وهؤلاء، مثلنا وليس لهم فضل علينا وقد جعلنا الأكاسرة مُقَدَّمي دولتهم حتى نكون لهم ركنًا وعلى أعدائهم عونًا وليس لأصحاب محمد فخر يفتخرون به علينا لكن نحن لنا الفخر عليهم وهم يزعمون أن الله بعث فيهم نبيًا وأنزل عليه كتابًا يقال له القرآن، ونحن لنا الإنجيل وعيسى ابن مريم وجميع الحواريين، ولنا المذبح، ولنا القسوس والناقوس والرهبان والشمامسة، وعلى كل حال ديننا عتيق ودينهم محدث فاثبتوا عند اللقاء وكونوا عند ظن الملك كسرى بكم. قال: فبينما هو يقول ذلك إذ جاءه عمّه إلياس وهو صاحب الحرس، فقال له: أيها الملك إن أعداءنا قد أنفذوا إلينا رسولاً، فقال: ائتني به، فأحضره وكان الرسول سعد بن أبي عبيد القاري، فلما وقف بين يدي النعمان صاح به الحجّاب والغلمان قبِّل الأرض للملك فلم يلتفت إليهم. وقال: إن الله أمرنا أن لا يسجد بعضنا لبعض، ولعمري إن هذه كانت العادة المعروفة في الجاهلية قبل أن يبعث الله نبيّه محمدًا عليه السلام. فلما بعث جعل تحيته السلام، وكذا كانت الأنبياء من قبله. وأما السلام فهو من أسماء الله تعالى. وأما تحيتكم هذه فهي تحية جبابرة الملوك. فقال النعمان: لسنا من الجبابرة، بل نحن أجلّ منكم لأنكم توحّدون في دينكم وتقولون إن الله واحد وتجحدون ولده عيسى ابن مريم.

فقال سعد: أخبرني عن ابن مريم أكانت القدرة فيه حالّة أم ربّانيّة وجرى بينهم كلام كثير. قال فأعجب النعمان كلام سعد. وقال له: يا ويح قومك ما الذي جئت به. فقال: إن الأمير سعد بن أبي وقاص وجّهني إليك إذ أنت من العرب ويصل إلينا ما نقص عليك وهؤلاء القوم علوج ليس لهم شريعة يؤدّونها ولا فريضة يتبعونها ونحن ندعوكم إلى

شهادة أن لا إلٰه إلا الله، وأن محمدًا رسول الله ولكم ما لنا وعليكم ما علينا، فإن أبيتم فأدّوا الجزية، فإن أبيتم إلى ما دعوناكم إليه فائذنوا بحرب من الله ورسوله. فلما سمع النعمان كلام سعد ضحك استهزاء بقوله وقال: لقد حدّثتكم أنفسكم بالأباطيل أظننتم أن الفرس مثل الروم لا وحق المسيح، بل هؤلاء أثبت جنانًا، وأشد طعانًا، وأوسع ميدانًا، فليت شعري مَن نفخ في معاطسكم وحسّن الأمل في أنفسكم حتى جئتم من قحط البلاد ترومون ملك الأساورة وأخذ بلاد الأكاسرة ودونه حرب تصطفق أجرامه وتشبّ ضرامه، وهذا الملك أزدشير قد أنفذ جيوشه وعساكره وكأنكم بهم وقد أقبلوا فينالون منكم ما يؤملون وما حدّثتكم به أنفسكم تُزيلونه من قلوبكم. فقال سعد بن عبيد يا نعمان لقد تشدّقت بالباطل، وتفوّهت بكلام غير عاقل، أما علمت أن العاقبة للمتقين، والله بكرمه يرفع عنّا البأس، ويظفرنا بجميع الناس، وقال نبيّه ﷺ: «ستفتح على أُمتي كنوز كسرى وقيصر». فأما كنوز قيصر فقد فتحها الله علينا وقد بقيت كنوز صاحبك. فقال النعمان: من أين كان لصاحبك العلم ومن أين ورثه، وقد بلغنا أنه كان لا يكتب ولا يقرأ؟ فقال سعد: بصّره الله بالعلم في القِدَم وعلم ما كتب في اللوح المحفوظ بالقلم. فلما سمع النعمان كلام سعد، قال له: يا ويح قومك ارجع إلى قومك فليس عندنا جواب إلا السيف. قال فركب سعد وعاد فوجدهم قد نزلوا بالقرب منه فحدّث سعدًا بما جرى له مع النعمان بن المنذر وما كان من جوابه، وجعل الأمير سعد بن أبي وقاص ينشد:

سأحمل فيهم حملة عربية ... ولا أنثني والله عنهم بعسكري

فإما نرى النعمان في القيد موثقًا ... وإما طريحًا في الدماء المعفر

ثم أمر الناس بالرحيل فرحلوا وساروا إلى أن أشرفوا على جيش النعمان. قال فلما رأوا جيوش سعد أمر الناس بالركوب فتبادرت العرب إلى خيولهم فركبتها وجنبت الجنائب وضربت الكاسات وتبادرت الأبطال ونشرت الأعلام، فلما وصل سعد رضي الله عنه ولقي القوم قد أخذوا أُهبتهم رتّب جيشه وصفّهم وألّفهم، وجعل في الميمنة سعد بن عبيد القارىء وفي الميسرة سعد العشيرة وفي الجناح الأيمن سعد بن نجيبة وعلى الجناح الأيسر سعد بن الأقيس الهلالي وأقام الأمير سعد في القلب ومعه أبو محجن الثقفي وزهرة بن جويرية وشرحبيل بن كعب.

قال الواقدي: حدّثنا أحمد بن عامر. قال: أخبرنا علي بن مسهر عن أبان عن الحسن. قال لمّا استوت الصفوف وترتبت كل قبيلة جعل الأمير سعد يتخلّل الصفوف ويعظ مَن فيها من عرب بجيلة وطيء وبني هلال والنخع وغيرهم ويقول: هذا يوم لا نرى بعده مثله أما بلغكم ما فعل إخوانكم بالشام لمّا تكاثرت عليهم جموع اللئام فاستيقظ المسلمون بقول سعد. وقالوا: نحن نحمل عليهم بشدة العزائم ولعل الله أن ينصرنا

عليهم فصاحوا بخيولهم فخرجت كالرياح العواصف ولم يزالوا في القتال الشديد إلى أن توسطت الشمس في قبّة الفلك، وقد ثبتت أصحاب النعمان بن المنذر للضرب والطعان.

قال الواقدي: وإن القعقاع بن عمرو التميمي أو بشر بن ربيعة التميمي أحدهما التقى مع النعمان في كبكبة من الخيل والازدهارات على رأسه فحمل القعقاع أو بشر على الكبكبة ففرّقها وعلى الكتيبة فمزقها ورمى النعمان بطعنة في صدره فأطلع السنان يلمع من ظهره. فلما نظرت جيوش الحيرة إلى الملك النعمان مجندلاً ولّوا الأدبار يريدون القادسية نحو جيش الفرس وغنم المسلمون رِحالهم وأموالهم وباتوا فرحين وافتقدوا مَن قتل من المسلمين فكانوا خمسمائة وثلاثين غالبهم من أهل نخع وقد ختم الله لهم بالشهادة وفي ذلك قالت خزانة بنت خالد بن جعفر بن قرط ترثي مَن قتل من المسلمين:

فيا عين جودي بالدموع السواجم ... فقد شرَّعت فينا سيوف الأعاجمِ
فكم من حسام في الحروب وذابل ... وطرف كميت اللون صافي الدعائم
حزنّا على سعد وعمرو ومالك ... وسعد مبيد الجيش مثل الغمائم
هم فتية غُرّ الوجوه أعِزّة ... لُيوث لدى الهيجاء شعث الجماجم

قال: وإن المسلمين جمعوا الأموال واحتوى سعد على قصر الخورنق والسدير، وترك جميع ما أخذه بالحيرة، وترك عنده سالم بن نعيم بن مسروق وترك عنده مائة من أبناء المهاجرين والأنصار. قال: وأما مَن انهزم من جموع النعمان بن المنذر فوردوا على القادسية وعليها جنود الفرس مع رستم زاده بن إسفنديار ومعه شهريار بن كنار، والهذيل بن جشوم، وحشرسوم الهمذاني والجناتيوس بن فتاك وشماهير بن حسوسا. قال فلما رأوا المنهزمين من جيش النعمان ملك العرب، سألوهم عن أمرهم، فأخبروهم بقتل النعمان وأخذ الحيرة وقصر الخورنق والسدير وجميع ما فيها. قال فوقع التشويش في عسكر الفرس وتمكّن الخوف من قلوبهم وكثرت الأراجيف، وأما رستم فإنه جمع الملوك والأساورة وملوك الديلم في خيمته وقام على سريره خطيبًا، فقال: اعلموا أن الدولة بالسياسة والناموس بالرياسة، وكأنكم بالعرب وقد أشرفوا عليكم فاخرجوا واذهبوا إليهم واركبوا. فخرجوا من عنده وأخذوا أهبة الحرب، فبينما هم كذلك إذا بعسكر سعد قد أشرف عليهم وهم على الخيل المضمرة العربية وعليها الفرسان الإسلامية والطائفة المحمدية، فرتبوا الصفوف وجعل رستم ملوك الفرس عن يمينه، وملوك الديلم عن يساره، ووقف رستم في القلب ودارت به الأساورة.

فبينما هم كذلك إذ بعث الأمير سعد رسولاً إلى رستم وكان الرسول أبا موسى الأشعري، فقصد القلب، فلما رآه الحجّاب أتوا إليه والترجمان معهم فقالوا له: يا عربي ما الذي تريد؟ قال: أنا رسول من عند صاحب الجيش، فبلّغوا رستم ما قاله أبو موسى الأشعري... فقال: قولوا له ما لك وصول إلى المقدّم ولكن أفصح لنا عمّا تريد حتى نأتيك بجوابه. قال فبلّغه الترجمان ما قاله. فقال أبو موسى: قل له ندعوكم إلى الشهادة فإن أبيتم الإسلام فأدّوا الجزية فإن أبيتم فالسيف أصدق شاهد، وقد قال الله في كتابه العزيز: **﴿وكان حقًّا علينا نصر المؤمنين﴾** [الروم: ٤٧] فبلغهم الترجمان ذلك، ورجع أبو موسى إلى سعد، فلما جنّ الليل هرب من عسكر رستم جماعة والتجؤوا إلى عسكر المسلمين، فلما أصبح رستم بلغه أن جماعة من عسكره هربوا إلى عسكر المسلمين، فبعث رسولاً إلى سعد يطلب منه أن يردّ عليه الذي هرب من الأساورة والمرازبة.

فقال سعد: إنّا قوم لا نضيع ذمامنا ولا ننقض عهدنا، وقد أتوا إلينا مستسلمين وفي صحبتنا راغبين فيجب علينا أن نذبّ عنهم ولا نمكّن أحدًا منهم فعاد الرسول إلى رستم وأعاد عليه الجواب، فغضب وأمر الجيوش بالزحف. قال وكان الذي هرب إلى جيش سعد شاور بن سليم ونسليك بن أكثم وضرار بن مكتال ومَن تبعهم، فلما رأوا العساكر قد أقبلت تريد المسلمين. قال القعقاع: أيها الأمير قد تقدمت الأعداء والفيلة أمامهم، ولا مقام لخيل العرب عند رؤيتها وصياحها. فقال سعد: أخلصوا النيّات وارضوا خالق الأرض والسمٰوات، وارشقوا الفيلة بالنبل واقطعوا مشافرها بالسيوف. قال وكان أمام الفيلة فيل عظيم كأنه جبل وكان إذا سار سارت وإذا وقف وقفت، وأينما توجّه كانت وراءه. قال فلما حملت الكتائب واضطربت المواكب، وجاءت الفيلة كأنها جبال وعلى ظهورها الأبطال، وقد أقبلت بالسيوف في خراطيمها فقتلت من عسكر المسلمين، ولم تثبت لها خيل المسلمين، فرفع سعد بن أبي وقاص كفّيه مبتهلاً بالدعاء لربّ الأرض والسماء وقال: **﴿ربّنا أفرغ علينا صبرًا وثبّت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين﴾** [البقرة: ٢٥٠]. قال زهرة بن جويرية: فوالله لقد رأيت سعدًا يدعو وعيني مع الفيلة، وإذا بالفيل الأعور قد ولّى يريد المدائن والفيلة بأجمعها، والرجال لا يقدرون على ردّها وهي سائرة على وجوهها، وكفى الله المؤمنين القتال من الفيلة، قال فلما ولّت الفيلة، غضب رستم وأقبل بعموده الذي من الذهب يضرب به وجوه الفيلة ويطمطم بفارسيته ويحرّض قومه على القتال وهم يحملون خوفًا منه وهو يطلب مَن هرب من جيشه، والخيل أمامه منهزمة والمسلمون لا يتبعون المنهزمين وأوقفوهم مواقفهم، وقد طابت قلوبهم بمعاملة الله، فطعنوا في صدور الأعداء وقد اطّلع الحق على قلوبهم، فما وجد فيها غيره، فبينما الأمير سعد يحرّض على القتال إذ لقيه الأسود العنسي وهو طائش العقل

ذاهل اللب. فقال له: ما وراءك يا ابن قيس؟ فقال: أيها الأمير إياك أن تعبر هذا الصف، فإن فيه الموت الأحمر والضيغم القسور، وهو جبار من الفرس، وقد قتل من المسلمين أربعة، ولقد قاتلته حتى كاد أن يأتي عليَّ ولولا أن منَّ الله عليّ بخالد بن جعفر بن قرط لكان قتلني، لأن فيه شجاعة وبراعة.

فقال سعد: يا مسكين وأين المفرُّ من المقدور وقد قدّر الله الأقدار، أما سمعت قول الملك الجبار: **﴿أين ما تكونوا يدرككم الموت ولو كنتم في بروج مشيدة﴾** [النساء: ٧٨]، ودخل الصف الذي ذكره الأسود، وإذ قد لقيه خالد بن جعفر، ولونه قد تغيّر. فقال له: ما وراءك يا ابن جعفر؟ فقال: الثعبان الأغبر، والأسد الغضنفر، أيها الأمير ارجع عن هذا الفارس، فإنه علج عنيد، وفي يده عمود من الذهب، يورث به خصمه العطب، وقد قتل الأقران، وأباد الشجعان، وقد كاد يقضي عليَّ لولا سعد العشيرة أدركني لكان أهلكني، فلما سمع سعد ذلك عظم عليه وقصد مكانه يريد أن يفدي الناس بنفسه وبروحه، ويبدّد في سبيل الله مهجته، وهو يخترق الصفوف فلقي سعد العشيرة، فقال له: ما وراءك يا ابن لؤي؟ قال: ورائي جبار لا يُقابَل وبطل لا يُنازَل، ولولا بشر بن ربيعة لسقاني من عموده كأس القطيعة، فلما سمع قوله قصد نحوه، فوجد بشرًا مصفرّ اللون، فقال له: ما وراءك يا ابن ربيعة؟ فقال: ما قصر القعقاع أني لولاه لكنت من الهول على غرر، فساد سعد على طريق بشر وقد سلك سبيل توفيقه فلقي القعقاع وهو يفرّق الكتائب ويصدم المواكب. فقال له: لله درّك يا ابن عمرو أين فارس الفرس وكيف خلص من يدك؟ فقال: أيها الأمير لولا أنه دخل الصفوف لسقيته كأس الحتوف، وغاص من وسط الخيل ولم أبلغ منه النيل.

قال الواقدي: ولم يزل القتال بين المسلمين والكفّار، إلى أن فرّق الليل بينهم فرجعت كل طائفة إلى مكانها، فلما رجع رستم إلى سرادقه بعث غلمانه إلى مقدمي عسكره فحضروا. فقال لهم: لقد خذلتم ونزل بكم العار والبوار، فما الذي خذلكم وأيّ شيء شغلكم ونزل بكم وأنتم أُولو البأس الشديد والأمر العتيد، وهؤلاء قوم كنّا لا نعبأ بهم ولا تحدّثنا أنفسنا عنهم بأمر، وقد خذلوا فرسانكم وأوردوهم موارد الهلاك وقتلوا منكم الصناديد، فبأيّ وجه ترجعون إلى المدائن وبِمَ تحتجّون عند الملك أزدشير، وإني أرى دولتكم قد انصرمت، وأيامكم قد انقضت؟ فقالوا: أيها السيد لقد بلينا بقوم لا يرهبون الموت، ولا يجزعون من الفوت، وكلما طعنا صدورهم تقدموا، وكلما قلّلنا جموعهم صدموا. فقال رستم: ما أرى من الرأي إلا أننا في نصف الليل نكبسهم فلعلنا نظفر بهم ويكون لنا عند الملك اليد البيضاء، فاستصوبوا رأيه وافترقوا لأجل أن يصلحوا شأنهم.

قال الواقدي: حدّثنا عامر بن سويد. قال: لمّا رجعنا من قتال العدو إلى خيمة سعد رأيناه جالسًا على التراب، فلما رآنا قال: مرحبًا بقوم هجروا الدنيا وطلبوا العقبى كيف كان يومكم؟ قلنا: لقد شفينا نفوسنا من الأعداء ونصرنا شرع نبيّنا المصطفى، ولقد رميت منّا رجال كثيرة من المسلسلة بنشابهم. فقال سعد: اجمعوا إليّ العسكر جميعه وأمروا غلمانكم أن يجمعوا الشيح والقيسوم) فإني أُريد أمرًا أرجو لكم به النجاة من الله قال ففعل القوم ذلك. فقال للموالي: اجعلوا ما جئتم به من الشيح والقيسوم على ظهور الإبل ووجّهوها نحو المسلسلة. فإذا قربتم منها فاضرموا النار في ظهور الإبل والذعوها بأسنّة الرماح حتى تدوسهم، ونحن من ورائكم بسيوفنا. قال ففعلوا ذلك، فلما أتى الليل تقدموا أمام العسكر بالأموال والموالي من ورائهم إلى أن قربوا من المسلسلة وأطلقوا النار في الشيح ولذعوها بالأسنة، فلما رأت الجِمال ما على ظهورها من النار وما حلّ بها من الأسنّة داست صفوف المسلسلة دوس الحصيد وحطمتها على وجه الصعيد وركب الأمير سعد مع الجيش ووضعوا السيف فيمن بقي من المسلسلة فبينما هم كذلك وإذا بعساكر الفرس قد أتوا وارتفع الضجيج، وعلا العجيج، وسُمِّيت تلك الليلة بليلة الهديرة ولم يزالوا في القتال إلى الصباح. قال وسمعت قائلاً يقول: كفيناكم، فقلت: مَن أنتم؟ فقالوا: نحن من خزيمة النخع، ولم يزالوا يقاتلون حتى ما بقي منهم أحد ولا بقي لهم نسل، فلما طلعت الشمس وركب رستم بن إسفنديار وركب جيشه عن آخرهم ووقفوا بأجمعهم فاستقبلهم الموحدون وسعد يتخلل الصفوف ويعِظهم ويوصيهم، أي الأمراء، وكان في الليل قد طاف على العسكر فرأى أبا محجن الثقفي يشرب الخمر، وقال له: يا عدو نفسه لقد مَحَوْتَ أجْر جهادك وعبادتك والله لآخذنّ منك حق الله وجلده الحدّ وقيّده.

قال الواقدي: أخبرنا يوسف بن عمر قال الأسدي عن طلحة ومحمد قالوا: إن أول مَن فتح الحرب رستم وطلب البراز فخرج إليه نجيبة فقتله فخرج زهير فقتله فأراد القعقاع أن يخرج وإذا بفارس قد أقبل إلى رستم وهو كالريح في هبوبها فصاح برستم صيحة أدهشته وطعنه في خاصرته فأطلع السنان من الخاصرة الأخرى فنظر إليه سعد فإذا هو أبو محجن وقد صنع ذلك برستم، قال المتوكل عليه: سألتك بالله أن تتركه.

قال الواقدي: حدّثنا يوسف بن عبد الأعلى قال: حدّثنا عمر بن إبراهيم عن عبد الله بن المبارك قال: لمّا نزل سعد بن أبي وقاص على القادسية وقاتل عسكر الفرس وانهزمت الفيلة إلى المدائن، وكان سعد رضي الله عنه يتنكر في الليل ويمشي في عسكره فمرَّ في بعض الليالي برجال من ثقيف فوجد أبا محجن وهو يشرب ويترنم على خمرته، فلما رآه غضب وقال له: لقد ذهب أجْرك ونقص قدرك بعد جهادك للكافرين تتعرض

لغضب ربّ العالمين، أترضى لنفسك بذلك ثم إنه حدّه وقيّده وجعل عليه مَن يحفظه، فلما كان من الغد ووقع الزحف وبرز فارس العجم وكان منه ما ذكرناه عاد إلى القيد، فلما قتل رستم بمشاهدة الناس أتى إليه سعد ليعلم حقيقة الأمر فوجده في القيد. فقال له يا أبا محجن: أنت صاحب الفيلة. فقال: الفضل لله ولرسوله فأقسم عليه فحدّثه بحديثه. فقال له: إذا كان هذا صنيعك فاذهب، فقد عفوت عنك، ومَن عاد فينتقم الله منه. فقال أبو محجن: والله ما عدت أشربها أبدًا وتاب.

قال الواقدي: حدّثنا زائدة عن جدّه مروان بن أوس. قال: كنت بالقادسية، وشهدت فتحها فلما قتل رستم وولده عجزشير وولّت الفرس على عقبهم لا يلتفت أحد منهم إلى ما وراءه من الأموال والأصحاب وما لهم قصد إلا السلامة لأنفسهم، وأتى نساء المسلمين ومعهم الماء فدُرْنَ بين القتلى والجرحى فمن وجدنه من المسلمين فيه الرمق سَقَينَه الماء ونضحن على وجهه وينقلن مَن قتل من العرب إلى العرب ويتركن رَمَم الفرس.

قال الواقدي: حدّثنا سليمان بن بشر عن أُم كثير امرأة همام بن الحرث قالت: شهدت القادسية مع سعد، فلما نزل النصر وانهزمت الفرس شددنا ثيابنا وأخذنا الماء وابتغينا القتلى فمَن كان من المسلمين سقيناه ورفعناه، ومَن كان من المشركين أخذنا ما عليه.

حدّثنا الحرث عمّن أدرك ذلك. قال: لم يكن من قبائل العرب أكثر نساء من نساء بجيلة والنخع وكانوا في ألف وسبعمائة امرأة. قال: وأخذت المسلمون عدّة لم يروا مثلها وأُصيب من المسلمين سعد بن عبيد وسفيان بن سليم والمهلب بن غزوان والقادح بن عنبسة ونعمان بن نعيم وأربعون رجلاً من المهاجرين والأنصار وسنذكر مَن قتل ممّن كانوا يقرؤون القرآن إذا جنّ الليل كدويّ النحل. قال وأخذ المسلمون من الأموال ما لم يرَ مثله، ولما كان بعد الفتح بيوم جاءت النجدة التي بعثها عياض بن غنم من أرض الموصل وجاء مَن شهد الفتوحات بالشام مع عامر بن الجراح، وكان الذين قَدِموا سبعمائة، فلما وصلوا إلى عين التمر استعجل للنصرة فترك الجيش وسار في سبعين فارسًا وأتت بقية السبعمائة بعد ذلك، وكان معه قيس بن عبد يغوث وقيس بن أبي حازم وسعيد بن نزار ومالك الأشتر النخعي فتقدم هاشم وقيس معه في السبعين.

قال الواقدي: حدّثنا إبراهيم بن بشار. قال: أخبرنا محمد بن علي عن سليمان بن أرقم أن عدّة القتلى بالقادسية تسعة وثمانون رجلاً، وكان المشهور منهم قيس وعطارد وهشام ومذعور ومقرب الأسود وعمرو بن قيس والنعمان.

قال الواقدي: وبلغنا عن رجل من تميم عن امرأة منهم قالت: شهدت القادسية وضم للنساء لكل منهنّ ثلاثة وثلاثون مثقالاً من العنبر ومثلها مسك، وأما الكافور فما كنّا نعبأ به إلا مَن عرفه، وكانت العرب تقول للسوقة: هل لكم من ملح طيب وكانوا يعطون كيل كافور بكيل ملح، وأن رجلاً من العساكر عجن عجينًا وجعل فيه من الكافور وجعل يذوقه بعد خبزه ويقول: ما لهذا الملح لا يطعم في العجين وأن رجلاً ممّن له خبرة بالملح قال: أعطيكم جراب ملح يطعم طعمه. قال فأخذوه وأعطوه ملء جرابه كافورًا غالٍ وأن سعدًا لمّا هزم الله العدو على يديه جمع الأموال كلها وكان الذي يقبض الأموال سليمان بن ربيعة. قال فكتب إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه كتابًا يقول فيه: بسم الله الرحمـٰن الرحيم. من العامل بالعراق سعد بن أبي وقاص إلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب. أما بعد: سلام عليك وإني أحمد الله الذي لا إلـٰه إلا هو وأُصلّي على نبيّه محمد ﷺ وإنّا وصلنا إلى العراق والتوفيق يقدمنا، والنصر يؤيدنا، وقد اطّلع الله على قلوبنا وامتحن خَفِيَّ أسرارنا فما وجد فيها سواه، ولا نعبد إلا إياه، فوفى لنا بوعده إذ وفينا بصادق عهده، فلقينا العدو وهو شاكي السلاح، وغير راجع عن الطماح، وقد شمّر لنا عن ساق الجِدّ فدارت لنا عليه الدوائر فهزمنا كتائبهم ونزلنا مواكبهم، واستأصلنا شأفتهم، وقتلنا مقدمهم، فجرى بذلك سابق القدر ﴿**فأخذناهم أخذ عزيز مقتدر**﴾ [القمر: ٤٢] وملكنا الحيرة والقادسية، وأنزل الله بأعدائنا الرزيّة، فلما كان بعد الفتح بيوم قَدِمَ المرقال وهشام وسبعون رجلاً من الصحابة وبعده بثلاثة أيام قَدِمَ سبعمائة من الشام من جند أبي عبيدة ولم أسلّم لأحد شيئًا من الغنيمة، ونحن ننتظر أمرك في ذلك والسلام عليك ورحمة الله وبركاته وعلى جميع المسلمين. وسلّم الكتاب إلى زيد بن عمرو فركب نجيبه وسار نحو المدينة.

قال: أخبرنا أحمد بن عمر قال: حدّثني سابق بن مسلم قال: وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يركب كل يوم نجيبه ويقصد طريق العراق إلى قريب الظهر، وذلك لما بلغه أن رستم نزل على القادسية. قال فخرج على عادته إذ لقيه البشير وهو نوفل، فلما رآه نوفل أبرك ناقته وسلّم على أمير المؤمنين، وقال له: أبشر بكل خير ودفع إليه كتاب سعد وهو يقول: قد هزم الله العدو ونصر الموحدين وملكنا الحيرة والقادسية بهم فرَقِي المنبر وقرأ عليهم كتاب سعد، وقال: ألا وإن إخوانكم المسلمين يقرؤونكم السلام، وقد اتبعوا الكتاب والسُّنّة وحادوا عن طريق البدعة وأقاموا على شرائع الهدى، وأرادوا المشورة فيمن قَدِمَ عليهم، فأما الجواب فالغنيمة لمَن شهد الوقعة والمواساة لمَن لحق بهم بعد الوقعة بثلاثة أيام. ونزل عن المنبر وكتب إلى سعد: بسم الله الرحمـٰن الرحيم. أما بعد: سلام عليك فإني أحمد الله الذي لا إلـٰه إلا هو وأُصلّي على نبيّه ﷺ، وقد وصلني كتابك فحمدت الله كثيرًا بما فتح الله على أيديكم

وإني قد أبليت بكم وأبليتم بي، وإني والله لا أحصي شيئًا من أموركم فأعلمه، وأما إذا اجتمع صلح فإذا أشفق الوالي ونصحت الرعية وعمل الإحسان وعلى الرعية الصبر والشكر، وأما الغنيمة فلمَن شهد الوقعة والمواساة لمَن أتى بعد ثلاثة أيام، ومَن شهد حربكم من مملوك وعتيق بعد ثلاثة أيام فأشرِكوه والزموا الإحسان فيما فتح الله عليكم. وختم الكتاب وسلّمه للرسول فسار يجدّ السير إلى أن أتى سعدًا ودفع إليه الكتاب، فلما قرأه كتب إليه بعد البسملة يعلمه بما تجدد. أما بعد: يا أمير المؤمنين فإني لم أرَ فارسًا مثل القعقاع بن عمرو التميمي فإنه حمل في العدو في يوم واحد ثلاثين حملة يقتل في كل حملة فارسًا ولم أرَ فارسًا مثل الحرث الكندي فإنه كان يحمل في المواكب فيقصم عروقها. وأرسل الكتاب الثاني والخمس مع سعد، قال: ووصل المنهزمون من الفرس إلى المدائن ودخلوا الإيوان وحدّثوا كسرى بما جرى وبقتل رستم وولده فاغتمَّ لذلك وأيقن أن دولة الفرس قد انقرضت وانصرمت فاحتجب ثلاثة أيام، وفي اليوم الرابع مات لأنه حمل الهمّ على قلبه فقام بعده ولده يزدجرد ولم يكن له غيره.

قال: حدّثنا عبد الله بن مروان قال: حدّثنا نعيم عن جدّه وكان أحفظ الناس للفتوح. قال: لمّا وجّه كسرى بن أزدشير رستم إلى قتال سعد أنفذ معه نصف بيت ماله، وهي ستمائة ألف ألف إلى المصف، فلما صفّت الصفوف وضعها أمام الجيش، وقال: كل مَن قتل فارسًا كان له كذا وكذا ومَن قتل راجلاً فله كذا وكذا فصار ذلك كله إلى المسلمين فأرسل الخمس مع سعد وهو مال كثير لا يُحصى عدده لكثرته، فلما وصل المال لعمر بن الخطاب بكى، وقال: أُفٍّ لمَن يغترّ بالدنيا أو يميل إليها ثم قرأ: **﴿قل متاع الدنيا قليل والآخرة لمَن اتقى﴾** [النساء:٧٧] فوالله لم يلتمس منه قليلاً ولا كثيرًا ولا درهمًا ولا دينارًا، فقالت له حفصة: يا أمير المؤمنين لو رفقت بنفسك وأكلت طعامًا أطيب من طعامك ولبست ثوبًا أميز من ثوبك فقد فتحت لك الفتوح، وأتت الأموال فتمعّر وجهه غضبًا، وقال لها: ناشدتك الله أخبريني عن أفضل ما اقتنى رسول الله ﷺ من بيت مال المسلمين. قالت: ثوبان كان يلبسهما يوم الوفد ويخطب فيهما يوم الجمعة والعيدين. فقال: أيّ طعام كان يأكل عندكنَّ؟ قالت: خبز الشعير، وكان عندنا في أسفل عكة دسم فإن تظاهر طعمه فيها يقول: قد زدتنّ في الدسم. قال: فأيّ بساط كان يبسطه عندكنَّ؟ قالت: كان لنا كساء نجعله في الصيف تحتنا، وفي الشتاء نفرش نصفه ونلتحف بنصفه. فقال يا حفصة: إن مثلي ومثل صاحبيَّ كثلاثة نفر تتابعوا طريقًا فمضى الأول وقد زاد فبلغ، ثم تبعه الثاني فسلك طريقه فمضى إليه، ثم تبعهما الثالث فإن لزم طريقهما ورضي بزادهما كان معهما وإن سلك غير طريقهما لم يجتمع معهما أبدًا.

ذكر فتح نهمشير

قال الواقدي: وإن عمرًا رضي الله عنه بعث إلى سعد بأن يمضي إلى المدائن وأن يخلف النساء والأولاد في الحيرة وعندهم من الجند جماعة ويجعل لهم شركة في كل مغنم وكان مقام سعد بعد الفتح بالقادسية شهرين، فلما استهلّ الشهر الثالث أنفذ على مقدمته زهرة بن جويرية وأتبعه بعبد الله وشرحبيل بن الشمطاء وأتبعهما بهاشم بن عتبة وخالد بن عرفجة صاحب الساقة وقسم الجيش معهم وقد غنموا ما كان في عسكر الفرس من مال وسلاح وكراع، وكان رحيلهم من القادسية لبضع أيام مضين من شهر شوّال. قال ونزل زهرة بالكوفة بمَن معه ولحق به عبد الله وشرحبيل بمَن معهما وتتابعت الجيوش وارتحل زهرة وسار إلى بالس ونزل عليها وإذا بأُناس من أهل السواد أتوا إليه وطلبوا منه أمانًا فأعطاهم وقال لهم: ما عندكم من خبر العدو؟ فقالوا: أيها الأمير استعمل الحذر جلبابًا والتيقّظ بابًا، واعلم أن رجلاً من المرازبة قد ضمن لكسرى لقاءكم وردّكم ومعه عسكر جرّار. فقال زهرة: أبعدَ الله شرّه وجعل كيده في نحره، فبينما هو كذلك إذ أشرفت عليهم طلائع القوم وتبيّنت لهم البيارق والازدهارات فركب زهرة للقائهم ورتب أصحابه للحرب وهو يقول: ﴿**إن ينصركم الله فلا غالب لكم**﴾ [آل عمران: ١٦٠].

قال الواقدي: ولمّا أشرفت الكتائب أطلقوا ألسنتهم بذكر الله وتسارعوا إليهم فأوسعوا لهم الميدان وتقدمت الصناديد وتأخرت الرعاديد وضجّ المسلمون بالتكبير وطعنوهم في صدورهم ونحورهم وإذ قد وقعت عين زهرة على فارسهم العميد وبطلهم الشديد فقصده دون غيره وتطاعنا وتضاربا وتقاربا وتباعدا، ثم إن زهرة رماه بطعنة في صدره فأخرج السنان من ظهره فخرّ إلى الأرض صريعًا، فلما رأوه ولّوا الأدبار وركنوا إلى الفرار وكان فيهم رجل من أكابرهم ذو عقل سديد ورأي رشيد، فلما رأى ما حلّ بقومه أتى إلى زهرة طائعًا مختارًا وعقد له معه صلحًا فأعطاه أمانًا وسأله عن خبر جيوش كسرى. فقال: يا سيد قومه اعلم أن أكابر مَن انهزم منهم بالقادسية قد اجتمعوا وهم النهرجان والمهراق الداري والهرمزان. فقال لهم القيروان: بأيّ وجه تعودون للملك كسرى، وقد أعطاكم الوظائف والعطايا والولايات فأقيموا هنا حتى تبيضّ وجوهنا عنده أو نهلك عن آخرنا. قال فلما سمع زهرة وعبد الله وشرحبيل وهاشم وخالد انتظروا سعدًا حتى أتى وأعلموه. فقال: استعينوا بالله وتوكلوا عليه وكانوا قد ملكوا الجسر فعبروا عليه وعدوا إلى الجانب الآخر وأشرفوا على جموع القوم فوقعت في الفرس الأراجيف وتمكّن الخوف قلوبهم، وكلما عبّن الهرمزان والقيروان جيشهما صفًّا صفًّا انتقض بغيره فعلم أن ما فيهم خير وما كانت إلا ساعة حتى فرّق الله جموعهم وبدّد شملهم وانطلقوا على وجوههم فمضى الهرمزان إلى الأهواز وكانت كنوز كسرى في جبل ظاهر الأهواز وكان

عليها مقدّمًا نهاوند، فلما بلغه هزيمة العسكر نهبها، وأما النهرجان ومهراق فإنهما قصدا المدائن وعبرا نهرشير وهي مدينة الذنب. قال: فلما حصلوا بالعدوة القصوى وقطعوا الجسر قصدوا الإيوان ويزدجرد هناك فدخلوا عليه وحدّثوه بما جرى لهم مع العرب، فلما سمع ذلك وأيقن بزوال ملكه، فلما كان الليل عوّل على أن ينفذ أمواله وذخائره إلى نهاوند وتهيأ للحرب، وأما زهرة فإنه سار في أثر القوم حتى جاوز سوار ونزل وأتى بعده هشام والمرقال ونزلا عنده حتى تكامل الجيش ونزل سعد بن أبي وقاص وارتحلوا إلى كوثاريا وأشرفوا عليها، فلما رأى الفرس عسكر المسلمين قد أشرف عليهم أخذوا أُهبة القتال وتهيئوا ومقدمهم شهريار.

فلما وصل إليهم زهرة ورآه شهريار وقع الرعب في قلوب أصحابه وماج بعضهم في بعض ولولا خوفهم من شهريار لولّوا الأدبار ورتب زهرة أصحابه، فلما استوت الصفوف خرج شهريار للبراز وعليه زيّ الملوك والأكاسرة، وقال: أنا شهريار فهل يبرز إليّ فارس لفارس أو أربعة لفارس أو عشرة لفارس؟ فلما سمع زهرة كلامه قال: والله لقد أردت برازك غير أني لا أدع أحدًا يخرج إليك إلا عبدًا فإن قتلته فتكون قد قتلت عبدًا وإن قتلك فهو المراد، ثم إنه دعا مولى أبا نباتة الأعوجي فقال له: دونك وهذا العلج واستعن عليه بالله فخرج إليه أبو نباتة، فلما وصل إليه ونظره استحقره لأن شهريار كان مثل البعير فألقى نفسه على أبي نباتة وقد جرّد سيفه، فلما رآه أبو نباتة قد وصل إليه صادمه كأنه أسد وتضاربا بالسيوف حتى تكسرت فرمياها وتقابضا حتى سقطا إلى الأرض فوقع شهريار بأبي نباتة وهو يراغه فوقعت إبهام شهريار في فم أبي نباتة فقطعها فارتخت أعضاؤه فانفلت وانقلب عليه فصار فوقه وجرّد خنصره وطعنه به في نحره فقضى عليه وأخذ تاجه وسواريه وسلبه وفرسه وعدّته وتوجّه بها إلى المسلمين، فلما نظر جيشه ما حلّ به ولّوا الأدبار وأقام زهرة هناك إلى الصباح وأقبل بقية الموحدين فحدّث زهرة سعدًا بما جرى لمولاه مع شهريار وكيف انهزم الفرس، ففرح سعد بذلك وأمر أن يحضر أبا نباتة فأحضره. فقال سعد: عزمت عليك إلاّ لبست سواريه ودرعه وتاجه وركبت فرسه. قال ففعل فأعطاه السلب جميعه، وقال له: قد أفلحت فكان أول مسلم سُوِّر بالعراق.

قال الواقدي: حدّثنا نوفل بن عدي. قال: أخبرنا وائل بن غانم اليشكري قال: لمّا قَدِمَ سعد إلى كوثاريا نزل في المكان الذي سجن فيه إبراهيم الخليل عليه السلام فصلّى فيه وحمد الله وصلّى على رسوله ﷺ وقرأ **﴿وتلك الأيام نداولها بين الناس﴾** [آل عمران: ١٤٠] الآية. قال وأقام سعد بمشهد كوثاريا أيامًا ثم دعا الناس إليه، وقال لهم: اعلموا أن الله تعالى قد نصركم في مواطن كثيرة وقد أراكم ما وعدكم نبيّكم محمد ﷺ

لما قال: «ستفتح على أُمتي كنوز كسرى وقيصر»، وقد مَلَكتم طرفًا من كنوز كسرى والتمام على الله، وقد عوّلت على العبور إلى المدائن من الجانب الغربي. فقالوا جميعهم: أيها الأمير ما منّا مَن يخالف ولا يبخل بنفسه على الله ورسوله فاعزم ولا حول ولا قوة إلاّ بالله العليّ العظيم. قال فلما سمع قولهم قدّم زهرة برايته وجيشه وأمره أن يسير فسار في اثني عشر ألف فارس فما سار غير قليل إذ رأى بين يديه خيلاً وعليها فوارس فأخذوا أُهبتهم فإذا هم زهاء من مائتي فارس من الفرس فأرسلوا منهم فارسًا يُعلِم المسلمين أنهم أهل ساباط ومقدّمهم يقال له سرزاد وهو يطلب لأهل بلده صلحًا وعهدًا. فقال له زهرة: ائتني بهم، فلما قربوا منهم ترجّلوا وأتوا المسلمين فتلقّوهم بالبشر والسرور. فقال لهم زهرة: مَن أنتم؟ قالوا: نحن أهل ساباط وهذا مقدّمنا وقد أقبلنا نطلب صلحكم. فقال زهرة: مَن قصدنا قبلناه، ومَن أراد صلحًا صالحناه ولسنا قومًا نريد الفساد في الأرض، ثم أمضى صلحهم على ما وقع عليه الاتفاق بينهم. قال وانطلق سرزاد إلى قومه ومعه جماعة فرحين بالصلح، ولما نزل زهرة في نهمشير وجد كتائب الفرس وعليهم مقدّم يقال له فيروز وهو فارس قومه ومعهم كبكبة كسرى التي يعتمد عليها في وقت شدته. قال واجتمع جيوش الموحدين عند زهرة مع سعد وتأهبوا للقتال.

قال الواقدي: فلما ترتبت الصفوف كان أول مَن برز واشتهر وسَمَا وافتخر فيروز ورطن بالفارسية، وقال: يا هؤلاء العرب لقد أطمعتم أنفسكم فيما لا تصلون إليه وساءت ظنونكم وزعمتم أنكم تملكون العراق وتأخذونه من أيدي الأكاسرة وهذا ظنٌّ لا يصير أبدًا، ونحن كتيبة كسرى أُولو الشدة والبأس والقوة والمراس وأنا مقدّمهم والرئيس فيهم فليبرز إليّ مقدّمكم ويفعل مثل ما فعلت أنا من بين قومي. قال فما استتمّ كلامه حتى خرج إليه هاشم بن المرقال يجرّ قناته من ورائه وحمل عليه وحصل بينهما حرب يشيب منها الطفل، ثم إن هاشمًا طعنه في صدره فأطلع السنان من ظهره. قال فلما قتله هاشم ورجع إلى المسلمين قبّله سعد بين عينيه، فترجّل هاشم وقبّل رِجل سعد وقرأ ﴿**أَوَلم تكونوا أقسمتم من قبل ما لكم من زوال**﴾ [إبراهيم: ٤٤] قال وارتحلوا في أثرهم إلى أن نزلوا نهمشير وبقي كلما أقبلت قبيلة تكبر وتنزل إلى أن أحاطوا بهم من كل جهة فأظهر القوم الزينة والسلاح والعدد والمجانيق وهم على الأسوار.

قال الواقدي: وأقام سعد على نهمشير شهرين وبعث خيله للغارات على شطّ الفرات والدجلة، فأتوا ومعهم ألف فلاح فضمّهم إلى سرزاد مقدّم ساباط حتى يأتيه الجواب فيهم من عمر بن الخطاب رضي الله عنه ويرجعوا إلى مقرّهم، فكتب سعد إلى أمير المؤمنين يقول بعد البسملة: أما بعد: سلام عليك ورحمة الله وبركاته فإني أحمد الله

الذي لا إلـه إلا هو وأُصلّي على نبيّه، وأننا نزلنا على نهمشير بعدما لقينا فيما بين القادسية ونهمشير عسكرًا مع قرط بن فيروز وظفرنا الله به وبمَن معه، وأن فيروز قتله هاشم وانهزم مَن بقي معه ونزلنا بعد ذلك على نهمشير وبثثنا عساكرنا فأصابوا من الفلاحين ألف نفر فما رأيك فيهم؟ فأجابه أن مَن أتاكم من الفلاحين إذا كانوا مقيمين على عهدكم ولم يُعينوا عليكم عدوّكم فلهم أمانهم ومَن لم يأتكم وهرب منكم وأدركتموه فشأنكم وإياه افعلوا فيه ما شئتم، فلما جاء الكتاب خلّى سبيلهم وأرسل وراء الدهاقين فدعاهم إلى الإسلام أو الجزية فأجابوا إلى أداء الجزية. قال: وأما أهل نهمشير فشرعوا يرمون عسكر المسلمين بالسهام والحجارة والمنجنيق، فلما نظر سعد إلى ذلك دعا سرزاد وقال له: إن أهل هذا البلد لم يتركوا للصلح موضعًا وأُريد منكم أن تصنعوا لنا منجانيق، ففعل سرزاد وعمل منجانيق فما مضت ثلاثة أيام حتى صنع له ذلك ونصب له ذلك على نهمشير أكثر من عشرين منجنيقًا فأشغلوهم بها عن قتال المسلمين والعرب فرحت بذلك، فلما طال على البلد الحصار خرجوا يقاتلون المسلمين وتبايعوا على الصبر فقاتلهم المسلمون قتالاً شديدًا وترامت الفرس بنشابها والعرب بنبالها وقاتل زهرة بن الجويرية قتالاً يُرضي الله ورسوله، ثم إن زهيرًا قال لسعد: دعني أتقدم لعلّي أرمي بنبلة أو أضرب بسيفي هذا ضربة، فتقدم ودخل العدو فتلقاه فارس اسمه شهرياض فحمل عليه وطعنه طعنة أخرج بها أمعاءه وقتله فاجتمعت عليه الأعاجم فقتلوه وانهزموا ودخلوا المدينة وأغلقوا الأبواب وصعدوا على الأسوار وبعدها أشرف علينا رجل منهم وقال: إن الملك يقول لكم: هل لكم في الصلح على أن لنا ما بين دجلة إلى هنا ولكم ما يأتيكم من دجلة إلى خيلكم؟ فتقدم إليه أبو مقرة الأسود بن قطينة وقد أنطقه الله بما لا يدري ما هو، فأجابه بالفارسية وهو لا يعرف منها شيئًا ولا يُحْسِنها. قال: فرجع الرجل عن السور. فقلنا لأبي مقرة: ما قلت له؟ فقال: والذي بعث محمدًا بالحق ما أدري ما قلت له إلا أن الله أنطقني بشيء، ولعل أن يكون فيه خير للمسلمين ولا زالوا يسألونه حتى سأله سعد بن أبي وقاص.

فقال: والله يا أمير ما أعلم ولا أدري فتعجب سعد من ذلك وأمر الناس بالزحف والرمي وأن لا أحد من أهل المدينة يظهر لهم ولا يبين. فقلنا: لعلهم أن يكونوا يكيدوننا بمكيدة، وإذا نحن في اليوم الثاني برجل قد خرج إليها وهو ينادي الأمان الأمان، فأمّناه وأتينا به إلى الأمير سعد. فقال له: ما الخبر؟ قال: إن القوم ليسوا في المدينة وقد هربوا. فقال سعد: ومن أيّ شيء هربوا؟ فقال الرجل: إن الملك بعث إليكم رسولاً يعرض عليكم الصلح فأجبتم أنه لا يكون بيننا وبينكم صلح أبدًا حتى نأكل عسل أفريزيا نوح كونا. فلما بلغته هذه الكلمات منكم قال: واويلاه إن الملائكة تتكلم على ألسنتهم وتردّ علينا وتجيبنا عن العرب، ووالله لئن لم يكن كذلك وإلا فإنما هو شيء

أُلقي على فم هذا الرجل فابرزوا إلى القصوى فخرجوا من البلد وقد تركوا المتاع والأموال والرجال ولم يكن لهم غنيمة إلا أنفسهم. قال فلما سمع سعد ذلك من الرجل سجد لله شكرًا، وأمر المسلمين أن يدخلوا المدينة بالعدد خوفًا من الكمين ففعلوا وركب سعد وتقدّم المجاهدون ودخلوا وداروا بالبلد فلم يجدوا في نهمشير أحدًا من الفرس ووجدوا الأموال على حالها فاحتووا عليها وأقام سعد بها ثلاثة أيام وخرج إلى الشط وأراد أن يعبر بالناس إلى المدينة القصوى وهي إسبانير فلم يجدوا شيئًا من السفن فأقام أيامًا من شهر صفر والناس يحرّضونه على العبور إلى ذلك الجانب وهو يأبى إشفاقًا على المسلمين، فبينما هو كذلك إذ جاءه أعلاج فوقفوا بين يديه ودلّوه على مخاضة تُخاض فأبـى.

ذكر فتوح الإيوان ودخول المسلمين في الدجلة وفتوح إسبانير وهي المدينة القصوى

فلما دلّوه على المخاضة أبى وقال: بحر عميق وما كنت أُغرر بالمسلمين والله يصنع بهم ما يشاء، فبينما هو كذلك إذ أتوه بعلج وأثوابه تقطر بالماء فسأله سعد عن حاله فقال: كيف حالي والملك قد رأى في منامه أن المسلمين قد عبرت إليه وقد استشعر بزوال ملكه وهو معوّل على الهرب وأن يأخذ أمواله ويمضي إلى خراسان. قال فلما سمع سعد ذلك جمع المسلمين وحمد الله وأثنى عليه وقال: أيها الناس إن عدوّكم قد استعصم منكم بهذه السفن، وكسرى قد عوّل على الهرب بأمواله ورجاله وإني قد عوّلت على العبور إن شاء الله تعالى، واعلموا أنه ليس وراءكم مَن تخافونه، لأن الله قد ملّككم معاقلهم وبلادهم، وقد رأيت من الرأي أن نقطع هذا البحر إليهم ونقدم عليهم فما أنتم قائلون؟ فقالوا جميعًا: قوّى الله عزمك على الرشد فافعل ما أراد الله به، فعندها قال سعد: رحمكم الله ونصركم أيكم يبتدىء أو يتقدم ويجسّ لنا المخاضة وينبش عليها من على الشط حتى تتلاحق به الناس فابتدر لها عاصم بن عمر وانتدب معه ستمائة من أهل النخوة ممّن شاع ذكرهم ونَمَا فخرهم وعلمت شدّتهم وسار عاصم أمامهم حتى وقف على الشط ومعه الكتيبة الخرساء وهي كتيبة القعقاع بن عمرو رضي الله عنه.

قال الواقدي: حدّثنا يونس بن عبد الأعلى عن يوسف بن عمرو. قال: ابتدر عاصم وشرحبيل وأبو مقرّن ومالك بن كعب الهمداني ومثل هؤلاء السادات وركبوا خيولهم واقتحموا الدجلة واقتحم بعدهم الستون والستمائة في أثرهم وأول مَن نزل في الماء عاصم بن ولاد وأبو مقرّن وشرحبيل ومالك بن كعب وغلام من بني الحرث، فلما رأتهم الأعاجم قد قربوا منهم وأعدّوا للخيل التي تقدمت خيلاً منهم اقتحموا الماء، فأول مَن لقيهم من جيش سعد عاصم بن عمرو، فلما لَقِيَ خيل فارس في الماء صاح

بأصحابه، وقال: شرّعوا رماحكم إلى الأعلاج واقصدوا أعينهم، فلما سمعوا كلام عاصم قصدوا عيون العدا وسقوهم كأس الردى، فلما رأت الفرس ثبات العرب في الماء كثباتهم في الأرض للطعن والضرب ولّوا الأدبار والمسلمون في أثرهم فقتلوا غالبهم وما نجا إلى الشط إلا القليل وملك المسلمين جانب الشط من جهة الفرس وتلاحق المسلمون، فلما علم سعد ذلك أذِنَ للمسلمين بالاقتحام، وقال لهم: استعينوا بالله وتلاحق الجند ونزلوا الدجلة وهي ترمي بالموج والناس يجهدون في عومهم وهم لا يكترِثون بالموج ولا بتلاطمه وكأنهم على وجه الأرض ونزل بأهل فارس ما لم يكن في حسبهم وقاتلوا قتالاً شديدًا.

قال الواقدي: حدّثني مَن أثق به: إن أول مَن عبر من الجيش ستون فارسًا خرجوا زُمَرًا، فأول زمرة تسعة أولهم عاصم، والزمرة الثانية ثلاث وثلاثون. قال عاصم بن عمرو: وقد اقتحمنا الدجلة خيلاً ورجالاً ودواب حتى نزلنا ولا نرى الماء من كثرة الناس وخرجت خيلنا وهي تنفض معارفها وتصهل على الشط إلهامًا من الله. قال ولما رأى الملك كسرى أن المسلمين قد عدلوا إلى الجانب الثاني أمر شهريار بن ساور أن يبرز للمسلمين ويقف على مقابلتهم ففعل وأخذ كسرى ما قدر على حمله من أمواله من الدرّ والجواهر واليواقيت وما أشبه ذلك. قال: وإن سعدًا ليخوض الماء خوضًا وهو يقول: **﴿ذلك تقدير العزيز العليم﴾** [الأنعام: ٩٦]. قال: ولم يغرق من الناس أحد.

قال الواقدي: حدّثني النعمان بن عاملة الضبي عن أبيه عثمان أنهم سلموا عن آخرهم، وأن رجلاً من بارق ويقال له عرقدة زال عن فرسه وكانت شقراء وكأني أنظر إليها وصاحبها غريق، فمضى إليه القعقاع بفرسه وأخذ بيده وجرّه حتى عبر به. فقالت الناس: عجزت النساء أن تلد مثلك يا قعقاع ولم يذهب للناس في الماء شيء إلا قدحًا كانت علاقته رثّة فانقطعت فذهب الماء بالقدح. فقال صاحبه: والله لأجهدنّ عليه وما كان الله ليسلبني قدحي من بين العسكر فلما عبروا أتى رجل من الناس ليغتسل وإذا بالأمواج قد رفعت القدح إليه فتناوله وأتى به إلى العسكر فعرفه صاحبه فأخذه.

قال الواقدي: حدّثني عمرو بن تميم. قال: بلغنا أنه لما عبرت المسلمون تحامت الفرس وقاتلت قتالاً شديدًا وحَمَت أنفسها وعوّلت على أن تقاتل إلى أن تموت وهم خواصّ الملك وأصحاب الإيوان والحصون والقلاع ومقدّمهم شهريار بن ساور، فطعنه خالد بن نمير في عينه ففقأها وانثنى عليه بضربة بالسيف فقتله وإذ فاجأتهم خيّالة من نحو الإيوان وقالوا لهم: عمّن تقاتلون، فإن الملك هرب بأمواله وأهله وخدمه؟ قال فلما سمعوا ذلك ولّوا الأدبار ولم يكن بالمدائن أعجب من عبور المسلمين إليها وسمّوا يوم

عبورهم الدجلة يوم الجراثيم لأنه لم يكن أحد يعبر إلا ظهرت له جرثومة يسير معها وهي من القش المربوط حزمًا.

قال قيس بن أبي حازم: خضنا الدجلة وهي تطفح. فلما توسطناها كان يصل الماء من الفرس للحزام. فلما نظرت الفرس إلى ذلك والمسلمون يعبرون من غير مشقة جعلوا يقولون بالفارسية: ديمور، يعني جاء الجن، وقالوا: والله ما أنتم تقاتلون إنسًا إنما تقاتلون جنًا فانهزموا، وأراد المسلمون الدخول إلى الإيوان فمنعهم سعد من ذلك. وقال لهم: إياكم والعجلة في الأمور، فإنها تورث الندامة وإني أخاف أنها من بعض مكايد العجم فلم يدخل إليه أحد. قال وتقدم سلام المجازي إلى سعد وكان غلامًا. وقال له: أيها الأمير والله لقد أرضيت اليوم الله ورسوله وقتلت المقدّم عليهم. ثم إنه استشهد بقية رفاقه الستّين فلم يشهد له أحد منهم. فقال للغلام المجازي: والله ما قتلته فنكس الغلام رأسه وأراد أن ينصرف وإذ قد وثب رجل من الصحابة اسمه هاشم بن عتبة. وقال لسعد: أيها الأمير أنا رأيته وقد قتل مقدّم الفرس فصدقه سعد وأعطى الغلام سلبه.

قال الواقدي: حدّثنا عبد الله بن بشر. قال: حدّثنا سليمان بن عامر. قال: أخبرنا عبد الله أن يزدجرد الملك لمّا كان بأعلى الإيوان يوم خاض المسلمون الدجلة ورأى عبورهم والخيل لا ترجع والعرب لا تجزع والصحابة يتحدثون وهم في الماء كأنهم على الأرض أيقن بزوال ملكه وذهاب عزّه فنزل وهو يبكي، وأخذ من بيوت المال والخزائن من الثياب والآنية شيئًا لا قيمة له ولا يُعرَف له ثمن وترك ما بقي عنده من عدة الحصار من الزاد والبقر والغنم ومن كل الأطعمة والأشربة، وكان أول مَن دخل المدينة القصوى مسكن الملك، وهي إسبانير يعقوب الهذلي ومعه الكتيبة الخرساء كتيبة القعقاع بن عمرو فدخلوا يخترقون المدينة ولا يلقون أحدًا. قال فعزم سعد على الدخول في المدينة القصوى لمّا أمر زهرة بن الجويرية أن يذهب بعسكره ويتبع المنهزمين وسيّر كتيبة أخرى مع المرقال فلحق بحاجب بن حجاب بن كسرى فخاطبه بالفارسية. فقال: إن العرب قد عبرت إلينا ولم يعرفه فطعنه المرقال فقتله وأخذ غلمانه أسرى وموجودهم وأتى به إلى سعد. ويقال أحد مرازبة كسرى الكبار كان يوم دخول العرب المدينة داخلها وكان غير مكترث بهم فخرج إلى ظاهر داره ورجع يريد منزله وإذا بغلمانه وهم خارجون من الدار يهرعون وقد أخرجوا الأمتعة، فقال: ما لكم؟ قالوا: إن الزنابير قد غلبت على منازلنا فأخرجتنا قوة. قال واشتد الصياح والبكاء والعويل من أهل المدينة وهم يلطمون على وجوههم. فلما رأى المرزبان ذلك أخرج لامة حربه ولبسها وأتوه بجواده فشدّه وأسرجه فانقطع ثلاث مرات فمرّ به فارس من العرب فطعنه. وقال: خذها وأنا ابن المخارق ومضى عنه ولم يلتفت إلى سلبه. قال ودخل سعد يطلب الإيوان. فلما دخل المدينة

دخلها وهو يقرأ ﴿**وأورثناها قومًا آخرين**﴾ [الدخان: ٢٨]. فلما دخل الإيوان ترجّل وصلّى فيه صلاة الفتح ثمان ركعات لا يفصل بينهما واتخذه مسجدًا. قال وكان في الإيوان تماثيل وصور فتركوها على حالها. قال وأتمّ سعد الصلوات من يوم دخل الإيوان. فإنه أراد المقام بها وجمع وكانت أول جمعة صُلِّيت بالعراق وبالمدائن في شهر صفر. ثم إن سعدًا تحوّل من الإيوان بعد ثلاثة أيام إلى القصر الأبيض وأقام سعد على قبض أموال الغنائم عمرو بن عمرو بن مقرن وأمره أن يجمع ما في القصور والإيوان والخزائن والدُّور والأسواق وأن يحصيها، وكان أهل المدائن لما رأوا العرب في أرض واحدة خرجوا فرارًا وأخذوا معهم ما قدروا على حمله وما انفلت أحد منهم بشيء إلا وأخذه منهم المسلمون وأتوا به إلى سعد فتسلمه عمرو وصيّرها في جملة ما جمعوه من الأموال، وكان أول شيء جمعوه يومئذ بالقصر الأبيض، ثم منازل كسرى وسائر دُور المدائن. قال جهد بن صبار: دخلنا المدائن فمررنا بأبيار عليها أغطية من رصاص فظننا أنها طعام ففتحناها. فإذا هي أوانٍ من ذهب وفضة ورأينا كافورًا كثيرًا فحسبناه ملحًا فما اعتبرناه. قال وخرج زهرة في طلب المنهزمين فانتهى إلى جسر النهروان وإذا عليه كثير من الفرس بأعظم عدّة وأحسن زينة وهم يزدحمون على الجسر. قال ووقع بغل في الماء فتكاثروا عليه وصاح بعضهم على بعض. قال ووقع منهم بغل آخر فصاروا في هرج ومرج. فلما رآه المسلمون، قال زهرة: إن لهذا البغل لشأنًا وما تكالب عليه القوم وصبروا مع ما في قلوبهم من الخوف إلا لأمر عظيم. وقال: احملوا عليهم وابذلوا فيهم السيوف.

قال: فحملنا عليهم حملة صادقة فقتلنا منهم أُناسًا كثيرة وولّى الباقي منهزمين وأخذنا البغل، وإذا عليه حلّة كسرى وثيابه ودرعه ووِشاحه التي كان فيها الجوهر وكان يجلس بها للمباهاة. قال: فأتينا بها. قال سهل بن سابق: لمّا أخذنا البغل وأتينا به لم نَدْرِ ما عليه، وعن يعقوب عن جدّه. قال كنت مع مَن خرج في طلب المنهزمين، وإذ نحن ببغلين مع اثنين وهما يرميان كل مَن يقربهما بالنِّشاب ولم يجسر أحد أن يدنو منهما فقصدتهما وحملت عليهما وقتلتهما وأتيت بالبغلين إلى صاحب الأقباض وهو يكتب كل ما تأتي به العرب من سائر العراق. فلما أتيته بالبغلين، قال لي: على رسلك حتى ننظر ما معك. فحطّيت عنهما. فإذا في الحمل الواحد تاج كسرى وجواهره وفي الحمل الثاني ثيابه وهي موشحة بالذهب منظومة بالدرّ، وعن محمد بن طلحة والمهلب قالا: خرج القعقاع في طلب المنهزمين فلحق بفارس من الفرس، وهو يكرّ على قوم من المسلمين وقد جزعوا منه وما أحد منهم يدنو إليه فقصده القعقاع بشدة عزمه وقال له: دونك أيها الكلب اللئيم لقتالي وطعنه فقتله ووجد معه عيبات مغلقات ففتحوها. فإذا بالعيبة الواحدة خمسة أسياف وفي الأخرى خمسة أسياف محلاّة بالذهب ودروع كسرى من أيام غزواته

لهم، وأما السيوف فكانت سيف كسرى وسيف هرقل وسيف مهمود وسيف خاقان وسيف النعمان بن المنذر. فلما رآها سعد، قال: يا قعقاع خذ أيّ سيف شئت وجاهد به العدو فأخذ سيف هرقل وأعطاه درع بهرام جور، وأما بقية الأسلاب فأعطاها للكتيبة الخرساء إلا سيف كسرى والنعمان فأمسكهما لأمير المؤمنين يرسلهما مع الخمس والتاج والثياب. وعن رجل من الصحابة، قال: كنت مع الناس في طلب المنهزمين من خيل كسرى، فبينما أنا على طريق إذا برجل ومعه حمار وكان راكبًا عليه، فلما رآني ترجّل، وجعل يحثّ حماره على السير حتى انتهى إلى نهر قد خرب فلم يمكنه العبور فدنوت منه فأخذ يرميني بالسهام فزغت عن رميه وحملت عليه فقتلته وأخذت الحمار ووجدت آخر ومعه حمار فتركه وانهزم فأتيت بهما إلى صاحب الأقباض. فإذا على أحدهما فرس مصوغ بالذهب والفضة مرصّع بالدرّ والجواهر ولجامه كذلك وسرجه كذلك وعليه فارس كذلك، وإذا على الحمار الآخر ناقة من فضة وعليها كور من الذهب مرصّع ولها زمام من ذهب وكل ذلك منظوم بالياقوت وعليها رجل من ذهب مرصّع بالجواهر، وكان كسرى يضيفهما للتاج وكان يباهي بهما ملوك الأرض. وعن أبي عبيدة الهبري. قال: لمّا هبط المسلمون بالمدائن وجمع صاحب الأقباض الغنيمة وبقي الرجل يأتي بما معه فيدفعه إلى صاحب الأقباض، فقال صاحب الأقباض: ما رأينا مثل هذا قطّ. ثم قال للرجل الذي أتى بالحمارين: بالله عليك هل أخذت شيئًا منه؟ فقال: والله لولا الله لما أتيتكم بهما. فقالوا له: وما أنت؟ فقال: والله لا أُخبركم لتحمدوني، ولكن أحمد الله وأرضى بثوابه ومضى، فتبعه واحد من موالي صاحب الأقباض فسأل عنه. فقالوا: هذا عامر بن عبد القيس. قال: وبلغ الخبر سعدًا رضي الله عنه، فقال: أحلف بالله الذي لا إله إلا هو أننا ما اطّلعنا على أحد من أصحاب جيش القادسية يريد الدنيا ولقد اتهمنا ثلاثة نفر فاتبعناهم فعجزنا عن وصف أمانتهم وزهدهم، وهم طلحة بن خويلد الذي ادّعى النبوة بعد النبي ﷺ، والثاني عمرو بن معديكرب، والثالث هو قيس بن هبيرة.

قال: حدّثنا مَن شهد فتح المدائن، قال: خرجنا بعد فتح القصر الأبيض وكان قد تحصّن به رجال من المرازبة، وكانوا أشدّ جَلَدًا وأقوى عزيمة من جميع الفرس وتحالفوا أنهم لا يسلّمون أبدًا والذين حصلوا وتولّوا حصارهم كتيبة الأهواز وهي كتيبة القعقاع. فلما رأينا عزمهم على الموت بعدنا عن نشابهم وحجارة مجانيقهم وطال علينا ذلك وشكونا ذلك إلى سعد، وقلنا له: قد حرمنا الجهاد بحصارنا لهؤلاء الأعلاج، فقال سعد لسلمان: تقدم إليهم ودبّر شيئًا فيه مصلحة للمسلمين وأمّنهم فتقدّم إليهم سلمان وكلّمهم بالفارسية فأمسكوا عن رميه، وقالوا له: مَن أنت؟ فقال: أنا رسول من المسلمين اعلموا أن الرجل يقاتل عن نفسه وماله وولده إذا رجا الخلاص وما أرى لكم من خلاص قطّ، وهذا الملك قد انهزم وأخذنا مملكته وخزائنه وما بقي في المدائن أحد غيركم فاتقوا الله

في أنفسكم ولا تهلكوها وسلّموا لنا هذا الحصن ولكم الأمان إلى أيّ جهة توجّهتم لا يعارضكم منّا أحد. قال فلما سمعوا قوله قالوا: لا نسلّم حتى نهلك عن آخرنا، ثم رموا سلمان بالنشاب فقرأ **﴿وردّ الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيرًا وكفى الله المؤمنين القتال وكان الله قويًا عزيزًا﴾** [الأحزاب: ٢٥] وأشار إلى النشاب بيده فذهبت السهام يمينًا وشمالاً ولم يصبه منها شيء. قال: فلما رأوا ذلك، قالوا: زنهار فبحق ما تشير إليه مَن أنت؟ قال: أنا روزنة وقد عمّرت أربعمائة سنة ولحقت آخر أيام عيسى ابن مريم وطفت الأرض حتى لحقت بنبيّ هذه الأمة ﷺ. فلما أتيته أكرمني وخدمته فعظّمني حتى أنه جعلني من أهل بيته. فقالَ: «سلمان منّا أهل البيت»، فلما سمعوا قوله وحققوا معرفته علموا أنه كان من عظماء أهلِ دينهم. قال فصقعوا له وقالوا: والله ما نخفي عليك شيئًا من أمرنا وسبب قتالنا ليس بسبب مال ولا متاع، وإنما الملك قد مضى يريد نهاوند ولم يقدر على أخذ ابنته معه وهي مريضة وقد سلّمها إلينا فلزمنا من أمرها ما لزم، فإن كنتم تعطون الأمان عليها سلّمنا لكم وإلا نموت يدًا واحدة، فلما سمع سلمان منهم ذلك قال: دعوا هذا الأمر حتى أُشاور الأمير، ثم عاد وحدّث سعدًا بما سمعه. فقال: يا عبد الله إن المسلمين قد انتشروا في العراق ونخاف أن يقع بهم أحد فلا يبقى عليهم، ولكن قل لهم لكم علينا أن نذبّ عنكم وتكونوا في ذِمامنا حتى تجاوزوا أيّ جهة تريدونها، وبعد ذلك لا نضمن لهم ما يأتي عليهم. قال فحدّثهم سلمان بما قاله الأمير. فقال العقلاء منهم: لولا أن العرب على حق ما نصروا علينا ومن الرأي أن نرجع إلى دين هؤلاء العرب ونعيش في ظلهم، وأن القوم لا يريدون مُلْكًا وقد رأيت هذا الرجل وما ظهر لكم من كرامته. قال ففتحوا باب السرّ وخرجوا إلى العسكر وأتوا إلى سلمان فأتى بهم إلى سعد وأسلموا على يديه، فلما جرى ذلك بكى سعد. وقال: اللّهمَّ انصر الإسلام وقرأ قوله تعالى: **﴿وتلك الأيام نداولها بين الناس﴾** [آل عمران: ١٤٠] وبعث إلى صاحب الأقباض فأخذ جميع ما في القصر الأبيض من الأموال وخزانة الملك، فلما قسم الغنائم على المسلمين أعطى أولئك أوفى نصيب وأنزل كل واحد منهم في داره، فلما رأى أهل البلد ذلك منه وما صنع مع هؤلاء دخل في دين الإسلام منهم أُلوف اقتداء بالقوم.

قال الواقدي: حدّثنا موسى بن عبد الله عن عمرو عن جدّه يحيىٰ. قال: بلغنا غير هذا، وذلك أن هاشم بن عتبة تبع المنهزمين من جنود الملك، فانتهى سيره إلى مرج حلوان فالتقى بكتيبة من أهل فارس بالعدد والسلاح والهوادج والخدم والجواري والمماليك وقد داروا بمحفة من العود الرطب وعليها من الثياب الملوّنة المذهّبة وأهلّتها من الذهب مرصّعة بالجواهر وقاتلوا دون المحفّة قتالاً شديدًا، وكانت المحفّة لشاهران ابنة الملك يزدجرد بن كسرى، وكان السائر بها ساقر بن هرمز، فقتله وقتل أصحابه أكثر ما كان مع ساقر . . . وولّى الباقي منهزمين وتسلّم هاشم المحفّة وما حولها وأتوا بذلك

كله إلى سعد وأعلموه بأن ابنة كسرى معهم، فقرأ سعد قوله تعالى: **﴿قل اللَّهمَّ مالك المُلْك﴾** [آل عمران: ٢٦] الآية، ثم أشرف سعد على ما بقي من الخزائن فوجد صندوقًا عظيمًا ظاهره وباطنه بالديباج المذهّب وفي داخله بساط كسرى وهو البساط الذي كان يفتخر به على الملوك ملوك الدنيا، كله ذهب منسوج بالحرير منظوم بالدرّ واليواقيت الملوّنة والمعادن والجواهر المثمّنة والزمرّد، وكان طوله ستين ذراعًا قطعة واحدة في جانب منه كالصور، وفي جانب كالشجر والرّياض والأزهار، وفي جانب كالأرض المزروعة المقبلة بالنبات في الربيع، وكل ذلك من الحرير الملوّن والمعادن على قضبان الذهب والزمرّد والفضة، وكان الملك لا يبسطه إلا في أيام الشتاء في إيوانه إذا قعد للشراب، وكانوا يسمّونه بساط النزهة والمسرّات، فيكون لهم شبه الروضة الزهراء، فلما رآه العرب قالوا: والله هذه قطيفة زينة. قال: ولمّا قسم سعد على الناس الغنائم أصاب الفارس اثنا عشر ألف دينار وكلهم كانوا فرسانًا ولم يكن فيهم راجل، وأخرج للغائبين مع النساء والحريم في الحيرة نصيبهم، وقسم الدُّور بين الناس وكان قد ولّى القبض عمرو بن عمرو المدائني، وولّى القسمة سليمان بن ربيعة، وكان فتح المدائن في شهر صفر، وأخرج الخمس لعمر بن الخطاب رضي الله عنه، وأراد أن يقسم البساط، فلم يدرِ كيف يقسمه، فقال سعد: معاشر المجاهدين إني رأيت من الرأي أن نرسله إلى عمر ليصنع فيه ما يختاره فأجابوه على لسان واحد نِعْمَ ما رأيت أيها الأمير فردّوه إلى صندوقه وأضافه إلى الخمس، وكتب إلى عمر رضي الله عنه يقول: بسم الله الرحمٰن الرحيم، إلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه، من عامله على العراق سعد بن أبي وقاص، أما بعد: فسلام عليك وإني أحمد الله الذي لا إلٰه إلا هو وأُصلّي على نبيّه محمد ﷺ على ما منحنا الله الظفر على العدو الذي أطاع شيطانه وأرخى في ميدان الغيّ عنانه، وقد أجرانا الله سبحانه على جميل العادة، وأخذنا المُلْك من يزدجرد بن كسرى في كثرة أطواده واحتزاز رؤوس أجناده الذين جاست الهيبة ديارهم، وضربت الملائكة وجوههم وأدبارهم، **﴿ذلك بأن الله مولى الذين آمنوا وأن الكافرين لا مولى لهم﴾** [محمد: ١١]، وقد انهزم عدوّ الله بعدما قتلنا جنده وأخذنا ابنته وإننا منتظرون أمرك فيما يكون بعد هذا، ونحن مُقيمون على المدائن، والسلام عليك وعلى جميع المسلمين ورحمة الله وبركاته، وسلّم الكتاب والمال إلى بشر، وضمّ إليه خمسمائة فارس، وسلّمه ابنة كسرى بمحفّتها وخدمها، ثم إن سعدًا رأى رأيًا أن يسير بشيرًا يبشّر عمر بفتح المدائن وبقدوم الخمس وبما أنعم الله على المسلمين ليكون أزيد هيبة وبهجة بالفتوح، فأرسل جيش بن ماجد الأسدي أو ابن هلال والله أعلم فخرج على ناقته وقصد المدينة يجدّ السير. قال وكان عمر رضي الله عنه في كل يوم بعدما يصلي الصبح يقرأ ما تيسر، ويركب ناقته ويتوجّه نحو طريق العراق ويرتقب ما يَرِد عليه من أخبار المسلمين.

قال: فخرج على حسب العادة وإذا هو بجيش قد أقبل على ناقة، فلما رآه عمر قصده وقال له: يا عبد الله من أين أقبلت؟ قال: من المدائن يا أمير المؤمنين. قال: فما عندك من الخبر أقرَّ الله عينك وغفر لنا ولك؟ قال: أبشر يا أمير المؤمنين بالفتح العميم والسعد الجسيم، وإن الله سبحانه وتعالى قد هزم جند المشركين وقطع دابر القوم المجرمين وأخلى منهم ديارهم وأخفى آثارهم، وزعزع مراكبهم وطحطح مواكبهم وكتائبهم، وشتّت جموعهم، وأخلى ربوعهم، وقصم آجالهم، وفرّق أحوالهم، وترك مساكنهم خالية وأوطانهم خاوية. قال فلما سمع عمر رضي الله عنه هذا المقال، حمد الله وأثنى عليه وقال: خذلوا من مأمنهم وسار وهو يحدّثه بفتح المدائن حتى دخل المسجد وتسامع الناس، فأتوا حتى غصّ المسجد بالناس وأقبل جيش يحدّثهم وهم يُكثِرون الثناء على الله ويصلّون على النبي ﷺ، وبعدها وصل بشر بالمال ومعه ابنة الملك كسرى ولباسه وسلاحه وبساطه، فلما نظر عمر إلى ذلك قال: إن الذي أهدى إلينا هذا لأمين. فقال عليّ كرّم الله وجهه: إنك عففت فعفّت الرعية، فحمد الله وأثنى عليه وأفرز من الخمس سهم مَن غاب من المسلمين وقسم الخمس في مواضعه، ثم قال: أشيروا عليّ فيما أصنع في هذه القطيفة ـ أعني البساط ـ؟ فقالوا: رأيك أعلى. فقال عليّ كرّم الله وجهه: لم يدخل عليك جهل ولا تقبل شكًّا، وإنه ليس لك من الدنيا إلا ما أعطيت فأمضيت، ولبست فأبليت، وأكلت فأفنيت. قال: فوالله لقد صدقني يا أبا الحسن، ثم إنه قسم البساط قطعًا بين الناس، قال: فأصاب كل رجل منهم قطعة فباعها بنحو العشرين ألف دينار، فلما فرغ من توزيعه وتوزيع مال الخمس، دعا بمحكم بن رواحة وكان من أجسم أهل المدينة وأجفاهم خلقة فألبسه زيّ كسرى ووشاحه وتاجه وسواريه ومنطقته وحلاّه بحليته وعصابته وسيفه وسلاحه وعدّته، ونظر الناس إليه كأنه كسرى في ملكه، فقال عمر رضي الله عنه: اعتبروا بالدنيا وتقلباتها بأهلها وما يرى من مصائبها وعطبها، هذا كسرى ما زال يفتخر على ملوك الدنيا بكثرة أمواله وذخائره وجواهره وعزّه وجنوده، ولم يقدّم لنفسه شيئًا ينفعه عند الله وغرّته الأماني الكاذبة، فأخذه الله من مأمنه وبقي مرتهنًا بما اكتسب في دينه ودنياه، ثم قال: أيها الناس هذا ملك المدائن، قد انتقل عن أصحابه وتوزّع بين أربابه، أين تلك الحشمة والسلطان، أين الجنود والأعوان، أين الغلمان، أين المماليك والخدّام، أين التاج والإكليل، أين الجيش والفيل، أين الصاحب والخليل؟ وقرأ قوله تعالى: ﴿**قل متاع الدنيا قليل**﴾ [النساء: ٧٧]، ثم قال: أيها الناس مَن له منكم يد سابقة فليقم فقام عبد الرحمن بن أبي بكر الصديق رضي الله عنه فقال: أنا يا أمير المؤمنين ابن الصاحب والخليل وابن أول مَن آمن ووزر وصدق رسول الله ﷺ ونصر وأنفق ماله وتصدّق ودخل معه الغار وانتصر وجاهد بين يديه وحاجج من كفر وجادل وافتخر وأنزل الله فيه ﴿**لا يستوي منكم مَن أنفق من قبل الفتح وقاتل**﴾ [الحديد: ١٠].

فقال عمر رضي الله عنه: والله لقد صدقت وبقليل من فضله قد نطقت. ثم أمر له بخلعة وعشرة آلاف درهم. ثم قال: أيها الناس مَن يقم منكم؟ فقام عثمان بن عفان وقال: أنا مَن جهّز جيش العسرة وحفر بئر رومة وألّف القرآن وجمعه وختمته في ركعتين وتزوّجت الابنتين وصلّيت إلى القِبلتين وأنفقت المال في حبه وأنزل الله في حقي **﴿أم من هو قانت آناء الليل ساجدًا وقائمًا يحذر الآخرة ويرجو رحمة ربه﴾** [الزمر: ٩]. فقال عمر رضي الله عنه: أحسنت يا أبا الفتيان فمثلك مَن رفض الكذب وأبان الحق وأمر له بعشرة آلاف درهم، ثم إنه نظر إلى الأخوين الزاهدين والغصنين النضرين، سيدي شباب أهل الجنة وريحانتي نبي هذه الأمة وقال لهما: يا حبيبي ما الذي أخّركما من مثلكما يفتخر وقال: ألستما سبطي الرسول، أليست أُمّكما فاطمة البتول، أليس أبوكما سيف الله المسلول، أليس في بيتكما نزل التأويل، أليس كان سادسكما تحت العباء جبريل، أليس فيكما أنزل الله الجليل **﴿ما على المحسنين من سبيل﴾** [التوبة: ٩١]؟ فإن افتخرتما فلكما الفخر البليغ، ثم أمر لكل واحد منهما بعشرين ألف درهم فقال عليّ: لله درّك يا عمر ومَن مثلك تكلم ونشر ومدح أهل البيت وأثنى وذكر خيرًا وشكر، ثم قال: أيها الناس مَن كان لأبيه سابقة فليقم.

فقام عبد الله بن عمر رضي الله عنه وقال: يا أبت أما أنا ابنك وأنت أبي لك الفضائل والحمد والافتخار في الأمة، وذلك الوقار والرجاحة والفصاحة والنصاحة نصرت الإسلام والمرسلين، واتّبعت سُنن سيد المرسلين، وأنزل في حقك أرحم الراحمين **﴿ياأيها النبي حسبك الله ومَن اتّبعك من المؤمنين﴾** [الأنفال: ٦٤] وأنت الذي أظهرت الإسلام جهرًا وقلت: لا يُعبَد الله سرًّا. فقال عمر: يا بني الشقي مَن يغترّ بالدنيا الساحرة، والسعيد مَن يعمل للآخرة، وقرأ **﴿مَن عمل صالحًا فلنفسه ومَن أساء فعليها﴾** [فصّلت: ٤٦]، ثم أمر له بألف درهم. فقال: يا أبت أنا هجرت وأنفقت ونصرت وزعزعت مواكب الروم وما قصّرت وتأمر لي باليسير من مال الله الكثير وتعطي هؤلاء ما أعطيت؟ فقال: يا بني اسلك طريق الإنصاف ولا تتبع الإسراف، وأنا أقول لك إن كان لك جدّ كجدّهما أعطيتك أو أُم كأُمهما وفّيتك، وإن كان لك أب كأبيهما أرضيتك، يا بني كل نسب يضمحل يوم القيامة ويخفى إلا نسب البتول، ولما فرغ من ذلك أمر بابنة كسرى أن يوقفوها، فأُوقفت بين يديه وعليها من الحليّ والحُلل والزينة والجواهر شيء كثير، وأمر أن يُنَادى عليها، فقال للمنادي: أزِل عنها هذا القناع ليُزاد في ثمنها، فتقدّم إليها المنادي ليُزيل عنها ذلك فامتنعت وضربته في صدره، فغضب عمر وهمّ أن يعلوها بالدرة وهي تبكي. فقال عليّ كرّم الله وجهه: مهلاً يا أمير المؤمنين فإني سمعت قول رسول الله يقول: «ارحموا عزيز قوم ذلّ وغني قوم افتقر» فسكن غضب عمر رضي الله عنه ونظر إليها فرآها تحدّق بالنظر إلى الحسين بن علي رضي الله عنه. فقال عمر رضي

الله عنه: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «اتّقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله» وإني أرى هذه الجارية تحدّق بنظرها إلى الحسين بن علي وما خَفِيَ عليّ أنها أرادته من دون الناس أجمعين لأنه ليس فينا أصبح وجهًا منه، ثم قال: يا أبا عبد الله خذها هدية مني إليك فشكره عليّ ومَن حضر من المسلمين.

قال الواقدي: قال يونس بن عبد الأعلى حين قرأت عليه في المسجد الأقصى في شهر ربيع الأول سنة مائتين وتسعين من الهجرة حدّثنا عدنان بن ماجد الغنوي قال: لمّا انهزمت الفرس من المدائن واستولى عليها سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه وكان من أمره ما ذكرنا استقر قراره بالقصر الأبيض، جلس حيث كانت الأكاسرة تجلس فلبس عند ذلك ثياب النُّسك والخشوع وتسربل بسربال الخضوع وعلم أن الدنيا أضغاث أحلام وأن الآخرة هي دار المقام، وكلما نظر إلى آثار الأكاسرة وملكهم ازداد يقينًا ودينًا على دينه. قال وأنشد عاصم بن عمر في ذلك بعد فتح المدائن يقول:

شهدنا بعون الله أفضل مشهد ... بأكرم مَن يقوى على كل موكبِ
ركبنا على الجرد الجياد سوابحًا ... بكل قناة بل بكل مقضب
وكنّا بعون الله لا نرعوي إذا ... تبادر طعن كالغمام المشطب
وكان جهاد قد ملكنا بأمره ... من الملك مستعلي البناء المذهّب
ترانا وإنّا في الحروب أُسودها ... لنا العزم لا يخفى لكل مجرب
نجول ونحمي والرماح شوارع ... ونطعن يوم الحرب كل مخبب
قَدِمنا على كسرى بشدة حربنا ... وما حربنا في النائبات بمختبي

ذكر فتوح مدينة نشاور، وهي آخر فتوح العجم والعراق

قال الواقدي: وكان من قضاء الله وقدره أن ابن كسرى لمّا انهزم من المدائن مضى إلى حلوان وانضاف إليه كل مَن وصل إليه من المنهزمين من الأساورة والمرازبة والديلم وغيرهم فقام فيهم خطيبًا وذكر زوال مُلْكه وأسر ابنته وخزائنه وأمواله وبكى وبكت أرباب دولته، ثم قال: يا أهل فارس إن الدنيا دنية الفعال، سريعة الزوال، قريبة الارتحال، وهذا مُلككم قد زال، وعزّكم قد حال، ودياركم قد سُبِيَت، والعرب قد استولت على العراق ولا بدّ لهم منكم ولا غنى لهم عنكم وستنظرون خيلهم، وقد طلبت خراسان والريّ وهمذان، وما بقي لكم جهة تتوجهون إليها إلا بلاد آبائكم وأجدادكم فانتبهوا وانتهزوا الفرصة وأزيلوا الغصة وأدركوا ما بقي من أيامكم ولا ترتدّوا على أدباركم، وقد بلغني أن الدنوس العادي بن هر بن كيقباذ بن يزدجرد التقي هو والإسكندر بن القليس الرومي

ما زالا يقاتلان ويقتتلان حتى قتل أحدهما فشمّروا أنتم عن ساق الجدّ ودونكم والقوم هذه الكَرَّة إما لكم وإما عليكم فلعل النار والنور ينصرانكم وأنفق فيهم ما كان معه فاستعدّوا للقاء، وأخذوا على أنفسهم وضربوا خيامهم في مرج حلوان وجاء علماء دينهم وأوقدوا لهم النار وقرّبوا لها القربان وتحالفوا أن لا ينهزموا ولو ماتوا عن آخرهم، قال ومضت نساؤهم وبنات ملوكهم وأبطالهم الذين قتلوا في الثياب ملطخات بالدماء وهنّ يستفززن الجيوش والعساكر من بلاد العجم وغيرها، قال: وإن الحجّاب والمرازبة والأساورة تعاهدوا على أن لا يفرّوا أو يموتوا عن آخرهم.

قال الواقدي: حدَّثني محمد بن عاصم بالكوفة بعدما أخذها المسلمون. قال: لمّا فتحت المدائن وأخذها المسلمون وطنًا فما كان دأبهم إلا أن يحفروا دُور الفرس ويُخرِجوا خباياهم وأموالهم قال عبد الله بن جحفة: حضرت العرب وقد أخرجوا من إزاء القصر الأبيض من مصنع هناك للفرس الأكاسرة تمثالاً من الذهب على صفة الفارس، وقد سكبوا عليه الماء حتى غار في الأرض، وكانت ملوك الفرس يفتخرون بذلك على سائر الملوك، فوالله لو قسم ذلك على عرب بكر بن وائل لكان يسدّ منهم مسدًا وجاءت عيون المسلمين إلى سعد وأخبروه بما فعل القوم واجتماعهم في مرج حلوان في مائة ألف، وقد وجّهوا أثقالهم وما يعزّ عليهم في الجبل وهم يطلبون لقاءكم. قال واجتمع المسلمون في الإيوان وقالوا: أيها الأمير إن العدو قد اجتمعوا بمرج حلوان وتعاهدوا على أن لا ينهزموا أبدًا ويموتوا عن دم واحد يريدون مدائنهم. قال فكتب سعد إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه يعلمه بذلك ويقول له: إن أهل الموصل قد مات ملكهم الأنطاق وقد تولّى عليهم الشكان بن قالوص وارتدّوا عن صلحنا وعوّل ملكهم على أن يكون عونًا لأهل فارس علينا والسلام عليك وعلى جميع المسلمين ورحمة الله وبركاته، فلما وصل الكتاب إلى عمر أرسل يقول له: يا سعد اعلم أن الله مُنجِز وعده. وبعث إليه هاشم بن عتبة في اثني عشر ألف فارس من المهاجرين والأنصار ألفان والبقية من العرب.

قال: وإن ابن كسرى لمّا حصّن حريمه وأمواله في الجبل أمّر على عسكره مهران الداري ووصّاه وسار مهران بالعسكر فركب معه ابن كسرى مقدار ميل وودّعه ورجع إلى حلوان والمدد يأتي إليه من سائر بلاد العجم. قال ووصل مهران إلى مدينة نشاور ونزل بها في دار الولاية وأقام بها، فلما كان الغد ركب في وجوه قومه ودار بهم على أسوارها وأبوابها وأمر بتحصينها في علوّ سورها ونصب آلات الحصار بالعرادات والمجانيق وحفر خندقًا عميقًا وصنع حسكًا من الحديد وجعله حول المدينة والخندق وما خلي من أهل البلد صغيرًا ولا كبيرًا حتى استعمله في السور والخندق وادّخر القوت وعلف الخيل وما

يحتاجه للحصار واستوثق من أهل البلد الكبير والصغير منهم وأخذ رهائنهم وحلفهم على أن لا ينهزموا أبدًا. قال: فلما اتفق ذلك كله أقام ينتظر قدوم المسلمين. قال: وأما هاشم بن عتبة فإنه سار في اثني عشر ألف مجاهد حتى أشرف على مدينة نشاور فوجدها محصنة بالعدد والعدو قد أظهر الزينة والسلاح على الأبراج بالدروع والجْواشن والمجانيق والعرادات والبيارق والأعلام ووضعوا في أركان المدينة على الأبراج قباب حديد ليضرموا فيها النار ويستنجدوا لها ويستنصروا بها على العرب، فلما أشرف عليهم عسكر هاشم بن عتبة ضجّوا بكلمة كفرهم وأشاروا إلى الشمس والنيران يسجدون لهما قال: والأرض ترتجّ من تحتهم والسماء ترعد من فوقهم والأكوان تسترجع وتصيح في هلاكهم فنودوا من قبل الله أن اسكنوا عن اضطرابكم فأنا الحليم الذي لا أُعجّل على مَن عصاني، ولا أُخيّب مَن دعاني، أنا الذي تسبّح لي السمٰوات ومَن فيها، والأرضون بنواحيها، وقد سبق في علمي أن أطهّر هذه الأرض من الأرجاس وأُبدلها بمَن قلت فيهم **﴿كنتم خير أُمة أُخرجت للناس﴾** [آل عمران: ١١٠] أنا الذي أُمهل ولا أُهمل وعزّتي وجلالي لأُطهرن هذه الأرض من الكَفَرَة الملحدين والفئة المفارقين، ولأُبدلنّ بيوت النار بمساجد أُذكر فيها آناء الليل وأطراف النهار يعمّرها رجال قد أحسنوا الظنون وذكرتهم في الكتاب المكنون **﴿ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادي الصالحون﴾** [الأنبياء: ١٠٥].

قال الواقدي: حدّثنا عمرو بن ربيعة الشيباني. قال: أخبرنا أحمد الطويل قال: لمّا نزل هاشم بن عتبة على مدينة نشاور بمَن معه من المسلمين لم يلتفتوا إليهم ولم يكترثوا بهم وأروهم التجلّد والشدة وجعلوا يطاولونهم ولا يخرجون إليهم فصعب ذلك على المسلمين والمدد واصل إليهم من عند يزدجرد بن كسرى فاشتدت قلوب أعداء الله فقالوا لمهران الداري: أيها الصاحب ما الذي تنتظر بنا في قعودنا ومقامنا من وراء السور، وقد اشتقنا إلى القتال فاخرج بنا إلى هؤلاء القوم فقد ضاقت صدورنا وضاقت بنا المدينة وهذه الشمس المنيرة تنصرنا وتظفرنا على أعدائنا وكذلك النار والنور، فلما رآهم معوّلين على القتال أمرهم بالخروج وجعل على خيله جوزان بن جهران وأمره أن يزحف بالجيش، فلما فتح باب المدينة وخرج الفرس فرح المسلمون بذلك وتبادروا إليهم بأسرار صافية وهِمَم وافية يطلبون القتال في مرضاة الله ذي الجلال، وأنفسهم لذلك مستبشرة نازحة وهِمَمهم إلى الحرب مسرعة فادحة وقد سئموا من سكنى دار الغرور، واشتاقوا إلى سكنى القصور، ومعانقة الحور، وقالوا: إلٰهنا قد سئمنا من هذه الدار، واشتقنا إلى دار القرار، ومجاورة المختار، فأنجزنا ما وعدتنا، وسامحنا إذا توفّيتنا، وأجِرنا من عذاب النار، واحشرنا مع الكرام الأبرار، الذين قلت في حقهم: **﴿والملائكة يدخلون عليهم من كل باب سلام عليكم بما صبرتم فنِعْمَ عقبى الدار﴾** [الرعد: ٢٣، ٢٤].

قال: ولمّا ركب المسلمون جعل على مقدمة الخيل طلحة بن خويلد وبقي هاشم على الساقة. فقال: أيها الناس والله لا تُنال الجنة إلا بحُسن الأعمال فاتركوا من قلوبكم الميل إلى دار اللهو والأهوال، والمقام في دار الزوال. جاهدوا لتدخلوا جنة عرضها السمٰوات والأرض فهذه نار الحرب قد فاض تيارها، وعلا دخانها، وصفقت أمواجها، وبَدَا فجاجها فاركبوا فيها سفينة النجاة والأنجاد، واقطعوا بشراع الاجتهاد هذا الطريق وانشروا أعلام الصدق. قال وقد اصطفّت عساكر العجم ودقّت بوقاتها، ونشرت ازدهاراتها فهم كذلك إذ أقبل عليهم ملك الريّ في اثني عشر ألف فارس، فلما رأى هاشم ذلك قال: يا فتيان العرب لا تنظروا إلى كثرتهم وقلّتكم فقد كان المصطفى ﷺ يوم بدر في ثلاثمائة وثلاثة عشر رجلاً وخذل الكافرين، وقد كانت قريش في حدّها وحديدها وعددها وعديدها، ونصر الله نبيّه ورسوله، قال الله تعالى: **﴿كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله والله مع الصابرين﴾** [البقرة: ٢٤٩] وإذا بالخيل قد حملت عليهم كأنهم السيل. فقال هاشم: أخلصوا النيّات ولا تولّوا الأدبار، واعلموا أنه قد تولّى عليكم الجبار. قال وأطبق الناس بعضهم ببعض وساروا بين البسط والقبض وازدحمت الأمم وقامت الحرب على قدم، وقاتلت أبطال العجم وضربت بحِرابها، ورَمَت بصِفاحها، وفوّقت بسهامها، وأظلم الجو من الغبرة في الآفاق، واعتمدوا على الضرب بالأسياف الرقاق، وطعنت العرب بالرماح الدقاق، وقلعت عرب اليمن بنبالها الأحداق، ودنت الأعمار إلى المحاق، وبلغت الأرواح التراق، وعظم الأنين والزعاق، وصبرت الأعاجم على ما لا يطاق، وسقاهم العرب من أسِنّة رماحهم كأس الفراق، ولم يزالوا في القتال إلى أن ذهبت الأنوار وجاء الليل ومضى نور النهار، وفي آخر يوم قَدِمَ القعقاع بن عمرو ومعه اثنا عشر ألف فارس فقويت قلوب المسلمين بقدوم عساكر الموحدين وأعلنوا بكلمة التوحيد فدوّت من أصواتهم الجبال والتلال والرمال والحجر والشجر، فلما سمع أعداء الله ما نطقوا به ارتعدت فرائصهم فاستقبلوهم بنيّات صادقة، وهِمَم متوافقة، وأعلنوا بذكر كلمة الحق والصلاة على سيد الخلق فبذلوا صوارمهم في الأعداء، وأوردوهم شراب الردى، وقصدوا نحو أعدائهم وطلبوا بجهادهم منازل الجنة وطلّقوا الدنيا بتاتًا، وعلموا أنهم يصيرون أمواتًا، وصاروا بعد الإلفة أشتاتًا، فوقعت الهزيمة على عسكر العجم وحمل المسلمون في آثارهم وخذلهم الله فقتلوا مَن قتلوا وأسروا مَن أسروا وهرب الباقون وأخذ المسلمون مدينة نشاور وغنموا ما فيها من الأموال، وكان شيئًا لا يقع عليه حصر وأقاموا فيها وبنوا الجامع وذكروا الله فيه ذكرًا كثيرًا وأكمل الله لهم فتوح العراق، وكتبوا بذلك كتابًا إلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه يعلمونه بذلك وبعثوا الخمس فوصل ذلك إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه فسُرَّ بذلك سرورًا عظيمًا فحمد الله تعالى كثيرًا وسُرَّت المسلمون سرورًا

زائدًا على ما فتح من بلاد كسرى وأعمالها على يد سعد بن وقاص واستوطنوا البلاد رضي الله عنهم أجمعين.

ذكر فتوح البهنسا وأهناس وأعمالها وفضائل جبّانتها

بسم الله الرحمٰن الرحيم، الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله ﷺ. اعلم وفّقك الله أن مدينة البهنسا ذكر بعض المفسّرين أن الله سبحانه وتعالى ذكرها في كتابه العزيز بقوله عزّ وجل في حق عيسى عليه السلام: ﴿**وجعلنا ابن مريم وأمه آية وآويناهما إلى ربوة ذات قرار ومعين**﴾ [المؤمنون: ٥٠] قال: هي أرض البهنسا، وكان من أمر عيسى عليه السلام ما سنذكره إن شاء الله تعالى، واستشهد بها زهاء من خمسة آلاف من أصحاب رسول الله ﷺ منهم من الأعيان والأمراء زهاء من أربعمائة، ويتبعهم من الأشراف والصحابة نفر كثير، منهم علي بن عقيل بن أبي طالب والحسن بن صالح بن الحسين بن علي بن أبي طالب الذي عمّر جامعًا بها، وكان من أمره ما سنذكره إن شاء الله تعالى وزياد بن أبي سفيان بن الحرث بن عبد المطلب والفضل بن العباس عمّ رسول الله ﷺ، وسنذكر مَن استشهد من الصحابة الأعيان بها إن شاء الله تعالى عند الفتوح وأبنائهم وجماعة كثيرة، وذكر جماعة من السادات الأخيار أن مَن زار جبّانة البهنسا خاض في الرحمة حتى يعود ومَن زارها خرج من ذنوبه كيوم ولدته أُمه وأنه لا يزورها مهموم إلاّ فرّج الله همّه، ولا مغموم إلا أذهب الله غمّه، ولا صاحب حاجة إلا قضيت بإذن الله عزّ وجل، والأماكن المُستجاب فيها الدعاء منها عند مجرى الحصى ومقطع السيل وأن هناك خلقًا كثيرًا من الشهداء، ومشهد الحسن بن صالح بن الحسين بن علي بن أبي طالب، وعند قبر زياد بن أبي سفيان بن الحرث، وعند قبر عبد الرزاق من داخل الباب، وعند معبد عيسى ابن مريم عليهما السلام، وعند قبور الشهداء بسفح الجبل، وقبليها مكان يُعرَف بالمراغة قبل الجبّانة عندها قبور الشهداء هناك بسفح الجبل.

روى جماعة من الصالحين أنهم قد جاوروا الجبّانة المذكورة، وكانوا من أرض المشرق وجماعة من أكابر الصالحين من أرض المغرب من أقصى الأندلس وأنهم رأوا هذه الفضائل وبانت لهم فضائل وأنوار وشاهدوا ذلك عيانًا، وروى أصحاب التاريخ رضي الله عنهم أنه لم يكن بأرض مصر من البحيرة مشهد أكثر من أرض البهنسا وأن مجرى الحصى عند منقطع السيل من الجهة الغربية قتل هناك خلق كثير واستشهد بها أربعمائة رضي الله عنهم أجمعين، وسنذكر ذلك عند الفتح إن شاء الله تعالى. أما فضائل البحر اليوسفي الذي المدينة على جانبه فهو أكثر عجائب، منها أنه غزير البركة لأنه يفيض حتى يروي ما حوله من القرى والبلدان مع قليل من زيادة النيل. ومنها أنه إذا زاد النيل شيئًا قليلاً يُزاد فيه شيء كثير، ومنها أنه إذا انقطع عنه مدد النيل تفجّرت من أصله عيون

فصارت نهرًا جاريًا وهذا لا يوجد بغيره أبدًا من الأنهار، ومنها أنه ينقسم بأرض الفيّوم ماء يسير فيروي زراعات وأراضي شتّى وضياعًا وهذا لا يوجد لغيره أبدًا، ومنها أنه دفن فيه يوسف الصدّيق عليه السلام وأقام إلى زمن موسى عليه السلام فازداد بذلك بركة ومنها أنه شقّه جبريل عليه السلام بخافقة من جناحه بأمر الله عزّ وجل للسيد يوسف عليه السلام وحسدهم العمالقة على ذلك، وقد ذكرت الرواة أنه كان بين يوسف عليه السلام وبين صاحب مصر كلام بعد فراغ السنين المجدبة، فإنه لمّا اجتمعت بنو إسرائيل عند يوسف عليه السلام وحسدهم العمالقة على ذلك وذكروا ذلك لملك مصر.

فقال ملك مصر: يا يوسف رُدَّ عليّ مُلكي فاجتمع رأيهم على الفرقة والقسمة فقسمت الأرض ـ أي أرض مصر ـ، فوقع الجانب الغربي ليوسف عليه السلام، وكان قَفْرًا رمالاً وتلالاً، فأراد أن يجري له نهرًا من النيل، فجمع له مائة ألف عبد ودفع لهم المساحي والزنابيل وأمرهم أن يحفروا من الجهة القبلية عند فمه الآن فحفروا ثلاث سنين، وقد أجرى لهم مؤنة من خزائنه، فكان كلما جاء الليل سدّ ما حفروا ففعل من الجهة الشرقية كذلك إلى سبع سنين حتى أعياه ذلك، وقلق قلقًا شديدًا فأوحى الله إليه يا يوسف قد استعنت برجالك ومالك، ولم تستعن بي وعزّتي وجلالي لو استعنت بي لحفرته لك في أقل من طرفة عين فخرّ ساجدًا لله تعالى وهو يقول: سبحانك ما أعظم شأنك وأعزّ سلطانك، ثم قام من سجوده ونزع أثوابه واغتسل ولبس المُسوح وخرج إلى الربوة وخرّ ساجدًا متضرعًا إلى الله تعالى فأوحى الله إليه ارفع رأسك فقد قضيت حاجتك، ثم أمر الله سبحانه وتعالى جبريل عليه السلام فخرقه بخافقة من جناحه، وقال بعضهم بطرف ريشة من جناحه من فمه من الجهة القبلية إلى آخر الفيّوم في أقل من طرفة عين بقدرة الله تعالى، فعمّر يوسف عليه السلام قناطر وبنى مدينة الفيّوم وقسم الأرض بينه وبين إخوته وبنيه فكانت أرض البهنسا لأفرائيم بن يوسف، فشرع في عمارتها وقطعت الأحجار وعمرت الأسوار والقناطر، وكان النهر يجري من وسطها من الجهة القبلية، ثم يخرج من الجهة البحرية إلى زمن الإسلام وسنذكر ذلك في الفتح إن شاء الله تعالى، وكان لها من الأبراج والرساتيق ما لا يوصف وسكنها جماعة من بني إسرائيل واتخذوا دُورًا ومساكن، وذلك جميعه غربي مصر، وأرض البهنسا إلى آخر الصعيد من الجهة الغربية كلها مختصّة ببني إسرائيل لا يشاركهم فيها أحد غيرهم، وجعل يوسف عليه السلام هؤلاء العبيد خولة فلاحين وزراعًا بأرض البهنسا والفيوم وغيرها. وشرع في عمارتها وغرست فيها الأشجار على جانب البحر اليوسفي من الجهة الشرقية والغربية، وكانت المرأة تخرج بمِكتلها ومغزلها في يدها والمِكتل على رأسها فلا ترجع إلا وقد امتلأ من جميع الثمار من غير أن تمسّ شيئًا بيدها فلما عصت بنو إسرائيل وجحدوا نعمة الله عزّ وجل وعملوا المعاصي نزع الله تلك النعمة من أيديهم وأعطاها لغيرهم، فاحتووا

على الملك دونهم بجحودهم نعمة الله وقتلهم أنبياء الله الذين يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر حتى اتخذوهم أذلّة بعد أن كانوا سادات واستعملوهم خولة وفَعَلَة وبنّائين وحجّارين ونجّارين واستخدموا نساءهم وأبناءهم، ولم يزل بنو إسرائيل في أضيق عيش وأعظم بلاء وأشد كربة وأعظم بليّة من تكليف ما لا يطيقون حتى أنقذهم الله عزّ وجل بمبعث موسى عليه السلام، وليس هذا الكتاب مختصًا بذلك، واحتووا على المدائن والمزارع والبساتين.

ذكر خروج عيسى عليه السلام من مصر وإقامته بأرض البهنسا

قال الله تعالى: ﴿**وجعلنا ابن مريم وأمه آية وآويناهما إلى ربوة ذات قرار ومعين**﴾ [المؤمنون: ٥٠] الآية، وتقدم أنها البهنسا على اختلاف المفسرين. قال أصحاب التواريخ، وهم المسعودي وأبو جعفر الطبراني والواقدي وابن إسحٰق وابن هشام وأصحاب السِّيَر وأهل التفسير مثل سعيد بن جبير وسعيد بن المسيب وابن عباس، ومَن تكلم في هذا الكتاب العجيب الذي لو كتب بالذهب لكان قليلاً وقد جمع فيه كتب كثيرة وتواريخ وتفاسير وفتوحات. قالوا: كان مولد عيسى لمضي اثنتين وأربعين سنة من ملوك الطوائف وكانت الرياسة بالشام ونواحيها لقيصر ملك الروم وهرقل كما تقدم في فتوح الشام وكان بالبهنسا قنطاريوس، والله أعلم باسمه، فلما سمع الملك هيردوس بخبر المسيح قصد قتله، وذلك أنهم نظروا إلى نجمه وقد طلع فعرفوا ذلك بحساب لهم في كتاب لهم فبعث الله ملكًا إلى يوسف النجار وأخبره بما أراد هيرودس وأن يعلم مريم أن تخرج إلى أرض مصر فإنه إن ظفر بولدك قتل، فإذا مات هيردوس فارجعي إلى بلادك فاحتمل يوسف مريم وابنها عيسى على حمار له حتى دخل مصر، وورد أرض البهنسا وهي الربوة التي ذكرها الله في كتابه العزيز ﴿**وآويناهما إلى ربوة ذات قرار ومعين**﴾ [المؤمنون: ٥٠] وهناك بئر في المعبد يستشفون بمائها من الأمراض وهي التي كانت مريم وابنها يستقّان منها ويتوضآن منها للصلاة، وكان هناك سرب تحت الأرض قيل إن مريم لمّا دخلت بولدها أرض البهنسا وجدا بئرًا وليس عليها رشاء، فطلب عيسى عليه السلام الماء ليشرب بعد أن عطش عطشًا شديدًا وبكى فحزنت أُمه فارتفع الماء من قعر البئر حتى شرب منه، وهي من ذلك اليوم تزيد ويُعرَف منها زيادة النيل فجعل النصارى لها عيدًا إلى يومنا هذا، وهناك دير وزراعات والله أعلم، ثم دخل مدينة البهنسا وأقام بها اثنتي عشر سنة وأُمه تغزل الكتان وتلتقط السنبل في أثر الحصادين حتى تمّ لعيسى المدة المذكورة.

روى محمد الباقر، قال: لمّا جاء عيسى إلى البهنسا وهو مع أُمه له شهرين كأنه ابن سنتين، فلما كَمُل تسعة أشهر أخذته والدته وجاءت به إلى الكتّاب بأرض البهنسا

فأقعده المؤدّب بين يديه وقال له: قل بسم الله الرحمٰن الرحيم. فقال عيسى: بسم الله الرحمٰن الرحيم. فقال له المؤدّب قل: أبجد. فرفع عيسى طرفه وقال: أتدري ما أبجد؟ فعَلاه المؤدّب بالدرة ليضربه، فقال له: يا مؤدّب لا تضربني إن كنت لا تدري فاسألني حتى أُعرّفك. فقال: قل لي. فقال: انزل من على مرتبتك، فنزل من على مرتبته وجلس عيسى مكانه، ثم قال: الألف آلاء الله، والباء بهاء الله، والجيم جلال الله. والدال دين الله، والهاء هوية جهنم وهي الهاوية، والواو ويل لأهلها، والزاي زفير جهنم، والحاء حطّت الخطايا عن المستغفرين، والكاف كلام الله لا مبدّل لكلماته، والصاد صاع بصاع، والقاف قرب حيّات جهنم من العاصين. فقال لها المؤدّب: خذي بيد ابنك فقد علّمه الله تعالى فلا حاجة له بالمؤدّب.

حدّثنا الحسين ومحمد بن الحسن المقري. قال: حدّثنا الحكيم محمد بن أحمد بن حمدون. قال: حدّثنا محمد بن حمدون بن خالد. قال: حدّثنا الحكم بن نافع عن إسماعيل عن ابن أبي مليكة عن عطية عن أبي سعيد الخدري. قال: قال رسول الله ﷺ: «إن عيسى عليه السلام أرسلته أُمه إلى المكتب ليتعلّم، فقال له المعلم قل: بسم الله الرحمٰن الرحيم. فقال عيسى عليه السلام: وما بسم الله الرحمٰن الرحيم؟ فقال المعلم: لا أدري؟ فقال عيسى: الباء بهاء الله، والسين سناء الله، والميم ملك مُلْك الله» إلى آخر ما جاء من الآيات والمعجزات التي ظهرت لعيسى عليه السلام بأرض البهنسا. قال وهب: كان أول آية أراها عيسى عليه السلام بمدينة البهنسا للناس في صغره أن أُمه كانت نازلة في دار بالبهنسا من أرض مصر عند دهقان من دهاقنة الملك أنزلها فيها يوسف النجار عنده حين أتى بها من أرض الشام إلى مصر، وكانت داره مأوى المساكين، فسرق للدهقان مال جزيل من خزانته وكان الدهقان من أخصّاء الملك صاحب البهنسا ولم يتّهم المساكين فحزنت مريم على مصيبة الدهقان صاحب ضيافتها، فلما رأى عيسى عليه السلام حزن أُمه، قال يا أُماه: أتحبّين أن أدلّك على ماله؟ قالت: نعم. قال: قولي له يجمع المساكين الذين كانوا في داره. فقالت مريم للدهقان ذلك فجمع المساكين الذين كانوا في داره، فلما اجتمعوا أتى إلى رجلين منهم أحدهما أعمى والآخر مُقعَد فجعل المُقعَد على كاهل الأعمى وقال له: قم به. فقال له الأعمى: إني ضعيف عن ذلك. فقال له: كيف قويت على ذلك البارحة؟ فلما سمعوه يقول ذلك ضربوا الأعمى حتى قام به، فلما استوى قائمًا وهو حامله أوصله إلى كُوَّة الخزانة. فقال عيسى عليه السلام: هكذا أخذ مالك البارحة، لأن الأعمى استعان بقوته والمُقعَد بعينيه. فقال الأعمى والمُقعَد: صدقت فردًا على الدهقان ماله فوضعه الدهقان في خزانته وقال: يا مريم خذي نصفه. فقالت: إني لم أُخلَق لذلك، ثم قال الدهقان: أعطيه لابنك. قالت: هو أعظم مني شأنًا، ثم لم يلبث الدهقان إلا قليلاً وعمل لولده عرسًا فجمع إليه أهل

المدينة كلهم فكان يطعمهم شهرين، فلما انقضى ذلك زارته أكابر البلاد وملوكها وليس عنده طعام ولا شراب ولا إدام، فلما اجتمعوا أمر عيسى عليه السلام بجِرار الخمر الفارغة أن تملأ ماء، ثم مرَّ بيده على أفواهها وهو يمشي فكلما مرّت يده على جرّة امتلأت شرابًا هذا وهو ابن اثنتي عشرة سنة، فازدادت أهل البهنسا فيه اعتقادًا ومَن حولها من المدائن والقرى والسواد من أرض مصر. وله آية أخرى بأرض البهنسا.

قال السدي: كان عيسى عليه السلام يحدّث الصبيان في المكتب بما تصنع آباؤهم، ويقول للغلام: انطلق فقد أكل أهلك كذا وكذا، فينطلق الصبي إلى أهله ويبكي عليهم حتى يعطوه شيئًا فيقولون له: مَن أخبرك بهذا؟ فيقول: عيسى. فحبسوا أولادهم ـ أي أهل البهنسا ـ عنه وقالوا لهم: لا تلعبوا مع هذا الساحر فجمعوهم في مكان فجاء عيسى عليه السلام يطلبهم، فقالوا: ليس هنا أحد. فقال: ما في هذا البيت؟ قالوا: خنازير. قال عيسى: كذلك يكونون إن شاء الله تعالى. ففتحوا عليهم الباب فوجدوهم خنازير، ففشا ذلك في الناس وهابه الناس. قال السدي: لمّا نزل عيسى عليه السلام بأرض البهنسا نزل في قرية من قراها على رجل فأضافهم وكان للملك خبّاز فجاء ذلك الرجل ذات يوم وهو مُغتَمٌّ حزين فدخل بيته ومريم عند زوجته. فقالت لها مريم: ما شأن زوجك أراه كئيبًا؟ قالت: لا تسأليني. فقالت لها: أخبريني لعل الله أن يفرّج عنك. قالت لها: إن ملك البهنسا إذا خرج من مدينته يجعل على كبير كل قرية يومًا يطعمه ويسقيه الخمر فإن لم يفعل ذلك عاقبه واليوم علينا وليس عندنا سَعَة. قالت مريم: قولي له لا يهتم فإني آمر ابني أن يدعو له فيكفي ذلك، فذكرت مريم ذلك لعيسى عليه السلام. فقال عيسى عليه السلام: إن فعلت ذلك يقع شيء، فقالت له أُمه: لا تُبالِ فإنه أحسن إلينا وأكرمنا.

فقال عيسى قولي له: إذا قَرُبَ الملك فاملأ قدورك وخوابيك ماء ثم أعلميني، ففعل ذلك وإذا بالملك قد أقبل فارتجّت الأرض من الطبول والزُّمور والصناجق وأقبلت العساكر، فدعا عيسى عليه السلام ربّه عزّ وجل فتحوّل ماء القدور لحمًا وطعامًا ملوّنًا وماء الخوابي خمرًا لم يرَ الناس مثلها قطُّ، فلما أكل الملك ذلك الطعام وشرب سأل الدهقان من أين لك هذا الخمر؟ قال: من أرض الفيوم فلم يصدقه، وقال للدهقان: إنه يأتيني منها الخمر والعنب لعصره وليس يساوي هذا. فقال: من أرض أخرى، فلما خلط عليه الكلام أنكر عليه، فقال: أنا أخبرك: عندي غلام لا يسأل الله شيئًا إلا أعطاه، وإنه دعا الله تعالى حتى جعل الماء خمرًا، وكان للملك ولد يريد أن يستخلفه فمات قبل ذلك بأيام وكان أحبَّ الخلق إليه. فقال: إن كان كلامك صدقًا فليَدْعُ ربّه أن يحيي لي ولدي، فدعا عيسى وأعلمه بذلك. قال: أفعل، لكنه إن عاش وقع شيء كثير. فقال الملك: لا

أُبالي بعد أن أراه. فقال عيسى: إن فعلت ذلك أتتركوني أنا وأمي نمضي حيث جئنا؟ قال الملك: نعم. فدعا الله تعالى فأحيا الغلام، فلما رآه أهل المملكة قد عاش تبادروا بالسلاح وقالوا: أكل أموالنا هذا الملك بظلمه حتى إذا دنا موته يريد أن يستخلف علينا ابنه فيأكلنا كما أكلنا أبوه فاقتلوهما، فذهب عيسى وأمه والآيات في ذلك كثيرة يطول شرحها ذكرها أبو إسحٰق الثعلبي في عرائسه، والله تعالى أعلم.

ذكر فتح البهنسا وما فيه من الفضائل وما وقع فيه للصحابة رضي الله عنهم

قالت الرواة بأسانيد صحيحة عمّن حضر الفتح من أصحاب السِّيَر والتواريخ مثل الواقدي وأبي جعفر الطبراني وابن خلكان في تاريخ البداية والنهاية، ومحمد بن إسحٰق وابن هشام وكلٌ منهم دخل حديثه الآخر لما في ذلك من اختلاف الرواة ممّن حضر الفتوحات وشاهد الوقعات من الصحابة رضي الله عنهم. قالوا: وحضر ذلك معظم الصحابة وكبراؤهم مثل عبد الله بن عمرو بن العاص أمير الجيوش على مصر وأخيه محمد وخالد بن الوليد وابنه سليمان وقيس بن هبيرة المرادي والمقداد بن الأسود الكندي وميسرة بن مسروق العبسي والزبير بن العوام الأسدي وابنه عبد الله وضرار بن الأزور، ومن بني عمّ النبي ﷺ مثل الفضل بن العباس وجعفر بن عقيل ومسلم بن عقيل وعبد الله بن جعفر ومن أبناء الخلفاء مثل عبد الرحمٰن بن أبي بكر الصديق وعبد الله بن عمر بن الخطاب وأبان بن عثمان رضي الله عنهم، وقد اختصرنا في أسمائهم خوف الإطالة وكلهم حدّثوا بما عاينوا من الفتوح وما شاهدوا من الوقعات وحدّثوا بذلك أبناءهم رضي الله عنهم، وقد أخذنا هذه الفتوح على قاعدة الصدق لإثبات فضل رسول الله ﷺ والصحابة رضي الله عنهم إذ لولاهم ما كانت البلاد للمسلمين ولا انتشر علم هذا الدين، ولقد نفذت سراياهم في الأرض شرقًا وغربًا حتى ولّت الأعداء منهم هربًا وسكبوا دماءهم في الأرض سكبًا واستباحوا أموال الكفّار نهبًا وسلبًا، والله قد جعل منهم في قلوب أعدائه خوفًا ورعبًا فهم نجوم الهداية وأهل الولاية قد شرّعوا الشرائع ورتّلوا القرآن ترتيلاً. قال الله في حقهم تعظيمًا وتبجيلاً: **﴿فمنهم مَن قضى نحبه ومنهم مَن ينتظر وما بدلوا تبديلا﴾** [الأحزاب: ٢٣].

قال: حدّثنا أبو عبد الله محمد بن المحدّث المصري غفر الله له: اطّلعت على فتوحات كثيرة فوجدت فيها زيادة ونقصانًا وكذلك تواريخ منقولة وكنت قَدِمت المدينة - يعني البهنسا - لزيارة جبّانتها لما رأيت في ذلك من الفضائل والفضل والأجْر والخير والحبور. فإن زيارتها تمحص الذنوب، وتكشف الكروب، وتُحَسِّن الأخلاق، وتدرّ الأرزاق، وتُورِث النصر على الأعداء وتكفي البأس والردى، لما فيها من السادات

الشهداء، ممّن باع نفسه لله، وقتل في سبيل الله ابتغاء مرضاة الله ممّن قال في حقهم مَن له الفضل والمنّة: ﴿**إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة**﴾ [التوبة: ١١١] فهم ﴿**أحياء عند ربهم يُرزَقون**﴾ [آل عمران: ١٦٩] فزُرنا الجبّانة في ساعة الأسحار. ورأينا ما فيها من الأنوار، وبزيارة قبور السادة والأخيار، نرجو من الله أن يحطّ عنّا الذنوب والأوزار، فلما قضينا الزيارة، ولاحت لنا تلك الإشارة أخبرنا عن تلك السادة الأمجاد وما كان لهم من الصبر على الغزو والجهاد فسألني بعض الأصحاب عن سبب فتح مدينة البهنسا ليدفع البأس والردى فحرّك لذلك خاطري، حتى أسهرت لذلك ناظري، وطالعت التواريخ والفتوحات، وتجنّبت المزاحات، حتى انتخبت هذا الكتاب فهو كالدرّة اليتيمة التي لا يُعرَف لها قيمة ترتاح عند سماعه النفوس، ويزول لهم البؤس، ويشجّع على الجهاد ويُعين على إقامة العدل في البلاد ابتغاء لوجه الله الكريم، راغبًا في ثواب الله العميم، وذلك بعد الحمد لله ربّ العالمين، والصلاة والسلام على سيّد المرسلين وخاتم النبيّين، ونحن نبتدىء.

بسم الله الرحمٰن الرحيم. قال: حدّثني مَن أثق به من الرواة ممّن تقدم ذكرهم. قال: لمّا فتح عمر بن الخطاب رضي الله عنه مصر والإسكندرية والبحيرة والوجه البحري كله جميعًا كان بالصعيد نوبة وبربر وديلم وصقالبة وروم وقبط، وكانت الغلبة للروم، كان أكثرهم رومًا. ثم استشار عمرو بن العاص أصحابه أيّ جهة يقصد وهل يسير بالجيوش شرقًا أو غربًا وما يصنع؟ فأشاروا عليه بمكاتبة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنهم فكتب إليه يقول: بسم الله الرحمٰن الرحيم. من عبد الله عمرو بن العاص عامل أمير المؤمنين على مصر ونواحيها إلى عبد الله أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه، سلام عليك ورحمة الله وبركاته: أما بعد فإني أحمد الله وأُثني عليه وأُصلّي على نبيّه محمد ﷺ، والسلام على مَن بالمدينة من المهاجرين والأنصار والحمد لله قد فتحت لنا مصر والوجه البحري والإسكندرية ودمياط ولم يبقَ في الوجه البحري مدينة ولا قرية إلا وقد فتحت وأذلّ الله المشركين وأعلى كلمة الدين، وقد اجتمعت أصحاب رسول الله ﷺ من السادات والأمراء والأخيار المهاجرين والأنصار يطلبون الإذن من أمير المؤمنين هل يسيرون إلى الصعيد أو إلى الغرب والأمر أمرك يا أمير المؤمنين فإنهم على الجهاد قلقون وباعوا نفوسهم لله ربّ العالمين، وصلّى الله على سيدنا محمد خاتم النبيين وعلى آله وصحبه أجمعين وسلّم، وكتب هذه الأبيات:

صوارمنا تشكو الظمأ في أكُفّنا ... وأرماحنا تشكو القطيعة كالهجرِ
إليك افتقاد الحرب يا طيب الثنا ... ويا مَن أقام الدين بالعزّ والنصر
فقد ولعت خير الكرام إلى العدا ... بنو شيبة الحمد السري وبنو فهر

وصالت لؤي مع معدّ وغالب وسادات مخزوم الكرام ذوي المفخر
تروم مسيرًا للأعادي على شفا تمكن من أعلاهم البيض كالسمر
ترى كل علج غائص في دلاصه تجعجع في نقع تأجّج كالحمر
بكل كميت صادق الوعد صائل يرى درعه الزاهي تمكن بالصبر
نرى الموت في وقع الوقائع مغنمًا ونكسب مَن قتل العدا غاية الأجْر

قال الواقدي: فلما فرغ عمرو بن العاص من الكتاب عرضه على أصحابه، ثم طوى الكتاب وختمه واستدعى برجل يقال له سالم بن بجيعة الكندي وسلّم إليه الكتاب ودفع له ناقة عشارية فاستوى على كورها وخرج يريد المدينة، وهو يقول:

أسير إلى المدينة في أمان وأرجو الفوز في غرف الجنان
وأرجو أن يقرب لي اجتماعي وأُعطي ما أُريد من الأماني
ألا يا ناقتي جدّي وسيري إلى نحو النبي بلا امتهان
وأقرئيه السلام وأنشديه كلامًا صادقًا حسن البيان
ألا يا أشرف الثقلين يا مَن به شرف المدينة والمكان
فكن لي في المعاد غدًا شفيعًا إذا ما قيل هذا العبد عاني

قال الواقدي: ولم يزل سائرًا ليلاً ونهارًا حتى قَدِمَ المدينة الطيبة الأمينة بعد صلاة العصر فدخل وأناخ ناقته على باب المسجد وعقلها بفضل ذمامها، ودخل في مسجد رسول الله ﷺ وسلّم على قبره الشريف وصلّى ركعتين بين القبر والمنبر، ثم تقدم فوجد عمر بن الخطاب فسلّم عليه. قال: فردّ عليّ السلام وصافحني، وكان لمّا رآني أقبلت وأنا فرحان قال: سالم جاء بكتاب من مصر مرحبًا به. ثم التفت وعن يمينه علي بن أبي طالب وعن شماله عثمان بن عفان وحوله من السادات والمهاجرين والأنصار مثل العباس بن عبد المطلب وعبد الرحمٰن بن عوف وسعيد بن زيد وطلحة بن عبد الله وبقية الصحابة رضي الله عنهم حوله، ثم ناولته الكتاب. فقال: ما وراءك يا سالم؟ فأنت سالم في الدنيا والآخرة إن شاء الله تعالى. فقلت: الخير والبشرى والأمن يا أمير المؤمنين، فلما قرأ الكتاب فرح واستبشر وكانت تلك الغنائم قد وصلت إلى المدينة قبل ذلك بأيام، وقسمت على الصحابة رضي الله عنهم، ثم إنه استشار عمر رضي الله عنه عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه ومَن حضر فأشار عليه عليّ بن أبي طالب أن عمرو بن العاص لا يسير بنفسه ليكون أهيب له في قلوب أعدائه وأن يجهّز جيشًا عشرة آلاف فارس ويؤمّر عليهم خالد بن الوليد رضي الله عنه فإنه سيف الله. فقال عمر: صدقت، وقد قال رسول الله ﷺ: «خالد سيف الله تعالى». وفي رواية «إن خالدًا سيف لا يغمد عن أعدائه». ثم

بات سالم تلك الليلة. فلما أصبح صلّى الصبح في مسجد رسول الله ﷺ. ثم أقبل على أمير المؤمنين عمر يسأله الجواب. فعندها استدعى عمر رضي الله عنه بدواة وقرطاس، ثم كتب كتابًا يقول فيه: بسم الله الرحمٰن الرحيم، من عبد الله بن عمر بن الخطاب إلى عامله على مصر ونواحيها عمرو بن العاص، سلام عليك ورحمة الله وبركاته. أما بعد: فإني أحمد الله الذي لا إلٰه إلا هو وأُصلّي على نبيّه محمد ﷺ، والسلام عليك وعلى مَن معك من المهاجرين والأنصار ورحمة الله وبركاته، وقد قرأت كتابك وفهمت خطابك، فإذا قرأت كتابي هذا فاستعن بالله واربط الخيل وأرسل الأمراء لكل بلد أمير ليقيموا شرائع الدين ويعلموا الأحكام.

ثم انتدب عشرة آلاف من أصحاب رسول الله ﷺ وأمّر عليهم خالد بن الوليد وأرسل معه الزبير بن العوام والفضل بن العباس والمقداد بن الأسود وغانم بن عياض الأشعري ومالكًا الأشتر وجميع الأمراء وأصحاب الرايات ينزلون على المدائن ويدعون الناس إلى الإسلام، فمَن أجاب فله ما لنا وعليه ما علينا، ومَن أبى فليأمروه بأداء الجزية، وإن عصيٍ وامتنع فالحرب والقتال وأمرهم إذا حاصروا مدينة أن يشنُّوا الغارات على السواد، وإن بمصر مدينتين كما بلغني إحداهما يقال لها أهناس قريبة من مصر، والثانية يقال لها البهنسا أمنع وأحصن وبلغني أن بها بطريقًا طاغيًا سفّاكًا للدماء يقال له البطليوس وهو أعظم بطارقة مصر كما بلغني، وأنه ملك الواحات فلا تقربوا الصعيد حتى تفتحوا هاتين المدينتين وعليك بتقوى الله في السرّ والعلانية، أنت ومَن معك، وأنصف المظلوم من الظالم، وأمر بالمعروف، وأنّه عن المنكر وخذ حق الضعيف من القوي، ولا تأخذك في الله لومة لائم، وأقِم أنت بمصر، وأرسل الأجناد وإن احتجت إلى مدد فأرسل وكاتبني، وأنا أُرسل لك المدد، والمعونة من الله عزّ وجل، وأسأل الله تعالى أن يكون لكم بالنصر والمعونة والفتح، والحمد لله ربّ العالمين. ثم طوى الكتاب وختمه بخاتم رسول الله ﷺ ودفعه إل سالم فأخذه وودّع الصحابة وودّع قبر رسول الله ﷺ بعد أن توضأ وصلّى ركعتين وسار ولم يزل سائرًا حتى قَدِمَ مصر فوجد عمرًا والصحابة نازلين بأرض الجيزة، وكان زمن الربيع، وهو جالس في خيمته وأصحابه عنده، وهذه الخيمة كانت لملك القبط من الحرير الأزرق والأحمر والأصفر سِعَتها ثلاثون ذراعًا، وقد فرش فيها فرشًا كان للقبط، وهو جالس يتحدّث مع المقداد وخالد والفضل وغانم والأمراء جميعهم رضي الله عنهم وهو كأحدهم. قال سالم: فأنخت ناقتي فسمعت عمرًا يقول وأنا خلف الخيمة: قد أبطأ سالم. فقال خالد: كأنك به، وقد أقبل فهويت فأحسّ خالد بي من داخل الخيمة ولم يرني بعينه ولا غيره ولا علم بي، فقال: سالم فقلت: لبّيك يا أبا سليمان، فقال: مرحبًا بك يا سالم وحيّاك الله. ثم تقدّمت وسلّمت على عمرو وخالد وعلى بقية الأمراء. ثم ناولته الكتاب فقرأه

إلى آخره وفهم ما فيه. فلما سمع الأمراء ما فيه فرحوا بذلك فرحًا شديدًا. ثم إن عمرًا استشار الأمراء في ذلك، وكانوا لا يفعلون شيئًا إلا بمشورة بعضهم ولذلك مدحهم الله في كتابه العزيز بقوله عزّ وجل: ﴿**وأمرهم شورى بينهم**﴾ [الشورى ٣٨] فأشاروا عليه أن يرسل خلف الأمراء والجنود المتفرقة في البحيرة شرقًا وغربًا وأن يرتب الجيوش ويقصدوا الصعيد ويتوكلوا على الله عزّ وجل.

قال الواقدي: وكانت الصحابة لمّا فتحت مصر والوجه البحري قد تفرّقوا فمنهم في الإسكندرية وأمسوس ودمياط ورشيد وبلبيس، وكان أكثرهم بوسط البحيرة في المكان المعروف بالمنزلة مثل القعقاع بن عمرو التميمي وهاشم بن المرقال وميسرة بن مسروق العبسي والمسيب بن نجيبة الفزاري. فعندها استدعى عمرو رضي الله عنه بالنجابة والسعاة وعمرو بن أمية الضمري ومثل هؤلاء رضي الله عنهم أجمعين، وكتب الكتب وأرسلها للأمراء فعندها أجابوا بأجمعهم لأنهم رضي الله عنهم كانوا أشوق للقتال من العطشان للماء البارد الزلال، وتركوا في البلاد والمدائن مَن يحفظها أو يحرسها خيفة من العدو وأقبلوا نحو مصر مسرعين ونزلوا حولها وأخبر عمرو رضي الله عنه بقدومهم فدخل دار الإمارة، وهي قريبة من الجامع العمري، وأقبلت السادات والأمراء يسلّمون عليه، وكان ذلك نهار الأربعاء عاشر شهر ربيع الأول سنة إحدى وعشرين من الهجرة النبوية، وقيل اثنتين وعشرين، والله أعلم.

قال: حدّثنا محمد بن عبد الله. قال: حدّثنا عبيدة بن رافع عن أبيه جحيفة عن جابر بن عبد الله الأنصاري، وحدّث بذلك ابن سلمة رضي الله عنه. قالوا: لمّا قَدِمَت الأمراء والأجناد من الصحابة رضي الله عنهم أقاموا الأربعاء والخميس والجمعة فخطب عمرو رضي الله عنه بالناس. فلما فرغ من خطبته أمر الناس أن لا يتفرّقوا حتى يقرأ عليهم كتاب أمير المؤمنين عمر بن الخطاب. فقرأ عليهم الكتاب. فلما فرغوا من قراءته تواثبوا كلهم كالأُسود الضارية المشتاقة إلى فرائسها، وقالوا كلهم: سمعنا وأطعنا، ولأرواحنا في سبيل الله بذلنا، وللجهاد طلبنا، وفي الثواب رغبنا، وإلى الجنة اشتقنا، ففرح عمرو بذلك. وقال: إن أمير المؤمنين قد أمرني أن أُولي عليكم سيف الله، والنقمة على أعداء الله، صاحب القتال الشديد، والبطل الصنديد، خالد بن الوليد.

قال الواقدي: وكان خالد بن الوليد صديق عمرو في الجاهلية وأسلما في يوم واحد. ثم التفت عمرو إلى خالد، وقال: اذنُ منّي يا أبا سليمان فدنا منه، فقال عمرو: يا معاشر أصحاب رسول الله ﷺ، إنكم كلكم لكم الفضل وإني لست بأفضلكم وفيكم مَن هو ذو قرابة ونسب من رسول الله ﷺ، وأنتم تعلمون ما فتح الله على يديه من البلاد، وما أذلّ الله على يديه من الأجناد.

قال الواقدي: فوثب الفضل بن العباس رضي الله عنه، وقال: أيها الأمير، إنّا بذلنا أنفسنا في رضا الله عزّ وجل، وما نريد بذلك إلا رِفعة عند الله عزّ وجل، وإن خالدًا من أخيارنا ولو أمّرت علينا عبدًا حبشيًا لامتثلنا أمره في رِضا الله عزّ وجل فناهيك بخالد، وهو سيد من سادات قريش عزيز في الجاهلية والإسلام، فتهلّل وجه خالد وعمرو فرحًا، ثم أمرهم بالنزول جميعًا بأرض الجزيرة قريبًا من الهرم الشرقي، وأقبلوا يضربون خيامهم حوله حتى تكاملت العساكر رضي الله عنهم أجمعين.

قال الراوي بسنده إلى الواقدي وابن إسحٰق وابن هشام: لمّا تكاملت الجيوش وذلك في ربيع الآخر من السنة المذكورة صلّى عمرو بأصحابه صلاة الصبح، ثم قام من ساعته يمشي على قدميه وحوله جماعة من المسلمين، ومعه خالد بن الوليد والمقداد بن الأسود الكندي والزبير بن العوام الأسدي والفضل بن العباس الهاشمي وعبد الرحمٰن بن أبي بكر الصديق وعبد الله بن عمر بن الخطاب وهاشم بن المرقال والمسيب بن نجيبة الفزاري والعباس بن مرداس وأولاد عبد المطلب وبقية السادات حتى طلع على رابية وأشرف على الجيش، فلما رأى اجتماعهم سُرَّ سرورًا عظيمًا. ثم أمر بعض الجيش فتقدمت الأمراء أصحاب الرايات وصار كل أمير يعرض جيشه وبني عمه على عمرو بن العاص، فكانت عدّتهم فيما ذكر، والله أعلم ستة عشر ألف فارس فانتدب منهم عشرة آلاف فارس كلهم ليوث عوابس وعليهم الدروع الداودية متقلدين بالسيوف الهندية، معتقلين بالرماح الخطيّة، راكبين الخيول العربية، من خيّار أمة خير البرية، فعند ذلك قال لهم عمرو: يا معاشر الأمراء أصحاب الرايات والسادات الأخيار إن خالدًا أمير عليكم فاسمعوا له وأطيعوا، وكونوا كلمة واحدة، ونازلوا المدائن والقلاع، وشنّوا الغارات على السواد ولا تقاتلوا قومًا حتى تدعوهم إلى شهادة أن لا إلٰه إلا الله وأن محمدًا رسول الله فإن أبوا فأداء الجزية فإن أبوا فالقتال بينكم وبينهم **﴿حتى يحكم الله بيننا وهو خير الحاكمين﴾** [الأعراف: ٨٧] وأرسلوا الطلائع ولا يكون في الطلائع إلا كل فارس كرّار في الحرب والقتال وثبّتوا أنفسكم ولا يغرّنّكم كثرة أعدائكم فأنتم الغالبون، فقد ذكر الله في كتابه المكنون المبين **﴿كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله والله مع الصابرين﴾** [البقرة: ٢٤٩] وأحسنوا نيّاتكم وثبّتوا عزائمكم، فأنتم الغالبون والله معكم، وأنتم كلكم أهل الفضل والسابقة وأصحاب رسول الله ﷺ وقاتلتم بين يديه ولا تحتاجون إلى وصيتي بارك الله فيكم.

قال الراوي: ثم إن عمرًا استدعى بأصحاب الرايات، فكان أول مَن تقدّم بعد خالد الزبير بن العوام رضي الله عنه وهو راكب على جواده الأغرّ شاكّ سلاحه فسلّمه الراية

وأمّره على خمسمائة، فلما خرج بعسكره هزّ الراية، وأنشد يقول:

أنا الزبير ولد العوام ... ليث شجاع فارس الإسلامِ
قرم همام فارس هجام ... أقتل كل فارس ضرغام
وإنني يوم الوغى صدام ... وناصر في حانها الإسلام

قال: ثم استدعى بالفضل بن العباس وأمّره على خمسمائة فارس من أصحاب رسول الله ﷺ فتسلّم الراية بيده وتوّجه، وهو يقول:

إني أنا الفضل أبي العباس ... وفارس مُنازل حواس
معي حسام قاطع للرأس ... وفالق الهامات والأضراس
أفني به الأعدا بلا الباس ... وما عليّ فيهم من باس

قال: ثم استدعى بزياد بن أبي سفيان بن الحرث بن عبد المطلب وسلّمه الراية، وكان رضي الله عنه فارسًا عظيمًا وبطلاً صنديدًا فتسلّم الراية وتوجّه، وهو ينشد:

أنا الفارس المشهور يوم الوقائع ... بحدّ حسام في الجماجم قاطع
ورمحي على الأعداء ما زال طائلاً ... إذا التحم الأعداء للضدّ قاطع
وعزمي في الهيجاء ما زال ماضيًا ... برأي سديد للمحاسن جامع
أصول على الأعداء صولة قادر ... وأُشبعهم ضربًا ببعض لوامع
إمام الوغى من آل ذروة هاشم ... حماة البرايا كالبدور الطوالع
أنا ابن أبي سفيان من نسل حارث ... تموت العدا مني وكل منازع

قال: ثم استدعى من بعده عبد الرحمٰن بن أبي بكر الصديق رضي الله عنه وأمّره على خمسمائة فارس وسلّمه الراية فتوجّه وهو يقول:

أسير إلى الأعادي باهتمام ... بقلب صادق حصن الذمامِ
بأبطال جحاجحة أُسود ... سراة في الوغى قوم كرام
أبيد بهم عداة الدين جمعًا ... ولا أخشى من القوم اللئام
إذا ما جلت في الهيجا برمحي ... أصول به وفي أيدي حسامي

قال: ثم استدعى من بعده عبد الله بن عمر بن الخطاب رضي الله عنه وأمّره على خمسمائة فارس فتسلّم الراية وتوجّه وهو يقول:

وحق مَن أنزل الآيات في السور ... وأرسل المصطفى المبعوث من مضر

لا أنثني عن لقا الأعدا ولو جمعت   حماة أبطالهم يومًا كما الدبر
حتى أبيدهم ضربًا وأتركهم   فوق الثرى خمشًا مخدوشة الصدر
بكل قرم همام ماجد نجد   إلى الوقائع يوم الحرب مبتدر
نحن الكرام الذي للدين أرسلنا   إمام دين الورى غيث الندا عمر

قال: ثم استدعى من بعده جعفر بن عقيل وأمّره على خمسمائة فارس وسلّمه الراية فتوجّه وهو يقول:

أنا ابن عقيل من لؤي وغالب   همام شجاع للأعادي غالب
حماة الوغى أهل الوفا معدن الصفا   إلى جود يمنانا مسير الركائب
ولا يعرف المعروف إلا بعرفنا   ولا الجود إلا جودنا كالمواهب
علا مجدنا فوق الثنا وسناؤنا   علا شرفًا فوق كل الكتائب
فيا ويل أهل البغي منّا إذا التقت   فوارسنا فيهم بحدّ القواضب

قال: ثم استدعى من بعده أخاه الفضل وأمره على خمسمائة فارس وسلّمه الراية فتسلّمها وتوجّه وهو يقول:

إني أنا الفضل أبي عقيل   أسير للحرب بلا تمهيل
بحدّ سيف قاطع صقيل   به أبيد الكافر الجهول
أنا ابن عمّ أحمد الرسول   المرسل المبعوث في التنزيل

قال: ثم استدعى من بعده المقداد بن الأسود الكندي وأمره على خمسمائة فارس وسلّمه الراية فتوجّه وهو يقول:

أنا المقداد في يوم النزال   أبيد الضدّ بالسّمر العوالي
وسيفي في الوغى أبدًا صقيل   طليق الحدّ في أهل الضلال
معي من آل كندة كل قوم   يجيد الطعن في يوم النزال
فيا ويل العدا والروم منّا   إذا التحم الفوارس في القتال
وهم صرعى كأعجاز نخل   بقعها الفوارس بالنصال

قال: ثم استدعى من بعده عمّار بن ياسر وأمره على خمسمائة فارس وسلّمه الراية فتوجه وهو يقول:

أنا الهمام الفارس الكرار   أفني بسيفي غضبة الكفّار

إن جالت الخيل بلا إنكار ... وقام سوق الحرب من عمار
حمى لدين المصطفى المختار ... صلّى عليه الواحد القهّار
وآله وصحبه الأخيار ... ما بان ليل وأضا نهار

قال: ثم استدعى من بعده العباس بن مرداس السلمي وأمره على خمسمائة فارس وسلّمه الراية فتوجّه وهو يقول:

أنا العباس ذو رأي قويم ... معي سادات آل بني سليم
أدلّ بهم حماة البغي لمّا ... ترى الهيجاء كالليل البهيم
وسيفي ماضي الحدّين أضحى ... لأهل الشرك والموت العميم
به أفني الطغاة بكل أرض ... وأقتل كل أفّاك أثيم
ونحن بنو سليم خير قوم ... هدينا للصراط المستقيم

قال: ثم استدعى من بعده أبا دجانة الأنصاري رضي الله عنه وسلّمه الراية فتوجّه وهو يقول:

أسير باسم الواحد المنّان ... جهرًا لأهل الكفر والطغيان
أذيقهم ضربًا على الأبدان ... بكل هندي مبيد الجان
أنصر دين مصطفى العدناني ... صلّى عليه الملك الديّان
وآله والصحب والإخوان ... ما ناح قمري على الأغصان

قال: ثم استدعى من بعده غانم بن عياض الأشعري رضي الله عنه وسلّمه الراية وتوجّه وهو يقول:

إني إذا انتسب الفوارس أشعري ... قرم همام في المعامع عنتري
بحماة أبطال الأعادي نزدري ... وبراحتي من القواضب أبتري
يوم التلاطم للفوارس مسكر ... وأحوم حومات الغزال الجؤذري
فلأقتلنّ فوارسًا وعوابسًا ... وأذيقهم مني العذاب الأكبر

قال: ثم استدعى من بعده أبا ذر الغفاري وأمره على خمسمائة فارس وسلّمه الراية فتوجّه وهو يقول:

سأمضي للعداة بلا اكتئاب ... وقلبي للقا والحرب صابي
ولي عزم أذلّ به الأعادي ... وأرجو الفوز فيهم كالثواب

وإن صال الجميع بيوم حرب لكان الكل عندي كالكلاب
أذلهم بأبيض جوهري طليق الحدّ فيهم غير آبي

قال: ثم استدعى من بعده القعقاع بن عمرو التميمي والمغيرة بن شعبة الثقفي وميسرة بن مسروق العبسي ومالكًا الأشتر النخعي وذا الكلاع الحميري والوليد وعقبة بن عامر الجهني وجابر بن عبد الله الأنصاري وربيعة بن زهير المحاربي وعدي بن حاتم الطائي ومثل هؤلاء السادات رضي الله عنهم وقد اقتصرنا في أشعارهم خوف الإطالة وكل واحد يسلمه راية ويؤمّره على خمسمائة فارس قال: فلما تكاملوا وتجهزوا خرج عمرو وأصحابه فودّعهم وسارت الكتائب، وتتابعت المواكب يطلب بعضها وخلفهم الذراري والصبيان حتى أتوا الجيزة ونزلوا بمكان يُعرَف بالمرج الكبير قريب من تلك المدائن والقرى والرساتيق وتقدّمت الطلائع يتجسّسون الأخبار، وقد كان بدهشور بطريق عظيم من قبل مارنوس صاحب أهناس، وكان فارسًا مكينًا وكلبًا لعينًا قاتله الله وكان يقول في نفسه أنه يناظر البطليوس في ولايته لكن البطليوس صاحب البهنسا لعنه الله كان أشدّ بأسًا، وأعظم مراسًا، وأكثر عددًا، وأقوى مددًا، وأوسع بلادًا فكاتبه في ذلك وكاتب روسال صاحب الأشمونين وكاتب أقراقيس صاحب قفط، وكان يحكم على أخميم وكاتب الكيكلاج وكان يحكم إلى عدن والبحر المالح إلى بلاد البجاوة والنوبة وحد السودان وتسامع الناس بمسير العرب إلى الصعيد وكاتبت الملوك بعضها بعضًا وماج الصعيد بأهله إلى حدّ الواحات ووقع الرعب في قلوبهم فعند ذلك وثب مكسوج ملك البجاوة وحليف ملك النوبة وجمعوا ما حولهم من أرض النوبة والبجاوة والبربر وأتوا إلى أسوان.

وكان مع ملك البجاوة ألف وثلثمائة فيل عليها قباب الجلد بصفايح الفولاذ في كل قبة عشرة من السودان طوال القامة عُراة الأجساد على أوساطهم وأكتافهم جلود النمور وغيرها ومعهم الدرق والحراب والكرابيج والقسيّ والمقاليع والأعمدة الحديد والطبول والقرون، وكانت عدّتهم عشرين ألفًا، فلما وصلوا أسوان خرجوا إلى لقائهم بعسكرهم وأعلموهم بأمرهم وساروا إليهم بالملاقاة من الذرة والشعير والقصب ولحوم الخنازير والضباع وغيرها من الوحوش فأنزلوهم وضيوفهم ثلاثة أيام، ثم خرج بطريق أسوان ومعه جيش حتى وصلوا إلى ملك قفط صاحب القرية القريبة من قوص وعمل معهم مثل ذلك وسيّر معهم جيشًا وساروا حتى وصلوا إلى أنصنا، وكان بها بطريق عظيم وبطل جسيم، وكان منجّمًا، وكان يحكم شرقًا وغربًا، وكانت مدينته عظيمة على شاطىء البحر وبها جند كثير وعجائب عظيمة ولها حصن عظيم من الحجر علوّه ثلاثون ذراعًا ومن داخلها قصور ومقاصير وكنائس وقلاع على أعمدة الرخام وغيرها في المدينة، فلما نزلت تلك

العساكر على أنصنا خرج إليهم بطريقها جرجيس بن قابوس وتلقاهم وأرسل معهم ابن عمّ له يسمى قيطارس، وكان فارسًا شديدًا في أربعة آلاف فارس ولم يزالوا سائرين حتى نزلوا بواد البهنسا عند بطريق يسمى قلوصا من بطارقة البطليوس، فلما سمع بهم البطليوس خرج إلى لقائهم في عسكر عظيم زهاء من خمسين ألف فارس من البطارقة وعليهم الدروع المذهّبة وأقبية الديباج المرقومة بالذهب الوهّاج وعلى رؤوسهم التيجان المكلّلة باللآلىء والجواهر راكبين على خيول وبراذين مسرجة عليها سروج الذهب والجنائب مغطاة بأغشية من الحرير الملوّن المرقوم بالذهب والفضة والخزّ، وكان معهم خمسون صليبًا طول كل صليب أربعة أشبار من الذهب تحت كل صليب ألف فارس على كل صليب رمانة من الذهب المنقوش وهم في زيّ عظيم عجيب، وقد أكثروا من الطبول والزمور وضرب القرون والمعازف حتى ارتجّت الأرض ومعهم الجِمال والبغال والجاموس، فلما التقوا ترجّلت الملوك والبطارقة للقائهم وسلّم بعضهم على بعض وتكلموا فيما بينهم بسبب العرب، فقال لهم البطليوس: لا تطمعوا العرب فيكم ولا في بلادكم فإنما مثل العرب كمثل الذباب إن تركته أكل وإن منعته فرّ وهلك فاثبتوا واصدقوا العزم فلقد كاتبت لكم سنجاريب ملك برقة وكاتبت ملك الواح وكأنكم بهم قد أتوا إليكم ولولا أنني أخشى أن العرب يأتون إلى بلادي لما يسمعون أني خرجت إليهم فيشتغل جماعة بقتالكم وجماعة يأتون إلى بلادي فيملكونها، وليس فيها مَن يذبّ عنها إذا خرجت معكم لكنت في خدمتكم فإنّا نجد في الكتب القديمة أنهم إذا ملكوا البهنسا ونواحيها فلا تقوم لأهل الصعيد قائمة. قال كرماس الرومي وكان ممّن أسلم بعد ذلك وحضر وحدّث به: يا معاشر الملوك والبطارقة إني قد اطلعت على الكتب القديمة وفيها أنهم إن ملكوا البهنسا ونواحيها فلا تقوم لأهل الصعيد بعد ذلك قائمة.

قال فلما سمع الملوك ذلك صقعوا له ثم انتدب من بطارقته عشرين ألفًا ممّن عرفت شجاعتهم وبراعتهم وملك عليهم صاحب الكفور، وكان كافرًا طاغيًا، وكان اسمه بولص، وكان لعينًا ودفع له صليبًا من الذهب وعلمًا من الحرير الأطلس الأصفر مرقومًا بالذهب فيه صورة الشمس ودفع لهم ما يحتاجون له من الجنائب والقباب والسرادقات ومضارب الديباج الملوّن وأواني الذهب والفضة والصناديق المملوءة بالذهب والفضة والبراذين والبغال وعليها أحمال الحرير الملوّن وبعضها محمّل بالأواني المذكورة والخيام والسرادقات وسارت العساكر وتتابعت الملوك بالمواكب يتلو بعضها بعضًا حتى قربوا من مدينة ببا الكبرى فخرج إليهم بطريقًا صندراس وتلقاهم وفعل معهم كما فعل البطليموس وأضافهم وجهّز معهم جيشًا عشرة آلاف فارس من صناديد بطارقته ووَلِيَ عليهم بطريقًا اسمه دارديس، وكان يُناظر بطريق الكفور في الشجاعة والقوة والبراعة وساروا حتى قربوا من مدينة برنشت فخرج إليهم بطريقها فتلقاهم، وكان يناظر البطريق

الأعظم رأس بطارقة الكوّة ولم يزالوا سائرين حتى ملؤوا الأرض شرقًا وغربًا هذا ما جرى لهؤلاء.

قال الراوي: وأما ما كان من أصحاب محمد ﷺ فإنهم لما نزلوا قريبًا من دهشور كما ذكرنا، وكانت العيون من المسلمين من بني طيء ومذحج ينزلون ويتزيّون بزيّ العرب المتنصرة يتجسسون الأخبار حتى اختلطوا بالعساكر المذكورة، وكانوا حذّاقًا متفرسين، فلما رأوا ذلك هالهم أمره.

قال الراوي: حدّثني سنان بن قيس الربعي عن طارق بن مكسوح الفزاري عن زيد بن غانم الثعلبي، وكان ممّن حضر الفتوح وشهد الوقعة صحبة جيش خالد بن الوليد رضي الله عنه. قال: بينما نحن جلوس نصلح شأننا بالمرج ونحن على أُهبة السفر إذ قَدِمت الجواسيس فأخبروا خالدًا بقدوم العساكر. فقال لهم: هل حزرتم الجيوش؟ فقالوا: نعم نحو مائتي ألف فارس وخمسين ألف راجل من النوبة والبربر والبجاوة والفلاحين وغيرهم وهم في أُهبة عظيمة ومعهم ألف وثلثمائة فيل وعلى ظهورها الرجال كما وقع في يوم حرب العراق، فلما سمع الأمراء ذلك اضطربوا وثبتوا جنانهم، وقالوا: **﴿قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا﴾** [التوبة: ٥١] وقال خالد: لا حول ولا قوة إلا بالله العليّ العظيم، ثم قرأ **﴿الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيمانًا وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل﴾** [آل عمران: ١٧٣] ثم قرأ **﴿كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله والله مع الصابرين﴾** [البقرة: ٢٤٩] ثم إن خالد قال لأصحابه: ولا تهتموا لذلك واصبروا **﴿وأنتم الأعلون والله معكم﴾** [محمد: ٣٥] فليست جموعهم بأكثر من جموع اليرموك ولا من جموع أجنادين ومع ذلك فقد ملكتم مصرهم التي هي تاج عزّهم وملكتم الوجه البحري وقتلتم مائة من ملوكهم وبطارقتهم، وقد صارت الشام واليمن والعراق والحجاز بأيديكم، وقد دانت لكم البلاد، وقد كنتم قليلاً فكثركم الله وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها وقاتلتم مع رسول الله ﷺ ونصرتم بالملائكة ووعدكم على لسان نبيكم ﷺ أنه يستخلفكم في الأرض كما استخلف الذين من قبلكم ومَن قتل منكم كان له الجنة وتنتقل روحه إلى روح وريحان ورب غير غضبان، فلما سمعوا كلامه تهلّلت وجوههم فرحًا وقالوا: يا خالد نحن كلنا بين يديك، وقد وهبنا أنفسنا لله ابتغاء وجه الله ومرضاته.

قال الواقدي: ثم إن خالدًا وجّه يزيد بن معرج التنوخي إلى عمرو بن العاص مسرعًا وأعلمه بذلك فترك في مصر ابن عمّه خارجة، وكان رجلاً صالحًا وأخرج معه أربعة آلاف فارس وترك في مصر نحو أربعين فارسًا من أصحاب رسول الله ﷺ وجاء إليهم أربعة آلاف فارس، فلما أقبلوا سلّموا عليه وقالوا: كنّا نحن نكفيك أيها الأمير.

فقال لهم: أعلم ذلك ولكنكم في أول بلاد العدو وما ينبغي أن أقعد عنكم، ففرحوا بذلك وتأهّبوا للقاء العدو. وكانوا كل يوم يخرجون الطلائع يتجسّسون الأخبار، فلما كان في بعض الأيام، خرج الفضل بن العباس بن عبد المطلب وأخوه عبد الله بن العباس وجعفر بن عقيل وأخواه علي ومسلم وعبد الله بن الزبير وسليمان بن خالد بن الوليد، ومحمد بن فرجه بن عبد الله بن المقداد وعبد الله بن عمر بن الخطاب وعبد الله بن عمرو بن العاص وعمرو بن سعد بن أبي وقاص، ومحمد بن مسلمة وعبد الرحمٰن بن أبي بكر الصديق وزياد بن المغيرة بن شعبة وتبعهم من السادات نحو أربعمائة سيد من أولاد الصحابة والأُمراء أصحاب الرايات، وألف وستمائة من أخلاط العرب من المهاجرين والأنصار ولبسوا دروعهم، وتقلّدوا بسيوفهم واعتقلوا برماحهم، وتنكبوا بحجفهم وساروا إلى قريب من دير هناك بسفح الجبل يُعرَف بدير المسيح يكشفون الأخبار، فبينما هم كذلك إذا بغبار طلع إلى عنان السماء وانعقد، فنظر بعضهم إلى بعض وقالوا: هذا غبار وحش، وقال بعضهم: لو كان كذلك لكان تقطع قطعًا وتفرّق فرقًا، وإنما هذا عسكر جرّار وإن الخيل إذا داست بحوافرها ارتفع الغبار.

قال الواقدي: حدّثنا أبو الزناد عن عبد الله عن أبي مالك الخولاني عن طارق بن شهاب الجرهمي عن أبي هريرة رضي الله عنه قال بينما نحن نتحدّث مع الفضل وإذا بالغبار قد قرب منّا وانكشف عن عشرة آلاف فارس ومعهم الأعلام والصلبان، فلما رأونا رطنوا بلغتهم ثم لم يهملوا دون أن حملوا.

قال الراوي: وكان ضرار بن الأزور قد انفرد ومعه مائتان من أصحاب رسول الله ﷺ من أهل النجدة، وساروا في طريق الجبل على غير الجادة، فبينما هم يسيرون إذا بالغبار قد ثار وانكشف عمّن ذكرنا، فلما عاينوهم أيقنوا بالهلاك، فعندها وثب ضرار رضي الله عنه وقال: لا فرار من الموت فلم يمهلوهم دون أن داروا عليهم، فرأوا أن لا بدّ لهم من القتال والتقت الرجال بالرجال وصبروا صبر الكرام وأحاطت بهم الروم اللئام من كل جانب ومكان، فللّه درّ ضرار لقد قاتل قتالاً شديدًا، فلم يكن غير ساعة حتى قتل من جماعة ضرار جماعة وكبا به جواده فأسروه وأسروا جماعة من أصحابه، وكان الذي قاتلهم رأس البطارقة صاحب ببا الكبرى، فأوثقوا ضرارًا وأصحابه كتافًا وربطوهم على ظهور خيولهم وأرسلوهم إلى العسكر، وانفلت من القوم مولى من موالي عبد الرحمٰن بن أبي بكر الصديق، يقال له سالم فسار يجدّ في مسيره، حتى قَدِمَ على خالد وعمرو، فعند ذلك وثب المسيب بن نجيبة الفزاري ورافع بن عميرة الطائي وأخذا معهما ألفًا من أصحاب رسول الله ﷺ وسارا ومعهما رجل من أسلم من الجيزة يدلّهم على طريق غير الجادة وكَمَنوا هناك عند الدير وقد سبقوا البطريق الذي أسر ضرار

وأصحابه، وقد اختفى عنهم الأثر، فقال الدليل: أظنكم قد سبقتم القوم اكمنوا هٰهنا، وكان الذي مضى بضرار وأصحابه خمسمائة فارس.

قال الراوي: وكانت خولة بنت الأزور قد شقّ عليها أسْر أخيها ضرار، فلما سار المسيب ورافع وجماعتها في طلب أخيها، تهلّلت فرحًا وأسرعت في لبس سلاحها وأتت إلى خالد وقد همّ القوم بالمسير وقالت: أيها الأمير سألتك بالطاهر المطهّر إلا ما سيّرتني مع هؤلاء عسى أن أكون مشاهدة لهم. فقال خالد للمسيب ورافع: أنتما تعلمان شجاعتها وبراعتها فخذاها معكما، فقالا: السمع والطاعة ونزلوا بالمكان المذكور، فبينما هم كذلك كامنون إذا بغبرة قد لاحت لهم، فقال لهم رافع: أيقظوا خواطركم، فأيقظت القوم هِمَمهم، فإذا بهم قد أتوا محدقين بضرار وهو متألم من كتافه، وهو ينشد ويقول:

ألا بلّغا قومي وخولة أنني ... أسير رهين موثق اليد بالقيدِ
وحولي علوج الروم من كل كافر ... وأصبحت معهم لا أُعيد ولا أُبدي
فلو أنني فوق المحجل راكبًا ... وقائم حدّ العضب قد ملكت يدي
لأذللت جمع الروم إذلال نقمة ... وأسقيتهم وسط الوغى أعظم الكدِّ
فيا قلب مت همًّا وحزنًا وحسرة ... ويا دمع عيني كن مُعينًا على خدّي
فلو أن أقوامي وخولة عندنا ... وألزم ما كنّا عليه من العهد
كبا بي جوادي فانتبذت على الوغى ... وأصبحت بالمقدور ولم أبلغنّ قصدي

قال الراوي: فنادته خولة من مكمنها: قد أجاب الله دعاك وقبل تضرّعك ونجواك، أنا خولة، ثم كبّرت وحملت وكبّر رافع والمسيب. قال جبير بن سالم وكنّا إذا كبّرنا تصهل الخيول إلهامًا من الله تعالى، فما كان أكثر من ساعة حتى قتلناهم عن آخرهم وخلّص الله ضرار وأصحابه، وأخذنا خيل القوم وأسلابهم وسلاحهم وكانت أول غنيمة.

قال الراوي: ولمّا تخلص ضرار وأصحابه ركب جواده عريانًا وأخذ قناة كانت مطروحة، وحمل على القوم وهو يقول:

لك الحمد يا مولاي في كل ساعة ... مفرج أحزاني وهمّي وكربتي
فقد نلت ما أرجوه من كل راحة ... وجمعت شملي ثم أبرأت علّتي
سأفني كلاب الروم في كل معرك ... وذلك والرحمٰن أكبر همّتي
فيا ويل كلب الروم إن ظفرت يدي ... به سوف أصليه الحُسام بنقمتي
وأتركهم قتلى جميعًا على الثرى ... كما رمة في الأرض من عظم ضربتي

قال الراوي: فلما فرغ ضرار من شعره إذا بالخيل قد أقبلت منهزمة، وكان السبب في ذلك أنه لمّا حملت الروم على الفضل بن عباس صاح هو وبنو عمّه ولم يرعهم، وصبروا صبر الكرام، واشتد الزحام، وعظم المرام، وجرت الدماء، واسودّت السماء، وحمي الوطيس، وقلّ الأنيس، وهمهمت الأبطال، وقوي القتال، وعظم النزال، ودارت رحى الحرب، واشتد الطعن والضرب، وجالت الرجال، واشتد القتال، وضربت الأعناق، وسالت الأحداق، وعظمت الأمور، وغابت البدور، وكان المسلمون لا يظهرون فيهم لكثرتهم، ولا يعرف بعضهم بعضًا إلا بالتهليل والتكبير والصلاة على البشير النذير، وقد صبر الفضل صبر الكرام فللّه درّ الفضل لقد اصطلى الحرب بنفسه، فكان تارة يقلب الميمنة على الميسرة وتارة يقلب الميسرة على الميمنة ويقاتل والراية بيده، ولله درّ مسلم بن عقيل وأخويه لقد قاتلوا حتى صارت الدماء على دروعهم كقطع أكباد الإبل، ولله درّ سليمان بن خالد بن الوليد المقتول بوقعة الدير قريبًا من طرا بقرية تسمى دهروط، وقتل معه عبد الله بن المقداد وجماعة وسيأتي ذكر ذلك إن شاء الله تعالى.

قال محمد بن مسلمة الأنصاري رضي الله عنه: وقاتلنا قتال الموت وأيقنّا أن المحشر من ذلك الموضع ولم نزل في قتال من ارتفاع الشمس حتى غربت، وقد قتل من الروم مقتلة عظيمة وتقدم الفضل إلى بطريق عظيم راكب كأنه برج من ذهب، وطعنه في صدره فأخرج السنان من ظهره، فلما رأت الروم ذلك شجعوا أنفسهم وفشا القتال بيننا وبينهم، وقتل من المسلمين أربعون رجلاً وقتل منهم ثلثمائة لكن الرجل ما قتل منّا حتى قتل جماعة من الروم، فبينما نحن كذلك وقد أيقنّا أن الموت في ذلك الموقف ووطّنا عليه نفوسنا، وإذا بغبرة قد طلعت والعجاج قد ارتفع وانقشع الغبار عن رايات إسلامية، وعصابة محمدية زهاء من ألفي فارس، وفي أوائلهم فرسان أمجاد سادات أنجاد، أحدهم المقداد والثاني زياد والقعقاع بن عمرو، وشرحبيل بن حسنة ومعهم ألف فارس فلم يمهل المقداد دون أن حمل وخاض في الخيل وهو ينشد ويقول:

ألا إنني المقداد أكبر صائل ... وسيفي على الأعداء أطول طائل
إذا اشتدت الأهوال كنت أمامها ... وأضرب بالسمر الطوال الذوابل
ولي همّة بين الورى تردع العدا ... لها تشهد الأبطال بين القبائل
فليس لسيفي في الأنام مبارز ... وليس لشخصي في الأنام منازل

ثم إنه خاض في وسط الحرب وحمل من بعده زياد بن أبي سفيان وهو ينشد ويقول:

أنا زياد بن أبي سفيان ... جدي يرى من أشرف العربان

كذا ابن عمي أحمد العدناني … معي حسام ثم رمح ثاني
أطعن كل كافر جبان … وكل قلب ناقص الإيمان

قال الراوي: ثم غاص في وسط القوم فقلب الميمنة على الميسرة والميسرة على الميمنة وغاص في القلب فولت الروم من بين يديه منهزمين. وهو يضرب بالسيف فيهم طولاً وعرضًا، ثم حمل من بعده القعقاع بن عمرو التميمي وهو ينشد ويقول:

أنا الهمام الفارس القعقاع … ليث همام ضيغم مطاع
معي حسام يبرىء الأوجاع … ويقطع الهامات والأضلاع
يا ويل أهل الشرك والنزاع … مني إذا في الحرب طال الباع

قال: ثم حمل من بعده شرحبيل بن حسنة وهو يقول:

ألا يا عصبة الإسلام صولوا … على الأعداء بالسيف الصقيل
أذيقوهم حياض الموت جهرًا … بلذع السمهرى الرمح الطويل
وموتوا في الوغى قومًا كرامًا … شدادًا في المعامع والنزول

قال الراوي: ثم تتابعت الفرسان يتلو بعضها بعضًا، هذا وزياد غائص في القوم كما ذكرنا، وقصد البطريق الأعظم صاحب ببا الكبرى وضربه على عاتقه الأيمن بالسيف فأطلع السيف يلمع من عاتقه الأيسر، وقد أجابته المسلمون بتكبيرة واحدة، وكبّرت الجبال وارتجّت الأرض لوقع حوافر الخيل، وحمل كل أمير على بطريق فقتله فلم تكن إلا ساعة حتى ولّوا الأدبار وركنوا إلى الفرار لا يلوي بعضهم على بعض، وتبعهم المسلمون يقتلون ويأسرون حتى بلغت الهزيمة جرزة وميدوم، فبينما ضرار وأصحابه مقبلون وإذا بالروم منهزمة كما ذكرنا وخيل المسلمين في أثرهم يقتلون ويأسرون ولم يعلموا ما جرى لضرار ورفقته، فلما رأوه سلّموا عليه وهنّئوه وأصحابه بالسلامة فقصّ عليهم ما جرى لهم واجتمعوا بالمسيب وأصحابه وأروهم مكان المعركة ومكان القتلى، ففرحوا بذلك فرحًا شديدًا.

قال الراوي: وإن عمرًا وخالدًا لمّا خرج الفضل وأصحابه قلق عليهم، فقال خالد لعمرو: يا أبا عبد الله لقد غرّر الفضل وأصحابه بمَن معه من المسلمين وإني أخشى أن تكون للروم طليعة فيُغِيروا على أصحابنا. قال عمرو: كذلك هجس بخاطري يا أبا سليمان فما ترى من الرأي؟ قال خالد: الرأي عندي أن أُرسل طليعة أُخرى خلفهم. قال: نِعْمَ الرأي، ثم استدعى الزبير بن العوام وأبي ذر الغفاري رضي الله عنهما وأعلمهما بذلك، وأراد خالد أن يركب معهما فمنعه الزبير وحلف لا يسير إلا هو وانتخب معه

فرسانًا، فساروا حتى قربوا من القوم والتقوا بالمسلمين فوجدوهم قد كسروا الروم كما ذكرنا، ثم جمع المسلمون الأسلاب والسلاح والخيل ورجعوا إلى أصحابهم وهم فرحون بالنصر على أعدائهم.

قال الراوي: فلما رجع المسلمون إلى العسكر، وكان معهم ستمائة أسير أعلن المسلمون بالتهليل والتكبير والصلاة على البشير النذير فأجابهم المسلمون كذلك، ولمّا عاينوا الأسلاب والأسارى معهم فرحوا بذلك وسلّم بعضهم على بعض وتلقّاهم عمرو وخالد وباقي الأمراء تفاءلوا بالنصر وقَدّموا الأسارى وعرضوهم على عمرو وخالد وأوقدوا النيران بالمرج وباتوا يقرءون القرآن ويتضرّعون إلى الله الواحد المنّان، وليس فيهم إلا مَن هو راكع أو ساجد.

قال الراوي: هذا ما جرى لهؤلاء، وأما المنهزمون فإنهم مضوا إلى البطارقة والملوك وأخبروهم بما وقع من أمرهم فعظم عليهم مَن قتل واستعدّوا للقتال وركبوا خيولهم وإبلهم وأفيالهم وتزيّنوا بزينتهم وساروا يجدّون المسير وقد أكثروا الطبول والزمور والصنوج.

قال قيس بن الحرث: وأقام المسلمون بعد الوقعة يومًا، فبينما نحن في اليوم الثاني بعد صلاة الصبح، وكان الأجاويد من الأمراء والأبطال في كل يوم يركبون ويستنشقون الأخبار، فبينما هم ينتظرون إذ ثار الغبار حتى تعلق بالجو وانكشف عن رجال وخيول كالجراد المنتشر، والسيل المنحدر، وارتجّت الأرض من ازدحام الخيل وقعقعة اللجم، فرجعوا وأعلموا صاحب رسول الله ﷺ، وصاح الصائح في العسكر: النفير النفير يا خيل الله اركبي في الجنة ارغبي والثواب اطلبي، فتواثب المسلمون إلى قدومهم ولبسوا دروعهم وإلى خيولهم فركبوها وإلى راياتهم فنشروها، وإلى زينتهم فأظهروها، وإلى قلوبهم من الغشّ فطهّروها، ونفوسهم لله باعوها، فلم تكن إلا ساعة حتى استعدّوا، وأقام خالد وعمرو يعبيّان قومهما للقتال فجعلا في القلب أصحاب اللعن والضرب مثل الفضل بن العباس وبني عمّه من سادات بني هاشم وهم جعفر ومسلم وعلي أولاد عقيل بن أبي طالب وزياد بن أبي سفيان بن الحرث ومثل هؤلاء الأبطال، وجعل في الجناح الأيمن الزبير بن العوام والمقداد بن الأسود الكندي والمسيب بن نجيبة الفزاري، وجعل في الجناح الأيسر القعقاع بن عمرو التميمي وهاشم بن المرقال وغانم بن عياض الأشعري وأبا ذر الغفاري وجابر بن عبد الله الأنصاري ومثل هؤلاء السادات رضي الله عنهم، وثبت خالد وعمرو في القلب ومعهما عبد الرحمٰن بن أبي بكر الصديق وعبد الله بن عمر بن الخطاب وعقبة بن عامر الجهني وبقية الصحابة من الأمراء أصحاب الرايات ممّن شهد الوقائع مع رسول الله ﷺ وعن

عبد الله بن زيد عن أبي أمامة رضي الله عنه، وكان من أصحاب الرايات. قال: فبينما نحن كذلك إذا بأعلام المشركين قد انتشرت، وراياتهم قد ظهرت، وزينتهم وصلبانهم قد ارتفعت، ولغتهم بالكفر قد طمطمت، وأفيالهم قد أقبلت، ورجالهم للقتال قد تبادرت، فلما رأى المسلمون ذلك أخلصوا نيّاتهم، ولم يهلهم ما رأوا من عدوّهم، وتضرّعوا بالدعاء لخالقهم وقد استغاثوا بمالِكِهم وأكثروا من الصلاة على نبيّهم ولم يزالوا سائرين حتى قربوا من القوم ورأوهم رأي العين، فعند ذلك أمسك المشركون أعِنّة خيولهم وسلاسل أفيالهم وألقى الله الرعب في قلوبهم، ثم خرج منهم بطريق من عظماء بطارقتهم كأنه برج مشيد من ذهب وهو لا يبين منه غير حماليق الحدق وتدوير المآق وبين يديه فارس من متنصرة العرب وهو يصيح بملء فِيْه: يا معاشر العرب أرسلوا إلى الملك أحدًا يكلّمه فأعلم المسلمون عمرًا وخالد بن الوليد بذلك، فأراد خالد أن يخرج إليه فمنعه الأمراء من ذلك، فعندها وثب المقداد بن الأسود وحلف لا يخرج إليه إلا هو بنفسه. فقال عمرو وخالد: يا أبا عبد الله انظر ما يكلّمك به الأعلاج وادعهم إلى كلمة الإخلاص المُنجِية يوم القصاص، فإن أبوا فالجزية عن يدٍ وهم صاغرون. فإن أبوا قاتلناهم **﴿حتى يحكم الله بيننا وهو خير الحاكمين﴾** [الأعراف: ٨٧].

قال الواقدي: فعندها ركب المقداد جواده وسار حتى وقف بين يدي البطريق وكان ذلك بولص صاحب الكفور الطاغي اللعين بطريق البطليوس وقد أتى بإذن الملك والبطارقة، فلما رآه كلّمه بلسان عربي مبين، ثم قال: يا بدوي أأنت أمير قومك؟ قال: لا. قال: فإني لا أُريد إلا الأمير حتى أسأله عمّا بَدَا لَي لعل أن تكون فيه مصلحة بينكم وبيننا. فقال المقداد: سَلْ عمّا بَدَا لك وما تريد فإنّا قوم إذا فعل أحدنا أمرًا وفيه نصح للدين ومصلحة للمسلمين لا ينكر عليه ذلك ويُجيز له الأمير ما فعل فأخبرني عن أمرك وشأنك. قال: لا يكلّمني إلا أمير القوم، وإن كان عنده خوف مني ألقيت سلاحي. فقال المقداد وقد ضحك من كلامه: ويحك يا عدو الله لو كنت أنت وأمثالك بأسلحتهم ما فكّرنا فيهم، وإن الواحد منّا لو وقع في ألف منكم لتلقّاهم بنفسه ولا أهمّه ذلك والمعونة من الله تعالى فإنّا وطّنّا أنفسنا على الموت ونعلم أن هذه الدنيا فانية ولا يبقى إلا وجه الله تعالى فاسألني عمّا بَدَا لك. فقال له: لا أسمع إلا كلام الأمير فدع عنك كثرة المطاولة. قال المقداد: إن لنا أميرين: أحدهما متولّي الأمر والآخر قائد الجيوش فأيّ أمير تريد؟ قال: أخبرني بأسمائهما. قال: أما الذي هو متولّي الأمر فيسمى عمرو بن العاص والآخر يسمى خالد بن الوليد. قال: إني أُريد خالدًا، سمعت عنه أُمورًا وأحوالاً وأن الروم تتحدّث عنه بعجائب كثيرة.

قال الواقدي: وكان الملعون قد سمع بذكر خالد وفراسته وقال في نفسه: لعلّي أغدره فإني إن قتلته كان لي الفخر على جميع الروم وينكسر بذلك ناموس العرب وإن لم أقدر عليه أسمع ما يقول من خطابه، قال: فعند ذلك لوى المقداد عنان جواده ورجع إلى خالد، فعند ذلك قال خالد لأصحابه: إن المقداد قد رجع وإن عدو الله لا يريد إلا إياي، فإن طلبني مضيت إليه، وإن رأيت منه غدرًا أخذت روحه من بين كتفيه وأستعين عليه بالملك العلاّم.

قال الراوي: فبينما خالد يتحدّث بهذا الكلام إذا بالمقداد قد وصل وأعلم عمرًا وخالدًا بما وقع، فعندها خرج خالد رضي الله عنه مبادرًا عليه لامة حربه فتعلق به أكابر أصحابه فحلف أنه لا بدّ له من الخروج إليه، ثم خرج مبادرًا حتى وقف بين يديه، فلما رأى خالدًا قد وصل إليه احترز على نفسه وأراد أن يخدع خالدًا ويهجم عليه. فقال خالد: أيها البطريق ها أنا خالد سَلْ حاجتك والذي جئت به وإياك والمخادعة فإني جرثومة الخداع. فقال بولص: يا خالد اذكر لي الذي تريد وقرّب الأمر بيننا وبينكم واحقن دماء الناس واعلم أنك مسؤول عن ذلك وواقف غدًا بين يدي الله عزّ وجل، فإن كنت تريد شيئًا من الدنيا فلن نبخل به عليكم وندفعه صدقة منّا إليكم، لأنه ليس عندنا في الأمم أضعف منكم حالاً، وقد علمنا أنكم كنتم في بلادكم قبل أن تفتحوا البلاد في قحط وجوع وتموتون هزالاً وقد ملكتم بلادًا وشبعتم لحمًا وركبتم خيولاً مسومة وتقلّدتم بسيوف مجوهرة وسعدتم بعد فقركم وفاقتكم، فإن طلبتم منّا شيئًا أعطيناكم إياه بطيبة قلوبنا فلا تطمعوا في بلادنا كما طمعتم في غيرها واقنعوا منّا بالقليل. قال فلما سمع خالد مقالته قال: يا كلب النصرانية وأخسّ مَن غمس في ماء المعمودية إنه قد بعث الله إلينا نبيّنا فهدانا من الضلالة وأنقذنا من الجهالة، وإننا قد ملكنا الله بأيدينا ما أغنانا به عن صدقتكم وأحلّ لنا أموالكم وأباح لنا نساءكم وأولادكم إلا أن تقولوا: لا إله إلا الله محمد رسول الله، فإن أبيتم ذلك فتؤدّوا الجزية عن يد وأنتم صاغرون، فإن أبيتم ذلك فالسيف حكم بيننا وبينكم حتى يحكم الله وهو خير الحاكمين والله ينصر مَن يشاء، وإن الحرب والقتال أحبّ إلينا وأشهى من الصلح، وإن كنتم تزعمون أنه لم تكن أمة أضعف منّا عندكم فأنتم عندنا بمنزلة الكلاب، فإن الواحد منّا يقاتل منكم ألفًا، وإن هذا ليس بخطاب مَن يطلب الصلح، فإن كان هذا الطمع ترجو به أن تصل إليّ بانفرادي عن أصحابي فذلك منك بعيد، وإن أردت القتال فدونك فإني كفء لك ولأصحابك إن شاء الله تعالى، فلما سمع بولص كلام خالد وثب في سرجه وقال: ليس لك عندي إلا هذا السيف، ثم جرّد نفسه ودنا من خالد رضي الله عنه وشابكه وضرب بيده في درعه ووثب كلٌّ منهما على الآخر واستغاث الملعون بأصحابه وقال لهم: بادروا إليّ فقد أمكنني الصليب من أمير العرب فابتدر إليه البطارقة

من كل جانب وخرج كردوس عظيم أكثر من مائتي فارس وجرّدوا السيوف وأتوا إلى خالد رضي الله عنه.

فلما رآهم خالد مقبلين إليه وثب وثبة الأسد وصاح بجواده وانتزع نفسه من البطريق بعد أن أحاطت به الروم وجاء كردوس ثانٍ وخالد يضرب فيهم يمينًا وشمالاً وعدوّ الله بولص يصيح ويقول: يا ويلكم خذوه قبل أن يفوتكم، قال: وكان ضرار والفضل بن العباس وعليّ بن عقيل وعبد الله بن المقداد وسليمان بن خالد رضي الله عنهم على كثيب قريب من الروم، فلما رأوا الروم والسيوف بأيديهم وقد أحاطوا بخالد ركضوا خيولهم، وكان أول مَن ابتدر للحرب ضرار بن الأزور رضي الله عنه وهو ينشد:

يا ربّ وفّقني إلى خير العمل اغفر ذنوبي إن دنا مني الأجل عليك ربي في الأمور المتّكل
باعي على الأعداء أضحى المتصل أنا ضرار الفارس القرم البطل وعنّي امح سيدي كل الزلل
ما لي سواك في الأمور من أمل أقمع بسيفي الروم حتى يضمحل

قال الراوي: حدّثنا رفاعة بن قيس. قال: حدّثنا حامد بن عياض عن أبيه عن جده عن نافع بن علقمة الربعي. قال: كنت في القلب في عسكر عمرو يوم وقعة الروم بمرج دهشور. قال: بينما نحن ننظر إذ رأينا السيوف جذبت وأحاطت بخالد بن الوليد فخرجنا كردوسًا من أجاويد الرجال من طرف الميمنة وبادرناهم ولحقناهم وإذا قد سبق مَن ذكرنا يعني ضرارًا والجماعة المذكورين، فكان أول مَن قَدِمَ على الروم ضرار وهو عريان بسراويله قابضًا على سيفه وهو يزأر كالأسد والقوم من ورائه مُتّبعوه حتى وصلوا وضرار أمامهم وهو واثب على جواده وثبة الأسد مسرعًا وهو يهزّ السيف وهو زاحف على بولص فارتعدت فرائصه. وقال: يا خالد دعني من هذا الشيطان واقتلني أنت ولا تدعه يقتلني فإني أتشاءم من طلعته. فقال: هو قاتلك لا محالة. هذا مبيد الأقران، هذا قاتل وردان وملك التركمان ومبيد عَبَدَة الصلبان ومَن يكفر بالرحمٰن، فبينما هم في المجاورة وإذا بضرار قد أقبل وهزّ سيفه وصرخ: يا عدوّ الله لم تغنِ عنك خديعتك شيئًا ولا غدرك بصاحب رسول الله ﷺ، ثم أراد أن يضربه بسيفه فصاح به خالد: اصبر يا ضرار حتى آمرك بقتله، ووصلت إليه أصحاب رسول الله ﷺ وكلٌّ يبادر إلى قتله، فقال لهم خالد: اصبروا. قال: ونظر بولص لعنه الله إلى ما حلّ به وقد جذبه ضرار من قربوس سرجه واقتلعه وجلد به الأرض فغشي عليه فأشار بأصبعه وقال: الأمان يا خالد. فقال له خالد: يا كلب النصرانية لا يعطى الأمان إلاّ لأهل الأمان أنت رجل أردت أن تمكر والله خير الماكرين، فلما سمع ضرار ذلك لم يمهله دون أن ضربه بالسيف على عاتقه الأيمن، فأطلع السيف يلمع من عاتقه الأيسر فسقط عدو الله يخور في دمه وعجّل الله بروحه إلى النار وبئس القرار وتبادرت أصحاب رسول الله ﷺ ووضعوا السيف فيهم، فلما رأى الروم

ما حلّ بهم حملوا بأجمعهم وتقدمت أصحاب الفيلة وعلى ظهورها الرجال والتقى الجمعان الفريقان واشتد القتال وعظم النزال وصفّت الصفوف وازدحمت وتلفت النفوس وقطعت الرؤوس وبطل القيل والقال وقتلت الرجال وزمجرت الأبطال واشتدّ القتال واتسع المجال وعَظُمَ البلاء واسودّت السماء وثار الغبار وقدحت حوافر الخيل الشرار وطمطمت السودان وكفروا بالرحمٰن وثار العجاج وزمجرت الأعلاج وقاتلت أصحاب الفيلة قتالاً شديدًا وقد قسموهم أربع فرق: فرقة مما يلي الميمنة، وفرقة مما يلي الميسرة، وفرقة مما يلي القلب، وفرقة مما يلي العسكر وتصايحت النوبة والبجاوة والروم، فللّه درّ خالد بن الوليد لقد قاتل قتالاً شديدًا، فكان تارة في القلب وتارة في الميمنة وتارة في الميسرة، وكذلك الأمير عمرو بن العاص والزبير بن العوام والفضل بن العباس الهاشمي والقعقاع بن عمرو التميمي وغانم بن عياض الأشعري رضي الله عنهم على الساقة مع النساء والولدان والذراري والصبيان وانقطع عبد الرحمٰن بن أبي بكر الصديق وعبد الله بن عمر بن الخطاب وهاشم بن المرقال إلى كردوس ينوف على ألف فارس من الروم والسودان فغاصوا في أوساطهم، وكان فيهم بطريق من بطارقة الكورة اسمه عرنان بن ميخائيل، فلما رأى ما حلّ به وبأصحابه بادر إلى الصليب ليقبّله وينظر إليه، ثم رطن الروم بلغتهم وأحاطوا بأصحاب رسول الله ﷺ وأرادوا أن يتمكّنوا منهم، فعندها وثب عبد الرحمٰن بن أبي بكر الصديق رضي الله عنه إلى ذلك البطريق فحمل عليه وكان عليه ديباجة صفراء من فوق درعه، وعلى رأسه بيضة تلمع كأنها كوكب وفي وسطه منطقة من الجوهر فتعاركا مليًا وتصادما سويًا، ثم إن عبد الرحمٰن ضربه بالسيف في نحره فأطاح رأسه عن بدنه، فلما رأى الروم ذلك حملوا على عبد الرحمٰن وأصحابه بأجمعهم حملة واحدة وصبر لهم أصحاب رسول الله ﷺ، وكلٌّ منهم مشتغل بنفسه عن نصرة صاحبه وأيقنوا بالهلاك. وخرج عبد الرحمٰن وفي يده جرح هائل والدم يسيل عن درعه فتناول السيف بيده اليسرى وجعل يقاتل بها وجرح هاشم بن المرقال أحد عشر جرحًا في يده وفي وجهه وهو يمسح الدم مرارًا فأيقنوا بالهلاك.

وكان الفضل بن العباس وبنو عمه ممّن ذكرنا تارة في الميمنة وتارة في الميسرة وحملوا في أعراض القوم حتى وصلوا الكردوس الذي فيه عبد الرحمٰن وعبد الله بن عمر وهاشم بن المرقال فوجدوا الروم قد أحاطوا بعبد الرحمٰن بن أبي بكر الصديق وعقروا جواده من تحته وأصحابه يذبّون عنه وعبد الله بن عمر تارة يمنع عنه بالسيف وتارة بالرمح وجراحاته تتدفق دمًا، وقد جرح عبد الله بن عمر في يده ستّ جراحات هائلة، فلما رأى الفضل ذلك بادر هو وأصحابه وكانوا عشرين فارسًا وخرقوا الصفوف وضرب فارسًا ممّن أحاط بعبد الرحمٰن على رأسه فقطع البيضة ونزل إلى أضراسه

فانجدل صريعًا يخور في دمه وعجّل الله بروحه إلى النار، فلما سقط عن جواده ابتدره عبد الرحمٰن وركب الجواد وقاتلوا أولئك حتى دفعوهم عن أصحابهم، وكانت جماعة من الأوس وهمدان مما يلي الجناح الأيسر فعطف عليهما كردوس من الروم والسودان فأزالوهم عن أماكنهم وكشفوهم عن مراتبهم وفرّوا بين أيديهم، فصاح بهم أبو هريرة رضي الله عنهم وابنه عبد الله ومالك بن الأشتر: يا قوم لا تولّوا فرارًا من الموت أتريدون أن تكونوا عارًا عند العرب فما عذركم غدًا بين يدي رسول الله ﷺ؟ أما سمعتم قول الله عزّ وجل ﴿فلا تولّوهم الأدبار ومَن يولّهم يومئذ دبره﴾ [الأنفال: ١٥، ١٦] الآية، الله الله الجنة تحت ظلال السيوف والموعد عند قبر المصطفى. قال: فلم يلتفتوا إليهم ولم يقبلوا كلامهم ووصلت الهزيمة إلى غانم بن عياض الأشعري وأصحابه والنساء والصبيان، فلما رأت النساء ذلك صِحْنَ في وجوههم وفعلن كما فعلن يوم اليرموك وصِرْنَ يضربن وجوه الخيل بالأعمدة وقاتلت خولة بنت الأزور قتالاً شديدًا، فلما رأى غانم ذلك، وكان معه قيس بن الحرث ورفاعة بن زهير المخزومي وخمسمائة فارس من أهل العدة والنجدة صاح غانم: النجدة يا أصحاب رسول الله فتواثبوا إليهم وحملوا عليهم حملة واحدة بصدق نيّة وثبات، فلما رأوا ذلك ولّوا منهزمين.

قال الواقدي: ولم يزل السيف يعمل في الرجال من أول النهار إلى وقت العصر وأنزل الله النصر على أصحاب رسول الله ﷺ وكانت الأفيال والرجال الذين على ظهورها تضرب أصحاب رسول الله ﷺ بالنشاب فجاء مفرج بن عيينة الفزاري إلى فيل مقدّم على أربعمائة فيل فطعنه في إحدى عينيه فاشتبك الرمح في عينه وما قدر أن يجذبه فبرطع الفيل هاربًا وألقى ما على ظهره من الرجال وداسهم برجليه فقتلهم فتبعته الفيلة التي خلفه، وألقت ما على ظهورها من الرجال وداستهم بأرجلها فصاح مفرج: دونكم وخراطيمها ومشافرها فإنها مقاتلة فابتدر بنو فزارة وبنو قراد وبنو عبس يضربون مشافر الفيلة حتى قتلوا منها مائة وستين فيلاً وقتلوا مَن على ظهورها من الرجال ولم يزل القوم في الكرّ والفرّ والقتال الشديد حتى جاء الليل وحجز الفريقين ورجعت الروم والسودان إلى أماكنهم وتفقد المسلمون مَن قتل منهم فإذا هم مائتان وأربعون رجلاً ختم الله لهم بالشهادة وتفقّد المشركون قتلاهم فإذا هم خمسة آلاف من النوبة والبجاوة والروم فبات المسلمون يتحارسون إلى الصباح ويقرؤون القرآن ويدفنون قتلاهم، فلما أصبح الصباح وقاموا إلى إصلاح شأنهم إذا بالروم والسودان قد أقبلوا بعددهم وعديدهم، وقد أظهروا زينتهم واصطفّوا خمسة كل صف أربعون ألفًا والمُشاة بين أيديهم خمسون ألفًا. قال قيس بن علقمة: لقد دخلت الشام والعراق ورأيت جنود كسرى والجرامقة واليرموك وأجنادين ووقعة مصر والقبط وفتح إسكندرية ودمياط فلم أرَ مثل كسرتهم في مرج دهشور، فلما رأيناهم وقد ركبوا ركب خالد وجعل يتخلّل الصفوف ويقول لهم: إنكم

لستم ترون بمصر والصعيد جيوشًا بعد هذا اليوم مثل هؤلاء وإن كسرتموهم فلا تقوم لهم قائمة أبدًا فاصدقوا في الجهاد وعليكم بالصبر وإياكم أن تولّوا الأدبار فتستوجبوا بذلك النار وألصقوا المناكب ولا تحملوا حتى آمر بالحملة.

قال الراوي: وإن البطارقة لمّا رأوا أصحاب رسول الله ﷺ قد عوّلوا على ضربهم شجّع بعضهم بعضًا، وقال لهم بطرس أخو بولس المقتول: اعلموا أنكم إن انكسرتم لا تقوم لكم قائمة بعد هذا أبدًا ويملكون بلادكم ويقتلون رجالكم ويسبون حريمكم وعليكم بالصبر ولتكن حملتكم واحدة ولا تتفرقوا وقدّموا الفيلة أمامكم، والرجالة خلف ظهوركم واستعينوا بالصليب فهو ينصركم.

قال الراوي: وأما عمرو وخالد فإنهما قالا: نريد مَن يكشف لنا عن القوم ويعود، فوثب الفضل بن العباس رضي الله عنه وقال: أنا، فسار حتى قرب من القوم ورأى زيّهم وأُهبتهم ورأى شعاع البيض والبيارق والرايات كأجنحة النسور، فلما رآه القوم قالوا: فارس قد طلع ولا شك أنه طليعة فأيّكم يبتدره فابتدره ثلاثون فارسًا، فلما نظرهم ولّى كأنه منهزم وركض قليلاً حتى بعد ثم لوى عنان الجواد نحوهم وطعن أول فارس والثاني والثالث فدخل رعبه في قلوبهم، فانهزموا وتبعهم وهو يصرع فارسًا بعد فارس حتى صرع منهم عشرين فارسًا، فلما قرب من الروم ولّى راجعًا إلى المسلمين وأعلمهم بذلك، فقالوا له: غررت بنفسك يا ابن عمّ رسول الله، فقال: إن القوم طلبوني وخفت أن يراني الله منهزمًا فجاهدت بإخلاص فنصرني الله عليهم، واعلموا أنهم لنا غنيمة إن شاء الله تعالى. قال فأقبل عمرو وخالد يرتّبان العساكر ميمنة وميسرة وجناحين كما تقدم في اليوم الأول، فجعل في الساقة زياد بن أبي سفيان بن الحرث في ألف فارس حول البنين والبنات والأموال، وكانت فيهم النساء اللاتي تقدم ذكرهنّ في أجنادين واليرموك، وهنّ: عفيرة بنت غفار وأم أبان بنت عتبة أُخت هند وخولة بنت الأزور ومزروعة بنت عملوق وسلمة بنت ذراع ولُبنى بنت سوار وسلمى بنت النعمان وهند بنت عمرون وزينب الأنصارية، فهؤلاء من النساء اللاتي عُرِفْنَ بالشجاعة، فقال لهنّ خالد: يا بنات العرب لقد فعلتنّ فِعالاً أرضيتنّ الله ورسوله والمسلمين بها وقد بقي لكنّ ذِكْر يتحدّث به جيلاً بعد جيل وهذه أبواب الجنان قد فتحت لكنّ، وأبواب النيران قد فتحت لأعدائكنّ، وإني أُحرِّضكنّ إذا جاءت الروم والسودان إليكنّ فقاتلن عن أنفسكنّ كما قاتلتنّ في يوم أجنادين ويوم اليرموك، فإن رأيتنّ أحدًا هاربًا فدونكنّ وإياه بالعمد وأشرفن عليه بولده وقلن له: إلى أين تولي عن أهلك وولدك وحريمك وحرّضن المسلمين على ذلك، فقلن: أيها الأمير ما يُفرِحنا إلا أن نموت أمامك يا أبا سليمان لنضربنّ وجوه الروم والسودان حتى لا يبقى لنا عذر. قال: فشكرهنّ على ذلك.

ثم عاد خالد إلى الصفوف وجعل يدور بينها بجواده ويحرّض الناس على القتال وهو يقول:

أيها الناس انصروا الله ينصركم، وقاتلوا مَن كفر واحبسوا أنفسكم في سبيل الله واصبروا على قتال أعداء الله، وقاتلوا عن حريمكم وأولادكم ولا تحملوا حتى آمركم بالحملة ولتكن سهامكم تخرج من كبد قوس واحد، فإن السهام إذا خرجت جميعًا لم يخلُ أن يكون فيها سهم صائب، واصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون... واعلموا أنكم لا تلقون بالوجه القبلي مثل هؤلاء اللئام فإنهم حُماتهم وبطارقتهم وملوكهم، فقالوا: سمعًا وطاعة، وأقبل خالد ووقف في القلب مع عمرو بن العاص وعبد الرحمٰن بن أبي بكر الصديق رضي الله عنه وقيس بن هبيرة ورافع بن عميرة الطائي والمسيب بن نجيبة الفزاري وذوي الكلاع الحميري وربيعة بن عباس ومالك بن الأشتر والعباس بن مرداس السلمي ونظائرهم من بقية الأمراء. ثم زحفوا بسكينة ووقار. فلما رأى الروم ذلك والسودان زحفوا وكانوا ملء الأرض طولاً وعرضًا، فلما التقى الفئتان، وتراكم الجمعان، وقد أظهر أعداء الله في زينتهم الصلبان والأعلام، ورفعوا أصواتهم بالكفر والبهتان، فبينما الناس كذلك إذ خرج راهب كبير عليه جبّة سوداء وقلنسوة وزنار فنادى بلسان عربي: أيكم أمير القوم فيخاطبني ويخرج إليّ فخرج إليه خالد. فقال له: أنت أمير القوم؟

قال خالد: كذلك يزعمون ما دمت على طاعة الله وسُنّة رسوله. فإن أنا بدّلت أو غيّرت فلا طاعة لي عليهم ولا إمارة. فقال القسّ: اعلم أنكم قد ملكتم بلادًا وقدمتم إلى بلاد ما جسر ملك من الملوك أن يتعرّض لها ولا يدخلها، وإن ملوكًا كثيرة أرادوها فرجعوا خائبين وأفنوا أنفسهم عليها، وإن النصر لا يدوم لكم وإن الملوك أرسلوني إليكم. فإن سمحتم نجمع لكم مالاً ونعطي لكل واحد منكم ثوبًا وعمامة ودينارًا ولك أنت مائة ثوب ومائة عمامة ومائة دينار ولكل واحد حمل من البرّ وحمل من الشعير ولك عشرة أحمال ولصاحبكم عمرو عشرة آلاف دينار ومثلها ثياب ومثلها عمائم ومائة حمل برّ ومائة حمل شعير وارحلوا عنّا وأنتم موقرّون أنفسكم، فإننا عدد الجراد ولا تظنونا كمَن لاقيتم من الفرس والروم وأهل الشام والقبط. فإن في هذا الجيش من النوبة والبجاوة والسودان والروم وكبار البطارقة والأساقفة ونجمع عليكم ما لا طاقة لكم به من بلاد السودان والواحات وكأنكم بالنجدة قد وردت علينا وإن بقية الروم لم تأتِ إليكم، وإنما أرسلوا مَن يقاتل عنهم، فقال خالد: والله ما نرجع عنكم إلا بإحدى ثلاث خصال: إما أن تدخلوا في ديننا أو تؤدّوا الجزية أو القتال، وأما ما ذكرت أنكم عدد الجراد فالله قد وعدنا بالنصر على لسان نبيّه ﷺ وأنزله في كتابه، وأما ما ذكرت أنكم تعطوننا من الثياب

والعمائم فعن قريب نلبس ثيابكم وعمائمكم ونملك بلادكم جميعها كما ملكنا الشام ومصر والعراق واليمن والحجاز والروم، فقال الراهب: أنا أرجع أُخبر أصحابي بذلك. فإني قد أتيت من قبل البطليوس صاحب مدينة البهنسا، وقد أرسلني إلى صاحب أهناس واتفق الملوك والبطارقة وأرسلوني إليكم، وأنا أرجع إليهم وأُخبرهم بجوابك. ثم إن القسّ لوى راجعًا من حيث جاء، فلما رجع إليهم وأخبرهم بذلك كاتبوا ملوكهم على ذلك وأرسلوا جوابهم بالقتال، فلما وصلت الكتب تقدّمت الروم والسودان وقدّموا بين أيديهم الفيلة وأمامهم الرجّالة بالقسيّ والسيوف والدرق والمزاريق فصاح الفضل بن العباس ورفاعة بن زهير المحاربي والقعقاع بن عمرو التميمي وشرحبيل بن حسنة والمقداد بن الأسود الكندي ومعاذ بن جبل، وقالوا: معاشر المسلمين اعلموا أن الجنان قد فتحت والملائكة قد أشرفت والحور تزيّنت وأشرفت من الجنان ثم قرأ **﴿إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة﴾** [التوبة: ١١١]. ثم رتّبوا الصفوف فتقدم خالد وقال: اقرنوا المواكب واثبتوا واعلموا أن هؤلاء أكثر منكم بعشرة أمثالكم وأزيد فطاولوهم إلى وقت العصر. فإنها ساعة النصر على الأعداء وإيّاكم أن تولّوا الأدبار وازحفوا على بركة الله وعونه.

قال الراوي: وتزاحمت السودان والبربر والنوبة والبجاوة، فلما تقارب الجمعان رمت أصحاب الفيلة نشابهم فكانت كالجراد المنتشر، فقتلوا رجالاً وجرحوا أبطالاً وخالد تارة يضرب بسيفه في الميمنة وتارة في الميسرة وكان في أصحاب الفيلة من السودان والبربر سواكن يسمّونهم القوّاد شِفاههم العليا مشقوقة وبها خزام من نحاس. فإذا كان وقت الحرب لا يخرجون القوّاد إلا إذا حمي الحرب واشتد الطعن والضرب وكانوا سودًا طِوالاً طول كل واحد منهم عشرة أذرع فإذا أرادوا الحرب جعل في كل خزام سلسلة بطرفين في كل طرف واحد من البربر. فإذا وقع صلح بين الفريقين وإلا زحفوا بهم وأطلقوا السلاسل ودفعوا لهم أعمدة من حديد طوالاً فيضرب الواحد الفارس والفرس فيقتلها بضربة ومنهم مَن يركب الفيلة ويقاتل على ظهورها، فلما التقى الجمعان خرجت تلك القوّاد وعلى أجسادهم جلود النمور وفوق أكتافهم مربوطة على صدورهم وفي أوساطهم مثل ذلك وهم عُراة الأجساد والرؤوس ليس عليهم غير ما ذكرنا وبأيديهم الأعمدة والرجال يقودونهم بتلك السلاسل والجيوش ينظرون متى يؤمرون بالحملة. فلما رأى المسلمون ذلك فمنهم مَن ثبت ومنهم مَن جزع. قال: وبرز البطريق أخو بولص المقتول وهو راكب على جواد عالٍ وعليه لحاف من جلود الفيلة وقاتل.

قال الراوي: حدّثني خالد بن أسلم عن طريف بن طارق وكان من الأزد. قال: لمّا فعل البطريق ذلك ولّت الأزد من بين يديه منهزمين، وإذا بفارس قد أقبل يركض

بجواده، وهو عاري الجسد حتى قرب من القوم، وأنشد يقول:

لقد ملكت يدي سنانًا وصارمًا أذلّ عداة السوء إن جئت قادمًا
وأتركهم شبه الرخام إذا مشى عليه شجاع لا يزال مصادمًا
وإلا كأغنام مضين بقفرة وأصبح مولاها عن السعي نائمًا
وقد ملك الليث الغضنفر جمعها وأصبح فيها بالمخالب حاطمًا

قال الراوي: وصاح الفارس: أنا ضرار بن الأزور، أنا قاتل ملوك الشام، أنا ضرار دين الإسلام، والمسلّط على مَن يكفر بالرحمٰن، أنا قاتل بولص الكلب ذي الطغيان. قال فلما سمع الروم كلامه عرفوه فتقهقروا إلى ورائهم فطمع فيهم وحمل عليهم، فقال بطرس: مَن هذا البدوي الذي لم يزل عاري الجسد ويقاتل بالسيف مرة وبالرمح مرة؟ قالوا: هذا ضرار بن الأزور فتحيّر الملعون، وقال: هذا قاتل أخي، ولقد اشتهيت أن آخذ بثأره، ثم عزم على الخروج إليه فسبقه بولص رأس بطارقة الكورة، وقال: أنا آخذ بثأرك. ثم حمل على ضرار فتجاولا طويلاً واعتركا مليًا فما كان أكثر من ساعة حتى طعنه ضرار طعنة صادقة في صدره خرقت الدروع، وخرجت من ظهره فانجدل صريعًا وعجّل الله بروحه إلى النار، فقال بطرس: هذا جنّيّ وليس للإنسان أن يقاتل الجنّ، ثم لبس لامة حربه وتعصّب بعصابة من اللؤلؤ الرطب ولبس فوق درعه مثل ذلك وخرج يطلب ضرارًا فسبقه شذم أدرس أحد بطارقة الكورة وحلف لا يخرج إليه وغيره وحمل على ضرار، وقال: دونك والقتال، فلم يفهم ضرار ما يقول. ثم حمل عليه وأخرج صليبًا من الذهب كان معلقًا في عنقه فضحك ضرار عليه، وقال: أنت تستعين بالصلبان وأنا أستعين بالملك الديّان.

ثم أرى كلٌّ منهما ما أدهش الناس من الحرب فصاح خالد وبقية الأمراء: ما هذه الفترة يا ضرار والجنة قد فتحت لك، ولعدوّك قد فتحت النار. فاستيقظ ضرار وحمل على البطريق وصاحت الروم بصاحبها وصاروا في حرب عظيم وحميت عليهم الشمس، وثارت الحرب حتى كلَّ منهما الساعدان وعرق تحتهما الجوادان فأشار البطريق إلى ضرار أن يترجّل ويترجّل البطريق معه شفقة على الجوادين، وإذا برأس بطارقة أهناس قد أخرج له جوادًا مجلّلاً بالحرير ليركبه، فلما نظر ضرار إلى ذلك صاح بجواده: اثبت معي هذه الساع وإلا أشكوك لرسول الله ﷺ فذرفت عين الجواد بالدموع وحمحم وجرى أكثر من جريه المعتاد وتلقّى ضرار البطريق وحمل عليه وطعنه بعقب الرمح فأرداه وأخذ جواده وأراد قتله، وإذا بكردوس خرج من الروم ومعهم الكلب الكبير شاول أحد بطارقة الأشمونيين وأحاطوا بضرار وكان على رأس شاول تاج من الذهب الأحمر، فلما رأى الصحابة الكردوس الذي خرج على ضرار والتاج يلمع على رأسه. قالوا لخالد: ما سبب

قعودنا عن نصرة صاحبنا، وقد أحاطت به الروم؟ فعندها خرج خالد رضي الله عنه في عشرة من خيار قومه وهم الفضل بن العباس بن عبد المطلب وأخوه وعبد الله بن جعفر ومسلم وعلي أولاد عقيل وعبد الله بن عمر بن الخطاب وعبد الرحمٰن بن أبي بكر الصديق وعبد الله بن عمرو بن العاص وعبد الله بن المقداد وقوّموا الأسنّة وأطلقوا الأعنّة وصبر ضرار للروم حتى وصلت إليه الأمراء، وقالوا:

أبشر يا ضرار فقد أتاك النصر والفرج وقد ذهب عنك الخوف والجزع فلا تخف من الكفّار واستعن بالله الواحد القهّار، فقال ضرار: ما أقرب الفرج من الله والتقت الرجال بالرجال وطلب خالد صاحب التاج والعصابة وضرار مع خصمه، فلما رأى شاول البطريق المسلمين قد أحدقوا به وما حلّ بجماعته اندهش وارتعد، هذا وضرار مع خصمه وقد أراد الهرب فألقى ضرار نفسه من على جواده وتبعه حتى لحقه. ثم رمى الرمح من يده وتواخذا بالمناكب وتصارعا وكان عدو الله كأنه قطعة من جبل وضرار نحيف الجسم غير أن الله أعطاه حولاً وقوة، فلما طال بينهما العراك ضرب ضرار بيده في بطن عدو الله فقلعه وجلد به الأرض فصاح يستنجد بالبطارقة وتصارخت الروم والسودان وأصحاب رسول الله ﷺ فلم يمهله ضرار دون أن ركب عليه، وهو يعجّ كالبعير، فعندها أظهر ضرار سيفه ومكّنه من نحره فقتله فزعق زعقة سمعها العسكران فحملت الروم والسودان، هذا وضرار قد احتزّ رأسه وقام عن صدره وهو ملطخ بالدماء. ثم كبّر المسلمون ودنا الفريقان بعضهم من بعض والتحمت الأبطال، وقوي القتال، وعظم النّزال، وسال العرق، وازورّت الحدق، وعظمت الرزايا وأظلمت الدنيا، ودارت رحى الحرب، وقوي الطعن والضرب، وضاقت الصدور، واشتدت الأمور، وضاقت المذاهب، وقطعت المناكب، وما كنت ترى إلا دمًا فائرًا، وكفًا طائرًا، وجوادًا غائرًا هذا وقد زحفت السودان، وأصحاب السلاسل ذوو الكفر والطغيان، وضربوا بالأعمدة الحديد، ويومهم يوم شديد، وبانت الشجعان، وفرّ الجبان، وبقي حيران، وعمرو بن العاص يحرّض الناس على القتال، ويقول: يا أيها الناس ويا حَمَلَة القرآن اذكروا غُرَف الجنان، فسُرَّ الناس بقوله ونشطوا وصارت السودان يضربون الفارس مع الفرس بالعمد الحديد فيقتلونهما جميعًا، وكذلك أصحاب الفيلة يرمون بالنشاب، ويضربون بالحِراب إلى أن جاء وقت العصر، وقد قتل من الفريقين خلق كثير وظفر خالد بخصمه شاول لعنه الله وضربه بالسنان في صدره فخرج السنان يلمع من ظهره ووقع على الأرض يخور بدمه وعجّل الله بروحه إلى النار وبئس القرار. قال ولمّا عظم القتال والبلاء، قال رفاعة المحاربي، وقد انتخب من بني محارب ولبيد ومالك خمسمائة فارس وقصد الفيلة، وقال: يا وجوه العرب دونكم وأعينها ودنا من الفيل الأبيض، وهو قائدها وهي خمسمائة فيل وتقدم

إليه والسيف في يده، وهو ينشد ويقول:

يا لك من ذي جثة كبيرة لقيت كل شدة خطيرة
اليوم قد ضاقت بك الحظيرة حتى تُرى ملقى على الحفيرة

قال: ثم ضربه بالسيف فولّى هاربًا. ثم برك وكان عليه عدة من السودان في قبة من الأديم فلما سقط الفيل إلى الأرض قام علج على ظهره وفي يده عمود فضرب به رفاعة فزاغ عنه وضربه رفاعة على عاتقه الأيمن فأطلع السيف يلمع من عاتقه الأيسر فسقط عدو الله يخور في دمه وعجّل الله بروحه إلى النار فتلاحقت العرب بأعجاز الفيلة وصاروا يطعنون الفيلة في أعينها كما ذكرنا فولّوا منهزمين. قال: وقصد خالد والمقداد وأجواد الأمراء القوّاد الذين تقدّم ذكرهم وطلبوا من الله النصر والثبات وصاروا يأتونهم وهم فارس عن اليمين وفارس عن اليسار فيقتلون مسّاك السلاسل ثم يمسكون أطراف السلاسل ويطلقون الأعنّة فينقاد معهم كالبعير الشارد فيأخذون العمود من يده ويقتلونه شرّ قتلة ولم يزل القوم في قتال ونزال وأهوال حتى جاء الليل وحجز بين الفريقين وقد قتل من الفريقين خلق كثير فأما المسلمون فقد قتلوا منهم اثني عشر ألفًا من الملوك والبطارقة خمسة عشر بطريقًا وملكًا من السودان وغيرهما، وبات المسلمون يتحارسون إلى الصباح.

قال الراوي: وكان قد أثخن بالجراح جماعة من المسلمين في ذلك النهار وكان المسلمون طائفة يدفنون القتلى، وطائفة يُداوون الجرحى، وطائفة يقرؤون القرآن، وطائفة يصلّون وطائفة نِيام من كثرة ما لحقهم من التعب، وخالد بن الوليد والزبير بن العوام والمقداد بن الأسود وعبد الرحمٰن بن أبي بكر الصديق رضي الله عنهم يدورون حول العسكر إلى الصباح، فلما لاح الفجر أذّن المؤذّنون وصلّى عمرو بن العاص بالناس الصبح بسورة الفتح. ثم دعوا الله عزّ وجل أن يرزقهم النصر. ثم تبادروا إلى خيولهم فركبوها ورتبوا صفوفهم كما ذكرنا فيما تقدم بالأمس، فلما فرغ المسلمون من تعبية الصفوف أقبل الأمراء يحرّضون الناس على القتال وقد جعلوا على الساقة رافع بن عميرة الطائي والحرث بن قيس ورفاعة بن زهير في خمسمائة فارس.

قال الراوي: قال عبادة بن رافع حدّثنا سالم بن مالك عن عبد الله بن هلال وكان في خيل رافع. قال: لمّا رتبت الصفوف والتقى الجمعان وكثر القتال وكل واحد اشتغل بنفسه ونحن نذبّ عن النساء والصبيان، والنساء اللاتي تقدم ذكرهنّ يقاتلن أشد القتال إذ جاءنا كردوس عظيم من البطارقة والسودان والبجاوة ومعهم زهاء من ستمائة فيل وغافلونا ونحن مشغولون بالقتال واقتطعوا قطعة كبيرة من الإبل والرجال والنساء والصبيان زهاء من ألف بعير ومائتي امرأة وغير ذلك، وكان في ذلك زائد بن رباح البكري وعباد بن عاصم

الغنوي ومعهما مائتا فارس فقاتلوا قتال الموت حتى أثخنوا بالجراح وقاتلت النساء بالأعمدة والخناجر، فللّه درّ عفيرة بنت غفار وسلمى بنت زاهر ونظائرهما من النساء لقد قاتلن حتى ضربن بالسيف على رؤوسهنّ وسالت الدماء على وجوههنّ وهنّ يقلن: الله الله يا نساء العرب قاتلن عن العسكر وعن أنفسكنّ وإلا صرتنّ بأيدي الأعلاج الغلف والسودان فقاتلن قتال الموت وقتل من المسلمين خمسة عشر نفرًا ختم الله لهم بالشهادة وساقوا النساء والصبيان.

فرجع فارس إلى خالد بن الوليد وعمرو بن العاص وأعلمهما بذلك وهم في أشد القتال فتصايح المسلمون وخرج جماعة من الأمراء من وسط المعركة وهم الفضل بن العباس وعبد الله بن عمر بن الخطاب وعبد الرحمٰن بن أبي بكر الصديق وزياد بن أبي سفيان وعبد الله بن أبي طلحة وضرار بن الأزور وجماعة من الأمراء وتبعهم ستمائة فارس من العرب من صناديد القوم وأدركوهم عند أول الجبل وهم يريدون جهة الفيوم، فعند ذلك زعق ضرار والفضل بن العباس: إلى أين يا أعداء الله؟ فتراجعت الروم والسودان عنهم واقتتلوا قتالاً شديدًا فابتدر ضرار إلى مقدّم السودان وطعنه في صدره فأطلع السنان يلمع من ظهره، وكذلك الفضل بن العباس تقدّم إلى بطريق عظيم وطعنه في لبّته فأطلع السنان يلمع من قفاه فانجدل يخور في دمه وعجّل الله بروحه إلى النار. قال واستمروا يقاتلون حتى قتلوا مقتلة عظيمة، فلما عاينوا ذلك ألقوا ما بأيديهم من الغنيمة وولّوا وتواثب المسلمون وردّوا السبي والحريم وردّوا الأسارى وحلّوهم وساعدتهم النساء بالأعمدة والسيوف والخناجر، فكانت النساء يضربن وجوه الخيل بالعمد فيكبو الجواد بصاحبه فتتعلق المرأة بالفارس وتجذبه إلى الأرض فتجلد به الأرض ثم تضربه فتقتله حتى قتلن جماعة من الروم والسودان والبجاوة وغيرهم. فلما رأوا ذلك ولّوا منهزمين من بين أيديهم وتبعتهم المسلمون يقتلون ويأسرون حتى قتلوا منهم مقتلة عظيمة وأسروا منهم نحو ستمائة أسير من الروم والسودان وزحفوا وقد غنموا أسلابهم وخيولهم.

قال الواقدي: هذا ما جرى لهؤلاء، وأما العسكر فإنهم لم يزالوا في قتال شديد وأمر عتيد وضرب وطعان وقتل رجال وجندلة أبطال وفرسان، وقد قامت الحرب على قدم وساق، وضربت الأعناق وصالت الشجعان وولّى الجبان حيران ودارت رحى الحرب واشتدّ الطعن والضرب وقطعت المعاصم وطارت الجماجم وحامت طيور المنايا وعظمت الرزايا واشتد الزحام وعظم المرام وضاقت الصدور وعظمت الأمور واشتد الغبار وقلّ الاصطبار وقاتلت الأمراء بالرايات وبربرت السودان بلغاتها ورفعت الروم أصواتها وضربت ببوقاتها وطعنت برماحها ورمت بنشابها وحارت الأفكار وعميت الأبصار وثار الغبار وأظلم النهار، وكان شعار المسلمين: يا نصر الله انزل وصبر المسلمون لهم صبر الكرام،

فللّه درّ الزبير بن العوام والمقداد بن الأسود والفضل بن العباس وعقبة بن عامر والمسيب بن نجيبة الفزاري ونظائرهم من الأمراء فلقد قاتلوا قتالاً شديدًا وأبلوا بلاءً حسنًا وصبروا صبر الكرام.

وأما عمرو وخالد والقعقاع بن عمرو وسعيد بن زيد فلقد كانوا يقاتلون قتال الموت وزحفت الفيلة برجالها وقاتلت الروم بأبطالها والسودان بأفيالها، وقد كانت أصحاب الفيلة تعطف على خيل العرب ويرمون بالنشاب فيخرج كالجراد المنتشر حتى قلعت أعين كثيرة في ذلك اليوم فما كنت تسمع إلا مَن يصيح وايداه والفيلة تحطم والسودان يرمون الأبطال، فعندها وثب رفاعة بن زهير المحاربي وأتى إلى خالد وعمرو، وقال: أيها الأمراء إن دام هذا الأمر هكذا هلكنا عن آخرنا. قالا: فما الرأي يا أبا حازم؟ قال: الرأي أن نجمع ثيابنا ونغمسها زيتًا ودهنًا ونجعلها على رؤوس الرماح ونجعل في أعلاها نارًا، ثم نأمر رجالاً يجمعون القيصوم وغيره ونجعله في غرائر على ظهور الجمال عريًا ونشغلهم بالقتال، ثم نأتي الفرسان تمانعم وتُساق عليهم الجِمال فإنها إذا أحسّت بالنار حطّمتهم فلا يصبرون على ذلك والمعونة من الله تعالى فاستصوبوا رأيه وأعدّوا رجالاً لذلك وناوشوهم القتال فلم يكن إلا ساعة حتى تهيّأت المكيدة وجعلوا من الفرسان ألف فارس وصبغوا تلك الثياب بالدهن والزيت وأطلقوا النيران برؤوس الأسنّة وحملوا الغرائر بالقيصوم وغيره وأشعلوا فيه نارًا ووضعوا الجِراب في أجناب الإبل، فلما أحسّت بالجِراب في أجسامها والنار في ظهورها فعندها حطّمت الروم والسودان، فلما رأت الفيلة ذلك طارت عقولها وقطعت سلاسلها وداست قوّادها ورمت ما على ظهورها من الرجال وداستهم بأخفافها ورجعت خيل الروم وبراذينها وهربت بِغالها وذابت قلوب رجالها وضربت الأمراء في الأعداء بسيوفها وطعنت برماحها ورمت بنشابها. قال المسيب بن نجيبة: ولقد رأينا طيورًا أظلّتنا في زيّ النسور وكان الطائر يرفرف بجناحه على وجه الكافر ورأسه، ثم يضع مخالبيه في عينيه فيرميه إلى الأرض فلم تكن إلا ساعة بعد صلاة العصر حتى ولّت الروم الأدبار وركنوا إلى الفرار وتبعهم المسلمون يقتلون ويأسرون حتى جاء الليل وأظلم النهار ووصلت الهزيمة إلى القرية المعروفة بالدير وإلى اللاهون وإلى أهناس وإلى ميدوم وتبعتهم المسلمون الليل كله إلى الصباح وقد تفرّق شملهم وشرد، جمعهم وأُسِرَ منهم جماعة كثيرة نحو خمسة آلاف، وقتل منهم ما لا يحصى.

قال رافع بن أزد الجهني: لمّا رجعنا إلى مكان المعركة وجدنا الأرض قد امتلأت من قتلى الروم والسودان والبجاوة وغيرهم واختلط جماعة من قتلى المسلمين بهم ما عرفناهم من الروم إلا أن الروم كان بأيديهم صلبان، والمسلمون ليس لهم ذلك فميّزناهم منهم بذلك وجمعنا جريد النخل والقصب ووضعنا على كل قتيل جريدة أو

قصبة وذلك في مكان المعركة، ثم جمعناها وحصرناها فإذا الكفّار تسعون ألفًا وقتل في الجبال والطرقات ما لا يحصى وتفقد المسلمون مَن قتل منهم فإذا هم خمسمائة وثلاثون رجلاً، وجمعت المسلمون الغنائم والأموال ثم قسمت وأخرج عمرو منها الخمس وكتب كتابًا بالفتح وما جمعه من الخمس واستدعى بالأمير هاشم بن المرقال رضي الله عنه وندب معه ثلاثين رجلاً من خيار الجند وأمره بالمسير إلى المدينة وأقام المسلمون بالمرج بعد الوقعة خمسة أيام حتى استراحوا ورجع مَن كان خلف المنهزمين، ثم اجتمعوا إلى عمرو واستأذنوه في المسير إلى الوجه القبلي فأذِنَ لهم وودّعهم ودعا لهم وقال: يعزّ عليّ فراقكم ولو أن أمير المؤمنين لم يأمرني بالمسير ما فارقتكم، ثم رجع معه ثلاثة آلاف ومائة وعشرون وكان جملة مَن قتل ثمانمائة وثمانين ختم الله لهم بالشهادة وقيل: ألف وقيل: تسعمائة وأربعون على اختلاف الرواة، والله أعلم أيّ ذلك كان.

قال الراوي: ما أخذت في هذا الكتاب إلا على قاعدة الصدق والمعونة من الله تعالى، فلما ملكت المسلمون البلاد وأذلّت أهل الشِّرك والفساد، وذلك ببركة الصحابة رضي الله عنهم، فهم الرجال الأبطال والسادة الأخيار والمهاجرون والأنصار وأصحاب محمد المختار الذين فتحوا بسيوفهم الأمصار وأذلّوا الكفّار وأرضوا العزيز الغفّار وباعوا نفوسهم لله الواحد القهّار بجنّات تجري من تحتها الأنهار.

قال الراوي: لمّا رجع المنهزمون إلى الملوك والبطارقة وأخبروهم بذلك وقع الرعب في قلوبهم وحاروا في نفوسهم ولم يدروا ما يدبّرون وما يصنعون. قال: فصعب على بطريق أهناس وعلى صاحب البهنسا ما صنع ببطارقتهما وعوّلوا على الحصار وجمعوا الآلة وصاروا يخرجون ما يحتاجون إليه وتيقنوا أن لا بدّ للحرب من أرضهم ووطّنوا أنفسهم، وكذلك بطارقة الصعيد وملوكه وضاقت نفوسهم مما حلّ بهم.

قال الراوي: ووصل الكتاب إلى عمر بن الخطابَ رضي الله عنه ففرح بذلك فرحًا شديدًا وقرأ الكتاب على عليّ بن أبي طالب وعثمان بن عفان وعبد الرحمٰن بن عوف والعباس بن عبد المطلب عمّ رسول الله ﷺ ففرحوا بذلك فرحًا شديدًا، ثم قسمت الغنائم على أهل المدينة وقسم لنفسه كأحدهم رضي الله عنه وكتب جواب الكتاب ودفعه لهاشم، وقال له: قل لعمرو يحثّ الصحابة ويحرّضهم على فتح الصعيد.

قال الراوي: وأما عمرو بن العاص رضي الله عنه فإنه لم يرجع إلى مصر حتى قسم الغنائم بين الصحابة وفضل أصحاب الولاء وأهل السابقة ورجع إلى مصر بعد أن جهز العساكر إلى الصعيد.

قال الراوي: ولما فارق عمرو بن العاص خالد بن الوليد والأمراء رضي الله عنهم استشار بعضهم بعضًا أيّ مكان يقصدون؟ فاتفق رأيهم أن يسيّروا ألف فارس طليعة وأمّر عليهم قيس بن الحرث ومعه جماعة من أمرائهم. منهم رفاعة بن زهير المحاربي والقعقاع بن عمرو التميمي وعقبة بن عامر الجهني وذو الكلاع الحميري رضي الله عنهم وصاروا يسيرون في وسط البلاد وبقية العساكر قريبة منهم، فمَن أطاعهم وطلب الأمان أمّنوه وصالحوه ووضعوا عليه الجزية ومَن أبى قاتلوه ومَن أسلم تركوه، وسار خالد ببقية الجيش يريدون أهناس فإنها كانت أعظم مدائن الوجه القبلي بعد الكورة وكانت حصينة آهلة بالخيل والآلة والعدّة، ولما أحسّ بطريقها بمجيء الصحابة إليهم جمع البطارقة، وقد انكسرت جنودهم وخمدت نيرانهم وكلمتهم بانهزام جيوشهم وشاورهم في أمرهم، وقال لهم: خذوا أُهبتكم وقاتلوا عن حريمكم وأموالكم وإلا صرتم عبيدًا للعرب يفعلون بكم ما يختارون، وإن شئتم صالحناهم حتى يعلم ما يكون من بطارقته، فأجابوه وقالوا: لا نسلم البلاد حتى نغلب ونجمع أموالنا في هذه المدينة الحصينة ونقاتل، فإن غلبنا عوّلنا على الحصار واتفق رأيهم على ذلك، فكان الذي أجابهم إلى ذلك خرج بنفسه وأمواله ومَن لم يجبهم إلى ذلك أقام، وكذلك بطارقة البهنسا: منهم مَن انتقل إلى البهنسا بماله وأولاده، ومنهم مَن أقام ببعض المدائن ممّن عوّلوا على الإقامة والحصار والقتال.

وسار خالد بالجيش حتى قرب من أهناس وبين يديه الطلائع والأمراء وهم يشنّون الغارات على السواحل والبلاد، فمَن خرج إليهم وصالحهم وعقد معهم صلحًا صالحوه ولهم الميرة والعلوفة والضيافة ومَن أبى دعوه إلى الإسلام، فإن أبى طلبوا منه الجزية، فإن أبوا شنّوا عليهم الغارة حتى وصلوا قريبًا من أهناس وبلغ الخبر إلى عدو الله. فقال: لا بدّ من لقائهم وقتالهم حتى أنظر ما يكون من أمرهم، ثم خرج إلى ظاهر المدينة قريبًا من السور ولم يبعد عنها، وكان للمدينة أربعة أبواب فأغلق ثلاثة وفتح الباب الشرقي وأخرج الخيام والسرادقات وأكثر من العدّة والزينة، وقال: إن دخلنا المدينة من غِير قتال طمعت العرب في جانبنا. ثم فرّق بطارقته وعرض جيشه فكانت عدّتهم خمسين ألفًا، وقال اثبتوا وقاتلوا عن حريمكم ولا تكونوا أول جند أخذوا وأقاموا يتأهّبون للقتال وينتظرون قدوم الصحابة رضي الله عنهم.

قال الواقدي: وأما خالد فلما قرب من أهناس استدعى بالزبير بن العوام وضمّ إليه ألف فارس من الأمراء وغيرهم وأمره بالمسير، ثم استدعى بالفضل بن العباس وضمّ إليه ألف فارس وسار على أثره، ثم استدعى بميسرة بن مسروق العبسي وضمّ إليه ألف فارس وسار على أثره، ثم استدعى بزياد بن أبي سفيان وضمّ إليه ألف فارس وسار على أثره،

ثم استدعى بمالك الأشتر النخعي وضمّ إليه ألف فارس وسار على أثره وسار خالد ببقية الجيش.

قال: حدّثنا عون بن سعيد. قال: حدّثنا هاشم بن نافع عن رافع بن مالك العلوي. قال: كنت في خيل الزبير بن العوام رضي الله عنه لمّا توسطنا البلاد وتعرّضنا لأهلها وشننّا الغارة على السواد فوجدنا قطيعًا من الغنم ومعها رُعاة، فلما أحسّوا بنا تركوها ومضوا فسقناهم، ثم سرنا قليلاً وإذا بنساء وصبيان مشرفة ونصارى من القبط وغيرهم، فلما رأونا فرّوا وكان معهم عشرون فارسًا من العرب المتنصرة من جذام ومعهم بطريق من البطارقة عليه الزينة الفاخرة، فلما عاينونا فرّوا من بين أيدينا فأطلقنا الغارة عليهم، فما كان غير بعيد حتى أدركناهم وقبضنا عليهم وسألناهم فأجابوا بأنهم من قرى شتى وأنهم يريدون أهناس فعرضنا عليهم الإسلام فامتنعوا فأردنا قتلهم فمنعنا من ذلك الزبير رضي الله عنه وقال: حتى يحضر الأمير خالد ويفعل ما يريد. قال: وسرنا حتى قربنا من أهناس ورأينا المضارب والخيام والسرادقات، فأعلن الزبير بالتهليل والتكبير وكبّر المسلمون حتى ارتجّت الأرض لتكبيرهم وخرجت الروم إلى ظاهر خيامهم ينظرون إلينا وعدو الله مارنوس بن ميخائيل ينظر إلينا والحجّاب والنوّاب وأرباب الدولة من البطارقة حوله وعليهم أقبية الديباج وعلى رؤوسهم التيجان المكلّلة وبأيديهم العُمُد المذهّبة والسيوف وهم محدقون به عن يمينه وشماله. قال: فلما أقبلنا عليهم تصايحوا ورطنوا بلغتهم وأعلنوا بكلمة كفرهم واستقلونا في أعينهم، ولما قرب الزبير من القوم هزّ الراية وأنشد يقول:

أيا أهل أهناس الطغاة الكوافر ... ويا عصبة الشيطان من كل غادر
أتتكم ليوث الحرب سادات قومها ... على كل مشكول من الخيل ضامر
فإن لم تجيبوا سوف تلقون ذلّة ... ونقتل منكم كل كلب وفاجر

قال الراوي: ثم نزلنا من القوم، فلم يكن غير قليل حتى أقبل الفضل بن العباس رضي الله عنه وحوله السادات الأماجد، فكبّر وكبّروا معه وهزّ الراية وأنشد يقول:

أيا أهل أهناس الكلاب الطواغيا ... أتتكم ليوث الحرب فاصغوا مقاليا
أقرّوا بأن الله لا ربّ غيره ... وألا تروا أمرًا عظيمًا مدانيا
أقرّوا بأن الله أرسل أحمدًا ... نبيًا كريمًا للخلائق هاديا

قال الراوي: ثم نزل قريبًا من أصحابه، فلم تكن إلا ساعة حتى أقبل الأمير ميسرة بن مسروق العبسي وكبّر هو والمسلمون فأجابه المسلمون فهزّ الراية

وأنشد يقول:

أتينا لأهناس بكل غضنفر على كل صاهل من الخيل أجرد
فإن هم أطاعونا شكرنا فعالهم وإلا أبدناهم بكل مهند
ونخرب أهناسًا ونقتل أهلها إذا خالفوا دين النبي محمد

قال الراوي: ونزل قريبًا من الفضل، ولما كان غروب الشمس أقبل زياد بن أبي سفيان رضي الله عنه بمَن معه وكبرّ هو والمسلمون وهزّ الراية وأنشد يقول:

هلمّوا إلى أهناس يا آل هاشم ويا عصبة المختار نسل الأعاظم
ودونكم ضرب السهام بشدة وقطع رؤوس ثم فلق جماجم
لننصر دينا للنبي محمد نبي الهدى المبعوث من آل هاشم

قال الراوي: وبات المسلمون رضي الله عنهم يقرؤون القرآن ويصلّون على النبي ﷺ وهم يتحارسون حتى لاح الفجر، ثم أقبل المقداد رضي الله عنه بأصحابه وكبّر هو والمسلمون، ولمّا قرب من أصحابه هزّ الراية وأنشد يقول:

أنا الفارس المشهور في كل موطن وناصر دين النبي محمد
لعل ننال الفوز عند الهنا فيا فوز مَن أضحى نزيل المؤيد
ونقتل عباد الصليب جميعهم بأسمر خطى وعضب مهند

قال الراوي: ونزل بإزاء الفضل، وتكلم الأمراء المتقدّم ذكرهم. قال: ولمّا رأونا ظنوا أن ليس وراءنا أحد وقعدنا ذلك اليوم ولم نكلمهم ولم يكلّمونا. فلما كان اليوم الثاني عند طلوع الشمس إذا بالغبار قد طلع والقتام قد ارتفع من خيول عادية وعليها فوارس حجازية، وكبّر المسلمون ورفعوا راياتهم الإسلامية وأعلامهم المحمدية، فسمع أصحاب رسول الله ﷺ الصياح فخرج الأمراء إلى لقائهم وإذا في أوائلهم خالد بن الوليد رضي الله عنه وإلى جانبه غانم بن عياض الأشعري وأبو ذر الغفاري وأبو هريرة الدوسي واسمه عبد الرحمٰن وبقية الأمراء المهاجرون والأنصار، فلما رأت الروم ذلك من قريب دخل الرعب في قلوبهم ونزل أصحاب رسول الله ﷺ قريبًا من أهناس كلٌّ منهم في مركزه، وأقاموا ذلك اليوم فلما كان اليوم الثالث جمع خالد الأمراء وأصحاب الرايات واستشارهم فيمن يمضي إلى بطريق أهناس. فقال المقداد: أنا له. فقال خالد: أنت له فخذ مَن شئت. فأخذ معه ضرار بن الأزور وميسرة بن مسروق العبسي، وقال لهم خالد: ادعوه إلى الإسلام، فإن أبى فالجزية، فإن أبى فالقتال واحرصوا على أنفسكم.

قال الراوي: وساروا إلى القوم حتى قربوا من العسكر وهم يدوسون بخيولهم أطناب الخيام والسرادقات، فصاحت بهم الحجّاب: مَن تكونون؟ فقالوا: نحن رُسُل فأعلموا البطريق بذلك فأمر بإحضارهم، فلما حضروا بين يديه صاحت بهم الحجّاب والنوّاب أن قبّلوا الأرض للملك، فلما يلتفتوا إليهم ولم ينزلوا إلا على باب سرادق الملك ووقفوا على الباب فأذِنَ لهم في الدخول فدخلوا وأمسكوا لجم خيولهم، فأراد الغلمان أن يمسكوها فامتنعوا من ذلك فأشار إليهم البطريق فتركوهم، ثم دخلوا عليه فإذا هو جالس على سرير من الذهب مرصّع بالدرّ والجوهر وحوله البطارقة جلوس، والحجّاب والنوّاب وأرباب الدولة قيام وبأيديهم السيوف والأعمدة والرماح، فلما رآهم تغيّر لونه واندهش وأذِن لهم بالجلوس. فقالوا: لا نجلس على هذه الفرش فإنه حرام علينا، فأمر بالبسط الحرير فرُفِعَت، حتى فرش أنطاعًا من الصوف ثم أشار إليهم فقالوا: لا نجلس حتى تنزل عن سريرك. قال: فرطنت الروم فأشار إليهم فسكتوا وأرادوا أن ينزعوا منهم سيوفهم فامتنعوا من ذلك، فتركوهم وكلّمهم الملك فأبوا حتى ينزل عن سريره، فنزل وكلّمهم بلسان عربي وسألهم عن حالهم، فأجابوا أنهم لا يفارقونه حتى يسلم هو وقومه، أو يؤدّوا الجزية أو القتال فامتنع عن ذلك وقال: اذهبوا والموعد غدًا للقتال، وخرجوا من عنده على ذلك ورجعوا إلى خالد وأعلموه بذلك فتأهّب الأمراء للحرب، فلما أصبح خالد صلّى بأصحابه صلاة الصبح وبادروا للحرب والقتال وصاحوا: النصر النصر يا خيل الله اركبي وللجنة اطلبي، فركب المسلمون خيولهم وركّزوا راياتهم واصطفّوا ميمنة وميسرة وقلبًا وجناحين وخالد في وسط الجيش، وعلى الساقة ميسرة بن مسروق العبسي، ومالك الأشتر النخعي في خمسمائة فارس من المهاجرين والأنصار.

قال الراوي: فلم تكن غير ساعة حتى برزت الروم وأظهَرت صلبانها.

قال: حدّثنا رافع بن مالك عن عباد بن مازن عن محمد بن مسلمة الأنصاري رضي الله عنه. قال: لمّا أقبلت رايات القوم عددناها فإذا هي خمسون صليبًا، تحت كل صليب ألف فارس، فكان أول مَن افتتح الحرب بطريق عليه ديباجة حمراء وعلى رأسه بيضة، معصّب عليها بعصابة من جوهر، فبرز إليه فارس من خثعم يقال له زيد بن هلال فقتله، ثم طلب البراز فبرز إليه عبد الله بن عمر بن الخطاب رضي الله عنه ولم يمهله أن ضربه بالسيف على عاتقه الأيمن فخرج يلمع من عاتقه الأيسر فانجدل عدو الله يخور في دمه وعجّل الله بروحه إلى النار، وطلب البراز، فبرز إليه فارس من الروم فقتله، ثم آخر فقتله وطلب الميمنة وشوّش صفوفهم وقتل أبطالهم، ثم عاد إلى القلب، ثم أخرج من بعده شرحبيل بن حسنة وفعل كفعله، ثم حمل من بعده الفضل بن العباس، ثم حمل من بعده

العباس بن مرداس، ثم من بعده أبو ذر الغفاري ثم تبادر المسلمون بالحملة، فلما رأى الروم ذلك أيقظوا أنفسهم في عددهم وعديدهم وتظاهروا بالبيض والدرع، ولم يزل القتال بينهم حتى توسطت الشمس في قبّة الفلك.

قال الراوي: فعندها حمل خالد بن الوليد وغاص في الميمنة فقلبها على الميسرة وغاص في الميسرة فقلبها على الميمنة، وقاتلت العرب قتالاً شديدًا حتى جاء الليل وحجز بين الفريقين، وبات المسلمون يتحارسون وتفقّد المسلمون بعضهم بعضًا، فإذا قد قتل منهم اثنان وأربعون رجلاً ختم الله لهم بالشهادة، الأعيان منهم ربيعة بن عامة الداودي وزيد بن ربيعة المحاربي وغانم بن نوفل المحاربي وصفوان بن مرة اليربوعي، والبقية من أخلاط الناس، وقتل من أعداء الله ألف وثلثمائة وأزيد ولما خلا عدو الله بأصحابه تذاكروا ما وقع في الحرب وصعب عليهم ما لقوه من العرب فأراد الملك الصلح فغلب البطارقة عليه وأعدّوا للحرب والقتال، فلما أصبح الله الصباح وبارق الفجر لاح صلّى المسلمون صلاة الصبح، ثم اصطفّوا على ظهور خيولهم واصطفّت الروم وبرزت البطارقة وأظهروا زينتهم وبرز بطريق عظيم يقال له صاحب طنسا وعليه لامة حربه وطلب البراز فبرز إليه الفضل بن العباس فتجاولا وتعاركا وتخالفا بضربتين فكان السابق بالضربة الفضل بن العباس فضربه بالسيف على رأسه فوصل إلى أضراسه فانجدل صريعًا يخور في دمه وعجّل الله بروحه إلى النار وبئس القرار، وبرز بطريق ثانٍ فقتله ولم يزل كذلك حتى قتل أربعة من خيّارهم فحملت الروم حملة واحدة وحمل المسلمون وحمل ضرار بن الأزور رضي الله عنه وأظهر شجاعته وحمل مذعور بن غانم الأشعري والفضل بن العباس ومحمد بن عقبة بن أبي معيط ومسلم وجعفر وعلي أبناء عقيل وعبد الله بن جعفر وسليمان بن خالد وعبد الرحمٰن بن أبي بكر وتجاهرت الأمراء وعظم الخطب وكثر الطعن والضرب وثار القتام حتى صار النهار كالظلام وتراشقوا بالنبال واشتد القتال وقطعت المعاصم وطارت الجماجم فما كنت ترى إلا جوادًا غائرًا ودمًا فائرًا واشتد الكرب وكثر الطعن والضرب وسال العرق واحمرّت الحدق وجال خالد كالأسد وأرغى وأزبد، فعند ذلك رفع غانم بن عياض طرفه إلى السماء. وقال: يا عظيم العظماء أنزل علينا نصرك كما أنزلته علينا في مواطن كثيرة وانصرنا على القوم الكافرين فآمنت جماعة من الأمراء على دعائه فما كان غير بعيد حتى رأيت الرجال والكفّار يتساقطون لا ندري بماذا يُقتَلون، فلما رأى الروم ذلك فرّوا إلى الباب وتبعهم المسلمون يقتلون ويأسرون وينهبون والحجارة تأخذهم من أعلى السور وهم لا يلتفتون إلى ذلك ودخلوا إلى الأبواب ودخل اللعين وصال عليهم خالد وجماعة من الأمراء واقتطعوا قطعة من الروم نحو خمسة آلاف وكان المسلمون قريبين من اللعين فاقتتلوا عند الباب ورموهم بالحجارة فقتلوا منهم نحوًا من ثلاثة آلاف وخرج

من الباب نحو من ألف فارس وحملوا، ودخل الباقون وأغلقوا بابهم وطلعوا على الأسوار واشتد القتال والحصار ورموا بالحجارة والنبال حتى فرّق الليل بينهم.

قال الراوي: وأقام المسلمون على حصار أهناس ثلاثة أشهر وفي كل يوم يناوشونهم بالقتال والأسوار رفيعة والأبواب منيعة وأصحاب رسول الله ﷺ كل يوم يشنّون الغارات حتى يصلوا إلى أطراف الكورة.

قال الراوي: وأقام المسلمون على حصار أهناس ثلاثة أشهر وقد قلّت عنهم المدد وضاقت أنفسهم وطمعت فيهم الصحابة، ثم إن خالدًا استشار أصحابه ماذا يصنعون وقد أعياه فتح الباب، فقال له المرزبان رضي الله عنه وكان من مرازبة كسرى وقد أسلم وخرج إلى الجهاد وحبس نفسه لله عزّ وجل وهو المقتول بالبهنسا قريبًا من البلد شرقي البحر اليوسفي في وقعة صاحب طنجة ذات الأعمدة وسيأتي ذكر ذلك في موضعه إن شاء الله تعالى. فقال المرزبان: إننا كنّا في بلاد الفرس إذا حاصرنا مدينة ولم نقدر على فتحها أخذنا زيتًا وكبريتًا ووضعناه في صناديق من خشب، وجعلنا لها أعوادًا تحملها رجال ورجال يذبّون عنهم إلى أن يصلوا إلى الباب أو إلى قريب منه، ويجعلون في الصناديق نارًا ويولّون فتعلق النار في الأبواب ويذوب الحديد فتفتح الأبواب وتعلق النار في الحطب والخشب والحجارة فتهدمها، فقال خالد: نفعلها إن شاء الله تعالى، فلما أصبحوا فعلوا ذلك وأسرعوا في جمع ما ذكرنا ووضعوه في صناديق، وجعلوا في أطرافها أعوادًا طِوالاً من أسفلها وحملتها الرجال وخرج خلفهم الفرسان يقاتلون والمرزبان أمامهم يعلّمهم كيف يصنعون وهم مستترون بالدرق والحجف والحجارة والنبال تتساقط عليهم من أعلى السور حتى وصلوا إلى أول باب من أبواب المدينة، وهو الباب الشرقي وهو أعظم أبوابها.

فلما قربوا من الباب رفعوا الصناديق على الباب وألقوا النار في الزيت والكبريت ووضعوها وانقلبوا فلم يكن أسرع من لحظة حتى تعلق النار بحجارة الباب والأخشاب والحديد وثارت النار إلى أعلى السور حتى وصلت إلى البرج فسقط البرج بمَن فيه من الروم وهلك منهم جماعة كثيرة وتبادرت المسلمون إلى الباب وملئوا قِرَب الماء وأطفئوا تلك النار، ودخلوا من الباب وقصدوا قصر الملك وكان حصينًا على أعمدة من الحجارة المنحوتة وكانوا أغلقوا أبوابه ففعلوا به كما ذكرنا، ولما رأى الملعون ذلك لم يطق أن يصبر وأمر بفتح الباب وصاح الأمان ومعه جماعة من حشمه وخدمه وبطارقته فعرضوا عليهم الإسلام فأبوا فأمر خالد بضرب أعناقهم، فمَن أسلم تركوه ومَن أبى قتلوه واستغاثت بهم السوقة والرعية وقالوا: مغلوبون فمَن أسلم تركوه ومَن بقي على دينه ضربوا عليه الجزية وهدموا دُورًا وأماكن حتى صارت تلالاً، وغنم المسلمون أموالاً كثيرة من أواني الذهب والفضة والفرش الفاخرة ووضعوا فيها عبادة بن قيس قيِّمًا ومعه ثلثمائة

من المسلمين وخرجوا بظاهر المدينة ولم يبق إلا مَن أسلم ومَن وضعت عليه الجزية وعمّروا بها مسجدًا، ولما فرغ خالد من ذلك جمع الغنائم، وأخرج خمسها وأرسله إلى عمرو بن العاص يرسله إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه في المدينة وأرسل لعمرو بن العاص سهمه ولأصحابه المؤمنين المقيمين بمصر ونواحيها، وأقام خالد بعد ذلك بأهناس هو وجماعته من الأمراء أربعين يومًا، واستدعى خالد بعديّ بن حاتم الطائي رضي الله عنه وأضاف إليه ميمون بن مهران وضمّ إليه ألف فارس وأمرهم أن يُنازلوا أول بلاد البطليوس لعنه الله ويُنازلوا أهل الكورة وإذا وصل إلى قيس بن الحرث يأمره بالمسير إلى قريب البهنسا ويقاتل مَن يقاتله ويُسالم مَن يسالمه ويصالح مَن يصالحه حتى يأتيه المدد، ثم أرسل في أثره غانم بن عياض الأشعري رضي الله عنه وضمّ إليه ألف فارس فيهم الفضل بن العباس والمسيب بن نجيبة الفزاري وأبو ذر الغفاري والمرزبان الفارسي وكذلك جعفر ومسلم وعلي وعبد الله بن المقداد وولد خالد سليمان ومحمد بن طلح وعمرو بن سعد بن أبي وقاص وشرحبيل بن حسنة كاتب وحي رسول الله ﷺ وقال لهم خالد: سيروا حتى تصلوا إلى مدينة البهنسا وأنا في أثركم ما لم يحصل لي ولأصحابي مانع وادعو القوم إلى الإسلام فإن أجابوكم فلهم ما لنا وعليهم ما علينا ومَن أبى فالجزية ومَن أبى فالحرب والقتال ونازلوا المدائن وأقرنوا المواكب ولا تسيروا إلا يدًا واحدة وفرّقوا الكتائب وكونوا قريبين بعضكم من بعض غير متباعدين. فإذا وقعت كتيبة منكم بما لا طاقة لها به تبعت النفير وثبّتوا هِمَمكم وأخلصوا نيّاتكم وقوُّوا عزائمكم، فإذا وصلتم إلى البهنسا التي هي دار ملكهم ومحل ولايتهم فأرسلوا إلى الملك وادعوه إلى الإسلام، فإن أطاع فاتركوه في ملكه وإن أبى فالجزية عن يدٍ وهم صاغرون وإن أبى فالسيف حكم حتى يحكم الله وهو خير الحاكمين، وبلغني أنها مدينة كثير أهلها وأنها كثيرة الخيل وحولها مدائن وبلاد وقرى ورساتيق، فمَن سالمكم وصالحكم فصالحوه ومَن قاتلكم فقاتلوه وعليكم بالحزم وإخلاص النيّة وصدق العزيمة. قال الله تعالى في كتابه المكنون: **﴿يا أيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلّكم تفلحون﴾** [آل عمران: ٢٠٠] ثم استدعى بالمغيرة بن شعبة رضي الله عنه وكان معه زياد الأكبر أبو المغيرة جدّ زياد الذي هو بقرية ديروط بقرب طنبدا، وسيأتي ذكر زياد بن المغيرة وأصحابه هناك إن شاء الله تعالى عند وقعة الدير، واستدعى بسعيد بن زيد أحد العشرة رضي الله عنهم وأبان بن عثمان بن عفان وجدّد عليهم الوصية وودّعهم.

قال الراوي: وسار عديّ بن حاتم الطائي وميمون حتى وصلا ميدوم وما حولها فوجدوا قيس بن الحرث قد صالح أهل تلك الأرض وعقد لهم صلحًا وأقرّهم بالجزية ما عدا جماعة وكذلك أهل برنشت بعد قتل بطريقهم وكذلك أهل تلك البلاد إلى دهشور

ونادى في ذلك الإقليم بالأمان وجبوا له أموالاً عظيمة على الصلح والجزية وعبر جماعة من المسلمين إلى البرّ الشرقي، وهم: رفاعة بن زهير المحاربي وعقبة بن عامر الجهني وذو الكلاع الحميري وألف من أصحاب رسول الله ﷺ وشنّوا الغارات من العقبة التي هي قريب من قبلي حلوان على تلك القرى والبلاد، فمَن صالحهم صالحوه، ومَن أبى قاتلوه حتى وصلوا إلى أطفيح ثم إلى البرنيل، وكان هناك بطريق يُعرَف بصول فخرج إليهم أهلها فصالحوهم على الجزية وعبروا من هناك وسار عدي بن حاتم حتى اجتمع بقيس بن الحارث قريبًا من القرية المعروفة بقمن ونزل ميمون هو وجماعته بالقرية المعروفة بالميمون. فقال له قيس بن الحرث: لا تنزل هنا حتى يفتح لنا ما حولها من البلاد ويأتي خبر من الأمير خالد بن الوليد ويأذن لنا بما يريد فأجاب إلى ذلك ونزل عدي بأصحابه بالقرية المعروفة ببني عدي ثم سار وترك ابنه حاتمًا وإخوته وأحاطوا بالقرية وسار قيس وأصحابه حتى وصلوا إلى القرية المعروفة بنوس والبلد المعروف بدلاص فخرج إليهم أهلها بعد قتل بطريقهم وصالحوهم وتوسطوا البلاد على ساحل البحر حتى نزلوا ببا الكبرى وغانم بن عياض على أثرهم وكان بها دير عظيم يُعرَف بدير أبي جرجا، وكان له عيد عظيم يجتمعون إليه من سائر البلاد فوافق قدوم الصحابة قريبًا من عيدهم فجاءهم رجل من المعاهدين وأعلمهم بذلك فانتدب قيس بن الحرث رضي الله عنه ومعه جماعة من أصحابه خمسمائة فأمر عليهم رفاعة بن زهير المحاربي وأمرهم أن يشنّوا الغارة على الدير قال: وكان جماعة من رؤساء الكورة من الروم والقبط والخيول المسوّمة حول الدير يحرسونهم وهم في أكلهم وشربهم وزينتهم وبيعهم وشرائهم فما أحسّوا إلا والخيل على رؤوسهم فما قاتلوا إلا قليلاً وانهزموا ونهب أصحابه جميع ما في السوق من أثاث وغيره وساقوا الغنائم وأحاطوا بالدير فقاتلوا مَن على الدير، فقطعوا السلاسل والأقفال، وتعلق جماعة من الصحابة على الحيطان ودخلوا الدير وأخذوا منه أمتعة وأثاثًا وأواني من ذهب وفضة، وأسروا مائة أسير وساروا حتى توسطوا البلاد، وكان بالقرب من البحر اليوسفي قرى كثيرة وبلدان، وكان فيها مدينة تُعرَف بسحاق، وكان بها بطريق من عظماء بطارقة البطليوس، فلما بلغه قدوم الصحابة جمع جنوده إلى البلد المعروف بأقفهس وإلى البلدين المعروفين بشمسطا واليسلقون وإلى البلد المعروفة بنشابة، فلما بلغه قدوم الصحابة جمع الخيل والروم والفلاحين والنصارى ستة آلاف وخرج يكشف بهم أصحاب رسول الله ﷺ وقيس بن الحرث خرج إليه أهل ببا الكبرى وما حولها من السواد وكذلك أهل هوريت وعقد لهم صلحًا وساروا، فلما قربوا من القرية المعروفة الآن ببنيَ صالح، فبينما هم سائرون إذا بالغبار قد طلع وانكشف عن ستة صلبان تحت كل صليب ألف، فلما رآهم المسلمون لم يُمهِلوهم دون أن حملوا عليهم واقتتلوا قتالاً شديدًا وثار

الغبار وقدحت حوافر الخيل الشرار والتقى الجمعان واصطدم الفريقان، فللّه درّ رفاعة بن مسروق المحاربي وعقبة بن عامر الجهني وعمار بن ياسر العبسي وميسرة بن مسروق العبسي.

قال الراوي: وقاتلت أصحاب رسول الله ﷺ قتالاً شديدًا وصبروا صبر الكرام، وكان عدو الله لاوي بن أرمياء صاحب شيزا فارسًا شديدًا وبطلاً صنديدًا، فجال وصال وقتل الرجال، فعندها برز إليه فارس من المسلمين يسمى سنان بن نوفل الدوسي فقتله، فخرج إليه عمار بن ياسر العبسي فتجاولا وتعاركا وتضاربا وتطاعنا ووقع بينهما ضربتان وكان السابق بالضربة عمار فطعنه بالرمح في صدره فأطلع السنان يلمع من ظهره فانجدل عدو الله يخور في دمه وعجّل الله بروحه إلى النار، فعندها غضب الروم لأجل قتل صاحبهم وحملوا على عمار في كبكبة من الخيل فعقروا الجواد من تحته، وتكاثروا عليه فقتلوه وقتل من المسلمين خمسة عشر رجلاً.

قال: حدّثنا سنان بن نوفل عن مالك عن غانم اليربوعي وكان في خيل رفاعة بن زهير المحاربي. قال: نحن في القتال وقد عظم النزال ووطّنا أنفسنا على الموت، ورفاعة يحرّض الناس على القتال وهو ينشد ويقول:

يا معشر الناس والسادات والهِمَم ويا أهيل الصفا يا معدن الكرمِ
فسدّدوا العزم لا تبغوا به فشلاً ومكّنوا الضرب في الهامات والقمم
وخلفوا القوم في البيداء مطرحة على الثرى خمشًا بالذلّ والنقم

قال الواقدي: وجعل يحرّضهم ويقول: يا معشر السادات والأقيال أبشروا فإن الروم لم تقم لهم قائمة أبدًا، وأبشروا بالحور والولدان في غرفات الحنان، وإن الجنة تحت ظلال سيوفكم. قال رفاعة: فبينما نحن في أشد القتال إذا بغبرة قد لاحت وانقشعت وانكشف الغبار عن ألف فارس في الحديد غواطس، عليهم الدروع الداودية وعلى رؤوسهم البيض العادية المجلية معتقلين بالرماح الخطية، راكبين الخيول العربية، فتأملناهم فإذا هم سليمان بن خالد بن الوليد وعبد الله بن المقداد وعبد الله بن طلحة وأخوه محمد وزياد بن المغيرة والوليد ومحمد بن عتبة ومحمد بن أبي هريرة وجماعة من الصحابة والأمراء وأبناؤهم رضي الله عنهم، وكان غانم بن عياض الأشعري جهّزهم طليعة قدامه، فلما رأونا كبّروا وكبّرنا لتكبيرهم وخاضوا في أوساطنا وطلب كل واحد منهم بطريقًا من البطارقة فقتله، فلما رأت الروم ذلك ولّوا الأدبار وركنوا إلى الفرار وتبعهم أصحاب رسول الله ﷺ يقتلون وينهبون ويأسرون إلى البلدة شيزا وما حولها من السواد إلى سلقوس، فأسروا منهم نحو خمسمائة أسير وقتل منهم ثلاثة آلاف وهرب الباقون إلى

القرى والبلاد، ولما قتل بطريق شندا خرج إليهم أهلها من النصارى والسوقة وعقدوا معهم صلحًا واتفقوا على أداء الجزية وكذا مَن حولهم من القرى، ونزل هناك عمرو بن الزبير وجماعة من المسلمين وسار قيس بن الحرث أمام القوم حتى نزل قريبًا من طبندا والبلد المعروف بأسنا، وكان بها بطريق يسمى بولياص بن بطرس وكان كافرًا لعينًا فخرج إلى لقاء المسلمين هو وجماعته ومعه ميرة وعلوفة فكان ذلك مكيدة منه وعقد مع المسلمين صلحًا ووافقهم على أداء الجزية عن بلده وعن أسنا وكانت تحت حكمه، وارتحل قيس بن الحرث ومَن معه وتأخر زياد بن المغيرة ونزل بالقرية المعروفة بدهروط، فعقد مع أهلها صلحًا، ونزل سليمان بن خالد وعبد الله بن المقداد وجماعة قريبًا من البلد، ومنهم مَن نزل عند القرية المعروفة بأطينة، وصار جماعة يدخلون البلد ليلاً ثم يعودون خوفًا من المكيدة ولا حذر من قدر الله عزّ وجل.

قال الواقدي: وكان المتخلّفون خمسمائة فارس، فجعلوا يسيرون على جانب البحر ويشنّون أي يُغيرون على أهل السواد، فمَن صالحهم صالحوه ومَن أسلم تركوه، وسار قيس بن الحرث حتى نزل بالبلد المعروف الآن بالقيس، وبه سُمِّيت وكان فيها بطريق من بطارقة البطليوس وكان من بني عمّه اسمه شكور بن ميخائيل والله أعلم باسمه، فدخل أهل السواد كلهم البلد وحاصروها حصارًا شديدًا نحو شهرين، ثم أعانهم الله تعالى وحرقوا بابًا من أبوابها ففتحت ودخلوا إليها، وكان ذلك بعد وقعة جرت بينهم في مكان يُعرَف بكوم الأنصار، فهزموهم هناك وحاصروهم وفتحوا المدينة وقتلوا البطريق ونهبوا الأموال وأخذوا جميع ما فيها بعد أن دعوهم إلى الإسلام فامتنعوا من ذلك، ثم شنّوا الغارات على ما حولها من البلدان والبلد المعروف بماطي، ثم إلى الكفور، فخرج إليهم بطريق كان ابن عمّ المقتول بدهشور لعنه الله وأخوه بطرس وعقدوا مع المسلمين عقدًا على الصلح وأعطوا الجزية، وسارت العرب إلى البلد المعروف بالدير وسملوط وما حولها من القرى، ونزل زهير وجماعة من العرب بالمكان الذي يُعرَف بزهرة، وأما بقية السواد الذي حول البهنسا شرقًا وغربًا، فلما تحقّقوا مجيء العرب هربوا إلى البهنسا بأموالهم ونسائهم وذراريهم وتركوا البلاد جميعها خرابًا، وكان البطليوس لعنه الله أرسل إليهم بطارقته فحملوهم إلى البهنسا واستعدّ للحصار وجمع عنده ما يحتاج إليه مدة الحصار.

قال الواقدي: هذا ما جرى لهؤلاء، وأما عدو الله بولياص صاحب طبندا فإنه كاتب البطليوس يقول: إني ما صالحت العرب إلا مكيدة وإني أُريد الغدر بهم فجهّز لي جيشًا من البطارقة على أن أظفر بجماعة من أبطال المسلمين ونأخذ بثأر مَن قتل منكم قريبًا. قال: وكان عدو الله كل يوم تأتيه الأخبار من العرب المتنصرة ومن غيرهم من أهل البلاد

والسواد بما جرى للعرب وبأخبار مَن قتل من البطارقة وأخذ البلاد والأموال، فحمل همًّا عظيمًا ولم يظهر ذلك لأحد من بطارقته، وإنما كان يطيّب قلوبهم ويقول: بلدنا حصينة وإن قاتلونا قاتلناهم وإن غلبونا دخلنا بلدنا، فلو جاءنا أهل الحجاز جميعهم ما وصلوا إلينا ولو أقاموا عشرين سنة، والله غالب على أمره وناصر دين الإسلام ومذلّ الكَفَرَة اللئام، فلما بلغ البطليوس مكاتبة عدو الله بولياص فرح بذلك فرحًا شديدًا. قال: واستدعى ببطريق من بطارقته يسمى روماس وضمّ إليه خمسة آلاف فارس من الروم والنصارى وغيرهم من أهل القرى وأمرهم أن يسيروا تحت ظلام الليل فما جاء نصف الليل حتى وصلوا إلى طنبدا ودخلوا إلى بولياص ففرح بذلك فرحًا شديدًا واستعدوا للهجمة على المسلمين. قال وأصبح المسلمون وقد صلّوا صلاة الصبح وإذا بالخيل قد أقبلت إليهم فنادوا: النفير هاجمونا وغدرونا، فركب المسلمون خيولهم وساروا إلى قريب الدير، وإذا بالروم مقبلين في عشرة آلاف فارس وكان أعداء الله قد كمنوا كمينًا قريبًا من قناطر كانت هناك ونهر يجري فيه الماء من النيل في أوانه عميق غربي الدير قريب من البلد.

قال الواقدي: ولما رأى المسلمون لمعان الأسنّة والبيض وخفقان الأعلام وبريق الصلبان الذهب والفضة تبادروا إلى خيولهم فركبوا وأعلنوا بالتهليل والتكبير والصلاة على البشير النذير، وأقبلوا مسرعين نحوهم ولم يفزعوا من كثرتهم، وحرّض بعضهم بعضًا على القتال، وكانوا قد سبقوا إلى شرذمة من المسلمين كانوا نزولاً قريبًا من الدير ووضعوا فيهم السيف وأحاطوا بهم وجالوا واتّسع المجال إلى قريب من دهروط، فخرج سليمان بن خالد بن الوليد وعبد الله بن المقداد وعامر بن عقبة بن عامر وشداد بن أوس وجماعة من الصحابة رضي الله عنهم، واشتد القتال، وعظم النزال، وعَمِيَت الأبصار، وقدحت حوافر الخيل الشرار، ولمعت الأسنّة، وقرعت الأعنّة، ودهشت الأنظار، وحارت الأفكار، وأحاطوا بالمسلمين من كل جانب، فللّه درّ سليمان بن خالد بن الوليد وعبد الله بن المقداد لقد قاتلا قتالاً شديدًا وأَبْلَيا بلاءً حسنًا، ولله درّ زياد بن المغيرة لقد كان يقاتل تارة في الميمنة وتارة في الميسرة وتارة في القلب وأحاط بهم أعداء الله من كل جانب، وقد صار المسلمون بينهم كالشامة البيضاء في جلد البعير الأسود وصبروا لهم صبر الكرام، وكان أكثر المسلمين قد أُثخِنَ بالجراح واشتدّ الكفّار، هذا والمسلمون قد انتدبوا أبطالاً وجعلوها خلف ظهورهم وقاتلوهم قتالاً عظيمًا، هذا وأعداء الله قد أحاطوا بهم وحجزوا بينهم وبين البلد، وقاتل سليمان وأصحابه قتالاً شديدًا ووطنوا أنفسهم على الموت وشجّع بعضهم بعضًا وصار سليمان بن خالد يقول: الله الله الجنة تحت ظلال السيوف والموعد عند حوض النبي ﷺ وقاتل قتالاً شديدًا حتى أثخن بالجراح، وقتل من المسلمين نحو مائتين وعشرين قريبًا من التل الذي هو غرب البلد المذكور، وما قتل الواحد منهم حتى قتل من أعداء الله خلقًا كثيرًا.

قال الواقدي: ولما رأى المسلمون وسليمان بن خالد ما حلّ بأصحابه صار تارة يكرّ في الميسرة وتارة يكرّ في الميمنة، وأعانه بالحملة عبد الله بن المقداد وبقية الصحابة، وتقدّم سليمان بن خالد وطعن بطريق أسنا طعنة صادقة فأرداه عن جواده وغاص في القلب.

قال: حدّثنا أوس بن شداد عن علقمة بن سنان عن زيد بن رافع قال: كنت في الخيل صحبة سليمان بن خالد وقد حجزنا المشركين وتقهقروا من بين أيدينا ولم نشعر أن لهم كمينًا إذ خرج الكمين علينا وقاتلناهم قتال الموت وقتل منهم جماعة نحو ألفي فارس وقتل سليمان بن خالد من الصناديد والبطارقة من خيارهم نحو ثلاثين فارسًا وكذلك عبد الله بن المقداد، فأحاط بسليمان بن خالد رضي الله عنه كردوس نحو ألفي فارس وعقروا جواده من تحته، فضرب بالسيف فيهم حتى قطعت يده اليمنى، فتناول السيف بيده اليسرى فضرب بها حتى قطعت، فأحاطوا به، فلما تيقن بالقتل التفت وقال: يعزّ عليك يا خالد بن الوليد ما حلّ بولدك ولكن هذا في رضا الله عزّ وجل، وكان قد طعن في صدره نحو عشرين طعنة حتى قلّ حَيْله وسقط إلى الأرض، ثم تنفس وقال: الساعة نلقى الأحبة، ولما رآه عبد الله بن المقداد على ذلك المصرع صاح: لا حياة بعدك يا أبا محمد والملتقى في جنّات عدن، ثم غاص يقاتل فأحاطوا به واشتبكت عليه الأسنّة وضرب ضربات كثيرة في وجهه وهو يقطع الرماح ويمسح الدم عن وجهه حتى سقط به الجواد وصاح: واشوقاه إليك يا مقداد، ثم تبسم وقال: مرحبًا، ثم مات وأيقنّا كلنا بالموت وأن القيامة هناك، وإذا بغبرة قد لاحت وانكشفت عن رايات إسلامية وعصائب محمدية وفي أوائل القوم القعقاع بن عمرو التميمي والمسيب بن نجيبة الفزاري وسمرة بن جندب والفضل بن العباس وزياد بن أبي سفيان وبنو هاشم وبنو عبد المطلب وسادات الأوس والخزرج، وغانم بن عياض الأشعري ومَن معه من الأمراء والسادات، فلم يُمهلوهم دون أن حملوا عليهم حملة رجل واحد حتى أجلوهم وقتل البطريق بولياص لعنه الله ومعه بطرَيق البطليوس، وانهزمت الروم واتبعتهم المسلمون يقتلون ويأسرون وينهبون حتى بلغت الهزيمة إلى البحر اليوسفي ورموهم في البحر وغرق منهم جماعة كثيرة وقتل منهم في المعركة نحو أربعة آلاف وأسروا نحو ألف ومائتي أسير وهرب منهم إلى البطليوس جماعة واختفوا إلى الليل ودخلوا البطليوس وأعلموه بذلك، فضاقت عليه الدنيا وضاق صدره، وحارَ في أمره، واستعدّ للقاء المسلمين.

قال الواقدي: هذا ما جرى لهؤلاء، وأما أهل طنبدا وأهل أسنا وكانوا لم يخرجوا ولم يقاتلوا، فإنهم لمّا وردت عليهم الأخبار ومعهم البطارقة، سألوا بطريقهم القتال وكان

نصرانيًا ولم يكن روميًا وكان اسمه لوص وبه سُمِّيت البلد فأبى، فلما انهزم البطارقة وخرج أهل طنبدا وأهل أسنا من السوقة والرعية وأولادهم وغيرهم وبكوا في وجوههم وقالوا: نحن قوم رعية وكنّا مغلوبين على أمرنا فإنّا أهل ذمّتكم ورعيتكم. قالوا بشرط أن تدلّونا على مَن هربوا إليكم فأجابوهم إلى ذلك وصاروا يأخذون المسلمين ويدخلون الدُّور والمساكن ويقبضون على الروم ويسلّمونهم إلى المسلمين، وكان النصراني يقبض على الرومي ويأتي به إلى المسلمين، حتى قبضوا من طنبدا وأسنا نحو من ألف وخمسمائة رجل من المطامير والأبيار التي كانوا يحبسون فيها الأسارى من المسلمين وغيرهم ولما اجتمعت الأسارى من الروم والنصارى أمر غانم بن عياض بضرب رِقابهم على تل هناك يُعرَف بالكوم ورجعت المسلمون إلى مكان المعركة، فلما عاينوا القتلى ورأوا سليمان بن خالد وعبد الله بن المقداد وعبيد بن الداري، بكوا عليهم وعلى مَن قتل معهم من الأمراء رضي الله عنهم وحزنوا عليهم حزنًا شديدًا، وأنشد عمار بن ياسر ينعي سليمان بن خالد وعبد الله بن المقداد ومَن معهما:

يا عين أذري الدمع منك الصبيب ... ثم اندبي يا عين فَقْدَ الحبيبُ
وانعي لمقتول غدا في الفلا ... مجندلاً وسط الفيافي غريب
وابكي سليمان ولا تغفلي ... فأمره والله أمر عجيب
قد كان لا يفكر كل العدا ... إن سل من غمد السيف قضيب
وتحذر الأعداء من بأسه ... لو أنهم أعداد رمل الكثيب
فيا حمام الأيك نوحي إذا ... على فتى قد كان غصنًا رطيب
وأعلمي بما جرى خالدًا ... لعلّه يبكي بدمع صبيب
وأخبري المقداد من بعده ... بأن عبد الله أضحى سليب
بل واندبي الأخيار من بعدهم ... وكل قرم للمعالي مصيب
لا يلتقي البطليوس خيرًا ولا ... أجناده أبناء أهل الصليب
قد كمنوا جيشًا لنا عامدًا ... يوم الوغى من كل كلب مريب
وحق مَن أعطى لنا نصره ... في كل وادٍ ثم فتحًا قريب
لنأخذنّ الثأر من جمعهم ... جهرًا ونطفي من فؤاد لهيب

قال الواقدي: وإن غانمًا رضي الله عنه جمع الشهداء ودفنهم في ثيابهم ودروعهم. قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «يُحشَر الشهداء الذين قتلوا في سبيل الله يوم القيامة وجراحاتهم تقطر دمًا، اللون لون الدم، والريح ريح المسك».

قال الواقدي: وأقام غانم رضي الله عنه بعد أن دفن الشهداء قريبًا من التل والأمراء يشنّون الغارات على السواحل وعدي بن جابر بن عبد الله الأنصاري وأبو أيوب والمسيب بن نجيبة الفزاري في ألف فارس، فأغاروا على أهل شرونة، فخرج إليهم بطريق يُعرَف بصندراس الجاهل وبطريق أهريست في خمسة آلاف فارس واقتتلوا قتالاً شديدًا عند سفح الجبل فبلغ الخبر غانم بن عياض الأشعري فأرسل إليهم كتيبة أخرى صحبة بن المنذر والفضل بن العباس والمرزبان في ألف فارس، فلما رأى الروم ذلك وقع الرعب في قلوبهم وكان بينهم حروب عظيمة، ثم إن الفضل بن العباس قصد البطريق الجاهل وضربه ضربة هاشمية على رأسه فقطع الخوذة والبيضة والرفادة، إلى أن سمع خشخشة السيف في أضراسه فكبّر وكبّرت المسلمون لتكبيره فسقط عدو الله يخور في دمه وعجل الله بروحه إلى النار وبئس القرار، وكان الفضل بن العباس فارسًا شديدًا وبطلاً صنديدًا، فغاص في وسط المشركين وفتك فيهم، والمرزبان حمل على بطريق شرونة فقتله، وحمل ابن المنذر على بطريق أهريت فقتله، فلما رأى الروم ذلك ولّوا الأدبار وركنوا إلى الفرار وتبعتهم المسلمون يقتلون ويأسرون ينهبون إلى المكان المعروف بالدير وأهريت وغرق منهم خلق كثير وقتل منهم ألف وخمسمائة فارس، وأُسر منهم ألف وخمسمائة وتحصن منهم جماعة من الروم والنصارى في مدينة الجاهل، وكانت حصينة فحاصرها المسلمون سبعة أيام وحرقوا الأبواب، وهدموا الجدران، وأخرجوهم من البيوت، وأخربوا تلك المدينة إلى يومنا وخرج إلى المسلمين نصارى من شرونة وأهريت وعقدوا مع المسلمين صلحًا، وأعطوا الجزية، وأنزلوا مرة الكلبي في مائتين من أصحابه وغيرهم وابن عمرو بن العاص في المكان المعروف ببناء خالد في مائتي فارس، وعبر المسلمون البحر، ونزل عامر بالعرب في مائتي فارس قريبًا من طنبدا وأسنا وببا القرية، وارتحل غانم بن عياض رضي الله عنه ببقية الجيش، ولما تكاملت المسلمون أرسل بين يديه المسيب بن نجيبة الفزاري والعباس بن مرداس السلمي والفضل بن العباس الهاشمي وعامر بن عقبة الجهني وزياد بن أبي سفيان بن الحرث في ألف وخمسمائة فارس فساروا إلى مكان يُعرَف باتجرنوس، وكان هناك قلعة ومرج للملك البطليوس وكان في زمن الربيع ينزل هناك بالخيام والمضارب حول القلعة وتجتمع عنده البطارقة ويقيم أشهرًا ثم ينزل على الإقليم ثم يعود إلى البهنسا.

قال الواقدي: وأرسل لوص إلى البطليوس يطلب منه جيشًا صحبته بطريق من بطارقته، فأرسل إليه بطريقًا كافرًا لعينًا اسمه شلقم وبه سُمِّيت البلد التي هي قريب من البهنسا، وكان الجيش عشرة آلاف فارس، والله أعلم.

قال: حدّثنا مسلم بن سالم اليربوعي عن شداد بن مازن عن طارق بن هلال؛ أنه كان في خيل العباس بن مرداس السلمي. قال: بينما نحن نسير إذ رأينا غبرة قد ثارت وكان ذلك وقت الضحى، فتأملناها فانكشف عن عشرة أعلام وعشرة صلبان من الذهب الأحمر كل صليب يلمع كأنه كوكب، فتأهبنا للحملة وتأهّبوا لنا، فلم يمهلونا دون أن حملوا علينا وحملنا عليهم وأحاطوا بنا وقاتلت الروم قتالاً شديدًا ورطنوا بلغتهم وأعلنوا بكلمة كفرهم، وصبرنا لهم صبر الكرام وقاتلنا قتال الموت، فللّه درّ غانم بن عقبة والمسيب بن نجيبة الفزاري والفضل بن العباس لقد قاتلوا قتالاً شديدًا، وعصب الفضل رأسه بعصابة حمراء، وكذلك فعل زياد بن أبي سفيان بن الحرث كما كان يصنع عمّهما حمزة وقاتلا قتال الموت، فلم تكن إلا ساعة وقد قوي الحرب والقتال حتى أشرف علينا الأمير غانم بن عياض الأشعري مع بقية الجيش، فقوي قلبنا وكبرنا فأجابونا بالتهليل والتكبير، فتقدّم الفضل بن العباس إلى بطريق شلقم وكان فارسًا شديدًا وعليه ديباجة مفصّصة بالذهب وفي وسطه منطِقة بالذهب مرصعة بالجواهر، وقد عصب رأسه بعصابة من الجواهر وبيده عمود من الذهب طوله ثلاثة أشبار وأزيد، وهو تارة يضرب بالسيف وتارة يضرب بالعمود، فلما رآه الفضل ظن أنه يريده، فحمل عليه الفضل وهو ينشد ويقول:

يا أيها الكلب اللعين الطاغيا ... ومَن أتى لجيشنا معاديا
أبشر لقد وافاك ليث ضاريًا ... بحدّ سيف في عداه ماضيا
كان له الرب العظيم واقيًا ... من كل كلب إذ يكون طاغيا

قال: فلم يفهم ما يقول الفضل وحمل عليه وتعاركا وتجاولا وضرب الفضل رضي الله عنه فحادَ عنها وعطف عليه وانتزع العمود من يده وضربه ضربة هاشمية قرشية أبان بها رأسه عن بدنه ونظر إليه لم يسقط فعاد عليه وهو جثة بلا رأس فتلقّاه فارس من المسلمين اسمه زهير فوجده مكلبًا بكلاليب في سرجه فنزع الكلاليب فسقط عدو الله كالطود بعد أن تضمخ تاجه ومنطقته دمًا. فقال له الفضل: إن السلب لي فخذه لك فقد وهبتك إياه. فقال: لا أعدمنا الله مكاركم يا بني هاشم وعطف على لوص فقتله وقتل كل أمير بطريقًا غيره وحملت المسلمون حملة رجل واحد فبدّدوا شملهم فولّوا منهزمين بين أيديهم واتبعهم المسلمون يقتلون ويأسرون وينهبون إلى أن وصلوا إلى البحر اليوسفي وألقوهم في مكان قريب من شاقولة فسُمِّيت القرية بذلك وتحصّنت جماعة بقلعة المرج فأحاط بها المسلمون وحرقوا الأبواب وهدموا الجدران واستخرجوا ما هناك وقتلوا من الروم مقتلة عظيمة نحوًا من ثلاثة آلاف وأسروا نحوًا من ألف وقتل من المسلمين ثمانية وأربعون رجلاً، من أعيانهم سيف الأنصاري رضي الله عنهم أجمعين، ودفن هو وأصحابه

بمكان الوقعة، وكان زياد بن المغيرة وجماعته نزولاً في أماكنهم قريبًا من طنبدا كما ذكرنا حول البلد المعروف بدهروط، وكان زياد صديقًا للأمير سليمان بن خالد بن الوليد فكتب كتابًا للأمير خالد بن الوليد يعزّيه في ولده سليمان ويقول:

يا خالد إن هذا الدهر فجعنا ... في سيد كان يوم الحرب مقداما
مجندل الفرس في الهيجا إذا اجتمعت ... وللصناديد يوم الحرب خصاما
لا يملك الضدّ من أبطالنا أملاً ... إن حاز ساعده القصاص صمصاما
يا طول ما هزم الأعداء بصارمه ... أنالهم منه تنكيسًا وإرغاما
كأنه الليث وسط الغاب إذ وردت ... له العدا وعلى الأشبال قد حامى
يا عين جودي بفيض الدمع منك دمًا ... بل واندبي فارسًا قد كان ضرغاما
والسيد الفرد عبد الله قد حكمت ... به المنايا وحكم الله قد داما
نجم الفتى العلم المقداد خير فتى ... قد كان في ملتقى الأعداء هجّاما

قال الواقدي: فلما وصل الكتاب إلى خالد بن الوليد كان قريبًا من الدير ببقية الجيش وهو ينفذ السرايا وأهل البلاد يأتونه بما صالحوه عليه من المال وغيره وقد جهّز عبد الرحمٰن بن أبي بكر الصديق وعبد الله بن عمر بن الخطاب وعقبة بن نافع الفهري والزبير رضي الله عنهم بألف فارس إلى الفيوم، وسيأتي ذكر ذلك في موضعه إن شاء الله تعالى، فلما ورد الكتاب على خالد سقط إلى الأرض وخرّ مغشيًّا عليه، ثم أفاق واسترجع، وقال: لا حول ولا قوة إلا بالله العليّ العظيم ﴿**إنّا وإنّا إليه راجعون**﴾ [البقرة: ١٥٦]، ثم قال: اللَّهمَّ إني احتسبت سليمان إليك: اللَّهمَّ اجعله فرطًا وذخرًا، وأعقبني عليه صبرًا، وأعظم لي بذلك أجْرًا ولا تحرمني الثواب برحمتكم يا أرحم الراحمين، ثم قال: والله لآخذنّ فيه ألف سيد من ساداتهم ولأقطعنّ ساداتهم وفرسانهم وإنني أرجو أن آخذ بثأره إن شاء الله تعالى ولأقتلنّ البطليوس شرّ قتلة لعلّي أشفي بذلك غليل صدري وحرارة كبدي وليكوننّ على يدي خراب دياره وانهزام جيوشه وزوال مُلكه، وهطلت مدامعه على وجنته أحرّ من الجمر، ثم جعل يسترجع ويقول:

جرى مدمعي فوق المحاجر منهمل ... وحرّ فؤادي من جوى البين يشتعل
وهام فؤادي حين أخبرت نعيه ... فليت بشير البين لا كان قد وصل
لقد ذوّب الأحشاء وأجرى مدامعي ... صبيبًا وعن نار الفؤاد فلا تسل
سأبكي عليه كلما أقبل المسا ... وما ابتسم الصبح المنير وما استهل

وكان كريم العمّ والخال سيدًا إذا قام سوق الحرب لا يعرف الوجل
أحاطت به خيل اللئام بأسرهم وقد مكّنوا منه المهند والأسل
وعيشك تلقاهم صراعًا على الثرى عليهم يسوق الوحش والطير محتفل
فوا أسفًا لو أنني كنت حاضرًا بأبيض ماضي الحدّ في الحرب مكتمل
وحق الذي حجّت قريش لبيته وأرسل طٰه المصطفى غاية الأمل
لأقتل منهم في الوغى ألف سيد إذا سلّم الرحمٰن واتّسع الأجل

قال الواقدي: وأقبلت الأمراء يعزُّون خالدًا ومدامعهم تفيض من عيونهم ويقولون: أعظم الله لك أجْرًا، وأعقبك عليه صبرًا، وجعله لك غدًا في المعاد ذخرًا، والله لقد عدمنا القوى، وقد أُبيد القلب من حشاشتنا واكتوى، ونحن لقتله ذاهلون **﴿إنّا لله وإنّا إليه راجعون﴾** [البقرة: ١٥٦] وكذلك يعزّون المقداد في ولده عبد الله وبلغ الخبر عمرو بن العاص بمصر وهو مقيم بها فكتب لهما كتابًا بالتعزية وبلغ الخبر المدينة لعمر بن الخطاب فاسترجع هو وبقية الصحابة مثل علي بن أبي طالب وعثمان بن عفان وطلحة بن عبد الله، ومَن كان حاضرًا من الصحابة بالمدينة الطيبة رضي الله عنهم وكتبوا إلى خالد والمقداد كتابًا يعزّونهما، فلما وصل الكتاب إلى خالد والمقداد اطمأنّا لما عليهما من الصبر وما لهما من الأجْر والثواب.

قال الواقدي: هذا ما جرى لهؤلاء، وأما البطليوس لعنه الله فإنه لمّا تحقق مجيء العرب إلى مدينة البهنسا فتح خزائن الأموال وفرّق المال والسلاح والعدّة من الملبوس والدروع وغير ذلك وفرّق على البطارقة وعلى غيرهم من الجند، وكان هناك بيت مقفل كما ذكرنا فيه صفة العرب وأسماؤهم فأمر بفتحه وهو يظن أن فيه مالاً مدّخرًا فمنعه القسوس والرهبان من ذلك فأبى ففتحه فلم يجد فيه إلا صفة العرب وأسماءهم كما ذكرنا أول الكتاب فنظر لذلك ودخل الكنيسة وجلس على سريره وجمع حوله البطارقة فاستشارهم في أمره فقام شيخ كبير راهب وكان مُطاعًا عنده مسموع الكلام كبير السنّ، وكان عمره مائة وعشرين سنة فقام وعليه جبّة سوداء وعلى رأسه قلنسوة وفي يده عكازة من الآبنوس ملبّسة بالعاج والذهب فقرب من الهيكل وتكلم بكلام لا يُفهَم ثم قال بعد ذلك: يا أهل دين النصرانية وبني ماء المعمودية قد كانت دولتكم قائمة وكلمتكم مسموعة ما دمتم تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتعدلون في الرعية وتأخذون للمظلوم من الظالم وتنصفون الضعيف من القوي وتُواسون الفقير ولا تمدّون أيديكم إلى شيء من أموال الناس وتهابون الزنا، وكانت الدولة لكم وقلوب الرعية منجذبة إليكم وداعية لكم وكان الملك فيكم ولمّا لم تأمروا بالمعروف ولم تنهوا عن المنكر وظلمتم الرعية وجرتم في الأحكام وحكمتم بغير الحق ولا تأخذون للضعيف حقّه من

القوي ومددتم أيديكم إلى أموال الرعية وفَشَت فيكم المعاصي فتغيّرت قلوب الرعية ومدّوا أيديهم بالدعاء عليكم ودعاء المظلوم مُستَجاب وكثرة الظلم خراب فيوشك أن تنزع هذه النعمة من أيديكم وتعود إلى غيركم بكثرة ذنوبكم وشؤم معاصيكم وبدعاء المظلومين عليكم، فلأجل ذلك سلّطت عليكم العرب فملكوا بلادكم وقتلوا رجالكم ونهبوا أموالكم وسكنوا منازلكم واستولوا على معاقلكم فتيقظوا من غفلتكم وذبّوا عن حريمكم وأموالكم ولا تمكّنوا العرب من جانبكم وهذه مقالتي لكم جميعًا، فلما سمع البطليوس لعنه الله كلام القسّ وما تكلم به التفت إلى بطارقته وجماعته ونوّابه، وقال: هل سمعتم ما قال أبوكم؟

قالوا: سمعنا. قال: فما عندكم من الرأي؟ قالوا: نحن معك وبين يديك ونقاتل العرب ولا نطمعهم فينا كما طمعوا في غيرنا وإن غلبونا استعددنا للحصار وعندنا من الميرة والعلوفة ما يكفينا عشر سنين وأزيد وبلدنا حصين ولا نسلّم أنفسنا وإلا يكون علينا عارًا عند الملوك قال فشكرهم البطليوس على ذلك ووثب قسٌّ آخر، وكان يناظر ذلك القسّ في المعرفة واستخرج كتابًا معلقًا كان عنده في صندوق من الآبنوس مقفل بإقفال من الفولاذ وقال: يا أهل دين النصرانية وبني ماء المعمودية اسمعوا ما نعته لكم العلماء والكهّان والحكماء، أنه يبعث نبي في آخر الزمان يسمى محمد بن عبد الله من بني عدنان يموت أبوه وأُمه ويكفله جدّه وعمّه يبعثه الله نبيًا إلى جميع البشر، مولده بمكة، ودار هجرته طيبة، ثم يقيم أعوامًا ويتوفّاه الله عزّ وجل، ثم يتولى الأمر من بعده رجل يسمى أبا بكر وتزداد العرب به فخرًا ويجهز العساكر إلى الشام، ثم لم يلبث إلا أيامًا قلائل ويتوفّاه الله تعالى ويتولى الأمر من بعده الرجل الأصلع الأحور المسمى بعمر وهو صاحب الفتوح ومصبح الأعداء بأشأم صبوح تفتح على يديه الأمصار ويبعث سراياه إلى سائر الأقطار، وإنّا نجد في الكتب القديمة أن هذه المدينة تفتح على يد رجل أسمر وشجاع غضنفر فارس شديد وبطل صنديد يسمى بخالد بن الوليد، فإن سمعتم قولي وقبلتم فاعقدوا مع العرب صلحًا فإن الدولة لهم ودينهم الحق، ولو قاتلهم أهل المشرق والمغرب غلبوهم ببركة الله وببركة نبيّهم محمد.

قال: فلما سمع البطارقة كلامه غضبوا غضبًا شديدًا وأرادوا قتله فمنعهم البطليوس من ذلك وقال له: كأنك خفت من سيوف العرب، وأنا أعلم أن الرهبان والقسوس لا قلوب لهم لأنهم ليس لهم أكل إلا العدس والزيت والليمون والأشياء الرديئة ولا يعرفون اللحم فلأجل ذلك ضعفت قلوبهم فلولا مقامك من قديم الزمان ورؤيتك للملوك القدماء لبطشت بك، ولئن عدت إلى مقالتك هذه لأقتلنّك شرّ قتلة. قال فسكت القسّ الراهب وخرج البطليوس من وقته وساعته وجلس في قصره ذي الأعمدة، ثم استدعى ببطارقته

وخلع عليهم ورفع لهم الأعلام والصلبان وعرض عليه جيشه فإذا هم ثمانون ألفًا غير السّوقة المُشاة فسُرَّ بذلك سرورًا عظيمًا، ثم استدعى ببطريق من بطارقته يدعى قابيل، وكان لا يقطع أمرًا دونه فخلع عليه ودفع له الثمانين ألفًا وأمره بملاقاة العرب، ثم استشار خواصّ مملكته في الإقامة في البلد أو الخروج إلى ظاهرها. فقال له ذوو الرأي من بطارقته: أيها الملك إنك إذا أقمت في البلد استضعفوا رأينا وأمرنا، وإذا كنت بجانب المدينة لا تجد العرب أن تصل إلينا ونجعل البلد خلف ظهرنا ونقاتل من خارج الأبواب ويساعدونا من فوق الأبراج، فإذا عظم الأمر فلا ندخل المدينة إلا من أمر عظيم فاستصوب رأيهم، ثم إنه أمر الفرّاشين أن يُخرِجوا الخيام والسرادقات والقِباب بظاهر المدينة وأخرجوا له سرادقًا عظيمًا سعته سبعون ذراعًا وارتفاعه مثل ذلك على أعمدة من الخشب المصفّح بالذهب والفضة وهو من الحرير الملوّن: الأزرق والأحمر والأخضر والأبيض والأصفر والأسود ومُقَضَّب بقضبان الذهب والفضة مرصّع باللؤلؤ وفيه تصاوير من داخله ومن خارجه من جميع أجناس الطير والوحوش والكواكب وفرش فيه من الفرش وبسط الحرير الملوّن ووضع فيه المساند والوسائد والأنطاع وأطناب السرادقات حرير ملوّن بأوتاد من عاج وآبنوس في حلق من ذهب وفضة وعلّق فيه قناديل وسلاسل من ذهب وفضة، ووضع فيه سريرًا من خشب الساج المنقوش المصفّح بالذهب الوهّاج على قوائم بزمامين من ذهب وفضة طوله سبعة أذرع وعرضه مثل ذلك وارتفاعه مثل ذلك يصعد إليه بدرج من خشب مصفّح بصفائح من ذهب وفضة، وعليه فرش من حرير ووسائد ومساند ونمارق وحوله ثمانين كرسيًا مصفحّة بالخشب الآبنوس يجلس عليها أرباب الدولة وأصحاب الصولة وضرب حوله من الخيام والسرادقات ما لا يوصف له عدّ.

قال الراوي: حدّثنا جماعة من الصحابة ممّن شهد الفتح وعاين السرادقات أنه لمّا هرب الملعون ودخل المدينة وكان السرادق منصوبًا مقابل الباب البحري المعروف بباب قندوس أمر بطريقًا من بطارقته اسمه سمعان أن ينصب سرادقه الذي وهبه له عند باب توما وهو الباب القبلي وأمر بطريقًا اسمه أصطافين أن ينزل في الجانب الشرقي قريبًا من القناطر على ساباط معقود على أعمدة من الحجارة فأمره أن ينزل ومعه عشرة آلاف فارس حول القلعة. قال هبار بن أبي سفيان أو سلمة بن هاشم المخزومي: ما نزلنا على مدينة من مدائن الشام ولا رأينا أكثر عددًا ولا أكثر زينة من مدينة البهنسا ولا أقوى قلوبًا منهم وأكثروا من الصلبان ونصبوا السرادقات والمنجنيقات على الأسوار وأسبلوا على الأسوار جلود الفيلة المصفّحة بصفائح الفولاذ ورتبوا الرّماة والمنجانيق والسهام وغير ذلك.

قال الراوي: هذا ما جرى لهؤلاء، وأما الأمير عياض بن غانم الأشعري رضي الله عنه، فإنه لما قرب من البهنسا استشار أصحابه مثل أبي ذر الغفاري وأبي هريرة الدوسي ومعاذ بن جبل وسلمة بن هاشم المخزومي ومالك الأشتر النخعي وذي الكلاع الحميري رضي الله عنهم ومعهم ألفان من أصحابهم وأمرهم بالنزول في الجهة الشرقية وقال لهم: إن قاتلوكم قاتلوهم ونازلوا القلعة حتى تأخذوها، وعبر الأمير عياض من الجهة البحرية ومعه أصحاب الرّايات والأمراء والطليعة من هؤلاء السادات وهم الفضل بن العباس وأخوه عبيد الله بن العباس وشقران وصهيب ومسلم وجعفر وعلي أولاد عقيل بن أبي طالب وعبد الله بن جعفر وزياد بن أبي سفيان وتتابعت خلفهم السادات وأصحاب المروءات مثل نعيم بن هاشم بن العاص وهبار بن أبي سفيان وعبد الله بن عمرو الدوسي وسعيد بن زبير الدوسي وحسان بن نصر الطائي وجرير بن نعيم الحيري وسالم بن فرقد اليربوعي وسيف بن أسلم الطائفي ومعمر بن خويلدة السبكي وسنان بن أوس الأنصاري ومخلد بن عون الكندي وابن زيد الخيل ومثل هؤلاء السادات أصحاب الرايات رضي الله عنهم وتتابعت الكتائب يتلو بعضها بعضًا وعبروا إلى الجانب الغربي، فبينما هم سائرون وإذا بعدوّ الله قابيل قد أقبل بالبطارقة المتقدم ذكرهم، فلما التقى الجمعان عند سفح الجبل تحت المغارة أشار إلى أصحابه فأمسكوا عن المسير وتقدم إلى رابية عالية وإلى جانبه رجل من العرب المتنصرة وأمره بأن ينادي برفيع صوته: قربوا إلى البطريق رجلاً منكم ذا خبرة يكلمه فوثب إليه جرير الحميري وأتى إلى عياض وقال: أيها الأمير أتأذن لي أن أُكلمه. قال: نعم إن طلبوا الصلح ورفعوا القتال صالحناهم حتى يحضر الأمير خالد بن الوليد ويفعل أمره، وأن أرادوا القتال قاتلناهم واستعنّا بالله تعالى عليهم وهو حسبنا ونِعْمَ الوكيل.

قال الراوي: فعندها سار حتى وقف بإزاء البطريق وقال له: سَلْ حاجتك. فقال له: أأنت أمير القوم؟ قال: لا، ولكني متكلّم عن الأمير. فقال له: لِمَ تركتم بلاد الشام والنِّعَم العِظام وأتيتم إلى هذه البلاد؟ وكنتم في بلاد الحجاز تُقاسون جوعًا وعريًا فذُقتم فواكه الشام وثمار الحجاز وخيرات اليمن فلم يكفكم ذلك حتى أتيتم إلى مصر وقهرتم القبط وأتيتم إلى بلاد الفرس وقهرتم ملوكها ولم تكتفوا حتى أتيتم إلينا وهجمتم علينا في بلدنا وقتلتم أبطالنا ونهبتم أموالنا ونحن نتغافل عنكم ونهمل أمركم حتى غلظت شوكتكم وقصدتم مدينتنا التي هي دار مُلْكنا ومحل ولايتنا، ولقد طلبها من قبلكم من الفراعنة والجبابرة والقبط والقياصرة والأكاسرة والجرامقة ورجعوا خائبين وأنتم هجمتم علينا وقتلتم رجالنا، فقولوا لنا ما الذي تريدون منّا؟ فإن كنتم تريدون مالاً وترجعون عنّا، قمت أنا عن الملك بذلك وترحلون عنّا وتردّون لنا ما ملكتم من بلادنا وأن الملك لا

يخالف لي أمرًا فأخبروني ما الذي تريدون وما الذي تطلبون؟ فقال له جرير: أَفَرِغتَ من كلامك؟ فقال له: نعم. قال له جرير: خذ جوابك. أما قولك كنّا في ضيق حال فهو كما ذكرت، ولكن أنعم الله علينا بالإسلام وهو أول نعمة ثم أمرنا بالجهاد، وإن الله تعالى أباح لنا أموال المشركين ما داموا محاربين وأمرنا أن نجاهدكم حتى تؤدّوا الجزية عن يد وأنتم صاغرون أو تسلموا أو تقاتلوا **﴿حتى يحكم الله بيننا وهو خير الحاكمين﴾** [الأعراف: ٨٧]. وأما قولك المال فليس هو غرضنا ولا متاع الدنيا شهواتنا، وإن بلادكم عن قريب تكون لنا وأموالكم غنيمة لنا نتقاسمها.

قال الواقدي: فلما سمع البطريق الكلام غضب غضبًا شديدًا، وقال: أنا كفء لكم دون الملك، ثم أمر أصحابه بالحملة على جرير. قال فما لويت عنان جوادي إلا والخيل قد ركبتني، فعندها تواثب المسلمون واقتتلوا قتالاً شديدًا وتبادرت الرجال وزمجرت الأبطال وزحفت الأفيال وتراشقوا بالنبال وتضاربوا بالنِّصال وتطاعنوا بالعوال والتقى الجمعان واصطدم الفريقان واشتد النّزال وكثرت الأهوال وتقاتلت الفرسان وولّى الجبان حيران، فللّه درّ المغيرة بن شعبة وعون بن ساعدة وعبادة بن تميم والفضل بن العباس رضي الله عنهم، لقد قاتلوا قتالاً شديدًا وأبلوا بلاءً حسنًا ولم يزل القتال يشتدّ من ارتفاع الشمس إلى الغروب، فعندها وثب عبد الله بن جعفر إلى قابيل وضربه ضربة فحاد عنها عدو الله وولّى هاربًا وحَمَتْه جماعة نحو ثلثمائة فارس ولم يزل الفريقان في قتال ونزال إلى أن غابت الشمس وافترق الجمعان، وقد قتل من المسلمين نحو خمسين رجلاً ختم الله لهم بالشهادة وقتل من الروم نحو ألفي فارس. قال: واجتمعت الروم حول قابيل حين ولّى هاربًا إلى أن وصل إلى البطليوس، فلما رآهم وبّخهم وقال لهم: بأيّ وجه تفرّون من العرب ولم تصبروا لهم وقد فشلتم وجزعتم. فقال له قابيل: أيها الملك ليس الخبر كالعَيان، وهؤلاء ليسوا بإنس وإنما هم جنٌّ في القتال، ولولا الأجل حصين ما عدت إليك، فغضب الملك وقال: اسكت قد تمكّن رعب العرب من قلبك وستنظر ما يكون من أمرهم، ثم بات في قلق شديد حتى أصبح الصبح ولم يأمر قومه بالركوب وقال: أمهلوا حتى أنظر ما يكون من أمرهم.

ذكر فتوح البهنسا ونزول الصحابة وقتل البطريق

قال الراوي: ولمّا أصبح المسلمون صلّوا صلاة الصبح ثم تبادروا إلى خيولهم فركبوها فلم يجدوا لأعداء الله خبرًا ولا أثرًا وتيقنوا أنهم انهزموا ومضوا إلى مدينتهم، فسارت المسلمون إلى أن قربوا من البهنسا فلاحت لهم المضارب والخيام والسرادقات والأعلام.

قال الراوي: حدّثنا قيس بن منهال عن عامر بن هلال عن ابن زيد الخيل. قال: لمّا أشرفنا على مدينة البهنسا ورأينا تلك المضارب. قال عياض رضي الله عنه: اللّٰهمَّ اخذلهم وانصرنا عليهم. اللّٰهمّ احصهم عددًا واقتلهم بددًا ولا تُبقِ منهم أحدًا واخزهم ﴿إنك على كل شيء قدير﴾ [آل عمران: ٢٦] وأمِنَ المسلمون على دعائه. قال: فلما أقبلنا على مدينة البهنسا كبّرنا وهلّلنا فخرجوا إلى ظاهر الخيام وبأيديهم السيوف والدرق والقسيّ والنّبال ورأينا خلقًا كثيرة على الأبراج وأراد جماعة من العرب الحملة عليهم فمنعهم الأمير وبقية الأمراء من ذلك وقالوا: لا حملة إلا بعد إنذار، ثم إنهم لم يأتوا إلينا ولا ناوشونا بقتال واستقلّونا في أعينهم.

قال الواقدي: ونزل المسلمون بجانب الجبل عند الكثيب الأصفر قريبًا من البياض الذي على المغارة نحو المدينة هذا ما جرى لهؤلاء، وأما أبو ذرّ الغفاري وأبو هريرة الدّوسي ومعاذ بن جبل ومسلمة بن هاشم ومالك الأشتر وذو الكلاع الحميري فإنهم ساروا حتى نزلوا قريبًا من القوم وباتوا تلك الليلة، فلما أصبحوا خرج أعداء الله للقائهم. فقال مالك الأشتر: يا قوم إن أعداء الله خرجوا للقائكم فأشغلوهم بالقتال وأرسلوا جماعة منكم يملكون الجسر واستعينوا بالله، فعندها خرج المرزبان ومعه ثلثمائة فارس حتى وصلوا إلى الجسر والحجارة تتساقط عليهم من أعلى السّور حتى ملكوا الجسر وجعلوا في أماكن المخاضات حرّاسًا بسيوف محدودة واقتتل المسلمون وأعداء الله قتالاً شديدًا وثبتوا في القتال سبعة أيام، وكلما أتوا إلى مكان المخاضة وجدوه مربوطًا بالرجال وصار كل ليلة تهرب منهم جماعة من الروم ويهيمون على وجوههم يريدون الصعيد فتلقّاهم رافع بن عميرة الطائي ومعه سَرِيَّة من أصحاب قيس بن الحرث عند البلد المعروف بادقار وكانوا حوالي البحر اليوسفي يشنّون الغارات على تلك السواحل، فبينما هم كذلك يسيرون إذ سمعوا دويّ حوافر الخيل فظنّوا أنهم مسلمون فكلّموهم فلم يردّ عليهم أحد فلحقوهم وحملوا عليهم وكانوا ستمائة فارس ففرّوا من بين أيديهم فقتلوا منهم نحو مائتين وهرب الباقون وقتل من المسلمين ثلاثة وهرب الروم نحو المخاضة فغرق منهم مائة وأسروا منهم مائتين وهرب الباقون وسألوهم عن سبب خروجهم فأخبروهم أنهم يرودون، فعند ذلك أوثقوهم كتافًا وأتوا بهم مكتفين مع نفر من المسلمين إلى أن أوصلوهم إلى عياض بن غانم الأشعري فأعلنوا بالتهليل والتكبير والصلاة على البشير النذير وأقبلوا نحوهم ففرحوا بالأسارى، ثم عرضوهم على الأمراء المتقدّم ذكرهم فعرضوا عليهم الإسلام فأبوا فضربت أعناقهم والروم ينظرون إلى ذلك، ثم زحفت عليهم الصلبان واقتتلوا قتالاً شديدًا وحَمِيَ الحرب وكثر الطّعن والضرب من ارتفاع الشمس إلى وقت العصر وفشا القتل في الروم، فلما رأوا ذلك ولّوا الأدبار وركنوا إلى الفرار وصعدوا على القلعة وغلقوا الأبواب واستعدّوا للحصار ونصبوا آلات القتال.

قال: هذا ما جرى لهؤلاء، وأما الصحابة رضي الله عنهم فإنهم نزلوا في سفح الجبل والوادي في المكان المتّسع من الجهة البحرية والجهة الغربية، فلما جاء الليل أوقدوا نيرانهم واجتمعت كل قبيلة ببني عمّها يقرؤون القرآن ويصلّون على محمد أشرف ولد عدنان، وما فيهم إلا مَن هو راكع أو ساجد أو داعٍ لله عزّ وجل لعله أن ينصرهم على عدوّهم وباتت الروم اللئام يشربون الخمر داخل المدينة وخارجها، وقد أعلنوا بكلمة كفرهم حتى ضجّت منهم أرض البهنسا واستغاثت إلى الله عزّ وجل،فناداها بلسان القدرة: اسكتي يا بهنسا، فوعزّتي وجلالي لأهلكنّهم ولأسكننّك قومًا يوحّدوني من خيار خلقي، ولأجعلنّ تلك البيع مساجد للصلاة والجمع، فلما سمعت الأرض الخطاب من قبل ربّ الأرباب مالت فرحًا واهتزّت طربًا وبقيت منتظرة وعد ربّها بزوال كربها فلم يكن إلا قليل حتى أزال الله عنها أهل الكفر والطغيان وعَبَدَة الصلبان وأسكنها خير أُمة أخيار من المهاجرين والأنصار من أصحاب محمد المختار يصلّون بها آناء الليل وأطراف النهار، وجعلت البرية مدافن للسادات الشهداء الأطهار، وصار عليها بعد الظلام أنوار، وصارت زيارتها تحطّ الخطايا والأوزار.

قال الواقدي: ولمّا أصبح الصباح صلّى المسلمون صلاة الصبح وجلسوا ينتظرون ما يكون من أمر الروم، وإذا بقسٍّ قد أقبل راكبًا بغلة وعليه مدرعة من شعر وقلنسوة وزنّار، فسار حتى وصل قريبًا من العسكر، ثم تكلم بلسان عربي وقال: يا مسلمين أُريد أمير العرب.

قال الراوي: حدّثنا قيس بن شماس عن كعب بن همام عن شداد بن أوس وكان من أصحاب الرّايات. قال: بينما نحن جلوس نتحدّث مع الأمير عياض بن غانم إذ أقبل عبد الله بن عاصم وأخبر عن ذلك القسّ. قال: فأذِنَ له الأمير عياض بالدخول فدخل القسّ، فوجد الأمير عياضًا جالسًا في خيمته على فراش من أدم وحشوه من ليف وفرش المشركين التي اكتسبوها مطوية على جانب وحوله السادات والأمراء رضي الله عنهم كلهم جلوس حوله وهو كأنه أحدهم وسيوفهم على أفخاذهم وعليهم هيبة ووقار. فلما دخل القسّ اندهش وحارَ وأخذه الانبهار، ثم التفت يمينًا وشمالاً وقال: يا قوم أيّكم الأمير حتى أُكلّمه فإنكم كلكم أراكم سادات وأمراء وعليكم هيبة ووقار، فأشاروا إلى الأمير عياض فالتفت إليه وقال: يا فتى أنت أمير قومك. قال: كذلك يزعمون ما دمت على طاعة الله عزّ وجل. فقال له القسّ: إن الملك البطليوس قد أرسلني إليكم يريد ذا الرأي والخبرة ليسأله عن أمركم، فلعل أن يكون ذلك سبب حقن الدماء بينكم وبينه. قال فعندها التفت الأمير عياض إلى أصحابه وقال: ما تقولون فيما أتاكم به هذا القسّ، ومَن ينطلق إليه ويخاطبه ويعود إلينا؟ قال: فوثب المغيرة بن شعبة وقال: أنا أمضي إليه وأُريد

معي عشرة رجال من الأمراء ذوي المروءة والبأس. فقال له الأمير: آختر مَن شئت وفّقك الله وسدّدك، وردّك إلينا سالمًا غانمًا، أنت ومَن معك. قال: فالتفت وراءه وقال: أين سعيد بن عبد القادر، أين أبو أيوب الأنصاري، أين خالد بن زيد الأنصاري، أين زيد بن ثابت الأنصاري، أين مسعود البدري، أين جرير بن مطعم، أين أبو يزيد العقيلي، أين معاوية بن الحكم الثقفي، أين عمّار بن حصين، أين زيد بن أرقم؟ فأجابوه بالتلبية، فقال لهم: خذوا أُهبتكم وانطلقوا معي على بركة الله وعونه، قال: فتبادر هؤلاء الأمراء السادات إلى خيامهم ولبس كل واحد درعه وتنكبوا بحجفهم، وتقلّدوا بسيوفهم واعتقلوا برماحهم.

قال الواقدي: ثم إن المغيرة رضي الله عنه دخل إلى خيمته ولبس درعه وشدّ وسطه بمنطقته، وهي من الأدم وفيها خنجران واحد عن اليمين وواحد عن الشمال وتقلّد بسيف من جوهر واعتقل برمح أسمر وركب جواده الأدهم، وأخذ كل واحد منهم عبده راكبًا على بغلة وودّعهم فالتفت الأمير عياض، وقال للمغيرة: اعرف يا شعبة ما تكلّم به هذا الملعون فما عرفتك إلا مفلح الحجة فادعه إلى الإسلام وما فرض عليه من الصلاة والزكاة والصيام والحج والجهاد، وما أُبيح من الحلال، وما حُرِّمَ من الحرام، فإن أبى فالجزية في كل عام، فإن أبى فالقتال بحدّ الحسام ونرجو النصر من الملك الديّان، بجاه محمد خير الأنام. قال: فقال المغيرة: أرجو من الله الملك الوهّاب المعونة في ردّ الجواب وسارت الأمراء والقسّ أمامهم راكب على بغلة وعبيدهم خلفهم على بغالهم وكل عبد عليه لامة حربه وساروا وهم معلنون بالتهليل والتكبير، والصلاة على البشير النذير. قال زياد بن ثابت: ولمّا فارق القوم الأمير عياضًا نظرت إليه وعيناه تذرفان بالدموع حتى بلّت دموعه لحيته، وهو يقرأ القرآن. فقلت أنا: أيها الأمير ما هذا البكاء؟ فقال لي: يا ابن ثابت هؤلاء والله أنصار الدين. فإن أُصيب رجل منهم فما يكون عذري عند الله عزّ وجل؟ قال: وسار المغيرة وأصحابه حتى أشرفوا على عسكر العدو، وإذا هو ملء الأرض، وهو نازل حول مدينة البهنسا فصاح المغيرة ومَن معه يقولون: لا إلٰه إلا الله محمد رسول الله ﷺ، فبينما هم كذلك إذ أقبل إليهم بطريق ومعه رجل من العرب المتنصرة راكب إلى جانبه ومعهما نحو مائة ألف فارس وساروا بين أيديهم حتى وصلوا إلى قريب سرادق الملك ولاح البطليوس وهو جالس على السرير فعند ذلك خرج لهم الحجّاب والنوّاب وأرباب الدولة والصولة، وقالوا: قد وصلتم وبلغتم إلى سرادق الملك فانزلوا عن خيولكم وانزعوا سيوفكم. فقال المغيرة: أما خيولنا فننزل عنها، وأما سيوفنا فلا ننزعها، فإنها عزّنا وما كنا بالذي ينزع عزّه الذي يعتزّ به دهره. قال: فأخبر الحجّاب الملك بذلك، فقال: دعوهم يدخلون بسيوفهم فنادتهم الحجّاب ادخلوا.

قال الواقدي: فعندها ترجّل أصحاب رسول الله ﷺ عن خيولهم وأمسكوها لعبيدهم، وأقبلوا يتبخترون في مشيهم ويجرّون حمائل سيوفهم ويخترقون صفوف الكفّار وهم لا يهابونهم إلى أن وصلوا إلى سرير الملك فدخلوا إلى أن وصلوا إلى النمارق والفرش والديباج والملك جالس على سريره ولمّا نظر المسلمون إلى ذلك عظّموا الله تعالى وكبّروه فارتجّ السرادق وتغيّرت ألوان القوم وصاح بهم الحجّاب: قبّلوا الأرض للملك فلم يلتفتوا إليهم. قال المغيرة: لا ينبغي السجود إلا للملك المعبود، ولعمري كانت هذه تحيتنا قبل، فلما بعث الله تعالى محمدًا ﷺ نهانا عن ذلك فلا يسجد بعضنا لبعض. قال: فسكتوا. قال: فأمر الملك بكراسي من ذهب وفضة فنصبت لهم فلم يجلسوا عليها، وكانوا من حين دخلوا أمروا بعض عبيدهم أن يطووا البسط من تحت أرجلهم إلى أن وصلوا إلى فرش الديباج فشالوها على جنب، فقالت لهم البطارقة: قد أسأتم الأدب معنا إذ لم تسجدوا للملك ولم تمشوا على فرشنا، فقال المغيرة: إن الأدب مع الله تعالى أفضل من الأدب معكم والأرض أطهر من فرشكم لأن رسول الله ﷺ يقول: «جُعِلَت لي الأرض مسجدًا وطهورًا»، وقال الله تعالى: ﴿**منها خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة أخرى**﴾ [طه: ٥٥].

قال الواقدي: لم يكن بين البطليوس والصحابة ترجمان لأنه كان أعرف أهل زمانه بلسان العربية، فعند ذلك أمرهم بالجلوس، فقال المغيرة: إما أن تنزل عن سريرك وتكون معنا على الأرض أو تأذن لنا بالجلوس معك على السرير لأن الله تعالى شرّفنا بالإسلام. قال فأشار لهم بالجلوس معه على السرير بعد أن أزالوا تلك الفرش وجلس المغيرة إلى جانبه فالتفت البطليوس لعنه الله إليهم، وقال لهم: أيّكم المتكلم عن أصحابه؟ فأشاروا إلى المغيرة رضي الله عنه والصحابة جلوس وأيديهم على مقابض سيوفهم فالتفت البطليوس إلى المغيرة، وقال له: ما اسمك؟ فقال: عبد الله المغيرة، فقال: يا مغيرة إني أكره أن أبدأك بالكلام، فقال المغيرة: تكلم بما شئت فإن عندي لكل كلام جوابًا.

ثم إن البطليوس أفصح في كلامه وقال: الحمد لله الذي جعل سيدنا المسيح أفضل الأنبياء، وملّكنا أفضل الملوك ونحن خير سادة فقطع عليه المغيرة، فقالت الحجّاب والنوّاب: لقد أسأت الأدب مع الملك يا أخا العرب فأبى المغيرة أن يسكت وقال: الحمد لله الذي هدانا للإسلام، وخصّنا من بين الأمم بمبعث محمد عليه أفضل الصلاة والسلام، فهدانا به من الضلالة، وأنقذنا به من الجهالة، وهدانا إلى الصراط المستقيم فنحن خير أمة أُخرجت للناس نؤمن بنبيّنا ونبيّكم وبجميع الأنبياء، وجعل أميرنا الذي هو متولّي علينا كأحدنا لو زعم أن ملك وجار عزلناه عنّا فلسنا نرى له فضلاً علينا إلا بالتقوى، وقد جعلنا الله نأمر بالمعروف وننهى عن المنكر ونقرّ بالذنب ونستغفر منه،

ونعبد الله وحده لا شريك له، ولو أذنب الرجل منّا ذنوبًا تبلغ مثل الجبال فتاب قبلت توبته، وإن مات مسلمًا فله الجنة، قال: فتغيّر لون البطليس. ثم سكت قليلاً وقال: الحمد لله الذي ابتلانا بأحسن البلاء، وأغنانا من الفقر ونصرنا على الأمم الماضية ولقد كانت جماعة منكم قبل اليوم يأتون إلى بلادنا فيمتارون البرّ والشعير وغيره ونُحسِن إليهم وكانوا يشكروننا على ذلك وأنتم جئتمونا بخلاف ذلك تقتلون الرجال وتسبون النساء وتغنمون المال وتنهبون المدائن والحصون والقِلاع وتريدون أن تُخرِجونا من بلادنا وديارنا، وأنتم لم تكن أمة من الأمم أضعف حالاً منكم لأنكم أهل الشعير والدّخن وجئتم بعد ذلك تطمعون في بلادنا وأموالنا وحولنا جنود كثيرة، وشوكتنا شديدة، وعصابتنا عظيمة، ومدينتنا حصينة والذي جرّأكم علينا أنكم ملكتم الشام والعراق واليمن والحجاز وارتحلتم إلى بلادنا وأفسدتم كل الفساد وخربتم المدائن والقلاع ولبستم ثيابًا فاخرة وتعرّضتم لبنات الملوك والبطارقة وجعلتموهنّ خدمًا لكم وأكلتم طعامًا طيبًا ما كنتم تعرفونه وملأتم أيديكم بالذهب والفضة والمتاع الفاخر واللآلىء والجواهر ومعكم متاعنا وأموالنا التي من قومنا وأهل ديننا ونحن نترك لكم ذلك جميعه ولا ننازعكم عليه ولا نؤاخذكم بما تقدّم من فعلكم من قتل رجالنا ونهب أموالنا، والآن فارحلوا عنّا واخرجوا من بلادنا. فإن فعلتم فتحنا خزائن الأموال وأمرنا لكل رجل منكم بمائة دينار وثوب حرير وعمامة مطرزة بالذهب ولأميركم هذا ألف دينار وعشرة عمائم وعشرة ثياب، ولكل أمير منكم كذلك وللخليفة عليكم عشرة آلاف دينار ومائة ثوب حرير ومائة عمامة بعد أن نستوثق منكم بالأيمان أنكم لا تعودون إلى الإغارة على بلادنا هذا كله والمغيرة ساكت، فلما فرغ البطليوس من كلامه، قال له المغيرة: قد سمعنا كلامك فاسمع كلامنا. ثم قال: الحمد لله الواحد القهّار الفرد ﴿**الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوًا أحد**﴾ [الإخلاص: ٢ ـ ٤] فقال له البطليوس: نِعْمَ ما قلت يا بدوي، فقال المغيرة: أشهد أن لا إله إلاّ الله، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله المرتضى، ونبيّه المجتبى، فقال له البطليوس لعنه الله: لا أدري أن محمدًا رسول الله ولعله كما يقال حبيب الرجل دينه ثم التفت إلى المغيرة، وقال: يا عربي ما أفضل الساعات؟ فقال: ساعة لا يعصى الله فيها، قال: صدقت يا أخا العرب لقد بانَ لي رجحان عقلك فهل في قومك مَن له رأي مثل رأيك وحزم مثل حزمك؟ قال: نعم في قومنا وعسكرنا أكثر من ألف رجل لا يُستغنى عن رأيهم ومشورتهم وخلفنا أمثال ذلك وهم قادمون إلينا عن قريب.

فقال البطليوس: ما كنّا نظن ذلك منكم، وإنما بلغنا عنكم أنكم جماعة جُهّال لا عقول لكم، فقال المغيرة: كنا كذلك حتى بعث الله فينا محمدًا ﷺ فهدانا وأرشدنا. فقال البطليوس: لقد أعجبني كلامك فهل لك في صحبتي؟ فقال المغيرة: يسرّني ذلك إذا

فعلت ما أقول لك. قال: ما هو؟ قال: تشهد أن لا إلـه إلا الله، وأن محمدًا عبده ورسوله. قال البطليوس: لا سبيل إلى ذلك، ولكن أردت أن أُصلح الأمر بيني وبينكم. قال المغيرة رضي الله عنه: الأمر إلى الله، وأما قولك لنا إنّا أهل فقر وبؤس وضرّ فقد كنّا كذلك وكنّا أهل جاهلية لا يملك أحدنا غير فرسه وقوسه وإبله وكنّا لا نعظّم إلا الأشهر الحُرُم حتى بعث الله إلينا نبيّه ورسوله ﷺ نعرف أصله ونسبه صادقًا أمينًا نقيًّا إمامًا رسولاً أظهر الإسلام وكسر الأصنام، وختم به النبيين، وعرّفنا عبادة ربّ العالمين، فنحن نعبد الله ولا نعبد غيره، ولا نتّخذ من دونه وليًّا ولا نصيرًا، ولا نسجد إلا لله وحده لا شريك له، ونقرّ بنبوّة محمد ﷺ وقد أمرنا أن نجاهد مَن كفر بالله واتخذ مع الله شريكًا جلّ ربّنا وعلا، وهو واحد لا تأخذه سنة ولا نوم، فمَن اتّبعنا كان من إخواننا وله ما لنا وعليه ما علينا، ومَن أبى الإسلام فالجزية يؤدّيها عن يدٍ وهو صاغر، فمَن أدّاها حقن الله دمه وماله، ومَن أبى الإسلام والجزية فالسيف حَكَم بيننا وبينه والله خير الحاكمين، وهي على كل مُحتَلم في العام دينار وليس على مَن يبلغ الحلم جزية ولا على امرأة ولا على راهب منقطع في صومعته، فقال البطليوس: لقد فهمت قولك عن الإسلام فما قولك عن الجزية عن يد وهو صاغر فإني لا أدري ما الصغار عندكم؟ فقال المغيرة رضي الله عنه: وأنت قائم والسيف على رأسك. فلما سمع البطريق كلام المغيرة غضب غضبًا شديدًا ووثب قائمًا ووثب المغيرة من موضعه وانتضى سيفه من غمده، وكذلك فعل أصحاب رسول الله ﷺ كفعله وهم يقولون: لا إلـه إلا الله محمد رسول الله.

قال الراوي: حدّثنا مسلم بن عبد الحميد عن طارق بن هلال عن عبد الله بن رافع. قال: كنّا مع المغيرة وجذبنا السيوف ووثبنا على القوم وأخذتنا غيرة الإسلام وما في أعيننا من جيوش البطليوس شيء وعلمنا أن المحشر من ذلك الموضع، فلما رأى البطليوس منّا ذلك وتبيّن له الموت من شفار سيوفنا نادى: مهلاً يا مغيرة لا تعجل فنهلك، وأنا أعلم أنك رسول، والرسول لا يقتل وإنما تكلمت بما تكلمت لأختبركم وأنظر ما عندك والآن لا نؤاخذكم فاخمدوا سيوفكم. قال: فأغمدنا سيوفنا وتقدم المغيرة حتى صار في مكان البطليوس وزحزحه إلى آخر السرير، وكان المغيرة رجلاً جسيمًا فاتكًا عليه حتى كاد أن يخلع فخذه من موضعه. قال: ثم التفت إلى المغيرة وقال: ما قولكم في المسيح ابن مريم؟ قال المغيرة: عبد الله ورسوله. قال: فمن أيّ شيء خلق؟ قال: خلقه الله من تراب، ثم قال له كن فكان ودلّ على ذلك القرآن العظيم. قال عزّ وجل: **﴿إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون﴾** [آل عمران: ٥٩]. قال: فما الدليل على أن الله واحد؟ فقال المغيرة: القرآن العظيم، قوله تعالى على لسان نبيّه: **﴿قل هو الله أحد الله الصمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوًا أحد﴾** [الإخلاص: ١ ـ ٤]. فقال له البطليوس: ما رأيت مثل حذقك وجوابك يا أعور،

وكان المغيرة رضي الله عنه أُصيب في إحدى عينيه يوم اليرموك. فقال له المغيرة: إن ذلك لا يعيبني، ولقد أُصيبت عيني في الجهاد في سبيل الله من كلب مثلك وأخذت بثأري من الذي فعل بي ذلك فقتلته وقتلت جملة منهم، والثواب من الله عزّ وجل أعظم من ذلك. فقال البطليوس: ما أحذق جوابك فهل في قومك مثلك؟ قال: قد قلت لك فينا أهل العلم والرأي، ومَن لا أُساوي في علمهم شيئًا وأنا رجل بدوي، فلو رأيت عليّ بن أبي طالب ابن عمّ رسول الله ﷺ المختار مقاتل الكفّار ومُبيد الفجّار والليث الكرّار البطل المغوار. قال: أهو معكم في هذا الجيش فقد سمعت بشجاعته وبراعته وأُريد أن أنظر إليه.

فقال له المغيرة: قاتلك الله إن الإمام عليًا كرّم الله وجهه أعظم قدرًا من أن يسير إلى مثلك... قال: فهل أحد غيره؟ قال: نعم مثل أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه هو خليفتنا وعثمان بن عفّان وعبد الرحمٰن وسعيد وسعد وأبو عبيدة بن الجراح رضي الله عنهم وأمراء متفرقين في الحجاز واليمن والشام والعراق ومصر كل أمير يقوم بألف مثلك في الشجاعة والبراعة وغير ذلك، وأما سيف الله الأمير خالد بن الوليد أمير هذا الجيش ومعه عصابة من الأمراء فكأنك به، وقد أقبل علينا برجال سادات شِداد وأُمراء أمجاد. فقال له عند ذلك: إني أُريد أن أُصلح الأمر بيني وبينكم وأُريد قبل الحرب أن أنظر إلى جماعة ممّن ذكرت.

قال الراوي: وكان عدوّ الله أراد أن يغدر بأصحاب رسول الله ﷺ ففهم المغيرة منه ذلك. فقال: غداة غد آتيك منهم برجال تنظر إليهم. قال ففرح عدوّ الله وأضمر المَكْر لأصحاب رسول الله ﷺ وردّ الله كيده في نحره.

قال الراوي: ثم وثب المغيرة وأصحابه وخرجوا من عند البطليوس وما صدقوا بالنجاة وركبوا خيولهم وأمر البطليوس حجّابه ونوّابه أن يسيروا معهم إلى قريب من عسكرهم. قال ووصل المغيرة وأصحابه إلى الأمير عياض بن غانم الأشعري وحدّثه بما جرى له مع البطليوس. فقال عياض: وحق صاحب الروضة والمنبر ما ترككم إلا خوفًا من سيوفكم، وهذا رجل حكيم إلا أن الشيطان قد غلب على عقله.

قال الراوي: ولم يناموا تلك الليلة إلا وقد أخذوا أُهبتهم للحرب واستعدوا، فلما أصبح الصباح أذّن المؤذّنون في عسكر المسلمين فأسبغوا الوضوء وصلّوا الصبح، ثم ركبوا خيولهم وقد علموا أن العدو مصبحهم وقد عبّوا صفوفهم، وكانت الجواسيس من العرب يدخلون في عسكرهم وينقلون الأخبار ووصلت جواسيس عياض بن غانم إليه وأعلموه بذلك، وأن الروم متأهبون للقتال فرتب جيشه ميمنة وميسرة، فجعل في الميمنة

الفضل بن العباس، وجعل في الميسرة أبا أيوب الأنصاري، وجعل في القلب القعقاع بن عمرو التميمي.

قال: حدّثنا قيس بن عبد الله. قال: حدّثنا مالك بن رفاعة عن سعيد بن عمرو الغنوي قال: حضر أرض البهنسا عشرة آلاف عين رأت النبي ﷺ، وفيهم سبعون بدريًا والأمراء وأصحاب الرايات نحو ألف وأربعمائة ودفن بأرض البهنسا من الصحابة والسادات نحو خمسة آلاف. وسيأتي ذكر ذلك إن شاء الله تعالى.

قال الراوي: وكان على الرجالة معاذ بن جبل، وعلى الساقة والنسوان والصبيان سعد بن عبد القادر والضحاك بن قيس. قال: وصار الأمير عياض يتخلّل الصفوف ويقول: الله الله الجنة تحت ظلال السيوف: يا أهل الإسلام اعلموا أن الصبر مقرون بالفرج وأن الله مع الصابرين والصابرون هم الغالبون، وأن الفشل سبب من أسباب الخذلان، فمَن صبر على حدّ السيف فإذا قَدِمَ على الله أكرم منزلته وشكر سعيه والله يحبّ الصابرين، وصار يقول ذلك لأصحاب الرايات. قال: وما فرغ الأمير عياض من تعبية الصفوف إلا وعساكر البطليوس والروم قد أقبلت ومعهم النصارى والفلاّحون والعرب المتنصرة، وأمامهم صليب من الذهب الأحمر زنته خمسة أرطال وفي أربعة جوانبه أربع جواهر كالكواكب.

قال: حدّثني سنان بن الحرث الهمداني عن شداد بن أوس وكان ممّن حضر الفتوح إلى آخرها قال وأقبلت الصلبان وأنا أعدّها صليبًا بعد صليب حتى عددت ثمانين صليبًا تحت كل صليب ألف ومعهم القسوس والرهبان وهم يتلون الإنجيل وأكثر أعداء الله في عسكرهم من الرايات والأعلام فبينما الناس كذلك إذ أقبل بطريق وعليه درع مذهّب ولامة حرب وهو يرطن بلغته وطلب البراز فبرز إليه القعقاع وتعاركا وتجاولا، ثم طعنه القعقاع في صدره فأطلع السنان يلمع من ظهره، فخرج علج آخر وقد غضب لقتل صاحبه وكان من أصحاب الجلوس على السرير مع الملك وطلب البراز فبرز إليه رجل من الأزد فمنعه الأمير عياض من ذلك وقال: اذهب فلست كفؤًا له. قال فبرز إليه المسيب بن نجيبة الفزاري وضربه فتلقاها العلج بحجفته فطار السيف من يده وضرب العلج المسيب فضيّعها، ونظر أن أحدًا يناوله سيفًا فلم يجد فأراد الرجوع وإذا بالقعقاع بن عمرو أقبل وبيده سيف فناوله إياه فكرّ راجعًا وضرب البطريق على عاتقه الأيمن فأطلع السنان من عاتقه الأيسر فانجدل صريعًا يخور في دمه وعجّل الله بروحه إلى النار وبئس القرار، فلما رأت الروم ذلك حملوا على المسلمين حملة واحدة واشتدّ القتال وعظم النزال وعدو الله البطليوس راكب على جواد أهداه له صاحب صقلية والبربر يساوي خمسمائة دينار، وكان أيام الحصار يصعد به ويرمح على أسوار المدينة، وسيأتي ذكر ذلك إن شاء الله تعالى في

موضعه، وعلى بدنه درع مذهّب وفي وسطه منطقة من الجوهر وعلى رأسه تاج تلمع جواهره كالكواكب والصلبان والأعلام مشتبكة على رأسه وقد حمل كردوس من الروم على ميمنة المسلمين فصبروا لهم صبر الكرام، ثم حمل كردوس آخر، فللّه درّ الفضل بن العباس وأخيه عبيد الله وأولاد عقيل وعبد الله بن جعفر وسادات بني هاشم لقد قاتلوا قتالاً شديدًا وأبلوا بلاءً حسنًا، وتقدّم الفضل إلى حامل الصليب وطعنه في صدره فأطلع السنان يلمع من ظهره وسقط الصليب منكّسًا إلى الأرض، فنظر إليه البطليوس فأيقن بالهلاك وهمّ أن يأخذه، فلم يجد لذلك من سبيل. قال: فأحاط به المسلمون وصار الفضل وسادات بني هاشم يذبّون ويرجعون الروم عن الصليب، ولما رأى الفضل ازدحام النصارى والروم حمل عليهم حملة منكرة وأسعفه بنو عمّه بالحملة والأمراء فقهروا الروم وقتلوا منهم جماعة، وازدحم المسلمون على الصليب يريدون أخذه. فقال لهم الفضل: إنه لي دونكم، ثم عطف عليه ومالَ في ركابه وأخذ الصليب وكرّ راجعًا إلى المسلمين وسلّمه لعبد الله يسلّمه لعبده مقبل، وكان راكبًا مع المسلمين، فأخذه ومضى إلى خيمته. قال وحمل الفضل بن العباس ثانيًا وحملت الأمراء واشتدّ القتال وعظم النزال وسالت الدماء وكثر العرق وازورّت الحدق. قال ولمّا رأى عدوّ الله البطليوس ذلك حمل على المسلمين ومعه طائفة من البطارقة نحو خمسة آلاف وكانوا على جناح الميسرة فقتلوا من المسلمين جماعة وجرحوا جماعة وصبروا لهم صبر الكرام.

هذا والفضل رضي الله عنه تارة يكرّ في الميمنة وتارة يكرّ في الميسرة وحمل الأمراء جميعهم، فللّه درّ القعقاع بن عمرو التميمي والمسيب بن نجيبة الفزاري والبراء بن عازب ومعاذ بن جبل وزيد الخيل لقد قاتلوا قتالاً شديدًا حتى بقي الدم على دروعهم كقطع أكباد الإبل وتوسط المسلمون كتيبة منهم، فبرز بطريق عظيم الخلقة كأنه برج فحمل عليه سفينة مولى رسول الله ﷺ وأراد أن يضربه وسَطَا عليه، وإذا بضربة أتته من خلفه فأردته عن جواده وسقط والرمح مشتبك في أضلاعه وخشخش الرمح في عظم ظهره، ثم جذب الرمح وهو ملقى على الأرض ونزل جماعة وأخذوا سلبه. قال: فتأملنا مَن ضرب البطريق فإذا هو زياد بن أبي سفيان رضي الله عنه. قال فلما رأى الروم ذلك حملوا حملة منكرة وقامت الحرب على ساق واحدة وضربت الأعناق وشخصت الأحداق وتضاربوا بالصِّفاح وتطاعنوا بالرماح واشتدّ الكفاح ورطنت الروم بلغتهم ولم يزالوا في قتال ونزال حتى غابت الشمس وافترق الجمعان، وقد قتل مَن قتل من المسلمين نحو مائتين وخمسين ختم الله لهم بالشهادة ونالوا درجة السعادة وبات الفريقان يتحارسون والمسلمون يقرؤون القرآن ويصلّون على محمد أشرف ولد عدنان. قال وإن المسلمين أوقدوا النيران وأتوا إلى مكان المعركة وميّزوا القتلى، فلما

رأى الأمراء ما حلّ بهم وبأولادهم بكوا وقالوا: لا حول ولا قوّة إلاّ بالله العليّ العظيم.

قال الراوي: وقتل من المشركين نحو ألفين وخمسمائة، وقتل من خيارهم وعظمائهم نحو عشرين من أرباب الدولة وحاشية الملك أصحاب السرير، فلما رأى البطليوس ذلك صعب عليه وكبر لديه وجلس في سرادقه وحوله أكابر دولته من حجّابه ونوّابه وقدّموا له الطعام والشراب فامتنع عن ذلك، ثم التفت إلى حجّابه وبطارقته ووبّخهم توبيخًا عظيمًا، وقال: مثلكم لا يصلح لخدمة الملوك فما هذا الخوف والفشل الذي دخل في قلوبكم وتريدون أن تصيروا مَعَرَّة عند الملوك بفِعالكم هذه؟ فقالوا: أيها الملك إن هذا اليوم ما أخذنا فيه أُهبتنا، وما كنّا نظن أن العرب فيهم هذه الشجاعة. فقال: وما عندكم من الرأي، أترضون بالعار والذلّ ولا سيما وقد أخذ الصليب من أيديكم وخذلتموه؟ فقالوا: أيها الملك سوف ترى منّا ما يسرّك في غد نكمن لهم كمينًا ونخرج لهم ونقاتلهم ويخرج عليهم الكمين ونأمر جماعة يسلسلون أنفسهم وهم الرماة كعادة الروم أن يفعلوا ونقاتلهم ولا نمكّنهم من مدينتنا ولو قتلنا عن آخرنا فاستوثق الملك منهم بقولهم، ثم كتب كتابًا وأرسله تحت الليل إلى بطريقي طنجة وقلعة الأبراج يسألهم النجدة وكانوا بطارقة شِدادًا كل بطريق تحت يده عشرة آلاف بطريق من حملة السلاح، فلما ورد عليهم الكتاب جهّزوا النجدة والأُهبة، وسيأتي ذكر ذلك إن شاء الله تعالى.

قال الراوي: وأصبح المسلمون فصلّوا صلاة الصبح وتبادروا إلى خيولهم فركبوها، ثم صفّوا صفوفهم ورتّبوا مواقفهم كما ذكرنا أولاً، وصار الأمير عياض يحرّض الناس وقد جعل في مكانه المغيرة بن شعبة وعطفوا على أصحاب الرايات، وقال لهم: أطلقوا الأعنّة وقوّموا الأسنّة، وإذا لقيتم العدو فاحملوا حملة واحدة ولا تخافوا ولا ترهبوا وركب الأمراء كاليوم الأول ولم يركبوا حتى دفنوا شهداءهم في ثيابهم ودمائم. قال فما شعرنا إلا والروم قد أقبلوا علينا ورطنوا بلغتهم علينا وابتدر منهم خمسة آلاف فنزلوا عن خيولهم وأرسلوها مع غلمانهم وحفروا لهم حفائر إلى أوساطهم ووضعوا غرائر النشاب - أي الصناديق بين أيديهم - وأقسموا بالمسيح لا يزولون ولو قتلوا عن آخرهم وكانوا ثلاثة صفوف.

قال الراوي: حدّثنا سنان بن أبي عبيدة عن زياد عن الحرث عن عبد يغوث وكان من أصحاب الرايات. قال: بينما نحن نتأهب للحرب وللحملة إذا بالروم قد حملوا علينا حملة واحدة وحملت ميمنتنا واختلط القلب بالقلب ورمت المسلسلة بنشابها فكان يخرج منهم عشرة آلاف سهم كأنها تخرج من كبد قوس واحدة كالجراد المنتشر أو السيل المنحدر فجرحت رجالاً وقتلت أبطالاً وولّت خيل العرب نافرة وصبرت جماعة من

الأمراء وحمل الفضل بن العباس وأخوه وسادات بني هاشم، وكذلك زياد بن أبي سفيان والمغيرة بن شعبة والمسيب بن نجيبة الفزاري وجميع الأمراء واقتتل الفريقان قتالاً شديدًا وفَشَا القتل في المسلمين، وثبت القوم لقتال العرب، وعدوّ الله البطليوس تارة يكرّ في الميمنة وتارة يكون في الميسرة وتارة في القلب وحوله كتائب المشركين.

قال الراوي: فصبرنا صبر الكرام ووطّنا أنفسنا على الموت والأمراء يحرّضون على القتال، وقد قتل من الفريقين طائفة إلا أن القتل لم يبن في المشركين لكثرتهم، ولم نظن أن القوم لهم كمين إذ خرج للقوم كمين من خلفنا والمسلسلة من بين أيدينا وأحاطوا بنا وصرنا بينهم كالشامة البيضاء في جلد البعير الأسود وقتل جماعة من السادة والأمراء وأخلاط الناس، فللّه درّ سادات بني هاشم وأبان بن عثمان بن عفان. فلقد قاتل أصحاب الرايات براياتها، وقاتل عدو الله في القلب وأنكى في المسلمين وقتل رجالاً وجندل أبطالاً، وكلما طلبه فارس من المسلمين لم يجده إلا وهو قد صار في وسط الروم. قال فعندها تقدم القعقاع والمسيب بن نجيبة الفزاري، وقالا: قرّبوا الجِمال في وجوه القوم يا وجوه العرب فاستاقوا الإبل وجعلوها بين أيديهم تلقى النشاب وحملوا على المسلسلة وداسوهم بالإبل وسنابك الخيل وأقبلت الرجال والرّماة يقتلونهم حتى قتلوا منهم مقتلة عظيمة. هذا والروم على حالهم، فلما رأى عدو الله ما حلّ بقومه من فعل المسلمين بهم ازدادوا طغيانًا ولم يزالوا كذلك حتى غابت الشمس، ثم أنزل الله نصره على المسلمين فتظاهروا عليهم، وتقدّم جعفر بن عقيل إلى كتيبة من الروم وغاص في أوساطهم وطعن البطريق المقدّم عليهم فقتله، فتكاثرت الروم عليه فقتلوه، وكذلك فعل أخوه عليّ فقتل منهم جماعة فقتلوه، وكذلك زيد بن زياد فقتل منهم جماعة فقتلوه وعظم النزال واشتد القتال وألجؤوهم إلى ورائهم، فلما رأت الأمراء والسادات وبنو هاشم ما حلّ بهم تواثبوا كالأُسود الضارية وحملوا على الروم وألجؤوهم إلى الأبواب واقتتلوا قتالاً شديدًا عند باب الجبل والباب البحري.

قال الراوي: وكانت ليلة لم ترَ الصحابة مثلها وقتل الصحابة رضي الله عنهم أُلوفًا وقتل منهم جماعة بظاهر البلد نحو خمسمائة وأزيد وتظاهر المسلمون بعد ذلك عليهم وألجؤوهم إلى السور واقتتلوا قتالاً شديدًا وعظم البلاء وعدوّ الله يحمي أصحابه وهم في أشد القتال، وكان شعار المسلمين تلك الليلة ينادون: يا محمد يا محمد يا نصر الله أنزل وقتل جماعة من المسلمين عند الأبواب وعظم النزال، وكان يسمع ضرب السيوف على الدرق كالرعد وبريق السيوف كالبرق ولمعان الأسنّة كالكواكب وأحدقت المسلمون بالروم وعدوّ الله يحمي قومه تارة يكون عند باب قندوس وتارة يكون عند باب توما في جماعة من قومه حتى دخل الروم جميعهم ولم يبق إلا مَن انقطع من قومه أو كَبَا به جواده ولم

يزالوا كذلك حتى طلع الفجر فعلوا على الأسوار وضربوا بالنواقيس والبوقات والقرون وغلقوا الأبواب ورموا الأقفال، فلما أصبح الصباح صلّى المسلمون صلاة الصبح وأتوا إلى موضع المعركة وتفقدوا مَن قتل منهم فإذا هم خمسمائة وعشرون رجلاً من باب توما إلى باب قندوس ختم الله لهم بالشهادة.

قال الراوي: ولمّا رأى المسلمون ذلك بكوا بكاءً شديدًا وأعظم الناس حزنًا الأمير عياض لأجل مَن قتل تحت رايته، وكان أكثر الشهداء الأعيان من قريش وبني هاشم وبني المطلب وبني نوفل وبني عبد شمس، فلما رأى مسلم بن عقيل إخوته وما حلّ بهم، ورأى الفضل بن العباس وعبد الله بن جعفر وسادات بني هاشم ما حلّ ببني عمّهم نزلوا عن خيولهم وعانقوا شهداءهم واسترجعوا في مصابهم، فعند ذلك أنشد همام بن جرير يقول:

يا عين ابكي لا تملّي البكى ... سحّي دموعًا مثل سكب الغمام
وابكني على السادات من هاشم ... وعصبة المختار خير الأنام
نوحي على الليث ابن عمّ النبي ... هو جعفر المشكور ليث همام
وابكي على الشهداء لا تغفلي ... ما لاح برق أو تغنى حمام
فلا لقي البطليوس خيرًا ولا ... أجناده أهل الصليب اللئام
لنأخذنّ الثأر يا قومنا ... بطعن خطى وحدّ الحسام

قال: ووارى المسلمون شهداءهم، ثم إن الأمير عياضًا فرّق الأمراء على الأبواب فنزل السادات من بني هاشم وغيرهم مثل زياد بن أبي سفيان والوليد وأخيه محمد وأُسامة بن زيد وأبي أيوب الأنصاري وفضالة بن عبيد وأوس بن حذيفة وعمرو بن حصين ورافع بن خديج وأبي دجانة وجابر بن عبد الله وبقية الأمراء. قال ونزل القعقاع بن عمرو التميمي والمسيب بن نجيبة الفزاري وأمثالهم من الأمراء بألفي فارس على باب الجبل والمغيرة بن شعبة وأبو لبابة والمهلب الطائي ونظراؤهم من الأمراء بألفي فارس عند باب توما. قال وعبّى القوم آلات الحصار ورتبوها على الأسوار وأقاموا مدة شهر لا يقاتل بعضهم بعضًا، بل كل يوم يركب البطليوس لعنه الله جواده المتقدم ذكره ويلبس لامة حربه ويطلع بالجواد على أعلى السور وحوله المُشاة من خلفه وقدّامه وبأيديهم السيوف المحددة والدرق والدبابيس والأطيار المذهّبة والقسيّ والنشاب، وكان عرض السور يمشي عليه خيالان متكاتفان باللبس الكامل. قال هذا ما جرى لهؤلاء، وأما خالد فإنه أرسل عبد الرحمٰن بن أبي بكر وعبد الله بن عمر إلى الفيوم وجرى بينهم وقعات وحروب اختصرنا ذكرها خوف الإطالة، فإن المقصود الذي عليه مدار هذا الكتاب

هو فتح البهنسا وما وقع فيها والله أعلم، ثم إنهم ساروا حتى اتصلوا إلى مدينة الفيوم وحاصروها أيامًا قلائل، ثم فتحوها وفتحوا الفيوم في أقل من شهر وأخذوا الأموال والغنائم ورجعوا إلى خالد رضي الله عنه وكان مقيمًا بالنورية كما ذكرنا.

قال: هذا ما جرى لهم، وأما أبو ذر الغفاري وأبو هريرة الدوسي وذو الكلاع الحميري ومالك الأشتر النخعي فإنهم لمّا ضربوا رقاب القوم كما ذكرنا حاصروا القلعة نحو عشرين يومًا واقتتلوا قتالاً شديدًا.

قال: حدّثنا قيس بن مالك عن منصور بن رافع عن أبي المنهال وكان من أصحاب مالك الأشتر. قال بينما نحن نحاصر القلعة، وقد تظاهروا علينا إذ نحن بغبرة وقت الفجر، وكانت ليلة مقمرة فلاحت لنا خيل وقعقعة لجم فتبادرنا إلى خيولنا فركبناها، واتّضح النهار وبان، وإذا عشرون صليبًا تحت كل صليب ألف فارس، وكان السبب في ذلك بطريق طحا ذات الأعمدة وبطريق قلعة ذات الأبراج وما حولهم لما بلغهم كتاب البطليوس تجهّزوا بأنفسهم وجمعوا ما حولهم من الروم والنصارى وخرجوا أول الليل خوفًا من العرب، فما أصبحوا إلا على القلعة والنيل كان في أول زيادته والمسلمون قد أخذوا المعابر والقناطر التي على البحر اليوسفي فقطعوها وساروا حتى نزلوا على القلعة وكان بلغهم حصارها فلم تشعر المسلمون إلا وقد أقبلوا وهجموا عليهم وأتوا إلى نحو باب المدينة الشرقي فوجدوا الأمير زيادًا وأصحابه هناك. قال مالك الأشتر: يا وجوه العرب اجعلوا البحر خلف ظهوركم وقاتلوا أعداءكم واستعينوا بخالقكم، هذا والروم صاحوا وطمطموا بلغتهم ورطنوا من أعلى السور، وكذلك أهل القلعة دقّوا الطبول وضربوا بالنواقيس فلم يزالوا على المسلمين متقابلين وجاءت كتيبة من الروم إلى جانب البحر كما ذكرنا نحو ثلاثة آلاف، وكان الأمير زياد رضي الله عنه في نحو مائتين من أصحاب رسول الله صلّى الله عليه وسلم فحملوا عليه وصبروا لهم صبر الكرام، وقتل الأمير زياد رحمه الله تعالى وقتل معه جماعة من المسلمين ختم الله لهم بالشهادة وركب بقية المسلمين وقاتلوا قتالاً شديدًا وصبروا لهم صبر الكرام.

قال الواقدي: فسمع المسلمون وهم حول المدينة فأتوا إلى الجانب الشرقي فوجدوا السيوف مجذوبة والرايات مرفوعة، وقد قتل جماعة من المسلمين على شاطىء البحر نحو أربعين رجلاً فصاحت: ما فعلوا بنا، فعندها هجم القعقاع بفرسه البحر، وقال: بسم الله وعلى بركة رسول الله ﷺ. اللّهمّ إنك تعلم أننا أفضل من بني إسرائيل عندك، وقد فرقت لهم البحر. فسار ولم تبتلّ قوائم فرسه وانحدر إلى جانب القلعة، وكانت بقرب البحر فاقتحم البحر خلفه نحو من ألفي فارس إلى أن طلعوا إلى البرّ الشرقي، واقتتلوا قتالاً شديدًا. قال: فبينما نحن في أشد القتال إذا بغبرة قد لاحت وانكشفت عن ألف فارس

يقدمهم رفاعة بن زهير المحاربي وهم من أصحاب قيس بن الحرث وكانوا في بلد تسمى بردوها وكانوا صالحوا أهلها فجاءهم رجل من المعاهدين وأخبرهم بمسير أهل طحا ذات الأعمدة وصاحب قلعة الأبراج لقتال المسلمين وعلموا أن البحر حاجز بينهم وبين أصحابهم فأتوا إلى الأمير قيس بن الحرث واستأذنوه حتى وصلوا وهم في القتال كما ذكرنا، فلما رأوا القوم كبّروا فأجابوهم بالتهليل والتكبير والصلاة على البشير النذير. ثم حملوا عليهم وقاتلوهم قتالاً شديدًا، وكان الفضل بن العباس وزياد بن أبي سفيان ومسلم بن عقيل في جملة مَن عبر إلى البر الشرقي، فعندها وثب القعقاع بن عمرو التميمي على بطريق القلعة فقتله وكذلك الفضل بن العباس وثب على بطريق طحنا ذات الأعمدة فقتله وزياد بن أبي سفيان على بطريق عظيم فقتله، فلما رأى الروم ذلك ولّوا الأدبار وركنوا إلى الفرار وهرب منهم جماعة فألجؤوهم إلى البحر فغرق منهم جماعة وأسر منهم نحو من ثلاثة آلاف وأتوا بهم إلى نحو السور قريبًا منه وضربوا أعناقهم والبطليوس ينظر إليهم هو وأصحابه ودفن الأمير زياد إلى جانب البحر تحت جدران القلعة ورجعت المسلمون ونصبوا الجسر بالأخشاب والأحجار تتساقط عليهم وهم لا يفكرون حتى عبروا إلى الجانب الغربي بأجمعهم واشتدّ الحصار وأقام المسلمون محاصرين مدينة البهنسا تسعة أشهر.

قال الواقدي: وإن المدينة كان لها باب سرّي تحت الأرض من تحت باب الجبل من عند تل هناك يظن مَن رآه أنه مغارة أو حفر في الجبل وكان يخرج منه عيونه ومَن يأتيه بالطعام وغيره سرًا تحت ظلام الليل إلى ذلك المكان ويخرج الرجل وفرسه على يده إلى ظاهر السرب فلأجل هذا لا يعجزهم الحصار وكان إذا احتاج إلى أمر مهم يخرج مَن يثق به من ذلك المكان ويوقد الشمع والفوانيس ليلاً ويخرج مَن يختار من ذلك الباب وكان الملوك القدماء ما وضعوا ذلك الباب إلا لأجل الحصار وكانت عيونه تخرج وتأتيه بالأخبار، وكان خالد بن الوليد رضي الله عنه لما فتح الفيوم صارت الميرة والعلوفة والأرز والعسل وغير ذلك تأتي للصحابة من الفيوم ومن الوجه البحري تأتي إليهم الميرة. قال فأرسل الأمير عياض رضي الله عنه الأمير مياس بن حام وأرسل معه مائتين من المسلمين ومعهم جِمال وبِغال يأتونهم بما ذكرنا، وكان خالد قد أرسل يعلمهم بذلك وأنهم يرسلون إلى الفيوم ويأخذون ما يحتاجون إليه، قال وسار مياس حتى وصل الفيوم، وكان عليهم متكلمًا من قبل خالد الأمير عجرفة. قال وسار مياس ومَن معه حتى قَدِموا الفيوم وأوسقوا الجِمال والبِغال وأرادوا الرجوع إلى أرض البهنسا حتى وصلوا إلى دير هناك في الجبل. قال: هذا ما جرى لهؤلاء. وأما عيون البطليوس فأخبروه بذلك فاستدعى ببطريق من أصحاب السرير اسمه ميخائيل بن بطرس وكان معروفًا بالشدة والبراعة وأمره أن يأخذ معه ألفًا من الروم وينطلقوا إلى طريق الفيوم ويكمنوا لهم في

الدير، ثم يخرجوا عليهم فخرجوا من باب السرب واحدًا بعد واحد في ظلام الليل وساروا حتى وصلوا إلى دير وكمنوا هناك حتى رأوا المسلمين فخرجوا عليهم فالتقى الجمعان واصطدم الفريقان وقاتلت المسلمون قتالاً شديدًا.

قال الراوي: حدّثنا أبو محمد البدوي حدّثنا أبو العلاء المحاربي، قال شداد بن أوس، وكان في خيل مياس: لما التقى الجمعان، وأحاطت بنا أعداء الله وظننا أن المحشر من ذلك المكان ووطّنا أنفسنا على الموت وقاتل الأمير مياس بعد أن سلّم الراية لولده منيع فقاتل حتى قتل، ثم قاتل من بعده مازن حتى قتل ولم تكن غير ساعة حتى قتل من المسلمين نحو مائة فارس وأسروا الباقين. قال وكان في القوم عبد الله بن أنيس الجهني رضي الله عنه أحد سُعاة النبي ﷺ، فلما رأى ذلك خرج كالريح الهبوب وقام يجري وكان قد دعا له رسول الله ﷺ هو وعمرو بن أمية الضمري بالقوة والبركة في المشي، وكانا لا تدركهما الخيل العتاق ولا النجب السوابق فسار حتى أشرف على العسكر وصاح: النفير النفير اركبوا يا مسلمون. قال: فتواثبت الفرسان إليه وسألوه فقصّ عليهم القصة فتواثب المسلمون إلى خيولهم فركبوها وكلٌّ يقول أنا أمضي فعندها استدعى الأمير عياض بعبد الله بن جعفر الطيار أخي علي بن أبي طالب وضمّ إليه ألف فارس من الصحابة رضي الله عنه من أهل الشدة وساروا أول الليل ومعهم رجل من المعاهدين يدلّهم إلى أن قربوا من قرية هناك بسفح الجبل فكمنوا هناك إلى أن جنّ الليل إذا سمعوا حوافر الخيل فتواثبوا إلى خيولهم فركبوها، وإذا بالروم أقبلوا عليهم والأسارى معهم موثقون بالحبال على ظهور خيولهم، وكانت ليلة مقمرة فصاحت المسلمون بالتهليل والتكبير والصلاة على البشير النذير وحمل القوم واقتتلوا قتالاً شديدًا فعندها صاح عبد الله بن جعفر رضي الله عنه: يا قوم أيعجز أحدكم عن خصمه، قال: فتواثب الأمراء والسادات رضي الله عنهم يقتلون ويأسرون وبادر عبد الله بن جعفر إلى مقدّم الجيش لعنه الله، وكان عليه درع مصفّح فطعنه في صدره طعنة قرشية هاشمية فأطلع السنان يلمع من ظهره وعجّل الله بروحه إلى النار وبئس القرار، فلما رأى الروم ذلك انهزموا وتبعهم المسلمون يقتلون ويأسرون وينهبون، فما أصبح الصباح حتى قتل منهم نحو خمسمائة وأسروا الباقين وخلّصوا المسلمين من الأسْر وغنموا سلاح الروم وأموالهم وخيولهم وترك عبد الله بن جعفر الأسارى وخمسمائة من المسلمين عند القرية وأمرهم أن لا يبرحوا حتى يأتيهم، وأمّر عليهم عبد الله بن معقل وساروا حتى أتوا إلى محل المعركة ووجدوا القتلى وعندهم نصارى من المعاهدين يبكون وحلفوا لهم أن لا علم لهم بذلك فنزلوا عن خيولهم وأخرجوا لهم زادًا فأكلوا وواروا شهدائهم، وكرّ عبد الله راجعًا إلى أصحابه وحملوا رؤوس القتلى ورأس عدوّ الله ميخائيل أمامهم وجنّبوا خيولهم وأخرجوا لهم زادًا فأكلوا وساقوا الأسارى حتى وصلوا إلى العسكر بالميرة والعلوفة ومعهم من العسل والسليط.

قال: وأعلنوا بالتهليل والتكبير والصلاة على البشير النذير وأجابتهم المسلمون إلى مثل ذلك وانقلب العسكر والروم على الأسوار ينظرون ما الخبر فرأوا تلك الرؤوس على رؤوس عدوّ الله ميخائيل أمامهم فصعب عليهم وكبر لديهم ولطموا على وجوههم وذهبوا إلى البطليوس وأعلموه بذلك فصعب عليه واستدعى بجواده فركبه وصعد على السور حتى أشرف على المسلمين، فلما رأى ذلك عظم عليه، وقال: ما هؤلاء إنس وإنما هم جنٌّ، فلما رأى المسلمون البطليوس أتوا إلى الأمير فأعلموه بذلك فركب الأمراء معه حتى أتى إلى تلٍّ هناك عالٍ مقابل باب قندوس واستدعى بالأسارى وعرض عليهم الإسلام فأبوا فضربوا رقابهم والروم ينظرون إلى ذلك فغضب عند ذلك البطليوس غضبًا شديدًا وحمل همًّا عظيمًا.

قال الراوي: ثم إن عدوّ الله استشار أصحابه فيما يفعل وأنه يريد الخروج بنفسه والكبسة عليهم. قال فنهض إليه بطريق اسمه كراكر، وكان فارسًا شديدًا، وقال: أنا أيها الملك أكفيك هذا المهم وأكبس عليهم لعلّي أن أنال منهم منالاً وأُريد معي جماعة شدادًا، فقال الملك: خذ مَن شئت فانتدب معه عشرة بطارقة تحت يد كل بطريق ألف وجاؤوا إلى كنيستهم وفتحوا الإنجيل في وجوههم وساروا إلى أن وصلوا إلى الأبواب والبطليوس يحرّضهم ويوصيهم بالهجمة عليهم ما داموا على غفلة. ثم أمر الحرّاس بفتح الباب لهم وهو باب قندوس وكانوا ألف فارس بوّابين على الباب، وكان للباب ثلاثة أبراج بين كل برجين باب وشراريف وخرجوا وهم مستعدّون لذلك والمسلمون على غفلة مما دبّر القوم لا يدرون ما يُراد بهم وكان على حرس المسلمين تلك الليلة من جهة باب قندوس زائد بن ثابت وعبيد الله بن عباس وعبد الله بن معقل والبراء بن عازب ومالك الأشتر وذو الكلاع الحميري.

قال الراوي: حدّثنا عوف بن سعد عن سعيد بن طارق الثقفي عن أبي يزيد عن مالك الأشتر، قال بينما نحن نسهر تلك الليلة والمسلمون قد هجعوا في مراقدهم من شدة البرد وكثرة السهر ووضعوا أسلحتهم، ومنهم مَن له وِرْد يقرؤه ومنهم مَن يصلّي إذ رأينا فتح الباب وخرجوا كالسلاهب وبأيديهم الفوانيس ومشاعل النار وحملوا على الجيش فتبادرنا إليهم وصِحْنا النفير دهينا، يا مسلمون ثوروا فقد غدركم القوم، فلما سمع المسلمون الصياح تبادروا وثاروا من مضاجعهم كالأسود الضارية هذا يأخذ سيفه، وهذا يأخذ رمحه، وهذا عاري الجسد لم يمهل حتى يلبس ثيابه، وهذا يشدّ وسطه بمئزره، وهذا عليه قميص واحد وثاروا في صدور الرجال، هذا وعدوّ الله قد عطف على جماعة من المسلمين قبل أن ينتهوا ووضع السيف في عراضهم فما أفاق بعض القوم إلا والسيف قد أطاح رأس هذا وقطع زند هذا وطعن نحر هذا وهكذا وكَثُرَ الصياح وعظم البلاء وكثر

القتال وعدوّ الله كراكر عليه ديباجة حمراء مقصّبة بالذهب تلمع من فوق الدروع وعلى رأسه بيضة عليها جوهرة تضيء كالكواكب وهو يهدر كالجمل الهائج، وهو يرطن بلغته وخلفه جماعة والذين على الأسوار يصيحون ويزعقون بشِعارهم ويضربون بقرونهم وبوقاتهم وطبولهم وأوقدوا مشاعلهم من أعلى السور حتى بقي مثل النهار، هذا وقد ثارت الأمراء أصحاب النجدة وذوو المروءات واعتقلوا بسيوفهم وركبوا خيولهم فمنهم مَن ركب جواده عريانًا، ومنهم مَن ركب بسرج بغير لجام، ومنهم مَن أسرع ماشيًا، فللّه درّ الفضل بن العباس وابن عمّه الفضل بن أبي لهب وعبد الله بن جعفر وزياد بن أبي سفيان والقعقاع بن عمرو والمسيب بن نجيبة الفزاري والمغيرة ومسلم وأبي ذر الغفاري وأبي دجانة وأبي أمامة وغفار بن عقبة وأبي زيد العقيلي ومثل هؤلاء السادات رضي الله عنهم لقد قاتلوا قتالاً شديدًا، وأبلوا بلاءً عظيمًا، وطعن جماعة من المسلمين وجرح جماعة من المسلمين.

وأما الذين هاجموهم في أول الوقعة فقتل منهم جماعة نحو المائتين وثمانين رجلاً واقتتل الناس قتالاً شديدًا، وأقبل الفضل بن العباس إلى البطريق كراكر لعنه الله بالسيف على عاتقه الأيمن فأطلع السنان يلمع من عاتقه الأيسر فوقع يخور في دمه وعجّل الله بروحه إلى النار وبئس القرار وأتبعه بالجملة ابن عمّه عبد الله بن جعفر فقتل بطريقًا آخر ولم تكن إلا ساعة وقد جاءتهم بقية الأمراء من على أبوابهم وتركوا مكانهم مَن يثقون به وساروا إلى أن وصلوا إليهم وحملوا عليهم حملة منكرة وقتلوا منهم مقتلة عظيمة نحوًا من ثلاثة آلاف من الروم والنصارى، فلما رأى الروم ذلك فرّوا نحو الباب وتبعهم المسلمون إلى الباب فخرج كردوس عظيم من الروم وحملوا المنهزمين وأسر المسلمون من الروم نحو ألف ومائتين وخمسين وأتوا إلى مكان المعركة يتفقدون مَن قتل منهم. فإذا هم أربعمائة وخمسة وثلاثون رجلاً ختم الله لهم بالشهادة، فلما رأى المسلمون ذلك شقّ عليهم وكبر لديهم وأسرعوا تحت الليل وجمعوا الشهداء ودفنوهم في ثيابهم ودمائهم في مكان يُعرف بالبطحى عند مجرى الحصى ومنقع السيل فدفنوهم هناك كل اثنين وكل ثلاثة وكل أربعة وكل خمسة في قبر وقدّموا عليهم أهل السابقة وأصحاب القرآن وكان يُعرَف ذلك المكان بقبور الشهداء الأخيار، والدعاء هناك مُستَجاب مُجَرَّب مرارًا وتحطّ هناك الأوزار لمَن يُكثِر من الدعاء والتطوّع والاستغفار.

قال الواقدي: ما حدّثت في هذا الكتاب إلا على قاعدة الصدق وأذكر ما وقع من الأمور وحدث عن أصحاب التواريخ وثقات المحدّثين من أصحاب السِّيَر ومن سماع كلامه كالدرّ، فهذا كالعقد النفيس في السلوك والتأسيس، لا يليق سماعه إلا لذوي البصائر والعلماء والملوك فإنه نزهة الناظر ويشرح الخاطر، لم يجمع أحد مثله من أهل

السِّيَر لما فيه من الأمثال والعجائب والأخبار الصحيحة المنقولة عن ثقات المحدّثين يتلذّذ بذلك المستمعون، ولنرجع إلى سياق الحديث.

قال الواقدي: حدّثنا عبد الله بن عبد الواحد القاري عن أبي سراقة بن نوفل الخزرجي عن أبي لبابة بن المنذر وكان من أصحاب الرايات. قال: ولمّا وارينا الشهداء ورجعنا إلى خيامنا وعدو الله البطليوس قد أغلق الباب وألقى الأقفال وعلوا على الأسوار. قال ولمّا رجع المنهزمون إلى البطليوس صعب عليه وكبر لديه وأظلمت الدنيا في وجهه وحمل همًّا عظيمًا على مَن قتل من بطارقته وجماعته ونوى المكايد والمصائب للمسلمين.

قال الراوي: هذا ما جرى لهؤلاء، وأما الصحابة رضي الله عنهم فإنهم اجتمعوا عند الأمير وتذاكروا ما حصل للمسلمين من البطليوس لعنه الله واتفق رأيهم أن يرسلوا إلى الأمير خالد بن الوليد رضي الله عنه ويسألوه أن يسير إليهم بنفسه وبِمَن معه وكتب كتابًا يقول فيه: بسم الله الرحمٰن الرحيم، من عبد الله عياض بن غانم إلى الأمير خالد بن الوليد، اعلم أيها الأمير أننا فتحنا الشام والعراق واليمن والحجاز ولم نجد في الترك والروم والفرس والديلم ألعن من هذا الملعون بطريق البهنسا البطليوس ولا أكثر منه خداعًا ولا مكرًا ولا حيلة وأنها مدينة آهلة بالخيل حصينة بالرجال، وقد خدعونا مرارًا وقد قتلوا منّا رجالاً، فأنجدنا بنفسك وبِمَن معك من المسلمين، والسلام ورحمة الله وبركاته عليكم، وطوى الكتاب وسلّمه إلى عبد الله بن المنذر فأخذه وأتى به إلى الأمير خالد فوجده نازلاً على النورية، فسلّم عليه ودفع له الكتاب، فلما قرأه وفهم ما فيه استرجع وقال: لا حول ولا قوة إلا بالله العليّ العظيم، ثم التفت إلى عبد الله وقال: قل للأمير عياض إن الأمير خالدًا قادم عليك برجال وأيّ رجال والسلام عليك وعلى مَن معك من المسلمين من المهاجرين والأنصار فرجع عبد الله ثاني يوم إلى البهنسا وردّ الكتاب إلى الأمير عياض بن غانم.

قال: ثم استدعى الأمير خالد بأبي عبد الله الزبير وضمّ إليه ثلثمائة فارس وأمرهم بالمسير إلى أرض البهنسا وقال لهم: إذا وصلتم إلى أرض البهنسا فأعلنوا بالتهليل والتكبير والصلاة على البشير النذير، فسار الزبير رضي الله عنه فلما بعدوا دعا بالمقداد بن الأسود وضرار بن الأزور ودفع لهما مائتي فارس وأمرهما أن يسيرا على أثرهما وقال لهما: لا تزالا حتى يدخل الزبير وابنه، ثم بعبد الرحمٰن بن أبي بكر وعبد الله بن عمر رضي الله عنه وضمّ إليهما مائتي فارس وأمرهما بالمسير على أثر المقداد، ثم استدعى بسعيد بن زياد بن عمرو بن نوفل خال رسول الله ﷺ وعقبة بن عامر الفهري، ودفع لهما مائتي فارس وأمرهما أن يسيرا، وبات الأمير خالد تلك

الليلة، ولما أصبح صلّى وسار معه بقية الأمراء من المهاجرين والأنصار الأخيار رضي الله عنهم.

قال الراوي: وسار الزبير رضي الله عنه بمَن معه حتى أشرف على البهنسا فكبّر وكبّر معه المسلمون وأنشد يقول:

أتيناكم على خيل عتاق ... شبيه الريح يوم الاستباقِ
عليها كل صنديد همام ... شديد البأس يوم الحرب راقي
نذل حماتكم بالسمر لمّا ... نجول بها مع البيض الرقاق
ونقتل كل ملعون وباغٍ ... على الإسلام من أهل النفاق
ونحن حُماة الدين الله حقًّا ... نقرّ بأن ربّ العرش باقي
وأن محمدًا خير البرايا ... رسول الله للعلياء راقي

قال: وأشرفت الروم على أبواب المدينة ينظرون إليهم، فما لبثوا غير قليل حتى أشرف عبد الرحمٰن بن أبي بكر الصدّيق وعبد الله بن عمرو رضي الله عنه وكبّر وكبّرت المسلمون قال ثم أنشد يقول:

أنا الفارس المشهور للحرب في الوغى ... أذلّ بسيفي كل باغٍ ومعتدي
وأحمل في الأبطال حملة مَن له ... إلى الغاية القصوى أعاظم مقصدي
أنا ابن أبي بكر الذي شاع ذكره ... خليفة خير المرسلين محمد
فيا ويل مَن عالى حسامي رأسه ... ويا ويل مَن عاجلته بمهند

قال الراوي: ثم أشرف من بعده عبد الله بن عمر وكبّر وكبّرت المسلمون لتكبيره ثم أنشد يقول:

أتينا على خيل عتاق وضمر ... بكل يمان ذي حداد وأسمر
بكفّ شجاع باع الله نفسه ... يرى الموت في الهيجاء أفخر مفخر
نذلّكم بالسيف في الحرب والقنا ... ونقتل منكم كلّ باغٍ ومفتري

قال الراوي: ولم يزل كل أمير ينزل بجماعته حتى تكاملوا وتأخر الأمير خالد وبقية الأمراء الذين معه، ولمّا بات أصحاب رسول الله ﷺ وأصبحوا، قال ضرار بن الأزور والأمراء للأمير غانم: أظنكم أنتم المحاصرون وأعداؤكم في أكل وشرب فما هذا القعود؟ ثم رجعوا للأبواب وضرار ينشد ويقول:

سأضرب في العلوج بكل عضب ... شديد البأس ذي حدٍّ صقيل

وأضرم في علو الباب نارًا وأرمي القوم بالخطب الجليل
وأترك دارهم منهم خرابًا ولم أمهل بذي شبح كفيل
فويل ثم ويل ثم ويل لهم مني بمشتدّ العويل
سأقتل كل باغٍ كان منهم بحدّ السيف والباع الطويل

قال: ولم يزل يترنّم بهذه الأبيات وتراموا بالسهام والمقاليع واقتتلوا قتالاً شديدًا فاشتدّت حمية عتيد الروم، وجمع الملعون البطارقة من ذوي الشدة والبأس، وكان هو فارسًا شديدًا وبطلاً كما ذكرنا، وفتح باب الجبل وخرج منه كأنه شُعلة نار على جرائد الخيل والرماة بين يديه يرمون بالنشاب والمجانيق من أعلى الأبراج، واقتتلوا قتالاً شديدًا وجرح من المسلمين جماعة، وكانت مقتلة عظيمة وبقية الأمراء لا يعلمون وأنكى من المسلمين جماعة. قال فعندها ضجّت الأمراء أصحاب الرايات وأقبل علج عظيم من البطارقة وطلب البراز، فبرز إليه المغيرة بن شعبة، فحمل عليه البطريق واقتتلا قتالاً شديدًا، فضربه المغيرة بالسيف فطاح من يده، وبادر عدوّ الله إلى المغيرة ليضربه، وإذا بفارس قد أقبل بيده سيف مجذوب فلوّح به إلى المغيرة وإذا هو عبد الرحمٰن بن أبي بكر فأخذه المغيرة وضرب به البطريق فحاد عنها وقرب من المغيرة وتجاذبا، وكلما أراد المغيرة أن يسطو على العلج يمانع عن نفسه ونظر ضرار بن الأزور إلى ذلك، فترجّل عن جواده وسعى بين الصفوف حتى قرب من البطريق وضربه في حزامه فقطعه، فسقط عدو الله وهو جاذب المغيرة إلى الأرض فعندها تكاثرت الروم على ضرار والمغيرة فأرادوا قتلهما، وإذا بثلاثة فوارس قد أقبلوا واخترقوا الصفوف أحدهم عبد الرحمٰن بن أبي بكر الصديق، والثاني عبد الله بن عمر بن الخطاب، والثالث المقداد بن الأسود الكندي رضي الله عنهم، فأزالوهم عن مراكزهم وقتلوا ثلاثة من الروم، وفرّقوا الكتائب عنهم وضرب ضرار البطريق فقتله. قال: ومال عبد الرحمٰن بن أبي بكر وركب ضرار جوادًا من خيل المقتولين وأخذوا الأسلاب، هذا وعدوّ الله البطليوس لعنه الله تارة يكرّ في الميمنة وتارة يكرّ في الميسرة وطلب البراز.

فبرز إليه المقداد بن الأسود الكندي رضي الله عنه وتعاركا وتجاولا وتطاعنا. قال المقداد بن الأسود: قاتلت ملوكًا وفتحت قلاعًا ولاقيت حروبًا في الجاهلية والإسلام، فلم أرَ أخدع من البطليوس ولا أشدّ بأسًا ولا أصعب مراسًا منه فتقاتلا حتى كلّ الجوادان والتفت إليّ وقال: ما أجرأ فرسك كيف تقاتل عليه وهو بثلاث أرجل. قال المقداد: فمن شفقتي على جوادي طأطأت رأسي لأنظر إلى قوائمه فضربني بالسيف ضربة قوية فقطعت الخوذة والرفادة وأثّرت قليلاً في رأسي، فظنّ الملعون أن خصمه قد قتل، فلوى عنان فرسه، فاستيقظ المقداد وتبعه فساق جواده المتقدم ذكره وأحاط به أصحابه.

قال: فبينما الناس في أشد القتال إذ أقبل الأمير خالد بن الوليد رضي الله عنه ومعه الأمراء المتقدم ذكرهم وأعلنوا بالتهليل والتكبير والصلاة على البشير النذير وفي أوائل القوم خالد وهو ينشد ويقول:

رعى الله صبًا للقا جاء يسرع وصبًا على الفرسان بالرمح يقرع
ومَن باع لله المهيمن نفسه وكان إلى الهيجا بالأمر أطوع
فويلك يا بطلوس من سيف خالد إذا اشتدت الهيجاء والحرب يرفع
فلا رحم الرحمٰن بطلوس كافرًا ويلعنه كل الملائك أجمع
فإن قدَّر المولى سأخرب داره وأتركها من بعده وهي بلقع
بحدٍّ يماني إذا ما جذبته تذلّ له كل العداة وتخضع

قال الراوي: ثم إن خالدًا رضي الله عنه حمل بمَن معه واقتتلوا قتالاً شديدًا وقاتل البطليوس لعنه الله قتالاً شديدًا، وقتل رجالاً وجندل أبطالاً، فعندها حملت الأمراء وأصحاب الرايات وذو المروءات واقتتلوا بين الجبل والباب قريب التل الأحمر قتالاً شديدًا، وعطف خالد على البطليوس وصال عليه، وكلما مرّ إلى ميسرة يراوغه إلى الميمنة ومن الميمنة إلى الميسرة، فعندها عطف خالد عليه وحازه بين الصفوف وحمل عليه، فعندها فرّ إلى القلب وأحاط به أصحابه وقومه ووضعت الأمراء السيوف فيهم وتبعه الأمير خالد وساق جواده إلى الباب واقتحمه، وتبعه قومه وانهزموا إلى الباب ودخلوه وتبعهم المسلمون واقتتلوا عند الباب وقتل من الروم نحو أربعة آلاف ودخلوا الباب وأغلقوه وأوثقوه بالأقفال وعلوا على الأسوار، وأسر المسلمون نحو ألف وخمسمائة فعرضوهم على الأمير خالد، وكان فيهم من كبار البطارقة فعرض عليهم الإسلام، فامتنعوا فأمر بضرب رِقابهم وافتقد المسلمون أصحابهم، فإذا قد قتل منهم مائتان وثمانون رجلاً ختم الله لهم بالشهادة.

قال الواقدي: هذا ما جرى لهؤلاء، وأما عدو الله بطليوس، فإنه حمل همًّا وحصل له ما لا ينبغي شرحه، وأمر بجمع البطارقة، فلما اجتمعوا شكا لهم أمر العرب وما لقوا من الحرب، وقال لهم: فما الرأي عندكم؟ فقالوا: كلنا بين يديك فإذا أمرتنا بالقتال قاتلنا على سور بلدنا، قال: سأدبّر لكم أمرًا وهو تدبير مَن خاض الحروب وعرفها، ثم أمر باجتماع الناس خاصتهم وعامّتهم، فاجتمعوا إليه إلا مَن بقي على الأبواب خوفًا من المسلمين فلما تكاملوا واجتمعوا قال: إني عزمت أن أهجم على القوم هذه الليلة وأكبسهم في أماكنهم والليل مدلهم، وأنتم أعرف بمسالك البلد من غيركم، فلا يبقى منكم أحد إلا ويتأهب ويخرج معي من بابه ونكبس القوم، وأخرج أنا بنفسي ومَن معي

من باب توما وأرجو وصولي إلى مسرّتي وإلا أموت بحسرتي وأبيدهم أولاً بأول لعلّي أن أصل إلى أميرهم فآخذه أسيرًا وأبلغ مقصدي. قالوا: حُبًّا وكرامة، ثم بعث فرقة إلى باب الجبل وفرقة إلى باب قندوس وفرقة إلى الباب الشرقي، وانتدب معه سادات قومه ومَن عُرِف بالشجاعة وأخذهم معه، ثم أقبل على القوم قبل انصرافهم وقال: سآمر صاحب الناقوس أن يخفق لكم الناقوس خفقة عند خروجي من الباب فتخرجون جميعًا فامتثلوا ما أمرهم به وقاموا ينتظرون الإشارة، وأما صاحب الناقوس فاحتمله وصعد به على السور أي البرج وفعل ما أمره به البطليوس، فخرج القوم كالسلاهب وخرج البطليوس في عشرين ألف فارس من الشجعان وهو يوصيهم وقال أسرعوا في مشيكم فإذا وصلتم إلى القوم فاحملوا عليهم ومكّنوا السيوف والخناجر من رقابهم، ومَن صاح الأمان فلا تُبقوا عليه إلا أن يكون أمير القوم، ومَن أبصر منكم الصليب الذي أُخِذَ منّا فليأخذه ومَن أتى به أكرمته.

ثم أمر صاحب الناقوس أن يضربه فضربه ضربة سمعها أهل الأبواب، ففتح البوّابون وتبادروا للخروج، وخرج اللعين وسمع المسلمون الصوت، فبادروا من أماكنهم مسرعين يخفر بعضهم بعضًا وهم على يقظة، وتبادروا كالأُسود الضارية المشتاقة إلى فرائسها، فلم تصل القوم إليهم إلا وهم على حذر إلا أنهم غير مرتبين، فتجاول القوم في ظلام الليل وسمع الأمير خالد ذلك منهم فصاح: واغوثاه وامحمداه واسلاماه كيد قومي وربّ الكعبة اللَّهمَّ انظر إليهم بعينك التي لا تنام وانصرهم على عدوهم ولا تسلّمهم إلى شرّ خلقك؛ ثم سار خالد وهو مكشوف الرأس بلا خوذة، وألهته الزعقة عن لبس السلاح وسار في القوم وهو ينشد ويقول:

فاض دمعي واعتراني حزني ... ضاق صدري وبراني شجني
ربّ سلّم من نزول المِحَن ... وانصر الإسلام يا ذا المِنن
بالنبي الهاشمي العدني ... أحمد المختار طه المدني

قال الراوي: ثم وصل إلى باب توما ومعه خمسمائة من السادات وأصحاب النجدة مثل الفضل بن العباس والفضل بن أبي لهب وزياد بن أبي سفيان بن الحرث وعبد الله بن جعفر بن أبي طالب والمقداد بن الأسود وزيد بن ثابت وعبد الله بن زيد ومسلم بن عقيل وأبي ذر الغفاري وعبادة بن الصامت وبحر بن مسلم وعقبة بن نافع والمغيرة بن شعبة والمسيب بن نجيبة الفزاري رضي الله عنهم وعَلَت أصوات المسلمين بالتهليل والتكبير والقوم من أعلى الأسوار قد رطنوا بلغتهم وتصارخوا عندما استيقظ المسلمون وحمل خالد على القوم ونادى: يا مسلمون آتاكم الغوث من ربّ العالمين، أنا الفارس الصنديد والبطل المجيد، أنا خالد بن الوليد، ثم حمل في وسط الروم بمَن معه

فقتل رجالاً، وجندل أبطالاً وهو مع ذلك مشتغل القلب بالأمير عياض وبقية الأمراء الذي على الأبواب وهو يسمع صراخهم وزعقاتهم.

قال الواقدي: حدّثنا عبد الله بن عون قال: حدّثنا جابر بن سنان عن عقبة بن عامر قال: كان الروم والنصارى من أعلى السور يرمون بالحجارة والسهام، ولقيت المسلمون من عدو الله البطليوس أمرًا عظيمًا لم يروا قبله مثله، وكان أول مَن وصل إليهم البطليوس لعنه الله فصبرت له المسلمون صبر الكرام وقاتل عدو الله البطليوس قتالاً شديدًا، وقال: أروني الذي أخذ صليبي بالأمس، فلما سمع الفضل بن العباس صوته قصد جهته، وقال: ها أنا صاحبك وغريمك أنا مُبيد جمعكم وآخذ صليبكم أنا ابن عم رسول الله ﷺ فعطف عليه البطليوس عطفة الأسد على فريسته وقال: إياك طلبت ثم انفرد له وصادمه فلم ترَ الناس في طول الأيام ضربًا كضربهما في تلك الليلة. ورأى الفضل منه شيئًا لم يره في طول عمره ولم يزالا كذلك إلى أن مضى من الليل شطره وكل قرم مع قرمه ولم يزالا في كرٍّ وفرٍّ وضرب ورد لم يرَ أحد مثله، وصبر له الفضل صبر الكرام ولاح له من عدو الله ضربة فتلقاها في حجفته فانقطع سيف الفضل وطمع فيه عدو الله وظن أنه يأخذه أسيرًا وإذا بفارسين قد أقبلا ومن ورائهما كتيبة من الفرسان قد هجموا على الروم وإذا بخولة بنت الأزور أُخت ضرار قد حملت على فارسين من الروم فجندلتهما وهي تجندل في الأبطال وفرسانهم فلحقها فارسان أحدهما عبد الرحمٰن بن أبي بكر والثاني عبد الله بن جعفر وتبعهما آخر وهو أبان بن عثمان بن عفان فخلّصوا خولة بعد أن أحاطت الروم بها وعطفوا على عدو الله البطليوس فكرّ راجعًا في كردوس من الروم حتى دخل مدينة البهنسا وقاتلت الروم من أعلى الأسوار قتالاً شديدًا، وكان خالد رضي الله عنه تارة يكرّ عند باب الجبل وتارة عند باب توما وتارة عند باب قندوس.

وكان عياض بن غانم الأشعري عند باب الجبل في ذلك الوقت فلبس سلاحه ودنا من القوم بمَن معه من الأمراء مثل المقداد وضرار بن الأزور وشرحبيل ومسلم وعقيل وزياد وعبد الله بن العباس وعمرو بن أبي ذئب وعبد الرحمٰن بن أبي هريرة والمسيب والحرث بن مسلم وزيد بن الحرث وأبي ذرٍّ الغفاري ومحمد بن مسلمة رضي الله عنهم فعطفوا نحو الباب وكبّروا وكبّر القوم من ورائهم فخرج إليهم بطريق عظيم ومعه عشرة آلاف فارس وكان اسم البطريق يوحنا فاقتتلوا قتالاً شديدًا فتكاثر الروم على عبد الله بن عبادة بن الصامت فقاتل قتالاً شديدًا ورُمِيَ بحجر من أعلى الباب فقتله وقتل من الأمراء وفرسان المسلمين عند الباب زهاء من مائتين وقتل من الروم نحو ألف وحمل عياض والأمراء والتقى القوم فصارت الأحجار والسهام تتساقط عليهم وهم لا يولّون عنهم، فلما ألجؤوهم إلى الباب واختلطوا بهم خشيت الروم أن يصيبوا أصحابهم بسهامهم وحجارتهم

فأمسكوا أيديهم وقتل من الروم مقتلة عظيمة. وأما خالد فقاتل قتالاً شديدًا ما رُؤِيَ مثله فبينما الناس كذلك إذ أقبل ضرار بن الأزور وهو ملطخ بالدماء وهو جامد عليه كأكباد الإبل. فقال له خالد: ما وراءك من الأخبار يا ضرار؟ فقال: أُخبرك يا أبا سليمان أني قتلت في ليلتي هذه مائة وستين رجلاً وقتل قومي ما لا يُعَدّ وقد كفيتكم مَن خرج من باب الجبل.

قال الراوي: وكانت ليلة لم يرَ الناس مثلها وهجم الأمير عياض هو وأصحابه على مَن بداخل الباب واقتتلوا قتالاً شديدًا ووصلوا إلى ساباط الباب، وكان له باب آخر فأغلق من دونهم على كردوس من الروم فقتلوا هناك وتسلق المسلمون على البرج وقتلوا مَن فيه وكانوا خمسمائة وقتل في تلك الليلة هناك نحو ألف. وأما باب قندوس فكان عليه الزبير بن العوام وعقبة بن عامر وعبد الله بن عمرو بن العاص والفضل بن أبي لهب والمغيرة وجماعة من الأمراء فتواثبوا إلى الباب واقتتلوا قتالاً شديدًا وقتل من المسلمين نحو مائة وعشرين رجلاً غير الأعيان، وأما باب توما فكان عليه خالد وخرج منه البطليوس فاقتتل الفريقان وقتل من المسلمين جماعة نحو مائتين وثمانين رجلاً في المكان المعروف بالمراغة وغلقوا الأبواب واستعدّوا للحصار وهذا كان أول فتح.

قال الواقدي: حدّثنا سنان بن مفرج العجلاني عن أبي محمد الشاكري عن زيد بن رافع عن أبي أمامة قال: وأقام خالد بعد الوقعة على البهنسا أربعة أشهر لا يقاتلهم ولا يناوشهم فطال عليهم المكث وضجروا فأتوا إلى خالد وشاوروه في القتال فأذِنَ لهم وكان جملة مَن قتل في وقعة الأبواب نحو ستمائة فارس ختم الله لهم بالشهادة.

قال الراوي: فلما استأذنت الصحابة خالدًا في القتال لم يقدر أن يمنعهم ولما أصبحوا اقتتلوا قتالاً شديدًا لم يسمع مثله فاشتدّ الحصار. فقام أهل البهنسا وقالوا للبطليوس: ما بقي لنا صبر على القتال والحصار. فقال لهم: اصبروا واثبتوا لعلّي أكيد العرب بمكيدة، ولما اشتد الحصار عليهم أتوا إلى بطريق يسمى توما صاحب الباب وأتاه السوقة والنصارى والعوام وقالوا له: لقد ضاق علينا الحصار فنجعل لك مالاً وافتح لنا الباب حتى نأخذ لنا أمانًا من العرب فأجابهم إلى ذلك فصبّرهم إلى جانب من الليل وفتح لهم الباب فمضى نحو مائتين من تجّار البلد وخرجوا من باب السرّ وأتوا إلى خالد وصالحوه على أن يفتحوا لهم الباب وجعلوا للمسلمين جعلاً معلومًا واتفقوا على ذلك وكتبوا أسماءهم ورجعوا. هذا ما جرى لهؤلاء وكان الكلب ابن عمّ توما حاضرًا واسمه أرمياء فمضى إلى البطليوس وأعلمه بذلك فعندها أرسل البطليوس بطريقًا يقال له حرفائيل ومعه ألف بطريق وقال: اكمنوا وآتوني بالخبر على جليّته فمضوا وتفرّقوا وهم مشاة قريبًا من باب توما وإذا بهم قد أقبلوا، فلما رأوهم عرفوهم وفتحوا لهم الباب فدخلوا فعندها

تواثبوا عليهم وأمسكوهم وسحبوهم إلى البطليوس لعنه الله، فلما رآهم وبّخهم توبيخًا عظيمًا. وقال: ائتوني بالسِّياط ونصب أُخدودًا من حديد، ثم ضربهم ضربًا شديدًا وأتى بالنار وأحرق جميع أموالهم وأمر بإحضار البطريق فأحضر بين يديه فأخذه ومضى إلى القصر هو وجميع أعوانه واستدعى بالخشب وصلبهم على أعلى السوار وأقاموا هناك يوم وليلة، ثم أمر بضرب رقابهم وطرح رؤوسهم للمسلمين. قال الأمير عياض للأمير خالد: هؤلاء أهل ذمّتنا، وقد قتلهم البطليوس لعنه الله.

قال الراوي: وأما الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه فإنه قلق على المسلمين قلقًا شديدًا فأرسل كتابًا إلى عمرو بن العاص يقول فيه: ما سبب انقطاع كتبك عني وأنا في قلق على المسلمين وعلى خالد ومَن معه؟ واعلم أنك لا ترسل لي إلا بالفتح والغنائم وإن احتاج خالد إلى نجدة فأرسل إلى أبي عبيدة، فقد كاتبته بأن يرسل له جنودًا من الشام والسلام، فلما وصل الكتاب إلى عمرو أرسله إلى خالد. فقال خالد: لا نطلب النجدة والمعونة إلا من الله تعالى، ثم إن خالدًا عظم عليه الأمر واشتد الحصار وكان كل يوم يرجع إلى المدينة ويقاتل قتالاً شديدًا وفقد من المسلمين جماعة كثيرة قتلوا بالحجارة والنشاب وهجم عدو الله على المسلمين وكادهم مرارًا وقال خالد للأمير عياض وللمسلمين: لا شك أن لأصحابنا عيونًا وجواسيس، ثم إن خالدًا ركب ومعه الفضل بن العباس والمقداد وزياد بن أبي سفيان وعياض وطافوا حول العسكر وإذا برجل من العرب المتنصرة جالس على قطيفة خارج العسكر فأنكر أمره خالد وقال له: من أيّ العرب أنت؟ فسكت. فقال له الأمير عياض: انطق بالحق مَن لك من الأهل هٰهنا؟ فسكت. فقال له خالد: خذ الماء وتوضأ فلم يُحسِن ذلك. فقال له: صلِّ فلم يُحسِن ذلك فضربوه فأقرّ بأنهم خرجوا ثلثمائة من باب السرّ ورُدّوا وبقي هو فضرب عنقه وانقطعت الجواسيس فكانوا يقاتلون قتالاً شديدًا وكان لخالد عبد في خيمته اسمه فلاح يصنع له كل يوم قرصين من شعير واحد له وواحد للعبد فقعد خالد ثلاثة أيام يأتي السفرة فلا يجد فيها شيئًا ولم يكلّم العبد، وكان عنده بعض تمر يتقوّت به حتى فرغ فعندها قال خالد للعبد: يا ولدي قال الله تعالى: ﴿**وما جعلناهم جسدًا لا يأكلون الطعام**﴾ [الأنبياء: ٨] ولك ثلاثة أيام لم تصنع فيها قرص شعير.

قال: يا سيدي ما قطعت عنك ذلك ولكن أصنع لك كل يوم وأُعلقه في طبق الخيمة فلم أجده. قال خالد: إن لهذا شأنًا عظيمًا، ثم قال للعبد: قف خلف الخيمة واخفِ نفسك وانظر مَن يفعل هذا. فلما كان الغد ركب خالد للقتال وصنع العبد القرصين وأكل قرصًا ووضع قرص سيده فكان معتادًا أن يشيله له، فجاء كلب أسود عظيم من جهة البلد ودخل الخيمة وأخذ القرص في فمه ومضى فتبعه العبد حتى أتى إلى سرب يخرج

منه الماء يجري من البحر تحت الأرض إلى تحت سور المدينة من جهة القبلة ويدخل المدينة ويظهر من الجهة البحرية من خارج البلد، فلما رآه العبد رجع وأعلم الأمير خالدًا فمضى معه ورأى ذلك ففرح بذلك فرحًا شديدًا ثم أتى إلى الأمراء وأعلمهم بذلك وقال لهم: أُريد منكم مائة رجل قد باعوا أنفسهم لله عزّ وجل فيمضون معي وجماعة شداد يكونون مقابل الباب. فإذا فتحنا الأبواب دخلوا إلينا فانتدب منهم مائة رجل من خيار القوم منهم عبد الله بن عمر وعبد الرحمٰن بن أبي بكر وزيد بن ثابت وعقبة بن عامر ومسلم بن عقيل وزياد بن أبي سفيان وأخوه هبار والمسيب بن نجيبة وأخوه والمقداد بن الأسود ورافع وأبو رزين العقيلي ومثل هؤلاء السادات، وقد اقتصرنا في أسمائهم خوف الإطالة ورتب خالد رضي الله عنه عبد الله بن جعفر والزبير بن العوام وابنه عبد الله والفضل بن العباس والفضل بن أبي لهب وضرار بن الأزور ومثل هؤلاء مقابل الباب وصبروا إلى غروب الشمس وأتوا إلى ذلك السرب ودخلوا إليه في الماء كل واحد بسراويله وسيفه وكان أولهم الأمير خالد، وكلّ مَن دخل يدع سيفه وحجفته مع صاحبه حتى يدخل ويأخذهما حتى دخل ثمانون رجلاً ورجع عشرون لم يسعهم السرب وضاق عليهم فولّوا وهم متأسفون لما فاتهم من الشهادة والفتح، وتواثبت الأمراء المذكورون وأخفوا نفوسهم تحت الجدار إلى جزء من الليل فتبادروا إلى الباب فوجدوه موثقًا من داخله فعالجوا الأقفال والروم سكارى ففتحوا الباب وذبحوا كل مَن وجدوه في دهليز الباب وكانوا ستين رجلاً، ثم علوا على السور وجماعة منهم أخذوا المفاتيح ففتحوا الباب وثاروا على الروم فقتلوا جماعة منهم في أعلى البرج وقتلوا بطريق البرج وأعلنوا بالتهليل والتكبير والصلاة على البشير النذير، فأجابهم المسلمون بمثل ذلك ودخلوا من الباب إلى سوق المدينة وتبادرت جماعة إلى القصر، فلما أحسّ عدوّ الله بذلك وأن المسلمين ملكوا عليه الأبواب وضع منديلاً في عنقه وخرج وهو يقول: الأمان الأمان وفعل جماعة كذلك فأبى خالد ووضع السيف فيهم وقاده أسيرًا وقال له: يا عدوّ الله لا أمان لك عندي إلا أن تسلم وقبض على جماعة من بطارقته ووضع السيف فيهم وقتل من الروم نحو ثلاثة آلاف وقتل من المسلمين في تلك الليلة في وسط البلد مائة وأربعة وثمانون رجلاً قريبًا من سوق المدينة وعند الأبواب وعند القصر وجاء عياض ومعه جماعة من الأمراء فشكا إليهم أهل البلد، وقالوا: الأمان فرقّ لهم الأمير عياض وصار عدو الله يتملق بين أيديهم فغلبوا على رأي خالد حتى صالحهم على ألف مثقال من الذهب الأبريز، وألف ألف أُوقية من الفضة البيضاء، وعشرة آلاف وسق من البرّ والشعير والجزية من العام القابل، وخالد لا يطمئن قلبه إلى شيء من ذلك وغلب الأمراء على رأيه وجاؤوه وقالوا له: لقد أضرّ بنا هذا المقام بهذا البلد، فما نراك إلا أشفق منّا علينا ونرى من الرأي أن

ترسل إلى عمرو وتعلمه بذلك وهذا الكلب وجماعته موثقون إلى أن يجيء الجواب فعندها كتب خالد كتابًا إلى عمرو يخبره بذلك.

فلما بلغه ذلك ردّ لهم الجواب أنهم يستوثقون منه بالأيمان ويأخذون منه ما صالحهم عليه ويتركونه، ومَن صاح الغوث الغوث فاتركوه وإلا نفر منكم أهل الصعيد ففعل خالد وقلبه نافر وأطلقه بعدما استوثق منهم بالأيمان في كتبهم المذكورة وأطلقوه وشرط عليهم أن لا ينزل عندهم أحد إلا مَن يقبض المال فخرجوا إلى ظاهر المدينة وبقي عنده فضالة بن زيد السلمي وعون بن ساعدة الكندي ومقوم بن سعيد الجهني ومائتان من أصحاب رسول الله ﷺ وأخرج الميرة والعلوفة وصار كل يوم يركب ويتودّد إلى الأمراء ووهب وأعطى ولم يترك أميرًا إلا خادعه حتى طابت نفوسهم عليه إلا خالدًا والفضل بن العباس والمقداد وعبد الرحمٰن بن أبي بكر الصديق والزبير بن العوام فإنهم لم تطب نفوسهم إليه وأقاموا شهرين على ذلك وأرسل جميع الغلال إلى خزينته في هذا الزمن وخزن ما يحتاج إليه واستدعى بكبار قومه ومَن يثق به واتفق رأيهم على قتل المسلمين والغدر بأصحاب رسول الله ﷺ وصبروا إلى أن مضى جزء من الليل وهجم على المسلمين على حين غفلة في ألف بطريق وأوثقهم كتافًا وجعل في أفواههم الأُكر وفتح الأبواب وأدخلهم المدينة وهجم على المسلمين ووضع السيف فيهم وهم رقود فما انتبهوا إلا والسيف يقطع في نحورهم وكانت وقعة عظيمة وثار خالد بمَن معه، وكان الزبير راقدًا فسمع الصياح. فقال دهينا وربّ الكعبة ثم ركب وركبت معه روجته وقاتلت النساء قتالاً شديدًا وعدو الله تارة يكرّ ميمنة وتارة يكرّ ميسرة والسيف يعمل والرجال تقتل، وكانت ليلة شديدة وصار خالد يقول: يا قوم أما قلت لكم فما سمعتم لخالد والتجأ زياد بن أبي سفيان وأخوه هبار وميسرة بن مسروق وفضالة بن عبد شمس وعقيب بن يعقوب وعبادة بن تميم وجندبة الكلبي إلى تلّ هناك وأحاط بهم طائفة من الروم من كل مكان فقاتلوا قتالاً شديدًا وانحدر زياد رضي الله عنه من التلّ وتبعه أصحابه فأحدقت بهم الروم وداروا بهم كدوران السور بالمِعصَم وقتلوا زيادًا وجميع مَن ذكرنا من الأمراء وقاتلت نسيبة الأنصارية أم أبان وأسماء ابنة أبي بكر ونعمانة ابنة المنذر ونظائرهنّ في تلك الليلة قتالاً شديدًا وقتل جماعة من المسلمين وأتى خالد وحمل عليهم وجعل يقلب الميمنة على الميسرة والميسرة على الميمنة قال وأطبق عليهم هو وجميع الأمراء فهزموهم إلى الأبواب وقد قتلوا منهم مقتلة عظيمة وهرب عدوّ الله وتحصّن هو وقومه وغلقوا الأبواب، ولما أصبح أمر بالحصار وأمر بإحضار المأسورين وصعد بهم إلى أعلى البرج وضرب رقابهم فشقّ ذلك على المسلمين وصعب عليهم ما فعل عدو الله بأصحابهم وأتى خالد رضي الله عنه ومعه بقية الأمراء إلى مكان المعركة فوجدوا الشهداء مطروحين ووجدوا زيادًا رضي الله عنه وفيه عشرون طعنة بالرمح وأربعون ضربة بالسيف وإلى جانبه

أخوه هبار وفي رأسه عشرون ضربة بالسيف وواحدة في فخذه فقطعته فبكى خالد عليهم بكاءً شديدًا وبكى عليهم سائر الأمراء وأبطال المسلمين ونَعاهم الأمير خالد بهذه الأبيات وهي له خصوصًا:

هوام دموعي كالسحائب تهمع | وقلبي من فَقْد الأحبة يفزعُ
وأظلمت الدنيا على نور عبرتي | وكاد فؤادي بالجوى يتقطع
لفَقْد زياد أحرق البين مهجتي | وغاب صوابي وهو في الأرض يصرع
لقد كان في بحر المعامع صائلاً | يزلزل أركان العِدا ويضعضع
وقد كان مقدام الفوارس كلها | بكل مكان للأعادي مقمع
لحى الله يومًا فيه حانت وفاته | وأجفانه مع أسهم الدمع تدمع
أيا سيدًا من آل هاشم لم يزل | له رتبة بالمجد والجود ترفع
يعزّ علينا أن نراك معفّرًا | ورأسك من فوق الجنادل تسفع
بجانبك الهبار أضحى مهبرًا | طريحًا على رأس الثرى وهو مطبع
ألا لعن الرحمٰن بطلوس قومه | وألعنه مع كل قوم تجمع
لقد غدر السادات من آل هاشم | نجومًا وأقمارًا على الناس تطلع

قال الراوي: ثم بكى المسلمون بكاءً شديدًا على مَن قتل منهم من الأمراء والأبطال وجمعوهم وصلّوا عليهم وواروهم في حفرهم إلى جانب التل فإذا هم ثمانون أميرًا وثلثمائة وسبعون رجلاً ختم الله لهم بالشهادة.

قال الراوي: وأقام المسلمون ثلاث سنين إلا أنهم يشنّون الغارات على السواد والسواحل ومضى القعقاع بن عمرو وهاشم وأبو أيوب وعقبة بن نافع الفهري بألفي فارس وأغاروا على حدّ برقة ثم عادوا وهذا أحد الآراء في فتح المغرب. قال الواقدي رضي الله عنه: ولما طال الحصار والمكث على أهل البهنسا اجتمعت المسلمون عند خالد واستشاروه فيما يفعلونه وما يكون من الرأي فوثب عبد الرزاق الأنصاري وعبد الله بن مازن الداري وكعب بن نائل السلمي وأبو مسعود البدري وأبو سعيد البياضي وقالوا: يا قوم قد وهبنا أنفسنا لله عزّ وجل ولعل أن يكون للإسلام فرج فاصنعوا منجنيقًا واملؤوا غرائر قطنًا وقالوا يأخذ كل واحد منّا سيفه وحجفته ويدخل في غرارة قطن فإذا كان الليل ونامت الحرّاس فألقونا على أعلى السور واحدًا بعد واحد والمعونة من الله في فتح الباب كما فتحتم قصر الشمع بمصر ودير النحاس وكما فعلتم مع رسول الله ﷺ قال فاستصوبوا رأيهم، فلما أصبحوا قطعوا الأخشاب وصنعوا منجنيقًا وصنعوا له حبالاً وأحضروا غرائر

وملؤوها قطنًا والرجال داخلها وصبروا إلى الليل ودخل هؤلاء السادات رضي الله عنهم بعد أن ضربوا بالمنجنيق حجرًا بعد حجر فسقط على أعلى السور والبرج فشرعوا في رميهم منهم أبو مسعود البدري وعبد الرزاق إلى أن رموهم جميعهم وصاروا فوق أعلى السور ورتب خالد أصحابه على الأبواب، وأما عبد الرزاق وأصحابه، فلما صاروا بأعلى الجدار نزلوا إلى البرج فإذا هو مغلق والحرّاس نيام فنزلوا إلى الدهليز بين البابين فوجدوهما مغلقين موثقين فذبحوا البوّابين عن آخرهم ووجدوا المفاتيح تحت رأس كبيرهم في جانب سريره فأخذوها وفتحوا الأبواب وإذا بالباب الثاني الذي ينتهي إلى القصر مسدود بالحجارة، فاحتالوا على قلع حجر بعد حجر فقلعوها ورموا الأحجار وفتحوا الأبواب وكل ذلك في أقل من ساعة بمعونة الله عزّ وجل، وصعدوا إلى البرج فعالجوه وفتحوه وقتلوا جماعة واستيقظ جماعة وثاروا عليهم، وخافوا على الباب أن يؤخذ منهم وأن يُحال بينهم وبينه وهو باب السور الذي بظاهر المدينة ففتحوه، فصاحت الروم واستيقظ البطليوس وركب جواده وكان على حذر، وركب المسلمون ودخلوا الباب وخرجت البطارقة والبطليوس من قصره وزحفت الروم إلى الباب، وكان أول مَن قتل في ذلك اليوم عبد الرزاق وعنان بن مازن وكعب بن نائل السلمي بداخل الباب.

قال: حدّثنا قيس بن مازن الحميري عن عبادة بن سالم السكاكي عن أبي مسعود البدري، وكان أول مَن فتح الباب. قال ليس هو على هذه الصفة وأخبرنا سالم بن حامد عن أبي عبد الله عن أبي محمد الأنصاري عن عبد الله البدري، قال: كان أبو محمد الحسني يقرأ هذه الفتوح بالجامع الغزي العمري على الشيخ أبي عبد الله حتى بلغ إلى هنا وذكر الفتوح وفتح الباب وأن الرجال وضعت في الغرائر. قال: يا بني ليس الأمر كذلك، فقد رُوِيَ عن أبي مسعود وهو الصحيح عن فتح الباب قال: إنهم قطعوا أخشابًا ونصبوا سلّمًا للتسلّق عاليًا علو جدار المدينة وصبروا إلى الليل وأسندوه إلى الجدار وتسلق منهم أربعون رجلاً ومنهم السبعة المذكورون وفتحوا الباب كما ذكرنا واستيقظ الروم وخرجوا إليهم بعد فتح الباب، فكان السابق إليهم عبد الرزاق رضي الله عنه فقتلوه وقتلوا معه مَن ذكرنا أولاً وتسابق المسلمون إلى الباب، فكان أول مَن دخل ضرار بن الأزور وهو يزعق ويقول هذه الأبيات:

الجنّ تفزع يوم الحرب من فزعي ... إذا أتيت إلى الهيجا بلا جزعِ
يا ويل مَن صنع الأرصاد يخدعنا ... ونحن جرثومة الأمكار والخدع
لأرضين إلهي في جهادهم ... وقتل أبطالهم بالسيف والدرع
يا ويل كلب العدا البطلوس إن وقعت ... عيني عليه لأرديه إلى النزع
عيب عليّ إذا ما ألتقيه هنا ... وأفلق الرأس منه غير مرتدع

ثم دخل من بعده خالد وهو يقول:

اليوم يوم الوفا والطعن بالأسل ... والضرب بالقضب في الهامات والقللِ
يا ويل بطلوس كلب البهنساء إذا ... لاقيته بطليق الحدّ معتدل
إن لم أذقه بكاسات المنون هنا ... فلا سلمت ولا بلغت من أملي

قال: ثم دخل من بعده ذو الكلاع الحميري وهو يقول:

إني لمن حمير العالين في النسب ... أهل الثنا والوفا والجود والحسب
أسد غضافرة سود جحاجحة ... نردى الكماة غدًا في الحرب بالقضب
الحرب عادتنا والطعن همّتنا ... وذو الكلاع أنا عالٍ على الرتب
تبّت يد الروم ما يدرون أن لنا ... صوارمًا تترك الأعضاء كالقصب

قال: ثم دخل من بعده الزبير بن العوام وهو يقول:

أيا بطليوس يا كلبًا لعينًا ... ويا نسل الطغاة الأرذلينا
أتتك حماة دين الله حقًّا ... وأولاد الجياد الخيِّرينا
خيار الناس نسل بني نزار ... كرامًا في الأعادي قاطعينا
إذا احتبك العجاج بهم تراهم ... بحولك كالسِّباع الضاربينا
ولا منهم جبان قطّ يهزم ... ولا نذل فتلقاه حزينا
وليس ترى سوى مقدام قوم ... أثار الحرب صنديدًا أمينا

قال: ثم دخل من بعده عبد الرحمٰن بن أبي بكر الصديق وهو يقول:

أتينا البهنساء بكل قرم ... شديد العزم في يوم النزال
وجيش فاق في الآفاق طرا ... على الأعداء بالسمر العوالي

قال: ثم دخل من بعده عبد الله بن جعفر وهو يقول:

اليوم طاب الطعن في اللئام ... والضرب في الأعناق بالحسام
وانصر الإسلام باهتمام ... ولم أزل عن سادتي أُحامي
أنا الشجاع الفارس الهمام ... ومردى الأعداء في الحمام

قال: ثم دخل بعده الفضل بن العباس وهو يقول:

ألا إننا السادات من آل هاشم ... ليوثًا ذوي بطش شديد العزائم

لنا تشهد الأبطال في كل معرك ... وتذكر عنّا أهل كل المواسم
إذا اشتدت الأهوال واستبق القنا ... رأيت لنا في ذاك فعل الضراغم

قال: ثم دخل من بعده الفضل بن أبي لهب وهو يقول:

لنحوك يا بطلوس عزمي قد طلب ... بحدّ حسام كالشهاب إذا انتدب
يطير شرار النار من لمعانه ... بكفِّ شجاع الخيل ابن أبي لهب
فويلك يا ملعون منه إذا سطا ... بصارمه يوم العجاج وإن وثب

قال: ثم دخل من بعده عياض بن غانم الأشعري وهو يقول:

لا أنثني يوم الهيج عن العدا ... بمهندي الصمصام إلا إذا قطع
فالويل للبطلوس من سطواتنا ... لأفرقن بحدّ سيفي ما جمع

قال: ثم دخل من بعده المقداد بن الأسود وهو يقول:

أنا الكندي كالليث الشجاع ... وإني في العدا قد طال باعي
وتشهد لي الرجال بكل حرب ... وللهيجاء منقاد الطباع
فواثارات عبد الله إني ... عليه ذاهل حيران ناعي

قال: ثم دخل من بعده أبان بن عثمان وهو يقول:

نحن الليوث ذوو المعروف والكرم ... وفي المعامع يوم الحرب والهِمَم
مجندلون العدا في كل معترك ... وقاهرون لهم كل مصطدم
لا يعجبنّك يا بطلوس جيشك في ... هذا المقام فمعنا الكل كالرخم

قال: ثم دخل من بعده مسلم بن عقيل، وهو يقول:

ضناني الحرب والسهر الطويل ... وأقلقني التسهّد والعويل
فواثارات جعفر مع علي ... وما أبدى جوابك يا عقيل
سأقتل بالمهند كل كلب ... عسى في الحرب أن يشفي الغليل

قال: ثم دخل من بعده شرحبيل بن حسنة ثم القعقاع بن عمرو التميمي، ثم مالك الأشتر ثم عبادة بن الصامت ثم أبو ذر الغفاري ثم أبو هريرة الدوسي ثم ابنه عبد الرحمٰن ثم معاذ بن جبل ثم شداد بن أوس ثم قيس بن هبيرة ثم أبو دجانة الأنصاري ثم جابر بن عبد الله ثم البراء بن عازب ثم النعمان بن بشير ثم سعيد بن زيد أحد العشرة الكرام رضي الله عنهم. قال: ثم الأنصار يتلو بعضهم بعضًا بهِمَم وعزائم.

قال: ثم خرجت الروم وقاتلت قتالاً شديدًا وتواثبت جماعة من الأمراء مثل الزبير بن العوام وابنه عبد الله وعبد الرحمٰن بن أبي بكر إلى باب البحر واقتتلوا قتالاً شديدًا وتقدم عبد الرحمٰن والزبير إلى الباب والروم على أعلى السور ونزل عن جواده وصلّى ركعتين والحجارة تتساقط عليه وهو لا ينزعج لذلك، وتقدم هو والفضل وعبد الرحمٰن بن أبي بكر إلى الباب وجعلوا السلاسل من فوق وصعدوا إلى أعلى البرج وهدموا الشرافات ووضعوا السيف في الحرّاس، وفتحوا الباب ووثب شرحبيل بن حسنة والفضل بن العباس وأبو ذر الغفاري وأبو أيوب الأنصاري إلى باب قندوس ووثب المسيب بن نجيبة الفزاري والقعقاع بن عمرو والأمير عياض بن غانم الأشعري إلى باب الجبل وفتحوا الأبواب واقتتلوا قتالاً شديدًا وقاتلت الروم قتال الموت إلى أن طلعت الشمس وارتفعت، وقاتل عدو الله البطليوس قتالاً شديدًا وقتل رجالاً وجندل أبطالاً واقتتلوا في الأزقة والشوارع وبين الأبواب وتقدم خالد وهو يصيح: واثارات سليمان وطعنه طعنة صادقة في صدره فأطلع السنان يلمع من ظهره فوقع يخور في دمه وعجل الله بروحه إلى النار وبئس القرار، فلما رأى الروم ذلك ولّوا الأدبار وتبعهم المسلمون يقتلون ويأسرون وينهبون، وقتل من الروم نحو ثلاثين ألفًا بوسط البلد وأسر منهم عشرون ألفًا، وأنشد خالد يقول:

وبالبهنسا الغرا أُبيدت جيوشنا ... ثلاث سنين بابها ليس يفتحُ
ثماني آلاف عداد جيوشنا ... وكل همام عن ثمانين يرجح
فما فتحت إلا وقد صار جيشنا ... ثلاثة آلاف عداد تسحسح
ولم أرَ في أرض الصليب كمثلها ... ولا جيشها لما على السور يسرح
ولا مرّ لي يوم كمثل حروبها ... لأن بها البطلوس ليث مبجح
وكان له جيش وعدّة جيشه ... ثمانون ألفًا بالحديد توشّحوا
وكنّا غلبناهم ثمانين مرة ... يخادعنا البطليوس عنهم فنصفح
ثلاث مرار نحن نفتح بابها ... وترتدّ للكفر الذميم وتجنح
وقد تعب الهندي يوم فتوحها ... وكلّت أيادينا وفي الروم نذبح
ثلاثون ألفًا قد محتها سيوفنا ... وأكبادنا من حرّها النار تقدح
إلى أن ملأنا البرّ والبحر منهم ... وقد شبعت أسد الفلا وترنحوا
وولّت ثلاثون الأُلوف شواردًا ... وعشرون ألفًا منهم قد تجرحوا
فمنهم قضى نحبًا ومنهم بها طغى ... ومنهم أُناس في المقابر روّحوا
وبطلوسهم ذاك النهار قتلته ... وقد كان مقدام الجيوش مرجح

فبادرته في الحال حتى تركته … صريعًا عليه الغانيات تنوح
وعاجلته في الرأس مني بضربة … فأضحى بها شطرين ملقى ومطرح
وعاد بسيف ابن الوليد مجندلاً … تمرّ به كل الحوادث تفلح
ولما فني بطلوسهم صار جمعهم … كما شبّه أغنام وغاب المسرّح
وقد كان في بحر الهياج مغلغلاً … تولى سرايا قومنا منه مرح
فلله ما أعداه قد كان فارسًا … يفوق على جيش عظيم ويرجح
وقد فرحت أكبادنا وترنمت … لعمرك والأكباد بالنصر تفرح
أقمنا بأرض البهنسا بعد فتحها … ثلاثين يومًا للمساجد نصلح
وصرت إلى أرض الصعيد معاجلاً … بألفين من خيل الصحابة ترمح
من البهنسا لأسوان جمعًا فتحتها … بعشر شهور بعدها ليس تلمح
وعندي الثلاثون الذي شاع ذكرها … وكل فتى يا صاح بالألف يرجح
ورحنا فتحنا الهند والسند كله … وأسيافنا في الغمد لله تسبح
وفي كل أرض عسكر قد تركته … يقسمون دين الحق والحق يوضح
وهذا كلام ابن الوليد الذي جرى … فكن سامعًا معنى الذي لك أشرح
فما مثله في معمع الحرب سيد … ولا مثله في جوهر النظم أفصح
ومن بعد ذا صلّوا على أشرف الورى … نبي له كل البرية تجنح
عليك سلام الله ما لاح بارق … وما غرّد القمري إذ الصبح يطفح
وأصحابه والآل والعترة التي … أقاموا لدين الله والشرك زحزحوا

قال الراوي: وصار المسلمون يصعدون إلى البيت ويأخذون الرجال من بين حريمهم من الروم ويقتلونهم حتى كلّت سواعدهم من الذبح وجرى الدم في الأزقّة وصارت القتلى في الشوارع والأسواق مطروحين وخرجت إليهم النصارى والقبط وهم يبكون ويقولون: نحن أهل ذمّتكم ونحن عوام وتجّار وسوقة وكلنا مغلوبون على أمرنا وقتل خيارنا بأسيافكم وبقية الأمراء ويقولون هؤلاء قد صاروا رعيتنا وليس لهم بطش فتركوهم وقالوا بشرط أن تدلّونا على مَن أخفى نفسه في المغاير والمخابي، ومَن فرّ من الباب الشرقي وغرق في الماء فدلّوهم على الجميع ولم يزالوا يقتلون ذلك اليوم كله، وفي اليوم الثاني استدعوا بنجارين يعملون عربات لحمل القتلى من المسلمين وأخذوا دواب أهل السواد من البقر تسحب العربات والفلاحون عملوا عليها وصاروا يضعون كل ثمانية وستة وعشرة في حفيرة ويردّون عليهم الرمل حتى صاروا تلالاً وشهروا قبورهم

ووضعوهم بدروعهم وثيابهم ودمائهم رضي الله عنهم وأخذوا ألواح رخام وكتبوا عليها أسماءهم وأنزلوها في مدافن قبورهم ورجعوا إلى قتلى أهل البلد فواراهم أهلهم في قبورهم، وكان جملة مَن قتل من المسلمين في ذلك اليوم نحو أربعمائة وأزيد، الأعيان منهم صاغر بن فرقد وعبد الله بن سعيد وعبد الله بن حرملة وعبد الله بن النعمان وعبد الرزاق الأنصاري وعبد الرحيم اللخمي وأبو حذيفة اليماني وأبو سلمة الثقفي وأبو زياد اليربوعي وأبو سليمان الداراني وابن أبي دجانة الأنصاري وأبو العلاء الحضرمي وأبو كلثوم الخزاعي وأبو مسعود الثقفي وهاشم بن نوفل القرشي وعمارة بن عبد الدار الزهري ومالك بن الحرث وأبو سراقة الجهني والبقية من أخلاط الناس وقتل عند سوق التمارين نحو عشرين ودفنوا هناك وعند سوق الصابون جماعة كثيرة وقريبًا من العطّارين في جانب القبور نحو أربعين وقريبًا من البحر اليوسفي جماعة عند السور رضي الله عنهم.

قال الراوي: ولما وارى المسلمون شهداءهم صعدوا إلى قصر البطليوس وإلى قصور البطارقة ودُورهم ومقاصيرهم فوجدوا فيها من آنية الذهب والفضة ما لا يوصف، ومن المتاع والحليّ والحُلَل واللآلىء والنمارق والجواهر والبسط والوسائد والمساند واقتتلت الروم على بغلة محمّلة عند باب السرّ فغلبهم المسلمون عليها وأخذوها فإذا عليها صندوقان فيهما أحجار معادن، فاشترى رجل من المسلمين من بيت المال حجرًا بستة آلاف دينار فباعه على غشوميته بمائة ألف دينار وأخذوا بساط البطليوس، وكان مثل بساط كسرى سداه حرير وذهب مرصّع بالمعادن فأرسلوه مع الخمس إلى المدينة، فجعل لعلي بن أبي طالب فيما حصل له من البساط عشرون ألف دينار وغنمت المسلمون غنائم كثيرة من أواني الذهب والفضة وغير ذلك.

قال الراوي: حدّثنا عون بن عبيدة عن عبد الحميد بن أبي أُمية. قال: هدم المسلمون القصر والكنيسة وتلك الدُور وفتحوا خزائن البطليوس واستخرجوا جميع ما فيها من الذهب والفضة وغير ذلك ولم يتركوا فيها شيئًا أبدًا، وقسم خالد الغنيمة بين المسلمين فكان للفارس عشرة آلاف مثقال من الذهب وألف أُوقية من فضة، ومن الثياب والملبوس وغير ذلك ما لا يوصف، ولمّا دخلوا الكنيسة ورأوا تصاويرها وقناديلها الذهب والفضة والستور والحرير المنقوشة والأعمدة وغير ذلك تعجبوا وقرأ خالد ﴿**ما اتخذ الله من ولد**﴾ [البقرة: ١١٦] الآية، وقال: لا إله إلا الله محمد رسول الله، فصاح المسلمون بالتهليل والتكبير والصلاة على البشير النذير، وقرأ عياض الأشعري ﴿**كم تركوا من جنات وعيون**﴾ [الدخان: ٢٥] إلى قوله: ﴿**وأورثناها قومًا آخرين**﴾ [الدخان: ٢٨] وأخربوا تلك البيعة، وجعلوا بجانبها مسجدًا على أعمدة من الرخام مسقوف عليها بتلك الأخشاب

وهو الجامع الأول قبل بناء حسن بن صالح هذا الجامع الآن وبقية الأخشاب والحجارة جعلوا منها مساجد وربطًا.

قال الواقدي: حدّثنا عبد الحميد عن قيس بن مهران عن أبي جعدة. قال: بمدينة البهنسا أربعون رباطًا، ومن المساجد ما لا يُعَدّ وأخربت الصحابة تلك المعالم وبنوا دُورًا لأنفسهم واختطّوا بها أماكن وشوارع، وأقام خالد ومَن معه بمدينة البهنسا يُصلِحون المساجد والربط ويُخرِجون المعالم شهرًا كاملاً ثم أخرج الخمس وأرسله لعمرو بن العاص ومَن معه من المسلمين وهو نازل بمصر على قدر سهامهم، وقال له: أرسل الخمس مع أبي نعيم الأنصاري والفضل بن فضالة وأبي دجانة إلى عمر بن الخطاب وهو بالمدينة، فلما ورد الكتاب إلى عمرو بن العاص فرح بذلك فرحًا شديدًا، ثم كتب عمرو لعمر كتابًا مع أبي نعيم صحبة كتاب خالد وسيّر معه ثلاثين صحابيًا حتى دخل المدينة ودخل على عمر بن الخطاب فوجد عنده جماعة وقد أخرج لهم قصعًا ومناسف من ثريد، فلما رآنا عانقنا وتهلّل وجهه فرحًا وجلسنا كلنا نأكل وهو قائم على رؤوسنا متكيء على عصا رسول الله، فلما فرغنا من الأكل ناولته الكتابين، فقرأهما وفرح فرحًا شديدًا ونادى في الناس الصلاة جامعة فخطب وحمد الله وأثنى عليه وصلّى على رسول الله ﷺ. وقرأ عليهم الكتابين واستدعى بالصحابة وقسم عليهم الغنيمة ولم يترك لأهله درهمًا ولا دينارًا ولا ثوبًا رضي الله عنه وأخذني ومضى إلى بيته بيت أُم كلثوم بنت علي بن أبي طالب رضي الله عنه وأدخلني إليه فإذا فيه فراش من أدم حشوه ليف ووسائد من صوف وقطيفة واحدة فجلست. فقال لأم كلثوم: هل عندك شيء من التمر؟ قالت: لا إلا اللبن الحامض. قال: ذلك لي، وإن عندنا ضيفًا فحضرت بعكة من سمن وقليل من عسل وفطير مع جارية فأكلت قليلاً من المذكور وأخرجت الباقي لأصحابي وشرعت أُحدّثه عن البطليوس وهو تارة يبكي وتارة يضحك من فعله ويبكي على مَن قتل من المسلمين والأمراء وخرجنا إلى مسجد رسول الله ﷺ بعد ذلك وجاءت الناس يهرعون ويسألون عن أهاليهم منّا فأخبرنا عمّن مات ومَن قتل فضجّ الناس وأهل المدينة بالبكاء وعَلَت الأصوات على مَن قتل، وجاء الناس لعليّ ولعقيل ولبني هاشم يعزّونهم فيمَن قتل وأقمنا بالمدينة سبعة أيام ورجعنا إلى مصر بكتاب عمر إلى خالد فأمره بالمسير إلى الصعيد.

قال الراوي: هذا ما جرى لهؤلاء. وأما خالد رضي الله عنه فإنه بعد شهر ترك أُناسًا من الصحابة بأرض البهنسا من جميع القبائل وخرج بألفي فارس إلى أرض الصعيد، وكانت القبائل من بني هاشم وبني المطلب وبني مخزوم وبني زهرة وبني نزار وبني جهينة وبني مزينة وبني غفار والأوس والخزرج ومذحج وفهر وطيء وخزاعة، وكان الأمير

عليهم مسلم بن عقيل وأحاطوا بالمساكن، وجعلوا بالمدينة أسواقًا وشوارع وسكن أكثر الصحابة في جانب البحر اليوسفي وخلوا من الآخر إلى الجانب الغربي شارعًا واحدًا لأجل أن تسبح دوابهم في البحر، وأقام مسلم بن عقيل واليًا عليها إلى خلافة عثمان بن عفان رضي الله عنه فتولّى محمد بن جعفر بن أبي طالب بعده ومضى مسلم وترك أولاده وإخوته بها ولم يزل في المدينة حتى قتل في خلافة الحسن في الكوفة رضي الله عنه وأقام محمد بن جعفر إلى خلافة عليّ رضي الله عنه وتولّى عليها بعده عليّ بن عبد الله بن العباس رضي الله عنه إلى خلافة معاوية، وكان عبد العزيز بن مروان الأموي واليًا وتولى بعده طاهر بن عبد الله وكانت قريش والأشراف بالجهة الغربية ويقال لها حارة الأشراف، وكان لكل قبيلة حارة.

قال أبو المنهال: لمّا فتحت مدينة البهنسا كانت آهلة بالجند فاجتمعت السوقة والمتسبّبون من أهل البلد وكانوا أربعين ألفًا.

قال الواقدي: حدّثنا حامد بن المزيد عن أبي صالح عن ابن نوفل المرادي. قال: كان بمدينة البهنسا أربعمائة بقال حين فتحها يبيعون البقل وغيره وكانت مدينة عظيمة، فلما وقع بين بني أمية وبني هاشم ما وقع أخرجوا منها جماعة واختلّ أكثرها. قال: وتسلسل إليها جماعة من العربان حتى جاء الحسن وإخوته في خلافة بني العباس فعمّر جامعًا وأكثر من الزوايا والربط وأقام بها حتى مات.

قال: ورجعنا إلى سياق الحديث وخرج خالد بمَن معه إلى الصعيد ولم يزل يفتح مدينة بعد مدينة إلى آخر الصعيد إلى عدن وسواكن، وليس مقصدنا في هذا الكتاب إلا فتوح البهنسا خاصة التي عليها مدار فضائل السادة الشهداء لأن بتربتها خمسة آلاف صحابي وحضر فتح البهنسا نحو سبعين بدريًا من أصحاب رسول الله ﷺ، وفي زيارتها تعظم الأُجور، وقد زارها جماعة من العراق مثل بشر الحافي وسري السقطي ومالك بن دينار وسحنون، وزارها من أقصى المغرب أبو مدين وشعيب وأبو الحجاج، وأبو عبد الله وزارها الفضيل بن عياض، ورُوِيَ أن إقليم البهنسا أكثر بركة من جميع الأرض كلها، وكان عمرو بن العاص رضي الله عنه يقول: إن رسول الله ﷺ قال: «ليس بعد مكة والمدينة والأرض المقدسة والطور أرض مباركة إلا أرض مصر والبركة هي في الجانب الغربي».

قال: ولعلها البهنسا، وكان عليّ بن الحسن يقول: إنه ليس بأرض مصر بالوجه القبلي أرض مباركة ولا أكثر بركة من أرض البهنسا، وكان أبو علي النوري إذا أتى أرض البهنسا وأتى الجبانة ينزع ثيابه ويتمرّغ في الرمل ويقول: يا لك من بقعة طالما ثار غبارك في سبيل الله، وكان أبو علي الدقاق إذا مرّ بجبانة البهنسا يقول: يا لك من

بقعة ضمّت أعضاء رجال وأيّ رجال طالما عرقت وجوههم في سبيل الله وقتلوا في سبيل الله ومرضاته. وقيل للحسن بن صالح: لِمَ اخترت هذه البلدة على غيرها؟ قال: كيف لا آوي إلى بلد أوى إليها روح الله وكلمته وينزل على جبّانتها كل يوم ألف رحمة، ولمّا ولّي عبد الله بن طاهر مصر تجهّز وأتى إلى البهنسا، فلما قرب من الجبّانة ترجّل عن جواده وترجّل مَن معه، وكان الوالي عليها عبد الله بن الحسن الجعفري فخرج ماشيًا وسلّم عليه، ولما وصل إلى الجبّانة قال: السلام عليكم يا أحياء الدارين وخير الفريقين، ثم التفت إلى أصحابه وقال: إن هذه الجبانة ينزل عليها كل يوم مائة رحمة وإنها تزفّ بأهلها إلى الجنة، ومَن زارها تتساقط عنه ذنوبه كما يتساقط الورق من على الشجر في يوم ريح عاصف، فكان عبد الله بعد ذلك كل يوم يخرج حافيًا فيزورها حتى مات ودفن رحمه الله.

قال الراوي: حدّثني رجل من أرض البهنسا من أهل الخير والصلاح يسمى عبد الرحمٰن بن ظهير. قال: كان لي جار مُسرِف على نفسه ومات ودفن قريبًا من الشهداء الذين بالجانب الغربي، فبينما أنا نائم تلك الليلة فرأيته وإذا عليه ثياب من السندس الأخضر وعليه تاج من الجواهر وهو في قبة من نور وحوله جماعة لم أرَ أحسن منهم وجهًا ولا ثوبًا متقلدين بسيوف وهو بينهم فسلّمت عليهم وقلت له: يا هذا لقد سرّني ما رأيت من حالك. فقال: يا هذا لقد نزلت بجوار قوم يحمون النزيل في الدنيا من العار، وكيف لا يحمونه في الآخرة من النار وقد استوهبوني من العزيز الغفّار غافر الذنوب والأوزار وأسكنني جنات تجري من تحتها الأنهار. قال ذو النون المصري رضي الله عنه: كنت في كل سنة آتي إلى البهنسا وأزور الجبّانة لِما رأيت في ذلك من الأجْر والثواب فحصل لي في سنة من السنين عارض منعني من زيارتها، فبينما أنا نائم ليلة من الليالي إذ رأيت رجالاً لم أرَ أحسن منهم وجوهًا ولا أنقى ثيابًا على خيول شهب وبأيديهم رايات خضر ووجوههم تتلألأ أنوارًا فسلّموا عليّ وقالوا: قد أوحشتنا يا ذا النون في هذه السنة وإن لم تزرنا زرناك. فقلت لهم: مَن أنتم؟ فقالوا: نحن الشهداء الأخيار أصحاب محمد المختار بالبهنسا كنّا بأرض الروم لنصرة المسلمين على أعداء الله الكافرين فمررنا بك لنسلّم عليك وننظر ما سبب انقطاعك عنّا. قال: في أيّ أرض أنتم؟ قالوا: نحن سكان جبّانة البهنسا ولك علينا حقوق الزيارة لأنك من أهل الإشارة. فقال لهم: يا سادتي إني لا أعود وحبل الوصال بيننا ممدود، وما كنت أعلم أنكم تعلمون مَن زار، وما كنت أظن في نفسي أنني بهذا المقدار. قالوا: يا ذا النون أما تعلم **﴿أن الشهداء أحياء عند ربهم يُرزَقون﴾** [آل عمران: ١٦٩] وبهذا نطق الكتاب المكنون ثم تركوني ومضوا فاستيقظت وفي قلبي لهيب النار، فطوبى لمَن زار هؤلاء السادات الأخيار.

قال المؤلّف: ولقد وضعت في هذا الكتاب كل نادرة عجيبة وحكاية غريبة، وهو كتاب كامل المعاني والبيان عظيم القدر والشأن لا يفهمه إلا ذوو البصائر والألباب، ولا يعقله إلا أهل الخطاب ولا يقرؤه إلا أهل الذوق والمعرفة، فهو كالزهر في الرياض لمَن اقتطفه، نفع به مالكه وكاتبه وقارئه ومستمعه، والحمد لله ربّ العالمين، والصلاة والسلام على سيد المرسلين.

انتهى المجلد الثاني من كتاب «فتوح الشام»

وهو خاتمة الكتاب

فهرس محتويات
الجزء الثاني
مـــن
فتـــوح الشـــام

فهرس المحتويات